فرانشيسكو غابرييلي

FRANCESCO GABRIELI

المؤرّخون العرب للحُروب الصليبيّة

STORICI ARABI DELLE CROCIATE

إعداد وتحقيق وترجمة:

نبيل رضا المهايني

الدار العربية للعلوم ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc.

المؤرّخون العرب للحُروب الصليبيّة

Storici Arabi delle Crociate



المؤرّخون العرب للحُروب الصليبيّة

Storici Arabi delle Crociate

فرانشيسكو غابرييلي

Francesco Gabrieli

إعداد وتحقيق وترجمة:

نبيل رضا المهايني

Nabil R. Mahaini





الطبعة الأولى

1436 هـ - 2015 م

ردمك 978-614-01-1392-3



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

لوحة الغلاف: Jan van Huchtenburgh

تصميم الغلاف: سامح خلف

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

إهداء

إلى أولئك الذين اختلستُ منهم وقتاً أمضيتُه في القيام بهذا العمل وفي غيره من أعمالٍ كثيرة سابقة، وسأمضيه في تلك اللاحقة،

غيّبتني فعلتي الشنيعة-البديعة عنهم،

غبنتُهم حقَّهم وغبنتُ نفسي حقَّها في أن نعيش سوية،

ونتمتع سوية بنعمةٍ ثمينة هي نعمة الوقت في صحةٍ وعافية،

إلى أولئك الذين أحببتُهم في سرّي ولم تُظهر لهم
علانيتي كثيراً من ذلك الحبّ
إلا ماظنّوه ظنّاً وهم يشعرون ببعض دفء تجلّياته في حياتهم،

إلى أولئك الذين غمطتُهم حقَّهم وأنا أمنحه لهم، ومنحتُه لهم وأنا أسلبهم إياه،

إليهم جميعاً أهدي في سلّة واحدة جهدَ هذا العمل، وماسبقه، وماسيأتي بعده من أعمال لم أقصد بها والله إلاّها:
أن تكون كاملة صحيحة سليمة قويمة، وفي هذا مرضاة الله الذي هو من وراء كل قصد. فعسى ألا أكون قد ضللت أو أخطأت.

إليهم: زوجتي الغالية وأولادي وذويهم، أحبائي، الشهود على عثرات دربي، رفاقي.

نبيل



المحتويات

القسم الأول

من كندفري إلى صلاح الدين

– 1 –

– 2 –

القسم الثاني

صلاح الدين والحملة الثالثة

– 1 –

– 2 –

القسم الثالث

الأيوبيون والهجمات على مصر

الحملة الخامسة

القسم الرابع

المماليك وتصفية الصليبيين

– 1 –

– 2 –

– 3 –

مقدمة المؤلّف

يهدف هذا الكتاب إلى مساعدة القارئ الغربي على النظر إلى فترة الحروب الصليبية من "الجانب الآخر"، أي من وجهة نظر الخصم آنذاك.

لاشك أن هذه عملية مفيدة ومهمة على الدوام، لكنها تبدو أكبر فائدة وأعظم أهمية في حالتنا هذه، أي حالة الصدام بين المسيحية والإسلام خلال العهود الوسطى: حضارتان لا اختلاف جذرياً بينهما في ذلك الوقت، بل لوحظ– وبحق – أن كلتيهما مبنيتان على موقف روحي واحد وعلى طبقات ذهنية متشابهة في جوهرها، لكن التجربة الدينية التي خاضها الطرفان كانت مختلفة عن تطلعاتهما وطموحاتهما الشاملة، فاندفعت الواحدة ضد الأخرى ليزداد تشدد الطرفين، ومعروفٌ أن ازدياد التشدد يزيد التعصب ويؤدي إلى بروز تطرف يشتد خلال الأزمات على وجه الخصوص. وإذا كان هذا التعصب قد تلاشى الآن، لدينا على أقل تقدير، فإنه تحول إلى تناقضات من نوع آخر ليست في جوهرها إلا تناقضات دينية. إننا لانجد اليوم أحداً يستخدم "الخناجر" و"المطارق" في الدفاع عن علوم المسيحية، بل وعلى العكس، فقد أصبح تقليداً لدى الجانب المسيحي الكاثوليكي الموقف المتفهم نحو الإسلام، لكن الجانب الآخر لم يقابل على الأرجح هذا الموقف بنفس الروح. مع هذا كله فإن العداء القديم يظهر عنيفاً وحاداً عندما نعود ونفتح صفحات مؤرخي وجدليي العهود الوسطى. وهكذا فإننا ماإن نبدأ بتتبع أحداث الحروب الصليبية حتى نجد أنفسنا منساقين وراء حقد لاهوتي وعنصري – تعمقه ولاشك صراعات أخرى وتزيده حدة – حتى إننا نكاد نرى "العدو" متربصاً هناك، أي في الطرف الآخر: في معسكر سليمان وآرغانت[1] والذي لم يكن إلا

---

(1) من شخصيات ملحمة "القدس المحتلة" و"القدس المحررة" للشاعر الايطالي توركواتو تاسو (1544– 1595) [المترجم]

لأبيات الشعر وحدها أن تنتزع كلوريندا[1] منه لتأتي وتموت في معسكرنا مطمئنة هانئة في حنايا عقيدتنا.

إن رؤية تاريخية مثالية تسعى للإحاطة بالجانبين معاً ستستفيد على الأرجح من عملية التعرف عن قرب على الأشكال الأصلية لعقلية ومثل وطرق الحياة والحرب لدى أعداء الصليبيين، أعداء لا يبدون في صفحات مؤرخيهم أقل قيمة، في الكم والكيف، من أولئك الغربيين. وسترينا هذه الصفحات بالطبع أن لوحة القيم قد انعكست، فمقابل "الكلاب المسلمين"[2] سنجد "الخنازير المسيحيين"، ومقابل التطلع نحو كنيسة القيامة هناك تطلع نحو الصخرة المقدسة حيث وضع النبي قدمه في معجزة إسرائه الليلي، وعوضاً عن التقي كندفرى هناك الورع صلاح الدين.

إننا سنبتعد هنا عن الأحكام ذات الطابع الديني والأخلاقي، لأن ما يهمنا تقديمه للمؤرخ أو لهاوي التاريخ هي معلومات تدور حول الطرف الآخر، وتكمل اللوحة التي تقدمها لنا عادة المصادر الغربية.

لقد أصابت الغزوات الصليبية الإسلام في لحظة حرجة من لحظات تاريخه، أي في وقت كانت الموجة العربية فيه قد بدأت ومن زمن بعيد تنحسر، أو أنها بدأت تتراجع إلى مواقع الدفاع، بينما كانت الموجة التركية في طريقها لتدعيم نفسها وتنظيم مواقعها في أحضان الأوطان الإسلامية والأوطان المجاورة، ذلك قبل أن تنتقل بأسلوب منظم إلى مواقع الهجوم ضد العالم المسيحي.

كان الإسلام قد عرف فيما مضى هجمات مضادة قام بها الجانب المسيحي خلال الحروب المزمنة ضد البيزنطيين، خاصة عندما نشطوا خلال القرن العاشر: لكن هجوم قوى الغرب اللاتيني – الذي تم صراحة تحت شعارات دينية حربية واضحة – باغت على حين غرة مجتمعاً إسلامياً منقسماً من الناحية السياسية على نفسه وغير مستعد أو مهيأ لمجابهة حملة منظمة فعالة.

---

(1) من شخصيات الملحمة المذكورة.[المترجم]

(2) كانوا يسمون المسلمين آنذاك Saracini Cani [المترجم]

على هذا الأساس نرى أن المعادلة التي طرحها Grousset[1] عن بروز فوضى (أناركية) إسلامية مقابل نظام ملكي إفرنجي، توضح إلى حد بعيد معالم الوضع الذي كان قائماً في سورية بين نهاية القرن الحادي عشر وأولى عقود القرن الثاني عشر: حيث تجزأت البلاد في إمارات تركية متناحرة فيما بينها، يتزعمها أتابك السلجوقيين وعساكرهم وأتباعهم، هذا بينما كان حكم فاطميي مصر يترنح في فلسطين. أما في بغداد فقد خضع الخليفة العباسي لإمرة السلطان التركي وأصبح مجرد ظلٍّ لسؤدد الإسلام الذي ظهر أيام المنصور والمأمون.

وبهذا تفشت الحروب الصليبية تفشي بقعة الزيت رغم أن أمراء سورية الشمالية وولاة الفاطميين في القدس والمدن الساحلية حاولوا أن يقاوموها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً – أي أنهم فشلوا. أما الحملة التي انتظروها على غير طائل من بغداد قد أظهرت منذ البداية وهناً وعجزاً.

لكن ما إن أطل العقد الرابع من القرن الثاني عشر حتى بدأت المقاومة الإسلامية تشتد، وحدث هذا بفضل "أرتوق" ماردين و"طغتكين" دمشق، بل وقبل الجميع، بفضل أتابكة الموصل الزنكي ونور الدين، اللذين أوقفا تقدم حملة كونت الرها قبل أن يضعا الشام نصب عيونهما ويعملا على تحقيق هدفهما المزدوج الساعي إلى توحيد البلاد تحت سيادتهما ودفع الفرنجة نحو البحر.

بدأت العروبية حينها تتراجع إلى الخط الخلفي من حيث هي قوة سياسية، مخلفة المجال للأسر التركية في تزعم حركة المقاومة. ومع أن هذا حدث ضمن محيط بيئة عربية من الناحية الثقافية فقد كان لهذه صبغة تركية من الناحيتين العسكرية والاجتماعية.

ولم يكن لوصول صلاح الدين إلى الحكم إلا أن يؤدي إلى إيقاف عملية التتريك هذه، لكن من ناحية معينة فقط، إذ أنه عمل من ناحية أخرى على استمرارها: فهذا الأيوبي العظيم – كردي الأصل، تركي/عربي اللغة والتربية،

---

(1) René Grousset (1885-1952)، مستشرق ومؤرخ فرنسي. من أهم مؤلفاته في مجالنا "تاريخ الحروب الصليبية ومملكة القدس الإفرنجية".[المترجم]

المسلم السني في عقيدته وأفعاله – جعل من مصر مركز سلطانه وأعادها للمذهب السني، كما أنه أعاد للعروبة هيبتها من جديد.

وعندما تلاقت المملكتان سقط على صعيد حطين تاج القدس اللاتيني.

لكن الحملة الصليبية الثالثة أتت لتسد الطريق على الهجوم الإسلامي ولتدعم وضع الدويلات الصليبية المتداعية في الساحل.

ومع هذا فقد استطاع الأيوبيون بفضل العادل والكامل أن يحافظوا بالطرق الدبلوماسية حيناً وبالطرق الحربية حيناً آخر، على توازن دام بين الفريقين نصف قرن من الزمان: فهم دحروا الحملة الخامسة، وحيّدوا فردريك الثاني، لكنهم لم يفلحوا في مجابهة الدويلات الساحلية الصليبية المتبقية مجابهة فعالة. أما من أفلح في الأمر فكانوا سلاطين المماليك، وهم عبيد أتراك من أهالي روسيا الجنوبية والقوقاز، كان من جملة نجاحاتهم أن تمكنوا في منتصف القرن الثالث عشر من أن يحلوا محل آخر الأيوبيين عندما بدأوا يتضعضعون في مصر، بل إن الإسلام مدين لهؤلاء الجنود الخشنين الأفظاظ بصد الغزو المنغولي (بعدما خلصوا سورية بانتزاعهم النصر في موقعة عين جالوت عام 1260) وبتصفية الصليبيين أيضاً. حقق المماليك هذا كله بعد أن تمكنوا من تطوير النظام الإقطاعي العسكري الذي أدخله السلجوقيون وواصل الأيوبيون العمل به.

أما على الجانب الآخر فنجد أن الغرب لم يعد قادراً على مواصلة دعمه للكيانات التي اصطنعها في ما وراء البحار: فالبابوية – التي جنحت خلال الحملات الصليبية الأولى بالدافع الديني السامي وحولته نحو مطامعها في ترسيخ هيمنة أوربا وسيطرتها، والتي استخدمت الصليب رايةً لقوات مسيحية حاربت قوات مسيحية أخرى معمدة مثلها (حملة صليبية ضد الألبيج، محاربة الهوهنشتاوفن[1])

---

(1) Albigensian أو Albegesi هم سكان منطقة البي جنوب فرنسا استقروا فيها وشكلوا في العهود الوسطى طائفة دينية انشقت عن تعاليم الكنيسة، ولهؤلاء أصول تعود إلى شبه جزيرة البلقان. جهزت الكنيسة حملة صليبية ضدهم عام 1208، إلا أن الصراع معهم استمر طيلة النصف الأول من ذلك القرن. أما الهوهنشتاوفن Hohenstaufen فهم سلالة الكهنة الألمان حكمت خلال العهود الوسطى، كما حكمت مملكة صقلية عام 1194. [عن موسوعة ويكيبيديا]

- كان عليها، أي على هذه البابوية، أن تراقب وهي مكتوفة الأيدي احتضار كل من أنطاكية وطرابلس وعكا، أي على المراحل الثلاث المهمة من سيطرة المسلمين على الساحل خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر. كما بدا أن دفاع جماعة التيوية في الأراضي المقدسة عن أنفسهم كان يعبر أيضاً وإن بطريقة غير مباشرة عن بداية المأساة التي تعرضوا لها في الغرب.

كان هذان قرنان مليئان بالتاريخ، تاريخ يتعلق بصورة متساوية بمصائر كل من المسيحية اللاتينية والرومية الشرقية (التي كانت ضحية سلبية وبريئة للذنوب والأخطاء اللاتينية)، ومصير الإسلام فوق أراض يعتبرها منذ خمسة قرون أراضيه الخاصة. وكان لأحداث هذين القرنين أن انعكست انعكاساً كافياً على التأريخ الإسلامي (الستوريوغرافيا الإسلامية) في ذلك العهد بل وفيما تلاه مباشرة من قرون.

قلنا التأريخ الإسلامي ولم نقل العربي وذلك اعتباراً للأصول غير العربية التي كان ينحدر منها بعض مؤلفيه ومؤرخيه، لكن يمكننا أن نسميه عربياً دون شك إذا ما أخذنا بعين الاعتبار اللغة المستعملة (فالتأريخ بالفارسية وماتبعه من تأريخ بالتركية لايضيفان شيئاً لتأريخ الحروب الصليبية) وأن نسميه أيضاً عربياً-إسلامياً عندما نعتبر قوى العقيدة والفكر التي تحركه وتكمن وراءه. ولايمنع هذا وجود بعض المساهمات الثانوية مما قدمه عربُ مصر المسيحيين.

. إن غزو الفرنجة (كما كان العرب يسمون مسيحيي الغرب لتمييزهم عن الروم البيزنطيين) وماألحقوه بالإسلام من دمار ومذابح وأضرار، ثم المقاومة التي أبداها هذا الأخير والتي تكللت في النهاية بالنصر، لم تكن من المواضيع التي عالجها التأريخ الإسلامي في العصر الوسيط بصورة منفصلة ضمن دراسات منفردة. فرغم أن ذلك التأريخ كان يعطي أهمية عظمى لتلك الظواهر، فإنه كان على الدوام يضعها ضمن إطار الصيغ الأدبية التي اعتاد أن يفهم الأمور من خلالها وأن يعرضها بواسطتها، مما يجعلها تضيع ضمن سجلات السِيَر والحوليات المسرودة، أو تتلخص ضمن إطار معالجات لاتركز بالطبع على أفعال الأعداء بل على بعض الشخصيات أو السلالات الإسلامية التي تُنصّب

هنا وهناك قيمة على حماية الدين والعقيدة. هذا مما يجعل عبثاً البحث في التأريخ الإسلامي عن تاريخ واحد ومنظم يستعرض الحروب ضد الفرنجة ويدور بصورة كاملة حول مواضيعها.

على أنه باستطاعتنا نحن أن نعيد الآن صياغة مثل تلك المواضيع صياغة افتراضية بواسطة موازاة ومقارنة ودمج المواد الموجودة في مختلف أنواع المؤلفات المتعلقة بتاريخ ذاك العهد. إننا نتكلم عن مؤلفات التأريخ العام التي تتناول العالم الإسلامي، كمؤلف ابن الأثير الكلاسيكي المشهور أو مؤلفات أخرى أقل شهرة كالتي كتبها سبط ابن الجوزي وابن الفرات، أو التصنيفات المتأخرة أو أخبار المدن والأقاليم كمؤلفات ابن القلانسي أو كمال الدين المتعلقة بسورية الشمالية ومنطقة ما بين النهرين، أو حتى مؤلفات تتعلق بالأخبار المحلية والسلالات الحاكمة، كمؤلف ابن واصل والمقريزي، أو تلك الخاصة بالسلالة الحاكمة كتصنيف ابو شامة، أو في النهاية ككتب السير البيوغرافية المحضة، أو تلك التي تركز على مآثر بطل ما، مثلما هو الحال مع مؤرخي صلاح الدين أي بهاء الدين وإمام الدين، ثم كتب السيرة الرسمية لأوائل سلاطين المماليك، كمؤلفات ابن عبد الزاهر.

هناك أيضاً كتاب السيرة الذاتية اللامعة لمؤلفه أسامة وهو كتاب فريد من نوعه من الناحية الأدبية، بل حتى من الناحية التاريخية كما سنرى لاحقاً.

تختلف هذه المؤلفات فيما بينها بالشكل – الجامد المهمل أحياناً، أو المنتفخ بقرقعات السجع أحياناً أخرى – أو بالنوع التاريخي، أو بالذكاء والدقة، أو بالسطحية السقيمة والتصنيفية السلبية التي يتصف بها مختلف المؤلفين. لكن وكما هو متوقع فإنها تشترك كلها رغم تلك الاختلافات في موقفها العدائي الذي يزدري الغريب الكافر الذي أتى ليغزو بلاد الإسلام مدفوعاً بتعصبه الأعمى (لأن كل طرف يرى تعصب الطرف الآخر).

لكنه من النادر أن نجد مناقشات أو تحليلات للأهداف الحربية العملية التي يبيتها العدو، فهذه المناقشات لم تظهر إلا خلال مشاورات الصلح أثناء الحملة الثالثة.

إن وجود الكافر مسلحاً فوق الأراضي الإسلامية هو أمر لايمكن مجابهته إلا بالسلاح – بل إن للمسلم من الناحية النظرية حقا شرعيا في حمل السلاح إلى بلاد الكفار ومقاتلتهم حتى الموت أو حتى يشهروا إسلامهم أو يخضعوا للدين الحق. لهذا لايمكن أصلاً التحدث عن إقامة أي سلام مع الإفرنج أو مع الكفرة بصورة عامة، لكنه يمكن التحدث عن هدنة موقتة عندما تدعو الحاجة إليها. لهذا فقد عارض كثيرون في المعسكر الإسلامي الصلح أو الهدنة الشهيرة التي إنعقدت عام 1192 بين ريتشارد وصلاح الدين. هذا كله من الناحية النظرية البحتة، أما من الناحية العملية، فلم يكن من المستطاع أن تنقضي مئتا عام من الحملات الصليبية في حروب دائمة مستمرة، وهكذا فإنه لم يكن لدينا فترات هدنة وحسب، بل إننا وجدنا في القرن الثاني عشر "تحالفات ضالة" عقدت بين مسلمين وصليبيين ضد أتباع نفس الدين من هؤلاء وأولئك، ممن كانوا في وقت معين أعداء مشتركين (وقد وضعنا ابن القلانسي بكل صراحة على مجرى أحداث أكثر تلك التحالفات فضيحة أي تحالف أبناء جلدته الدمشقيين مع الفرنجة من أجل صد غزو زنكي عام 1140).

لكن فترات السلم ليست موضوعاً مفضلاً من قبل التاريخ الإسلامي، وربما من قبل أي تاريخ كان، وهكذا فلم يكن التاريخ الإسلامي للحروب الصليبية إلا مقارعة متواصلة للسلاح وتتابعاً مستمراً للمعارك، يجري أغلب الأحيان على ذات الوتيرة، وليس إلا مناوشات ومحاصرات وغزوات. لذلك فإن أفعالاً مثل "قَتَلَ"، "نَهَبَ"، "اقتحم" كانت هي الأفعال الأكثر تصريفاً في مجرى حكاية الحروب المقدسة المتبادلة. وكانت الأدوار هي التي تتغير فقط، فالمؤرخون الأقدمون كتبوا عن استسلام مدن الساحل السوري الإسلامية لحصار الفرنجة وعن المذابح والنهب والحرق، وكذلك فقد تكررت في الطرف المقابل نفس المناظر لكن بأدوار معكوسة، بل إن التعبير جرى أحياناً بنفس الكلمات خلال الحديث عن مراحل الفتح الإسلامي. "**لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون**"[1]. ومع

---

(1) انجيل متى 26/52 وهي باللاتينية Qui gladio ferit gladio perit ووردت ترجمتها الانكليزية: for all who take the sword will perish by the sword

مثل الإيطالية: tutti quelli che mettono mano alla spada periranno di spada. [المترجم]

هذا فإن الشجاعة والتضحية تبقيان مكرمتين يعجب بهما الطرفان ولاينقصا أياً منهما.

في قمة الأمثولة، أي في الحملة الثالثة، تجابهت شخصيات بارزة من كلا الجانبين، وتطورت المعارك تطوراً مأساوياً واسعاً (حطين، حصار عكا)، وبينما كانت سيرة الوقائع العسكرية تسير على وتيرة واحدة، فإنها انفتحت بعد ذلك بنفس أرحب، لتقدم لنا أوصافاً تتشح أحياناً بشاعرية دينية وهي ترسم يوم طبرية والصدامات العنيفة تحت أسوار عكا وكرّ صلاح الدين وفرّه.

وقد كانت مهمة أيضاً، وإن كانت مملة في تفاصيلها المضطربة والمتناقضة غالباً، سجلات المشاورات الطويلة التي تدور حول ذلك السلام، ومن المؤسف ألا يكون النص الأصلي قد بقي، كما بقيت فصول أخرى عن معاهدات السلام أوالهدنة بعد أن حفظها مؤرخو المماليك حتى عهود متأخرة (معاهدات قلاوون).

كانت إذن حرباً مستمرة لكن من الناحية النظرية البحتة، لأن كثيراً من الهدن الهشة قد تداخلت بينها: هذه هي صورة الوضع الرسمية التي سادت خلال قرنين من تعايش الإسلام والنصرانية في الأرض المقدسة. وقد انعكست الصورة بالطبع على التأريخ الإسلامي لتمدّ آفاقه على وتيرة واحدة. انعدم كذلك لدى المؤرخين المسلمين أي اهتمام بالتنظيم في الدول الإفرنجية وبحياتهم الاقتصادية والاجتماعية وثقافتهم.

لكننا نعثر من حين إلى آخر على توثيق لبعض الحالات، التي لاندري إن كانت قد سُجّلت إعجاباً أو ازدراءً، والتي نشاهد فيها أن الثقافة والعادات الإسلامية قد أثرت بالعدو، ذلك كما حدث مع أمير شقيف عرنون الذي أخبرنا مؤرخو صلاح الدين أنه كان يتكلم العربية ويهتم بالأدب العربي والشرع الإسلامي، رغم أنه حاول أيضاً استغلال معارفه لخداع العدو (وقد اكتفى الكريم صلاح الدين بسجنه). كما أننا لا نجد أي اهتمام بعادات وأفكار وحياة العدو لدى كبار المؤرخين، هذا وإن كان باستطاعتنا أن نجد ملامح لهذا الاهتمام لدى مؤرخ غير تقليدي مثل اسامة، لهذا حاولنا هنا الاستشهاد بفقرات من مؤلفاته.

أما عندما يتكلم المسلمون عن المسيحية وعن العقيدة والطقوس النصرانية، فإنهم يقدمون صورة كرنفالية مشوهة (ولنقرأ صفحات عماد الدين حول نهاية القدس الصليبية)، لايمكن مقارنتها إلا بالصورة الأخرى التي تعرضها علينا نصوصنا الدينية التي كتبت في القرون الوسطى عن الطقوس والعقيدة الإسلامية. هذا مما يخولنا اختصار القول وتأكيد أن كل جهة كانت تكافئ الأخرى بنفس العملة، وأن الحروب الصليبية لم تكن أبداً ذات جدوى في تعريف المسيحيين والمسلمين بما في العقيدتين من نواح نبيلة سامية.

لكن إن نحن عدنا إلى ذلك التداخل المادي والروحي الذي لاشك أنه كان موجوداً، وإذا ماراجعنا المصادر الإسلامية فستعرف أن لامجال لمقارنة ما عرف ومـاأراد الإسلام أخذه عن الفرنجة مع ماأخذه الفرنج عن الشرقيين. فصاحب طرابلس الإفرنجي المدعو غوليلم تعلم العربية وأخذ عن مصادر عربية تأريخه المفقود والمعروف باسم تاريخ الشرق، وأصبح ظاهرة ليس لها مثيل في الجانب المقابل. لكن المؤرخين العرب للحروب الصليبية لم يهتموا بالعدو فقط، بل انصب اهتمامهم بصورة أساسية على المقاومة الإسلامية وأبطالها. وهذا مايسمح لنا دون شك أن نجد جانباً يتمم التأريخ الغربي.

لقد أشار العرب أنفسهم وبكل وضوح إلى أن انقساماتهم كانت هي السبب الأساسي في انتصار الحملة الصليبية الأولى (وهناك اشارة مريرة في كتاب لكمال الدين تبين أن الأمراء المتنافسين في سورية قد رحبوا بالتدخل الإفرنجي، بل إن أنانيتهم العمياء دفعتهم لاستغلاله لمصالحهم الخاصة)، لكنهم أبدوا بعدها ارتياحاً كبيراً، تشوبه أحياناً شيء من الخيبة بحسب تباين الخلفيات، عندما شاهدوا بروز أبطال كبار استطاعوا توحيد المقاومة ضد الصليبيين، ذلك مثل طغتكين وزنكي ونور الدين وصلاح الدين.

في هذا السياق برزت المقاومة الرائعة التي أبدتها دمشق ضد حصار عام 1148 لتكون فصلاً مشرفاً من فصول مقاومة الغزو اللاتيني بل من أكثر الحروب البلدية أو المحلية تشريفاً. بعدها مباشرة بل وقبل ذلك أحياناً، أخذ الزنكيون والأيوبيون والمماليك على عاتقهم توحيد المقاومة، وهذا ماكان من واجب

خليفة بغداد أن يفعله، من الناحية النظرية على أقل تقدير. لكن هذا الخليفة أصبح مجرد مظهر شكلي وتلاشت هيبته بشكل مهين خلال الحروب الصليبية بالذات عندما لم يتمكن القيام بأي دور سوى إلقاء الخطب وإقامة الصلوات ورفع الأدعية وإرسال رسائل التهنئة إلى الأبطال المنتصرين من أهل السنة. لذلك فإن من استحق أمجاد محاربة الصليبيين كانت دويلات وأسر إسلامية ذكرناها أو أخرى أقل شأناً دعمت جميعها الحرب المقدسة عن قناعة أو لأسباب سياسية، بل إن هناك من تفانى وكرس كل حياته في ذلك السبيل. ونفهم أن إيمان مؤرخي تلك الدويلات والأسر وإخلاصهم لها واعترافهم بجميل حكامهم زاد من تبجيل أولئك الحكام وتكليلهم من ثمة بأكاليل النصر. لكن صورة صلاح الدين ارتفعت عالية فوق الجميع، حتى أنها فرضت إعجاب العدو بالذات. فهو بأصوله البسيطة وبمسيرته التي لم تخلُ أولى فتراتها من الغموض والعنف استطاع أن يجسِّد فيما بعد خلال انتصاراته وغيرها هيبةً وإنسانية وفروسية الحضارة الوسطى في الشرق، ذلك إلى جانب رفعه عالياً وبتصميم بالغ لواء العقيدة والسنة. وقد ترك لنا كل من بهاء الدين وعماد الدين صورة واضحة تمثل صلاح الدين أميراً مسلماً مثالياً يتمتع بصفات تعمها المسحة الإنسانية أكثر من الفروسيّة. رغم هذا كله فإن الصورة التي رسموها لا تستطيع أن تبرر تبريراً كاملاً المحبة الكبيرة التي كنّها لذلك الرجل المعاصرون والمتأخرون في المعسكر الإسلامي أو في المعسكر المعادي على السواء. بيد أن الأسطورة التي أعطته مكاناً في البرزخ الدانتي[1] وفي أشعار وروايات غربية عديدة بقيت بكماء عنه في أرضه التي كرّمت من كان أدنى منه درجات من الناحية الإنسانية، أي بيبرس[2]. نجد على كل أن المصادر التاريخية العربية احتفظت لبطلي الجهاد الإسلامي هذين بذكرى حية

---

(1) وضع دانتي أليجيري صلاح الدين في البرزخ بين العظماء الصالحين، والمكان مخصص للصالحين من غير المسيحيين والأطفال الذين ماتوا قبل أن يتم تعميدهم. وجاء في النشيد الرابع 129 من كتاب "الجحيم" في "الكوميديا الإلهية": (رأيت صلاح الدين، كان وحيداً، على طرف). قال دانتي إنه وحيد لأنه من دين آخر، لكنه ذكره بين الحكام الذين استحقوا المجد بسبب سخاء روحهم، ووضعه مع الأرواح العظيمة Spiriti Magni. [المترجم]

(2) بمعنى أنه لم يُكتب عن صلاح الدين الأسطورة، مثلما كُتب عن بيبرس في كتاب السيرة.

ذلك كما فعلت مع زنكي ونور الدين والكامل والآخرين من كبار خصوم الفرنجة. والحقيقة أن أنبل فضائل التأريخ الإسلامي نجدها في أمانة وروعة تصنيفاته، التي ترتمي أحياناً -وإن بمشاعر معادية - على صفات مهمة لشخصيات من المعسكر الآخر. وهكذا فإنا نقرأ عن دهاء بالدوين الثاني وشجاعة قلب الأسد وإقدام كونراد ودبلوماسية فريدريك الثاني وشكوكه الساخرة وذلك ضمن بعض الملاحظات البارزة في صفحات المؤرخين المسلمين. غير أنا إن قبلنا بهذه الصفات فنحن أقل استعداداً لقبول وتأكيد أوصاف أخرى كال "ماكر الخبيث" التي وصف بها الملك القديس لويس التاسع (ومع هذا فما أجمل ماقاله ابن واصل عنه حين صوّره بكل ودّه وأنسه في صورة حية خلال حواره مع المبعوث المصري في سجن المنصورة. أما أن يقال عنه إنه خبيث محنك؟ وهو الذي ذهب في قيظ الصيف مع الحملة الطائشة على تونس لينهي حياة اتصفت بالإيمان المتقشف والمثالية الدونكيشوتية!

إن غنى مواد التأريخ العربي للحروب الصليبية وكثرة بياناته التاريخية (وإن لن تكن متسقة دائماً فيما بينها، ولا متطابقة على الدوام مع المصادر الغربية) ثم روعة وصفه وتصنيفاته تؤهله حقاً للتفوق عند مقارنته بالتأريخ المسيحي المعاصر له. من ناحية أخرى نحن لانرغب في أن نطالب هذا التأريخ بالموضوعية وتفهم العدو ولا بأصالة أو عمق الرؤى أي بالصفات التي كان يحتاج إليها بصورة عامة التأريخ العربي في العصر الوسيط، الذي كان يتأرجح بين البراغماتية العملية وبين ثيولوجية إيمانية آلية. لكن هناك شخصية مؤرخ حقيقي قد تبرز بين العديد من شخصيات المؤرخين المجتهدين، ألا وهي شخصية ابن الأثير، رغم أن هذا المؤرخ لم يحظ، من ناحية أخرى، بسمعة ملائمة لدى مستشرقي العهد الحديث كمؤرخ للحروب الصليبية، وذلك بسبب استعماله المزاجي والمتحيز للمصادر التي أخذ عنها. لكن إن دعتنا هذه الملاحظة لعدم الاعتماد عليه كثير الاعتماد من الناحية التوثيقية، فهي تؤكد لنا على أصالته كمؤرخ عبقري يبرز بين سلبية المصنفين البالغة. يفتقد الجانب العربي إذن في هذه الحقبة إلى شخصية مميزة كشخصية غوليلم صاحب صيدا، لكننا إذا تركنا هذه الشخصية النادرة جانباً فإن

متوسط مستويات المؤرخين العرب للحروب الصليبية يبدو أعلى من مستوى المؤرخين الإفرنج. لكن الأخيرين يتمتعون، في كثير من الحالات، بتجربة مهنية أعظم، أي بما يمكننا تسميته بالضمير المهني الخبير. خاصة وأن التأريخ الإسلامي من جهته ليس، في أغلب الأحوال، وكما أسلفنا، إلا جانباً من معالجة تاريخية ومن تجربة عامة أوسع.

إن محاولة عرض تاريخ الحروب الصليبية من خلال وجهة نظر "الجهة الأخرى" ليست بالمحاولة الجديدة في الغرب. فمنذ أكثر من قرن مضى، وبعد انتهاء Bibliotheque des croisades لـ Michaud فإن الأستاذ الضليع Reinaud أستاذ Michele Amari قد وضع مؤلفاً اسمه Chroniques arabes (باريس 1829)، جمع فيه ضمن نص متتابع بعض الإصدارات والنصوص المجددة المأخوذة عن المؤرخين العرب لتلك الفترة، خاصة وأن كثيراً من تلك النصوص لم تكن آنذاك مطبوعة، بل كانت محفوظة في "Bibliotheque du Roi". غير أن ذلك العمل الريادي، الذي ما زال يحتفظ حتى اليوم بفائدته الكبيرة بالنسبة للمؤرخين غير المستشرقين، كان يهدف إلى تقديم رواية متكاملة عن الأحداث مستقاة من مصادر شرقية للحروب الصليبية، ذلك بدلاً من تقديم تلك المصادر المتبعثرة بملامحها المميزة. وهذا ما تم اقتراحه خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر في باب Historiens orientaux في Recueil des Historiens des Croisades والذي نُشر برعاية Accademie des Inscriptiones et Belles Lettres واعتنى بأجزائه الشرقية Barbier de Meynard، وهو يحتوي في مجلداته الخمسة المطبوعة (باريس 1872-1906) على نصوص وأقوال لمختلف المؤرخين، كابن الأثير وبهاء الدين وأبو الشامة وأبو الفداء.. الخ.. لكن هذا العمل الرائع (وإن كان غير عملي وغير ملائم للقراءة المتواصلة) كثيرا ما تم انتقاده بسبب الخيارات غير الموفقة وغير الأمينة للنصوص بل بسبب بعض أخطاء التفسير أيضاً، ومع هذا فإنه يبقى مرجعاً دراسيا مهماً يستعمله المستشرقون والمختصون بالقرون الوسطى على السواء.

يعتبر عملنا هذا شديد التواضع أمام العملين اللذين استشهدنا بهما للتو. وإذا كنا قد استفدنا في محاولتنا هذه من كلا المؤلفين، فإن مراجعنا الأساسية هي

النصوص المختلفة، التي اصبح أكثرها منشوراً الآن، أما تلك التي لم تنشر بعد فيمكن مراجعتها بسهولة ضمن المجموعات الفوتوغرافية المصورة للمخطوطات التاريخية المحفوظة في "مؤسسة كايتاني للدراسات الإسلامية" Fondazione Caetani Per gli studi musulmani في روما. النصوص التي استشهدنا بها مأخوذة عن سبعة عشر مؤلف، وهي إن لم تشكل كل المصادر الإسلامية التاريخية عن الحروب الصليبية، فإنها تشمل أكثرها أهمية، وتشكل محاولة لتقديم إطار متكامل بما فيه الكفاية يستعرض مختلف النماذج والاتجاهات التاريخية والأدبية مما قدمنا عنه لمحات سريعة... أما الأحكام التي اتبعناها في اختيار النصوص فكانت تراعي، كما هو بدهي، أهمية الموضوع التاريخية من ناحية، ثم البحث من ناحية أخرى عن طابع إنساني وأدبي يكون حيوياً وذا شأن ضمن الوتيرة العامة للمصادر. أي عن بعض التفاصيل التصويرية البارزة، التي وإن لم تكن ذات أهمية تاريخية فائقة فإنها تنطبع بسهولة في الذاكرة وتبقى حية فيها. والحقيقة أن العديد من المؤرخين الشرقيين يميلون لمثل هذه التفاصيل التي اعترفُ أنها امتلكت مشاعر مصنفهم الحالي أيضاً. نجد على ضوء هذا أن القسم الثاني المخصص لصلاح الدين والحملة الثالثة قد نال بين ما اخترناه حصة الأسد، وكان هذا بسبب أحد الحكمين المستشهد بهما رغم أنه يتمتع بالحق الأدنى في ذلك. بيد أن ما آمله هو أن تبرز من خلال هذه الصفحات الرؤية العامة والتفاصيل التي أعطانا إياها المسلمون عن ذلك العهد، وكذلك توجهات كل منهم، حيثما وجدت، وخصائص أساليبهم.

والآن، وبعد تصرّم شهور عديدة قضيتها في صحبة مؤرخي الحروب الصليبية أولئك، وبعد معاودتي سماع أصوات حادة النبرة، مغالية في عدائها لعقيدة آبائنا، شديدة الغيرة الدينية وعميقة المحبة لتقاليدهم المتوارثة، قوية التعاطف مع ذكرياتها والإعجاب بأبطالها الشهداء الذين ضحوا في سبيل الدفاع عنها، بعد كل هذا فليُسْمَح لجامع هذه النصوص بأن يعترف بمحبة واحترام حضارة كرّس سنوات طويلة من عمره لدراستها، رغم أنه لم يتمكن من الاقتراب منها كما يجب وتفهمها في أعماقه حق التفهم. ومع هذا فإنها لم تظهر له أبداً

قبل هذا الحين بكل مافيها من قوة تلهم الصبر وتكريس الذات والتضحية ومرونة فائقة ومقدرة على الانبعاث، ساعة تعاكسها الأقدار، وإيماناً حديدياً صلباً لايلين بالملكوت السامي المطلق، هذا إلى جانب مافيها من عيوب وسلبيات ليس هناك الآن ضرورة للإصرار عليها. أما وقد اعتدنا أن نصبغ كل المزايا المذكورة بتعابير توحي بالعيوب والنواقص والمساوئ عندما نعرف أنها تتعلق بـ "الجهة الأخرى"، فلنعمل الآن إذن على تسميتها ولو لمرة واحدة باسمها الحقيقي على ألا ننكر شيئاً من أهميتها وبدون أي تورع أوخوف.

ف. غ.

روما، أيلول/سبتمبر 1957

تم في هذه الطبعة الثالثة من الكتاب تصويب بعض الأخطاء وتحديث بعض بيانات المراجع.

ف. غ.

روما، آب/اوغست 1969

مقدمة المعرب

ألحت علي فكرة إعداد هذا الكتاب بالعربية منذ معرفتي به للمرة الأولى بالإيطالية. وفكرت أنه سيكون كتاباً "قديماً" و"حديثاً" في آن واحد، كتاب عن الحروب الصليبية بقلم مؤرخي العهد وقد لبس لباس عصرنا وتحلى بروح حلته. وقد قرأنا أن غابرييلي قال في مقدمته إنه عمل على اعادة صياغة مواضيع عمله صياغة افتراضية، فوازى وقارن ودمج مواد مختلف المؤلفات التي كتبها مسلمون في ذلك العهد عن تاريخ ذلك العهد. هذا بهدف (مساعدة القارئ الغربي على النظر إلى فترة الحروب الصليبية من "الجانب الآخر"، أي من وجهة نظر الخصم آنذاك). لهذا اعتقدت إن إخراج هذا الكتاب بالعربية سيساعد القارئ العربي هذه المرة على معرفة شيئ عن الرؤية الغربية المعاصرة حول مجمل الأمر: كتاب عن الحروب الصليبية بقلم مؤرخين عرب لتلك الحقبة إذن، لكنه منسق ومنظم بطريقة علمية حديثة، ومن قبل غربيّ يحاول أن يكون موضوعيا في رؤيته وعمله.

وتكلمت آنئذ مع الأستاذ غابرييلي، وبدأت بالعمل. ولم يكن بالسهولة التي تخيلتها بادئ ذي بدء: لكن بالعمل يمكن تجاوز كل صعوبة.

وقد وجهني الأستاذ غابرييلي آنئذ إلى أمين مكتبة كايتاني (الذي أصبح بعدها عميد كلية الدراسات الاسلامية في المعهد الشرقي في جامعة روما) وذلك لأتمكن من الحصول على صور للصفحات ذات الصلة في المخطوطات والمجلدات. كان من السهل تصوير بعض الكتب والمخطوطات بأجهزة الفوتوكوبي، لكن استعمال الميكروفيلم كان ضرورياً لتصوير بعضها الآخر. كان علي إيجاد الكتب والمخطوطات المعنية في إرشيف المكتبة الضخم، ثم البحث في كل منها عن الصفحات التي تهمني والتي أشار إليها غابرييلي في كتابه الذي نقلت عنه. خرجت بعدها بمصنف واسع يضم صوراً لكل الصفحات الأصلية

فجمعتها ورتبتها بحسب ماوردت في كتاب غابريلي الإيطالي. وترجمت بالطبع كل ماكتبه غابرييلي من مقدمات وهوامش وفهارس وأضفتها إلى ذلك المصنف. كما أضفت إلى النصوص العربية المقتطفة التواريخ الميلادية التي وضعها غابرييلي إلى جانب التواريخ الهجرية الموجودة في النصوص الأصلية.

أورد في نهاية هذا الكتاب نماذج من صور طبق الأصل (فوتوكوبي) وميكروفيلم التي شكلت اساس المصنف المذكور وقوامه أكثر من 300 صفحة، وهي نماذج عن صور الصفحات الأصلية التي جمعتها ورتبتها بحسب ماوردت في كتاب غابريلي الإيطالي.

لم يكن يمكن لأي ناشر أن يقبل تقييم الكتاب على أساس مصنف يجمع صوراً تصعب في كثير من الأحيان قراءة مافيها. وهكذا كان لابد من تنضيد الكتاب من جديد. طال بي الزمان وأنا على هذه الحال إلى أن توفر في العالم الكمبيوتر ومن بعده الانترنت. فحاولت منذ فترة قريبة استعمال هذه التسهيلات وتمكنت من العثور على كثير من المواد المصنفة في مواقع الانترنت، وهكذا بدأت رحلة ثانية أقل صعوبة من الأولى لكنها ليست أقل تعقيداً. بحثت ووجدت ملفات كثيرة للكتب المعنية، وكان علي أن أستخلص من كل منها المقاطع المطلوبة. بعد لأي تمكنت من تجميع كثير من تلك المقاطع، لكن كثيراً منها أيضاً لم يكن موجوداً على الانترنت، أو أنها كانت موجودة بطريقة لايمكن النسخ عنها أي بصورة PDF. وهكذا فإنه لم يكن أمامي إلا العمل على تنضيد المقاطع الناقصة[1] انطلاقاً من صور المصنف القديم.

ذكرت في الهوامش أسماء أهم المواقع التي أخذت عنها المقاطع المعنية[2].

---

(1) أشعر هنا بضرورة توجيه الشكر للمهندس جهاد العواد على مساعدته القيمة في هذا المجال.

(2) من أهم المواقع المستعملة: موقع المكتبة الشاملة http: //shamela.ws/index.php وقد وجدت فيه مقاطع فيها كتب مثل "الكامل في التاريخ لابن الأثير"، وكتاب "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية"، "النجوم الزاهرة"، "ذيل تاريخ دمشق". وهناك موقع المشكاة http: //www.almeshkat.net حيث وجدت كتاب "بغية الطلب في تاريخ حلب". ثم موقع http: //www.anti-rafeda.com/sunne/book/tareikh/الذي وجدت فيه كتاب "زبدة الحلب في تاريخ حلب". وهناك أخيراً موقع "المصطفى" www.al-mostafa.com وفيه "كتاب العصا". [المترجم]

وعلي هنا أن أسجل أن صفحات مقاطع الانترنت تختلف عن تلك الأصلية المستشهد بها. يتناول الاختلاف كلمات وعبارات بل وجملاً كاملة تزيد هنا أو تنقص هناك. ويبدو أن الطبعات التي أخذت عنها بعض مواقع الانترنت تختلف عن تلك التي نقل عنها غابرييلي كتابه. لذلك لابد أن تكون أرقام الصفحات التي أوردها غابرييلي، ونقلتها أنا بالطبع في هذا الكتاب، تختلف عن بعض الذي أخذته هنا أيضاً عن الانترنت. لكن المهتم بمزيد من المتابعة عليه أن يعتمد الطبعات التي استشهد بها غابرييلي.

لقد بدأت باعداد هذا الكتاب في روما خلال سبعينيات القرن الماضي وتحت اشراف مؤلفه الأستاذ غابرييلي، وعاودت العمل فيه على فترات متقطعة، إلا أنه لم يتح لي أن انهيه إلا الآن وأنا في دمشق التي تشهد اليوم فترة عصيبة لاتخلو من بعض امتدادات ذاك الغزو الافرنجي الذي نحن بصدده، والذي عاد منذ فترة ليست قصيرة ليناوش كثيراً من بلداننا العربية. ومن هنا – مرة أخرى – أهمية مثل هذا الكتاب في هذه الفترة من التاريخ.



الأعزل

صورة للرسالة التي كتبها لي البروفسور فرانشيسكو غابرييلي عام 1972 حول مقابلة أجريتها معه ونشرت في حينه. أسوقها هنا مع ترجمة لها بالعربية، مع أنه يؤسفني أنّي لم أتمكن من العثور على نص المقابلة. أشير إلى أن تعابير اللكنة المستحبة والأعزل التي أشار إليها وردت في سياق المقابلة المذكورة.

الترجمة:

معهد الشرق

روما

مكتب الرئيس روما 14.9.1972

عزيزي نبيل

استلمت الثقافة وقرأت بسرور بالغ مقابلتك (وقد أسفت حول اللكنة حتى لو كانت مستحبّة، لأنّ المستعرب لن يتمكن أبداً من التحدث بلهجة العربي الأصيل...). لقد أعجبت بدقّة وأمانة نقلك وتعبيرك حتى عن أدق تفاصيل محادثتنا. أشكرك لذلك مع ودّي الصادق.

أرجو أن نجتمع في لقاءات أخرى، وأحيّيك بكلّ ودّ.

فرانشيسكو غابرييلي

الأعزل

ISTITUTO PER L'ORIENTE
ROMA [illegible]
VIA [illegible]

IL PRESIDENTE



Roma, 14 IX 72

Caro Nabil,

ho ricevuto la Thaqafa, ho letto con gran piacere la sua intervista (mi ha solo mortificato un po' la lugha, sia pur [illegible]; ma è fatale che un musta'rib non possa mai parlare come un 'arabi puro..). Ho ammirato la precisione e fedeltà con cui Lei ha raccolto e reso sin nelle sfumature quella nostra conversazione; La ringrazio perciò con vera cordialità.

Spero in altre occasioni di incontro, e La saluto intanto amichevolmente

ملاحظات بيبليوغرافية (1)

هناك كتابان تاريخيان كاملان وحديثا العهد يدوران حول الحروب الصليبية، دون أن يكون واضعاهما من المستشرقين، لكنهما اعتمدا على اي حال على Reinaud وRecueil وهما:

1- R.GROUSSET, Histoire des Croisades et du royaume franc de Jerusalem, Paris 1943 -36.

2- ST.RUNCIMAN, A History of the Crusades, Cambridge 1951 - 54.

يقع كل من هذين المؤلفين في ثلاثة مجلدات تحتوي على بيبليوغرافية واسعة (وقد قدم R.GROUSSET نفسه ملخصاً عاماً سهلاً في L'epopee des Croisades طبعة باريس 1939). أما عن كتاب History of the Crusades الواسع والذي أتمه العديد من المساعدين بإشراف La Monte و Setton، فلم يصدر منه حتى الآن إلا جزءان في The first hunfred years و The later Crusades 1189-1311، فيلاديلفيا 1955–1962. كما أن هناك كتاب عن الستوريوغرافية الإسلامية وأشكالها المختلفة لـ F.ROSENTHAL وهو A History of Muslim Historiography طبعة 1952 Leiden، لكن الاستعراض والتقييم العميقين للمؤرخين العرب للحروب الصليبية نجدهما لدى CL.CAHEN في كتاب:

La syrie du Nord a' 1 "époque des Croisades et la principaute' francque d' Antioche. (Les sources arabes)، طبعة باريس 1940، الصفحات 93 – 33

وهناك معالجة محدثة أجرها CAHEN نفسه في مقالة Croisades في الصفحات 64 -67 من الطبعة الثانية لـ Encyclopedie de l'Islam.1961–من الممكن أيضاً مراجعة مقالتنا في الصفحات 98–107 فصل Historiography of

the Crusades من مجلد Historians of the Middle East اوكسفورد 1962،
وكذلك مقالتنا بالايطالية L'Islam nella storia طبعة باري 1966 الصفحات
193–209. ونرى أنه من غير المفيد إيراد ببليوغرافية دقيقة وخصوصية جداً عن
كل المؤلفين وعن كل المواضيع على انفراد، ولذلك فإننا سنذكر فقط الدراسات
الثلاث المهمة لـ H.A.R.GIBB ألا وهي:

Note on the arabic materials for the history of the early Crusades–,
الموجودة في (Bulletin of the school of Oriental Studies)، العدد السابع
(1935)، الصفحات 739 – 754

The arabic sources for the life of Saladin–، في (speculum، العدد 25
(1950)، الصفحات 58 – 72

The achievement of Saladin, (Bulletin of the John Rylands –
Library)العدد 35(1952)، الصفحات 44 – 60

وفيما يتعلق بصلاح الدين تمكن مراجعة ما كتبناه عنه في كتاب Storia e
civilta musulmana، طبعة نابولي 1947 وثم طبعة فلورنسة 1948 Firenze، ثم
J.KRAEMER في der Darstellung في (583 – 1187) Der Sturz des
Konigraiches Jerusalem– طبعة des Imad ad-din al Wiesbaden 1952
Katib al Isfahani، ثم B.Lewis The sources for the history of the Syrian
assassins في (1952)27 (Speculum) الصفحات 475 – 89 ثم F.GABRIELI,
Gli Ospitalieri di S.Giovanni negli storici muslumani delle Crociate
(annuario delle R.scuola archeological di Atene)، الصفحات 345 – 56
(1929) 8 – 9

ملاحظات بيبليوغرافية (2)

رأيت أن أورد هنا الإضافات البيبليوغرافية التي وردت في الطبعة الثالثة الايطالية للكتاب عام 1969

- صدرت ترجمة ايطالية لكتاب L'epopee des Croisades السابق الذكر – ميلانو 1968
- صدر لـ A.WASS كتاب Freiburg - Geschechte der Kreuzzuge الجزء الثاني 1956
- Storia delle crociate –F.cognasso ميلانو 1967
- Histoire des Croisades –Z.OLDENBOURG باريس 1967
- صدر الجزء الثاني من The first hundred years the Later Crusades 1109-1311 فيلادلفيا 1962
- صدرت طبعة ثانية من كتاب A History of Muslim Historiography ليدن Leiden 1968
- معالجة لـ CAHEN السابق الذكر في المقال Croisades in Encyclopedie del' Islam ص ص. 64 – 76 الطبعة الثانية 1961
- وهناك فصل لغابرييلي نفسه في كتاب Historiens of the Middle East أوكسفورد 1962 ص ص. 98 – 107
- وفي الايطالية في كتاب L'Islam nella storia - Bari باري 1966 ص ص. 195 – 209
- وكتاب The Assassins – لندن 1967



المؤلفون والكتب



ابن القلانسي[1]

هو أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي، المشهور بابن القلانسي (دمشق، حوالي 1073/465 - 1160/555). وهو أقدم مؤرخ عربي تناول الحروب الصليبية وذلك في تاريخه المشهور بـ "ذيل تاريخ دمشق "(اشارة لتاريخ يحمل نفس العنوان لـ هلال الصابي).

يذهب هذا التاريخ الذي وصلنا عبر مخطوطة فريدة - من عام 974/363 وحتى عام 1160/555، أي نفس العام الذي توفي فيه المؤلف، وقد روى فيه أحداث بلاد ما بين الرافدين، ولكن، وقبل كل شيء، تاريخ سوريا ودمشق حيث تقلد ابن القلانسي مناصب ادارية وبلدية. وقد تناول في تاريخه، المأخوذ عن مصادر مباشرة، الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية وذلك حتى أوائل العهد الذي دخل فيه نور الدين إلى دمشق.

الجدير بالذكر أن روايته شاملة محيطة وأمينة وتحتوي على بعض التفاصيل حول أمراء دمشقيين من أسرة طغتكين، وهي مكتوبة بأسلوب جاف وموضوعي، عدا عن بعض الفصول حيث يوجد نثر مزخرف.

يتسم تاريخ ابن القلانسي بالموضوعية عامة، كما أن معاصرة المؤلف للحوادث المروية ووجود بعض الوثائق في الكتاب تجعل من هذا التاريخ مرجعاً أساسياً حول أقدم عهد من عهود الحروب الصليبية.

النص: طبعة Leiden, Amedroz 1908.

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

45 -52، 55-56، 58-64، 67-69، 72-75.

---

(1) إن ترتيب هذه الإشارات - عدا الأولى منها - إنما هو وفق الترتيب الذي يظهر فيه المؤلفون في الكتاب، وهو لا يتوافق إلا بصورة إجمالية مع الترتيب الزمني.

ابن الأثير

هو عز الدين ابن الأثير (جزيرة ابن عمر 1160/555 – الموصل 1233/630)، أشهر إخوة ثلاثة من عائلة كانت تقطن بلاد ما بين الرافدين، واشتهرت بثقافتها العربية الإسلامية. أهم أعماله هو "كامل التواريخ"، وهو تاريخ لكل العالم الإسلامي يبدأ بالأسطورة والتاريخ العربي – العبري السابق لرسالة محمد، وحتى عام 1231/628. يكرر بشكل عام في قسمه القديم (حتى أوائل القرن العاشر بعد الميلاد) الأحداث الواردة في المجموعة التاريخية الكبرى لابن الطبري، لكنه يعتبر مصدراً مهماً جداً فيما يتعلق بالقرون الثلاثة الأخيرة وعلى الأخص بالنسبة للحقبة التي عاصرها المؤلف. ويتميز الكتاب بشمولية الرؤية وتوازن البنيان وغنى المواد المجمّعة، وأخيراً وليس آخراً، بوجود رؤية تاريخية صلدة وشخصية واضحة متميزة. يجعل هذا من ابن الأثير "المؤرخ الحقيقي الوحيد" العربي في هذا العهد. لكن هذه الشخصية الفذة ولّدت عيوباً وهنات مثل تعاطفه أحياناً مع العائلة الزنكية العراقية (زنكي ونور الدين وأتباعهما)، كما أنه يبدو أحياناً أخرى غير دقيق في معالجة مصادره. ولكن رغم هذه التحفظات فإن بنية كتابه تدعو للإعجاب، فهو مؤلَّف يحيط بكامل العالم الإسلامي بدءاً من بلاد ما وراء النهر وحتى بلاد المغرب وأسبانيا. كما نرى أنه يتابع أسباب الأحداث وروابطها، ويجيد تصنيفها في عرض واضح فعال وذلك رغم هيكلية الحوليات المتبعة. أما فيما يتعلق بتاريخ الحروب الصليبية فإن ابن الأثير كان شاهد عيان، ولم يكن دائم الإعجاب بفضائل صلاح الدين، واعتمد في بحوثه على مصادر مثل ابن القلانسي وبهاء الدين وإمام الدين (راجع عنهم الصفحات التالية). وقد كان لوضوح أسلوبه الذي يقصد جوهر الأحداث بعيداً عن وحشي الكلام ومزخرفه أن ساهم في جعله مؤرخاً رئيسياً لأوائل العهد المتوسط الإسلامي.

النص، طبعة Tornberg، المجلدات 10 – 11 – 12، Leiden 1853 - 64

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

63–65، 69–70، 75 ،77، 103–110، 117–122، 138–148، 152–153، 158–160، 179، 187–193.

كمال الدين

هو كمال الدين ابن العديم (حلب 1192/588 - القاهرة 1262/660) كان مؤرخاً لمدينة مولده، وخاصة من خلال مؤلف ضخم ذي طابع وصفي، وهو "بغية الطلب" الذي لم يصلنا منه إلا قسم ما زال غير منشور. قام بعدها بتجميع المواد ضمن تاريخ محلي هو "زبدة الحلب في تاريخ حلب"، والذي يصل حتى عام 1243/641، ويشكل هذا الكتاب بالنسبة لحلب في القرنين الثاني والثالث عشر ما شكله بالنسبة لدمشق في القرن الثاني عشر تاريخ ابن القلانسي. أما فيما يتعلق بتاريخ الحروب الصليبية، فإن هذا الكتاب يهمنا قبل كل شيء كشهادة عربية حول حوادث سوريا الشمالية.

النص، طبعة سامي الدهان، الجزء الثاني، دمشق 1954

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

55-53

أسامة

هو أسامة بن منقذ، أمير شيزر (شيزر 1095/488 - دمشق 1188/584)، من أهم شخصيات العروبة السورية في عهد الحروب الصليبية. رجل سياسة وأدب، فارس وصياد، رجل قول وفعل، سياسي مخاتل قليل الوساوس، أمضى حياته الطويلة في علاقاته مع الفرنج وأمراء سورية وخلفاء مصر الفاطميين، مات بعدها ميتة غامضة في قمة انتصارات صلاح الدين. تعود شهرته لكتاب عن سيرته الذاتية عنوانه "كتاب الاعتبار"، والذي وصلنا ناقصاً عبر مخطوطة عن الايسكوريال، وهو عبارة عن صورة صادقة عنه نفسه، كما أنه كنز من الأخبار الخفية الخاصة ببعض معاصريه من الإسلام والفرنج. ولم يصلنا من إنتاجه الأدبي والفني إلا الجزء اليسير، ومن بينه "كتاب العصا"، وهو مجموعة كتبت بالطريقة العربية وضمت النوادر والقصائد والشعارات والأمثال حول العصي. وعنه أخذنا آخر مقتطفاتنا.

النص طبعة Derenbourg باريس 1886 (والقسم الأخير، H. Derenbourg: Ousama ibn Mounkidh; Un emir syrien au premier siecle des Croisades I Paris 1893- PP. 528/29)

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

84-78

بهاء الدين

هو بهاء الدين بن شداد (الموصل 1145/539- حلب 1234/632)، دخل عام 1188 في خدمة صلاح الدين الذي عينه قاضياً للجيش، وبقي مخلصاً له حتى وفاته. وقد أصبح، تحت حكم أوائل من خلفوه، كبير قضاة حلب. وسيرته عن صلاح الدين "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" (يوسف هو الاسم الشخصي لصلاح الدين) إنما هي من أجود المصادر التاريخية والتصنيفية، وقد أملاها عليه تقاه الصادق وإعجابه الخالي من أي خنوع أو محاباة أو مداهنة. وهي تعتمد في قسم كبير منها على التجربة المباشرة المملاة بأسلوب سهل خال من المحسنات الأدبية، كما أنها تعطينا صورة كاملة عن هذا البطل من الجانب الإسلامي، فضلاً عن كونها تاريخ حي عن الحملة الصليبية الثالثة.

النص في، Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux, الجزء الثالث، باريس 1884.

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

86-102، 148-152، 153-155، 158، 160-161، 162-168، 169-174، 182-185.

عماد الدين

وهو إمام الدين الأصفهاني (أصفهان 1125/519 - 1201/597)، كان كاتب نور الدين ومن بعده صلاح الدين، وقد كان يعمل تحت إمرته القاضي الفاضل في ديوان الكتابة. وهو أديب وخطيب فحل، ألف كتاباً فيه مختارات قيمة من

الشعراء العرب في القرن الثاني عشر، فضلاً عن مؤلفات تاريخية مختلفة، كتبها بأسلوب منمق مطرز بالبديع وبنثر مسجوع وموزون، وعبر سلسلة متواصلة من التشابيه والصور والتلاعب بالألفاظ. لكن هذا الأسلوب الصعب والغث سرعان مادفع بعض المصنفين كأبي الشامة (راجع الصفحة التالية) لاستخلاص الأحداث من ضمن القشور المزخرفة المجودة في الأصل، لكنه علينا أن نعود دائماً إلى ذاك الأصل كلما أردنا أن نعرف أموراً تاريخية مهمة يصعب العثور عليها في ملخصات التصنيف. وقد وصل إلينا كاملاً، وهو الآن مطبوع، مؤلفه عن فتح القدس والذي يصل حتى وفاة صلاح الدين، وهو "الفتح القسي في الفتح القدسي" (نرى أن التلاعب بالألفاظ بدأ منذ العنوان)، أما كتاب "البرق الشامي" فلم يصل إلينا كاملاً كما أنه مازال غير مطبوع، وهو يتناول حياة ومكارم صلاح الدين منذ عام 1175. على أن الدراسات الحديثة بدأت تجد تحت شكل هذين المؤلفين الذي لايضاق مصدراً واسعاً لسيرة الأيوبي الكبير وللحوادث التي كان هو بطلها في سوريا وما بين النهرين، كما أنها رأت في إمام الدين مؤلفاً قيماً دقيقاً وأميناً وغنياً بالمعلومات المهمة. لكننا سنرى في المقاطع التي اعتمدناها كيف أن المعطيات البسيطة مغمورة في بحر مرعب من الثرثرات.

النص طبعة Leiden-Landberg 1888

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

110-117، 122-137، 155-157، 174-176.

أبو شامة

هو شهاب الدين أبو القاسم أبو شامة (دمشق 1203/599 – 1267/665)، باحث ومعلم، كان مصنفاً "مكتبياً"، جمع في مؤلفه "كتاب الروضتين" (الذي يدور حول أسرتي نور الدين وصلاح الدين) كثيراً من المواد التاريخية التي نعرف الآن أكثرها من خلال مصادرها الأساسية. كان كثير الاستشهاد بالمصادر المأخوذة عن ابن القلانسي وإمام الدين (بعد وضعه في شكل سهل مقبول) وبهاء الدين وابن الأثير.. ألخ.. ويهمنا أكثر ما يهمنا فيه استشهاداته بمؤلفات مفقودة للمؤرخ الشيعي

الحلبي ابن أبي الطي، الذي ألف هو أيضاً كتاباً عن سيرة صلاح الدين. وقد حفظ لنا كتاب الروضتين" وثائقاً كثيرة كانت في ديوان السلطان صلاح الدين، جمعها كاتبه الأول القاضي الفاضل والذي قام أيضاً بتنسيق مجموعات خاصة للرسائل.

النص، طبعة القاهرة 1870/1287

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

162

مناقب رشيد الدين

نشير تحت هذا العنوان إلى مؤلف فريد من نوعه أتانا عن طائفة الاسماعيلين في سورية (الحشاشين). وهو عبارة عن مجموعة من الذكريات والنوادر عن "الشيخ الأعظم" رشيد الدين سنان، الذي عاصر صلاح الدين وتزعم الطائفة في سورية عندما كانت على جانب كبير من الهيبة. نجد في الكتاب مواد عن القيم والأخلاقيات أكثر من المواد التاريخية التي يمكن الاعتماد عليها. وقد جمعها كلها عام 1324 أحد أتباع الطائفة المجهولين، وهو الشيخ أبو فراس من مانقة، كانت قوة الاسماعيلين في ذلك الوقت قد شارفت منذ حين بعيد على الغياب. ويمكننا أن نرى في النص الذي اقتطفناه شيئاً عن مقتل ملك فرنسا 'ريدا فرنس كونراد" لكن تحت كثير من التلوين البلاغي.

النص في: سلسلة Journal Asiatique، الجزء السابع، الصفحات 324 – 489

(S.GUYARD, Un grand Maitre des Assassins au temps de Saladin).

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

181-179

ابن واصل

وهو جمال الدين بن واصل (حماة 1207/604 – 1298/697)، حصل على مناصب عديدة في أواخر عهد الأيوبيين وأوائل عهد المماليك، عيّن عام 1261 سفيراً لبيبرس لدى منفريد، ثم أصبح كبيراً لقضاة مسقط رأسه حماه. أهم مؤلفاته

"مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" الذي يدور حول أسرة صلاح الدين، ولكنه تناول أيضاً من سبقها من السلالة الزنكية، ومن تلاها من الأسرة المملوكية وذلك حتى عام 1282/680. لهذا يعتبر الكتاب من أهم المصادر حول الحروب الصليبية في القرن الثاني عشر (الحملة الخامسة، رحلة فردريك الثاني، حملة سان لويس)، وعنه أخذ أواخر المصنفين. لكن هذا الكتاب لم ينل ما يستحقه من اهتمام خلال وقت طويل من الزمان وبقي غير مطبوع، حتى تم نشره منذ زمن قريب[1].

النص: مخطوطة عربية – ms.Ar. باريس 1702 (صور طبق الأصل في مكتبة كايتاني).

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

193–198، 200–203، 206–216

سبط ابن الجوزي

وهو حفيد (سبط) المؤرخ ابن الجوزي، كان خطيباً مرموقاً، عاش مدة طويلة في دمشق في قصور الأيوبيين (بغداد 1186/582 – دمشق 1256/654). وصل إلينا مؤلفه الشامل الضخم والدقيق "مرآة الزمان" في نسختين، وتعود أهميته، قبل كل شيء، لمؤلفه ولما يذكره عن الحوادث في سوريا: فبفضله على سبيل المثال تعرفنا إلى التفاصيل المهمة حول زيارة فردريك إلى القدس، وتعرفنا كذلك إلى تفاصيل تصويرية تعود إلى القرن الأسبق وتدور حول حصار دمشق أيام الحملة الثانية.

النص: طبعة ناقصة Jewett، شيكاغو 1907 (495 – 654 هـ). أما النص حول حصار دمشق، فرطلب في هامش في كتاب ابن القلانسي، طبعة Amedroz

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

70–71، 199–200.

(1) صدر منه حتى الآن ثلاثة أجزاء (القاهرة 1954/1962) بإشراف م. شيال.

تأريخ المنصوري

تأريخ يصل حتى عام 1233/631، لمؤلف مغمور من حاشية أمراء الأيوبيين في سورية، وهو أبو الفضل من حماة. الكتاب مكرس للملك المنصور ملك حمص (وهذا مايدل عليه عنوان الكتاب). وهو مهم بسبب مافيه من أخبار عن فردريك الثاني في الأراضي المقدسة، ونص رسائله العربية بعد ان عاد الى إيطاليا مباشرة، وكذلك عن آخر أخبار المسلمين في صقلية، والتي وصلت إلى الشرق مع مهاجرين ومبعوثين عرب – صقليين. وقد نشر ميكيل أماري MICHELE AMARI هذه المقتطفات الثمينة المأخوذة من المخطوطة الفريدة غير المطبوعة والمحفوظة في المتحف الأسيوي في بطرسبرغ (لينينغراد).

النص في الملحق الثاني لـ Biblioteca Arabo-Sicula, Seconda Appendice, Leipzig 1887

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

205–203

ابن عبد الزاهر

وهو محي الدين بن عبد الزاهر (القاهرة 1233/620 – 1293/692)، كان كاتباً عند السلطانين المملوكيين بيبرس وقلاوون، ومدوناً للأحداث الرسمية في ديوانهم، ومن ثم أصبح مؤرخهم ومدون سيرهم من معلومات جمعها. لكنه لم يبق لنا من سيرة بيبرس المسماة 'سيرة الملك الظاهر' إلا بعض الفصول الأصلية فضلاً عن ملخص لها حرره شافع العسقلاني قريب المؤلف. وهناك قسم كبير من سيرة قلاوون في "تشريف الأيام والعصور بسيرة السلطان الملك المنصور". كتب ابن عبد الزاهر أيضاً سيرة ابن قلاوون، الأشرف وهو فاتح عكا، ولم ينشر منه حتى الآن إلا جزء يسير. وكل ما تبقى من أعمال الكاتب ما زال حتى الآن غير منشور، ذلك رغم ماله من أهمية كشاهد مباشر عن الأحداث المروية، وناشر لوثائق رسمية قيمة(رسائل، أخبار ... ألخ..). يبقى على اي حال امرا طبيعيا أن تدفعنا مواقفه ومديحه لسلاطينه إلى التمهل في الاستفادة التاريخية منه.

النص: "مختصر شافع حول حياة بيبرس"، مخطوطة عربية ms.an باريس 1707 وتشريف (حياة قلاوون) مخطوطة عربية ms.ar باريس 1704 (عن صور طبق الاصل في مكتبة كايتاني).

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

221 224، 226، 231–235.

تشريف

(راجع ابن عبد الزاهر)

المقرزي

وهو تقي الدين المقرزي (القاهرة 1364/766 1442/845)، باحث وعالم ضليع يهتم بالأثريات، جمع مواداً هامة حول تضاريس مصر التاريخية. له أهمية خاصة بالنسبة للفترة التي نحن بصددها بفضل أحد كتبه التاريخية، الذي يكاد يعتمد كلية على تصنيف مقتطفات من: (ابن واصل، سبط ابن الجوزي، ابن عبد الزاهر، ومصادر أخرى أقل أهمية)، ويبقى كذلك مهماً وضرورياً على مانعرف حالياً، بفضل كتابه الأخر: "كتاب السلوك في معرفة تاريخ الملوك"، الذي يتناول تاريخ الأيوبيين والمماليك منذ عام 1181/577 حتى عام 1436/840. ولهذا الكتاب أهمية خاصة لتناوله الحملتين الصليبيتين على مصر والانتصارات المملوكية النهائية في سورية.

النص: طبعة م. زيادة، الجزء الأول، القاهرة 1934

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

216 219، 241–242.

ابن الفرات

وهو نصر الدين بن الفرات (القاهرة 1334/735 – 1405/807)، يعتبر مثله مثل المقرزي وأكثر المعاصرين مصنفاً كبيراً. تنبع أهميته عن أهمية المصادر التي نقل

عنها. أما مؤلفه "تاريخ الدول والملوك" فلم يصلنا كاملاً ومازال قسم كبير منه غير مطبوع وهو يصل حتى القرن الرابع عشر، وفيه مواد مهمة تتناول عهد أوائل المماليك. من مزايا ابن الفرات الأخرى المعترف بها منذ حين أنه استشهد – مثلما فعل أبو شامة – بالمؤلف المفقود لابن أبي طي حول عهد صلاح الدين.

النص: مخطوطة عربية – فيينا ms.Ar. - 814 A.F. – المجلدين 4،5 (عن صورة طبق الأصل في مكتبة كايتاني)

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

225–226، 227 229، 236–237.

العيني

وهو بدر الدين العيني (عنتاب 762/1360 – القاهرة 855/1451) سياسي وموظف لدى المماليك، عالم ودارس للتشريعات السنية، ألف تاريخاً عاماً "عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان"، تنبع أهميته – كالعادة –بسبب المصادر التي أخذ عنها، سواء لم تكن معروفة بعد أو غير متوفرة.

النص في: Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux

الجزء الثاني، باريس 1887

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

229–230.

أبو الفداء

وهو أبو الفداء إمام الدين اسماعيل بن علي الأيوبي، وهو (أبو الفدا) لدى مستعربي القرنين الثامن والتاسع عشر (دمشق 672/1273 – حماة 732/1331) أمير أديب ظريف، يذكرنا بعض الشيء بأسامة. وهو أحد أفراد العائلة الأيوبية، برز عندما بدأت تفقد قوتها الذاتية المستقلة، وبعد أن هزمها المماليك في كل من مصر وسورية. لكنه انتزع اعتراف العائلة به ليعمل تحت سلطتهم سيداً على مدينة أجداده حماه، وقد حكمها تحت لقب الملك المؤيد حتى وفاته. أهم مؤلفاته

كتاب "مختصر تاريخ البشر" التاريخي، وكتاب "تقويم البلدان" الجغرافي، وكان هذان الكتابان من أوائل الكتب الأدبية العربية التي عرفت ونشر بعضها في أوربا منذ بداية عهد الاستشراق الحديث. هذا مما أدى إلى إعطاء هذين التصنيفين أهمية أكبر مما يستحقان، إلا أن هذا بقي أمراً مؤقتاً زال بعد التعرف إلى كتب أقدم وأكثر أصالة. أهم مافي تاريخه هو ماكتبه عن أحداث عاصرها هذا المؤلف الذي ساهم منذ صباه في حروب المماليك ضد طرابلس وعكا، فكان شاهد عيان للخاتمة الماساوية للحروب الصليبية.

النص في: Recueil des Historiens des Croisades, historiens orientaux،

الجزء الأول، باريس 1872

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

241-244.

أبو المحاسن

وهو أبو المحاسن بن طغر بيبردي (القاهرة 813/1411 – 874/1469)؛ وهو أيضاً من جملة العلماء في عهد المماليك. ويعتبر تاريخه "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" أوسع تاريخ عام عن بلده منذ الفتح العربي حتى عام 857/1453، لكن هذا الكتاب أيضاً يقوم على التصنيف. إن كتاب أبو الفداء، ثم ما أملاه لنا أبو المحاسن عن حصار ومجزرة عكا تحت قيادة الأشرف (الذي يعتمد بكل تأكيد على مصادر معاصرة) يعتبر أهم نص إسلامي وصلنا حول هذا الحدث، خاصة وأن الأمر لم يذكر في القسم المطبوع من سيرة ابن عبد الزاهر عن ذاك السلطان.

النص: مخطوطة عربية – ms.Ar باريس 1873(عن صور طبق الأصل في مكتبة كايتاني)[1]

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

244-246.

---

(1) لاتوجد في الطبعتين الغربيتين (Matthes-Popper) لكتاب النجوم اشارة الى تلك الفترة. ولم أتمكن من الوصول إلى طبعة القاهرة.



المؤرخون العرب للحروب الصليبية



القسم الأول

من كندفري إلى صلاح الدين



- 1 -

ابن القلانسي وابن الأثير هما المصدران الرئيسيان في روايتنا هذه عن الحملة الصليبية الأولى. سنلاحظ أن المؤرخ الدمشقي يكتفي بتقديم رواية إخبارية عن الأحداث، بينما يعمل ابن الأثير على ربط ظاهرة الحملات الصليبية بحركة الهجوم المسيحي على الإسلام (من تطورات/استعادة اسبانيا إلى استيلاء النورماند على صقلية). على هذا الأساس يقدم لنا مؤرخ مابين النهرين، وبطريقة شاملة وفعالة ومباشرة، رواياته عن سقوط أنطاكية والقدس في أيدي الصليبيين ثم تقدمهم في الأراضي المقدسة وكذلك ردات الفعل الإسلامية الأولى.

استيلاء الفرنجة على أنطاكية

ابن الأثير (10/185-188)[1]

كَانَ ابْتِدَاءُ ظُهُورِ دَوْلَةِ الْفِرِنْجِ، وَاشْتِدَادُ أَمْرِهِمْ، وَخُرُوجِهِمْ إِلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ، وَاسْتِيلَائِهِمْ عَلَى بَعْضِهَا، سَنَةَ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، (1085-1086م) فَمَلَكُوا مَدِينَةَ طُلَيْطِلَةَ وَغَيْرَهَا مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ ذَلِكَ. ثُمَّ قَصَدُوا سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ (1091م) جَزِيرَةَ صِقِلِّيَةَ وَمَلَكُوهَا[2]، وَقَدْ ذَكَرْتُهُ أَيْضًا، وَتَطَرَّقُوا إِلَى أَطْرَافِ إِفْرِيقِيَّةَ، فَمَلَكُوا مِنْهَا شَيْئًا وَأُخِذَ مِنْهُمْ، ثُمَّ مَلَكُوا غَيْرَهُ عَلَى مَا نَرَاهُ. فَلَمَّا كَانَ سَنَةَ تِسْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ (1097م) خَرَجُوا إِلَى بِلَادِ الشَّامِ، وَكَانَ سَبَبُ خُرُوجِهِمْ أَنَّ مَلِكَهُمْ بَرْدَوِيلَ[3] جَمَعَ جَمْعًا كَثِيرًا مِنَ الْفِرِنْجِ، وَكَانَ نَسِيبَ رُجَّارَ الْفِرِنْجِيِّ الَّذِي

---

(1) أكرر أن كل أرقام الصفحات هذه - هنا وفي كل الكتاب - تشير إلى صفحات الطبعات المذكورة في فصل "المؤلفون والكتب" [المترجم]

(2) من الواضح أن هذا التاريخ يشير إلى نهاية الغزو النورماني.

(3) بلدوين هذا (بالدوين الأول) شخص خيالي، نتج عن التباس بين أسماء العديد من أشخاص يحملون هذا الاسم في الفلاندر والقدس، أو أنه أول بردويل تم تخيله خطأ على أنه ملك من ملوك الغرب.

مَلِكَ صِقِلِّيَةَ فَأَرْسَلَ إِلَى رُجَّارَ يَقُولُ لَهُ: "قَدْ جَمَعْتُ جَمْعًا كَثِيرًا، وَأَنَا وَاصِلٌ إِلَيْكَ، وَسَائِرٌ مِنْ عِنْدِكَ إِلَى إِفْرِيقِيَةَ أَفْتَحُهَا، وَأَكُونُ مُجَاوِرًا لَكَ. فَجَمَعَ رُجَّارُ أَصْحَابَهُ، وَاسْتَشَارَ فِي ذَلِكَ، وَقَالُوا: وَحَقِّ الْإِنْجِيلِ هَذَا جَيِّدٌ لَنَا وَلَهُمْ، وَتُصْبِحُ الْبِلَادُ بِلَادَ النَّصْرَانِيَّةِ". فَرَفَعَ رِجْلَهُ وَحَبَقَ حَبْقَةً عَظِيمَةً وَقَالَ: "وَحَقِّ دِينِي، هَذِهِ خَيْرٌ مِنْ كَلَامِكُمْ"![1] قَالُوا: "وَكَيْفَ ذَلِكَ"؟ قَالَ: "إِذَا وَصَلُوا إِلَيَّ أَحْتَاجُ إِلَى كُلْفَةٍ كَثِيرَةٍ، وَمَرَاكِبَ تَحْمِلُهُمْ إِلَى إِفْرِيقِيَةَ، وَعَسَاكِرَ مِنْ عِنْدِي أَيْضًا، فَإِنْ فَتَحُوا الْبِلَادَ كَانَتْ لَهُمْ، وَصَارَتِ الْمَئُونَةُ لَهُمْ مِنْ صِقِلِّيَةَ وَيَنْقَطِعُ عَنِّي مَا يَصِلُ مِنَ الْمَالِ مِنْ ثَمَنِ الْغَلَّاتِ كُلَّ سَنَةٍ، وَإِنْ لَمْ يُفْلِحُوا رَجَعُوا إِلَى بِلَادِي، وَتَأَذَّيْتُ بِهِمْ، وَيَقُولُ تَمِيمٌ:[2] غَدَرْتَ بِي، وَنَقَضْتَ عَهْدِي، وَتَنْقَطِعُ الْوُصْلَةُ وَالْأَسْفَارُ بَيْنَنَا، وَبِلَادُ إِفْرِيقِيَةَ بَاقِيَةٌ لَنَا، مَتَى وَجَدْنَا قُوَّةً أَخَذْنَاهَا". وَأَحْضَرَ رَسُولَهُ، وَقَالَ لَهُ: "إِذَا عَزَمْتُمْ عَلَى جِهَادِ الْمُسْلِمِينَ، فَأَفْضَلُ ذَلِكَ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، تُخَلِّصُونَهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَيَكُونُ لَكُمُ الْفَخْرُ، وَأَمَّا إِفْرِيقِيَةُ فَبَيْنِي وَبَيْنَ أَهْلِهَا أَيْمَانٌ وَعُهُودٌ". فَتَجَهَّزُوا، وَخَرَجُوا إِلَى الشَّامِ. وَقِيلَ: إِنَّ أَصْحَابَ مِصْرَ مِنَ الْعَلَوِيِّينَ، لَمَّا رَأَوْا قُوَّةَ الدَّوْلَةِ السَّلْجُوقِيَّةِ، وَتَمَكُّنَهَا وَاسْتِيلَاءَهَا عَلَى بِلَادِ الشَّامِ إِلَى غَزَّةَ، وَلَمْ يَبْقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مِصْرَ وِلَايَةٌ أُخْرَى تَمْنَعُهُمْ، وَدُخُولَ أَقْسِيسَ[3] إِلَى مِصْرَ وَحَصْرَهَا؛ خَافُوا، وَأَرْسَلُوا إِلَى الْفِرِنْجِ يَدْعُونَهُمْ إِلَى الْخُرُوجِ إِلَى الشَّامِ لِيَمْلِكُوهُ، وَيَكُونُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ.[4] (وَاللَّهُ أَعْلَمُ).

فَلَمَّا عَزَمَ الْفِرِنْجُ عَلَى قَصْدِ الشَّامِ، وَسَارُوا إِلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ لِيَعْبُرُوا الْمَجَازَ إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَسِيرُوا فِي الْبَرِّ، فَيَكُونَ أَسْهَلَ عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَيْهَا

---

(1) من المؤسف أن يتم في بداية هذه الصفحات تصوير الكونت "الأكبر بربرياً" بهذا الشكل. لكن هذا أمر تقليدي، سواء بسبب "الطريقة العدائية المبتذلة التي يتكلم بها عادةً أولئك المسلمون عن أعدائهم، أو لأن هذا المقطع الخيالي يصور بأمانة بالغة الحنكة السياسية التي يتمتع بها روجر.

(2) وهو سلطان تونس الزيري، تميم بن معز (1061–1107).

(3) قائد عسكري تابع للسلطان السلجوقي مالك شاه، وكان قد غزى مصر عام 1076 انطلاقاً من فلسطين.

(4) الفاطميون هم بالطبع مسلمون أيضاً، لكنهم طائفة منشقة، وقد تم وضعهم هنا في تناقض مع الإسلام السني.

مَنَعَهُمْ مَلِكُ الرُّومِ مِنَ الاجْتِيَازِ بِبِلادِهِ، وَقَالَ: "لا أُمَكِّنُكُمْ مِنَ العُبُورِ إِلَى بِلادِ الإِسْلامِ حَتَّى تَحْلِفُوا لِي أَنَّكُمْ تُسَلِّمُونَ إِلَيَّ أَنْطَاكِيَةَ"، وَكَانَ قَصْدُهُ [أَنْ] يَحُثَّهُمْ عَلَى الْخُرُوجِ إِلَى بِلادِ الإِسْلامِ، ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهُمْ أَتْرَاكٌ لا يُبْقُونَ مِنْهُمْ أَحَدًا، لِمَا رَأَى مِنْ صَرَامَتِهِمْ وَمُلْكِهِمُ الْبِلادَ. فَأَجَابُوهُ إِلَى ذَلِكَ، وَعَبَرُوا الْخَلِيجَ عِنْدَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ سَنَةَ تِسْعِينَ [وَأَرْبَعِمِائَةٍ] (1097م)، وَوَصَلُوا إِلَى بِلادِ قِلِيجِ أُرْسَلانَ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ قُتُلْمِشَ، وَهِيَ قُونِيَةُ وَغَيْرُهَا، فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَيْهَا لَقِيَهُمْ قِلِيجُ أَرْسَلانُ فِي جُمُوعِهِ، وَمَنَعَهُمْ، فَقَاتَلُوهُ فَهَزَمُوهُ فِي رَجَبٍ سَنَةَ تِسْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ (تموز – لوليه 1097م)، وَاجْتَازُوا فِي بِلادِهِ إِلَى بِلادِ ابْنِ الأَرْمَنِيِّ[1]، فَسَلَكُوهَا، وَخَرَجُوا إِلَى أَنْطَاكِيَةَ فَحَصَرُوهَا.

وَلَمَّا سَمِعَ صَاحِبُهَا يَاغِي سِيَانَ بِتَوَجُّهِهِمْ إِلَيْهَا، خَافَ مِنَ النَّصَارَى الَّذِينَ بِهَا، فَأَخْرَجَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِهَا، لَيْسَ مَعَهُمْ غَيْرُهُمْ، وَأَمَرَهُمْ بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ، ثُمَّ أَخْرَجَ مِنَ الْغَدِ النَّصَارَى لِعَمَلِ الْخَنْدَقِ أَيْضًا، لَيْسَ مَعَهُمْ مُسْلِمٌ، فَعَمِلُوا فِيهِ إِلَى الْعَصْرِ، فَلَمَّا أَرَادُوا دُخُولَ الْبَلَدِ مَنَعَهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: "أَنْطَاكِيَةُ لَكُمْ تَهَبُونَهَا لِي حَتَّى أَنْظُرَ مَا يَكُونُ مِنَّا وَمِنَ الْفِرِنْجِ"، فَقَالُوا لَهُ: "مَنْ يَحْفَظُ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا"؟ فَقَالَ: "أَنَا أَخْلُفُكُمْ فِيهِمْ"، فَأَمْسَكُوا، وَأَقَامُوا فِي عَسْكَرِ الْفِرِنْجِ، فَحَصَرُوهَا تِسْعَةَ أَشْهُرٍ.

وَظَهَرَ مِنْ شَجَاعَةِ يَاغِي سِيَانَ، وَجَوْدَةِ رَأْيِهِ، وَحَزْمِهِ، وَاحْتِيَاطِهِ مَا لَمْ يُشَاهَدْ مِنْ غَيْرِهِ، فَهَلَكَ أَكْثَرُ الْفِرِنْجِ (مَوْتًا، وَلَوْ بَقُوا عَلَى كَثْرَتِهِمُ الَّتِي خَرَجُوا فِيهَا لَطَبَّقُوا بِلادَ الإِسْلامِ)، وَحَفِظَ يَاغِي سِيَانُ أَهْلَ نَصَارَى أَنْطَاكِيَةَ الَّذِينَ أَخْرَجَهُمْ، وَكَفَّ الأَيْدِيَ الْمُتَطَرِّقَةَ إِلَيْهِمْ.

فَلَمَّا طَالَ مُقَامُ الْفِرِنْجِ عَلَى أَنْطَاكِيَةَ رَاسَلُوا أَحَدَ الْمُسْتَحْفِظِينَ لِلأَبْرَاجِ، وَهُوَ زَرَّادٌ يُعْرَفُ بِرُوزْبَهْ، وَبَذَلُوا لَهُ مَالاً وَإِقْطَاعًا، وَكَانَ يَتَوَلَّى حِفْظَ بُرْجٍ يَلِي الْوَادِيَ، وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى شُبَّاكٍ فِي الْوَادِي، فَلَمَّا تَقَرَّرَ الأَمْرُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ هَذَا الْمَلْعُونِ الزَّرَّادِ، جَاءُوا إِلَى الشُّبَّاكِ فَفَتَحُوهُ، وَدَخَلُوا مِنْهُ، وَصَعِدَ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ بِالْحِبَالِ، فَلَمَّا زَادَتْ عِدَّتُهُمْ عَلَى خَمْسِمِائَةٍ ضَرَبُوا الْبُوقَ، وَذَلِكَ عِنْدَ السَّحَرِ، وَقَدْ تَعِبَ النَّاسُ مِنْ كَثْرَةِ السَّهَرِ وَالْحِرَاسَةِ، فَاسْتَيْقَظَ يَاغِي سِيَانُ، فَسَأَلَ عَنِ الْحَالِ، فَقِيلَ: إِنَّ هَذَا الْبُوقَ مِنَ

---

(1) ذلك كما كان المؤرخون العرب يسمون أرمينيا الصغرى القليقية.

الْقَلْعَةِ، وَلَا شَكَّ أَنَّهَا قَدْ مُلِكَتْ، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْقَلْعَةِ، وَإِنَّمَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ الْبُرْجِ، فَدَخَلَهُ الرُّعْبُ، وَفَتَحَ بَابَ الْبَلَدِ، وَخَرَجَ هَارِبًا فِي ثَلَاثِينَ غُلَامًا عَلَى وَجْهِهِ، فَجَاءَ نَائِبُهُ فِي حِفْظِ الْبَلَدِ، فَسَأَلَ عَنْهُ، فَقِيلَ إِنَّهُ هَرَبَ، فَخَرَجَ مِنْ بَابٍ آخَرَ هَارِبًا، وَكَانَ ذَلِكَ مَعُونَةً لِلْفِرِنْجِ، وَلَوْ ثَبَتَ سَاعَةً لَهَلَكُوا. ثُمَّ إِنَّ الْفِرِنْجَ دَخَلُوا الْبَلَدَ مِنَ الْبَابِ، وَنَهَبُوهُ، وَقَتَلُوا مَنْ فِيهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَذَلِكَ فِي جُمَادَى الْأُولَى. (نيسان–أيار/ابريل–ماي 1098 م[49/1]) [1] وَأَمَّا يَاغِي سِيَانُ فَإِنَّهُ لَمَّا طَلَعَ عَلَيْهِ النَّهَارُ رَجَعَ إِلَيْهِ عَقْلُهُ، وَكَانَ كَالْوَلْهَانِ، فَرَأَى نَفْسَهُ وَقَدْ قَطَعَ عِدَّةَ فَرَاسِخَ[2]، فَقَالَ لِمَنْ مَعَهُ: "أَيْنَ أَنَا؟" فَقِيلَ: "عَلَى أَرْبَعَةِ فَرَاسِخَ مِنْ أَنْطَاكِيَةَ"، فَنَدِمَ كَيْفَ خَلَصَ سَالِمًا، وَلَمْ يُقَاتِلْ حَتَّى يُزِيلَهُمْ عَنِ الْبَلَدِ أَوْ يُقْتَلَ، وَجَعَلَ يَتَلَهَّفُ، وَيَسْتَرْجِعُ عَلَى تَرْكِ أَهْلِهِ وَأَوْلَادِهِ وَالْمُسْلِمِينَ، فَلِشِدَّةِ مَا لَحِقَهُ سَقَطَ عَنْ فَرَسِهِ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ. فَلَمَّا سَقَطَ إِلَى الْأَرْضِ أَرَادَ أَصْحَابُهُ أَنْ يُرْكِبُوهُ، فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ مُسْكَةٌ [فَإِنَّهُ كَانَ] قَدْ قَارَبَ الْمَوْتَ فَتَرَكُوهُ وَسَارُوا عَنْهُ، وَاجْتَازَ بِهِ إِنْسَانٌ أَرْمَنِيٌّ كَانَ يَقْطَعُ الْحَطَبَ، وَهُوَ بِآخِرِ رَمَقٍ، فَقَتَلَهُ وَأَخَذَ رَأْسَهُ وَحَمَلَهُ إِلَى الْفِرِنْجِ بِأَنْطَاكِيَةَ. وَكَانَ الْفِرِنْجُ قَدْ كَاتَبُوا صَاحِبَ حَلَبَ، وَدِمَشْقَ، بِأَنَّنَا لَا نَقْصِدُ غَيْرَ الْبِلَادِ الَّتِي كَانَتْ بِيَدِ الرُّومِ، لَا نَطْلُبُ سِوَاهَا، مَكْرًا مِنْهُمْ وَخَدِيعَةً، حَتَّى لَا يُسَاعِدُوا صَاحِبَ أَنْطَاكِيَةَ.

ذِكْرُ مَسِيرِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْفِرِنْجِ وَمَا كَانَ مِنْهُمْ

(ابن الأثير 188/10–190)

لَمَّا سَمِعَ قِوَامُ الدَّوْلَةِ كَرْبُوقَا[3] بِحَالِ الْفِرِنْجِ، وَمُلْكِهِمْ أَنْطَاكِيَةَ، جَمَعَ الْعَسَاكِرَ وَسَارَ إِلَى الشَّامِ، وَأَقَامَ بِمَرْجِ دَابِقَ، وَاجْتَمَعَتْ مَعَهُ عَسَاكِرُ الشَّامِ، تُرْكُهَا وَعَرَبُهَا سِوَى مَنْ كَانَ بِحَلَبَ، فَاجْتَمَعَ مَعَهُ دُقَاقُ بْنُ تُتُشَ[4] وَطُغْتِكِينُ أَتَابِكُ، وَجَنَاحُ

---

(1) حسب المصادر الغربية: 3 حزيران – يونية.

(2) الفرسخ حوالى 6 كيلومتر.

(3) أمير الموصل التركي.

(4) صاحب دمشق السلجوقي، وسرعان ما خلفه واحد من قواد جيشه أتابك طغتكين فعُيِّن بعده مباشرة ليصبح من أعنف خصوم الفرنجة خلال هذه المرحلة الأولى من الغزو.

الدَّوْلَةِ، وَصَاحِبُ حِمْصَ، وَأَرْسَلَانُ تَاشُ، صَاحِبُ سِنْجَارَ، وَسُلَيْمَانُ بْنُ أُرْتُقَ، وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْأُمَرَاءِ مِمَّنْ لَيْسَ مِثْلَهُمْ، فَلَمَّا سَمِعَتِ الْفِرِنْجُ عَظُمَتِ الْمُصِيبَةُ عَلَيْهِمْ، وَخَافُوا لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْوَهَنِ، وَقِلَّةِ الْأَقْوَاتِ عِنْدَهُمْ، وَسَارَ الْمُسْلِمُونَ، فَنَازَلُوهُمْ عَلَى أَنْطَاكِيَةَ، وَأَسَاءَ كَرْبُوقَا السِّيرَةَ فِيمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَغْضَبَ الْأُمَرَاءَ وَتَكَبَّرَ عَلَيْهِمْ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهُمْ يُقِيمُونَ مَعَهُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، فَأَغْضَبَهُمْ ذَلِكَ، وَأَضْمَرُوا لَهُ فِي أَنْفُسِهِمُ الْغَدْرَ، إِذَا كَانَ قِتَالٌ، وَعَزَمُوا عَلَى إِسْلَامِهِ عِنْدَ الْمُصَادَقَةِ. وَأَقَامَ الْفِرِنْجُ بِأَنْطَاكِيَةَ، بَعْدَ أَنْ مَلَكُوهَا، اثْنَيْ عَشَرَ يَوْمًا لَيْسَ لَهُمْ مَا يَأْكُلُونَهُ، وَتَقَوَّتَ الْأَقْوِيَاءُ بِدَوَابِّهِمْ، وَالضُّعَفَاءُ بِالْمَيْتَةِ وَوَرَقِ الشَّجَرِ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ أَرْسَلُوا إِلَى كَرْبُوقَا يَطْلُبُونَ مِنْهُ الْأَمَانَ لِيَخْرُجُوا مِنَ الْبَلَدِ، فَلَمْ يُعْطِهِمْ مَا طَلَبُوهُ، وَقَالَ: "لَا تَخْرُجُونَ إِلَّا بِالسَّيْفِ". وَكَانَ مَعَهُمْ مِنَ الْمُلُوكِ بَرْدَوِيلُ، وَصَنْجِيلُ، وَكُنْدُفْرِي، وَالْقُمَّصُ، (لاحقاً)صاحب الرُّهَا[1] وَبِيمُنْتُ، صَاحِبُ أَنْطَاكِيَةَ، وَهُوَ الْمُقَدَّمُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ مَعَهُمْ رَاهِبٌ مُطَاعٌ فِيهِمْ، وَكَانَ دَاهِيَةً مِنَ الرِّجَالِ، فَقَالَ لَهُمْ: "إِنَّ الْمَسِيحَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ لَهُ حَرْبَةٌ مَدْفُونَةٌ بِالْقُسْيَانِ الَّذِي بِأَنْطَاكِيَةَ"، وَهُوَ بِنَاءٌ عَظِيمٌ[2]، "فَإِنْ وَجَدْتُمُوهَا فَإِنَّكُمْ تَظْفَرُونَ، وَإِنْ لَمْ تَجِدُوهَا فَالْهَلَاكُ مُتَحَقِّقٌ".

وَكَانَ قَدْ دَفَنَ قَبْلَ ذَلِكَ حَرْبَةً فِي مَكَانٍ فِيهِ، وَعَفَّى أَثَرَهَا، وَأَمَرَهُمْ بِالصَّوْمِ وَالتَّوْبَةِ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الرَّابِعُ أَدْخَلَهُمُ الْمَوْضِعَ جَمِيعَهُمْ، وَمَعَهُمْ عَامَّتُهُمْ، وَالصُّنَّاعُ مِنْهُمْ، وَحَفَرُوا فِي جَمِيعِ الْأَمَاكِنِ فَوَجَدُوهَا كَمَا ذَكَرَ[3]، فَقَالَ لَهُمْ: "أَبْشِرُوا بِالظَّفَرِ"، فَخَرَجُوا فِي الْيَوْمِ الْخَامِسِ مِنَ الْبَابِ مُتَفَرِّقِينَ مِنْ خَمْسَةٍ، وَسِتَّةٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ لِكَرْبُوقَا: "يَنْبَغِي أَنْ تَقِفَ عَلَى الْبَابِ، فَتَقْتُلَ كُلَّ مَنْ يَخْرُجُ، فَإِنَّ أَمْرَهُمُ الْآنَ، وَهُمْ مُتَفَرِّقُونَ، سَهْلٌ" فَقَالَ "لَا تَفْعَلُوا! أَمْهِلُوهُمْ حَتَّى يَتَكَامَلَ خُرُوجُهُمْ فَنَقْتُلَهُمْ"، وَلَمْ يُمَكِّنْ مِنْ مُعَاجَلَتِهِمْ، فَقَتَلَ قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ جَمَاعَةً مِنَ الْخَارِجِينَ، فَجَاءَ إِلَيْهِمْ هُوَ بِنَفْسِهِ، وَمَنَعَهُمْ، وَنَهَاهُمْ. فَلَمَّا

---

(1) وهو Baudoin du Bourg وسيصبح بعدها بالدوين الثاني.

(2) كنيسة مار بطرس الأنطاكية، واسمها في المصادر العربية قسيان، على اسم شخص أحيى مار بطرس له ابنه.

(3) معجزة الرمح المقدس التي حققها Pierre Barthelemy، مروية هنا من خلال منظور عقلاني إسلامي.

تكامل خُرُوجُ الفرنج، وَلَمْ يَبْقَ بِأَنْطَاكِيَةَ أَحَدٌ مِنْهُمْ، ضَرَبُوا مَصَافًّا عَظِيمًا، فَوَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُنْهَزِمِينَ، لِمَا عَامَلَهُمْ بِهِ كَرْبُوقَا أَوَّلًا مِنَ الِاسْتِهَانَةِ بِهِمْ وَالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ، وَثَانِيًا مِنْ مَنْعِهِمْ عَنْ قَتْلِ الْفِرِنْجِ، وَتَمَّتِ الْهَزِيمَةُ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَضْرِبْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِسَيْفٍ، وَلَا طَعَنَ بِرُمْحٍ، وَلَا رَمَى بِسَهْمٍ، وَآخِرُ مَنِ انْهَزَمَ سُقْمَانُ بْنُ أُرْتُقَ، وَجَنَاحُ الدَّوْلَةِ، لِأَنَّهُمَا كَانَا فِي الْكَمِينِ، وَانْهَزَمَ كَرْبُوقَا مَعَهُمْ. فَلَمَّا رَأَى الْفِرِنْجُ ذَلِكَ ظَنُّوهُ مَكِيدَةً، إِذْ لَمْ يَجْرِ قِتَالٌ يُنْهَزَمُ مِنْ مِثْلِهِ، وَخَافُوا أَنْ يَتْبَعُوهُمْ، وَثَبَتَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ، وَقَاتَلُوا حِسْبَةً، وَطَلَبًا لِلشَّهَادَةِ، فَقَتَلَ الْفِرِنْجُ مِنْهُمْ أُلُوفًا، وَغَنِمُوا مَا فِي الْعَسْكَرِ مِنَ الْأَقْوَاتِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَثَاثِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَسْلِحَةِ، فَصَلُحَتْ حَالُهُمْ، وَعَادَتْ إِلَيْهِمْ قُوَّتُهُمْ.

ذِكْرُ مُلْكِ الْفِرِنْجِ مَعَرَّةَ النُّعْمَانِ

(ابن الأثير **190/10**)

لَمَّا فَعَلَ الْفِرِنْجُ بِالْمُسْلِمِينَ مَا فَعَلُوا سَارُوا إِلَى مَعَرَّةِ النُّعْمَانِ، فَنَازَلُوهَا، وَحَصَرُوهَا، وَقَاتَلَهُمْ أَهْلُهَا قِتَالًا شَدِيدًا، وَرَأَى الْفِرِنْجُ مِنْهُمْ شِدَّةً وَنِكَايَةً، وَلَقُوا مِنْهُمُ الْجِدَّ فِي حَرْبِهِمْ، وَالِاجْتِهَادَ فِي قِتَالِهِمْ، فَعَمِلُوا عِنْدَ ذَلِكَ بُرْجًا مِنْ خَشَبٍ يُوَازِي سُورَ الْمَدِينَةِ، وَوَقَعَ الْقِتَالُ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَضُرَّ الْمُسْلِمِينَ ذَلِكَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ خَافَ قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَتَدَاخَلَهُمُ الْفَشَلُ وَالْهَلَعُ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِذَا تَحَصَّنُوا بِبَعْضِ الدُّورِ الْكِبَارِ امْتَنَعُوا بِهَا، فَنَزَلُوا مِنَ السُّورِ وَأَخْلَوُا الْمَوْضِعَ الَّذِي كَانُوا يَحْفَظُونَهُ، فَرَآهُمْ طَائِفَةٌ أُخْرَى، فَفَعَلُوا كَفِعْلِهِمْ، فَخَلَا مَكَانُهُمْ أَيْضًا مِنَ السُّورِ. وَلَمْ تَزَلْ تَتْبَعُ طَائِفَةٌ مِنْهُمُ الَّتِي تَلِيهَا فِي النُّزُولِ، حَتَّى خَلَا السُّورُ، فَصَعِدَ الْفِرِنْجُ إِلَيْهِ عَلَى السَّلَالِيمِ، فَلَمَّا عَلَوْهُ تَحَيَّرَ الْمُسْلِمُونَ، وَدَخَلُوا دُورَهُمْ، فَوَضَعَ الْفِرِنْجُ فِيهِمُ السَّيْفَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَقَتَلُوا مَا يَزِيدُ عَلَى مِائَةِ أَلْفٍ، وَسَبَوُا السَّبْيَ الْكَثِيرَ، وَمَلَكُوهُ، وَأَقَامُوا أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَسَارُوا إِلَى عِرْقَةَ فَحَصَرُوهَا أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، وَنَقَبُوا سُورَهَا عِدَّةَ نُقُوبٍ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهَا، وَرَاسَلَهُمْ مُنْقِذٌ صَاحِبُ شَيْزَرَ، فَصَالَحَهُمْ عَلَيْهَا، وَسَارُوا إِلَى حِمْصَ وَحَصَرُوهَا، فَصَالَحَهُمْ صَاحِبُهَا جَنَاحُ الدَّوْلَةِ، وَخَرَجُوا عَلَى طَرِيقِ النَّوَاقِيرِ إِلَى عَكَّا، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهَا.

ذِكْرُ مُلْكِ الْفِرِنْجِ، لَعَنَهُمُ اللَّهُ، الْبَيْتَ الْمُقَدَّسَ

(ابن الأثير 10/193-195)

كَانَ الْبَيْتُ الْمُقَدَّسُ لِتَاجِ الدَّوْلَةِ تُتُشَ[1]، وَأَقْطَعَهُ لِلْأَمِيرِ سُقْمَانَ بْنِ أُرْتُقَ التُّرْكُمَانِيِّ، فَلَمَّا ظَفِرَ الْفِرِنْجُ بِالْأَتْرَاكِ عَلَى أَنْطَاكِيَةَ، وَقَتَلُوا فِيهِمْ، ضَعُفُوا، وَتَفَرَّقُوا، فَلَمَّا رَأَى الْمِصْرِيُّونَ ضَعْفَ الْأَتْرَاكِ سَارُوا إِلَيْهِ، وَمُقَدَّمُهُمُ الْأَفْضَلُ بْنُ بَدْرٍ الْجَمَالِيُّ[2]، وَحَصَرُوهُ، وَبِهِ الْأَمِيرُ سُقْمَانُ، وَإِيلْغَازِي ابْنَا أُرْتُقَ، وَابْنُ عَمِّهِمَا سُونُجُ، وَابْنُ أَخِيهِمَا يَاقُوتِي، وَنَصَبُوا عَلَيْهِ نَيِّفًا وَأَرْبَعِينَ مَنْجَنِيقًا، فَهَدَمُوا مَوَاضِعَ مِنْ سُورِهِ، وَقَاتَلَهُمْ أَهْلُ الْبَلَدِ، فَدَامَ الْقِتَالُ وَالْحِصَارُ نَيِّفًا وَأَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَمَلَكُوهُ بِالْأَمَانِ فِي شَعْبَانَ تِسْعٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ (آب/اوغست 1096[3]). أَحْسَنَ الْأَفْضَلُ إِلَى سُقْمَانَ وَإِيلْغَازِي وَمَنْ مَعَهُمَا، وَأَجْزَلَ لَهُمُ الْعَطَاءَ، وَسَيَّرَهُمْ فَسَارُوا إِلَى دِمَشْقَ، ثُمَّ عَبَرُوا الْفُرَاتَ، فَأَقَامَ سُقْمَانُ بِبَلَدِ الرُّهَا وَسَارَ إِيلْغَازِي إِلَى الْعِرَاقِ، وَاسْتَنَابَ الْمِصْرِيُّونَ فِيهِ رَجُلًا يُعْرَفُ بِافْتِخَارِ الدَّوْلَةِ، وَبَقِيَ فِيهِ إِلَى الْآنِ.

فَقَصَدَهُ الْفِرِنْجُ، بَعْدَ أَنْ حَصَرُوا عَكَّا، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهَا، فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَيْهِ حَصَرُوهُ نَيِّفًا وَأَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَنَصَبُوا عَلَيْهِ بُرْجَيْنِ أَحَدُهُمَا مِنْ نَاحِيَةِ صِهْيَوْنَ، وَأَحْرَقَهُ الْمُسْلِمُونَ، وَقَتَلُوا كُلَّ مَنْ بِهِ. فَلَمَّا فَرَغُوا مِنْ إِحْرَاقِهِ أَتَاهُمُ الْمُسْتَغِيثُ بِأَنَّ الْمَدِينَةَ قَدْ مُلِكَتْ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ، وَمَلَكُوهَا مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ مِنْهُ ضَحْوَةَ نَهَارِ الْجُمُعَةِ لِسَبْعٍ بَقِينَ مِنْ شَعْبَانَ (15 تموز/يوليه 1099م/492)، وَرَكِبَ النَّاسُ السَّيْفَ، وَلَبِثَ الْفِرِنْجُ فِي الْبَلْدَةِ أُسْبُوعًا يَقْتُلُونَ فِيهِ الْمُسْلِمِينَ، وَاحْتَمَى جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِمِحْرَابِ دَاوُدَ[4]، فَاعْتَصَمُوا بِهِ، وَقَاتَلُوا فِيهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَبَذَلَ لَهُمُ الْفِرِنْجُ الْأَمَانَ، فَسَلَّمُوهُ إِلَيْهِمْ،

---

(1) سلجوقي من سوريا، أخو السلطان ملك شاه

(2) وزير فاطمي

(3) بهذا تنتهي العلاقة المشار إليها أعلاه بالانهزام التركي تحت أنطاكية، لكن الخطأ في الواقع هو في تاريخ العام، إذ أن القدس قد أخذت من المصريين في شهر آب 1908.

(4) يوجد محراب داود، الذي تدعوه المصادر الغربية برج داود، في مدينة القدس. لكن لابد من تمييزه عن معبد صغير يحمل نفس الاسم في منطقة المعبد المقدس.

وَوَفَى لَهُمُ الفِرِنْجُ، وَخَرَجُوا لَيْلًا إِلَى عَسْقَلَانَ فَأَقَامُوا بِهَا. وَقَتَلَ الفِرِنْجُ، بِالْمَسْجِدِ الأَقْصَى، مَا يَزِيدُ عَلَى سَبْعِينَ أَلْفًا، مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعُلَمَائِهِمْ، وَعُبَّادِهِمْ، وَزُهَّادِهِمْ، مِمَّنْ فَارَقَ الأَوْطَانَ وَجَاوَرَ بِذَلِكَ الْمَوْضِعِ الشَّرِيفِ، وَأَخَذُوا مِنْ عِنْدِ الصَّخْرَةِ[1] نَيِّفًا وَأَرْبَعِينَ قِنْدِيلًا مِنَ الفِضَّةِ، وَزْنُ كُلِّ قِنْدِيلٍ ثَلَاثَةُ آلَافٍ وَسِتُّمِائَةِ دِرْهَمٍ، وَأَخَذُوا مِنَ الْقَنَادِيلِ الصِّغَارِ مِائَةً وَخَمْسِينَ قِنْدِيلًا نُقْرَةً، وَمِنَ الذَّهَبِ نَيِّفًا وَعِشْرِينَ قِنْدِيلًا، وَغَنِمُوا مِنْهُ مَا لَا يَقَعُ عَلَيْهِ الإِحْصَاءُ.

وَوَرَدَ الْمُسْتَنْفِرُونَ مِنَ الشَّامِ، فِي رَمَضَانَ، إِلَى بَغْدَادَ صُحْبَةَ الْقَاضِي أَبِي سَعْدٍ الْهَرَوِيِّ[2]، فَأَوْرَدُوا فِي الدِّيوَانِ كَلَامًا أَبْكَى الْعُيُونَ، وَأَوْجَعَ الْقُلُوبَ، وَقَامُوا بِالْجَامِعِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَاسْتَغَاثُوا، وَبَكَوْا وَأَبْكَوْا، وَذُكِرَ مَا دَهَمَ الْمُسْلِمِينَ بِذَلِكَ الْبَلَدِ الشَّرِيفِ الْمُعَظَّمِ مِنْ قَتْلِ الرِّجَالِ، وَسَبْيِ الْحَرِيمِ وَالأَوْلَادِ، وَنَهْبِ الأَمْوَالِ، فَلِشِدَّةِ مَا أَصَابَهُمْ أَفْطَرُوا.

وَاخْتَلَفَ السَّلَاطِينُ عَلَى مَا نَذْكُرُهُ، فَتَمَكَّنَ الفِرِنْجُ مِنَ الْبِلَادِ، فَقَالَ أَبُو الْمُظَفَّرِ الأَبِيوَرْدِيُّ، فِي هَذَا الْمَعْنَى، أَبْيَاتًا مِنْهَا:

مَزَجْنَا دِمَاءً بِالدُّمُوعِ السَّوَاجِمِ   فَلَمْ يَبْقَ مِنَّا عُرْضَةٌ لِلْمَرَاجِمِ

وَشَرُّ سِلَاحِ الْمَرْءِ دَمْعٌ يُفِيضُهُ   إِذَا الْحَرْبُ شُبَّتْ نَارُهَا بِالصَّوَارِمِ

فَإِيهًا بَنِي الإِسْلَامِ، إِنَّ وَرَاءَكُمْ   وَقَائِعَ يُلْحِقْنَ الذُّرَى بِالْمَنَاسِمِ

أَتَهْوِيمَةً فِي ظِلِّ أَمْنٍ وَغِبْطَةٍ   وَعَيْشٍ كَنُوَّارِ الْخَمِيلَةِ نَاعِمِ

وَكَيْفَ تَنَامُ الْعَيْنُ مِلْءَ جُفُونِهَا   عَلَى هَفَوَاتٍ أَيْقَظَتْ كُلَّ نَائِمِ

وَإِخْوَانُكُمْ بِالشَّامِ يُضْحِي مَقِيلُهُمْ   ظُهُورَ الْمَذَاكِي، أَوْ بُطُونَ الْقَشَاعِمِ

---

(1) وهي الصخرة التي صعد منها على مايعتقده المسلمون محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى السماء وقد أقيم عليها المعبد المسمى بمسجد عمر، وهو أكبر صرح إسلامي في القدس، وفيه أقام المنتصرون عيدهم. ويوجد قربها المسجد الأقصى، لكنه متميز عنها، وهناك اشتد القتل حسب رواية ابن الأثير هذه. علماً أن المصادر الشرقية والغربية تخلط عادةً بين هذين المعبدين.

(2) شاعر عراقي عاش بين القرنين 11-12

تَشُومُهُمُ الرُّومُ الْهَوانَ، وَأَنْتُمُ ... تَجُرُّونَ ذَيْلَ الْخَفْضِ فِعْلَ الْمُسَالِمِ

وَكَمْ مِنْ دِماءٍ قَدْ أُبِيحَتْ، وَمِنْ دُمًى ... تُوارِي حَيَاءً حُسْنَهَا بِالْمَعَاصِمِ

بِحَيْثُ السُّيُوفُ الْبِيضُ مُحْمَرَّةُ الظُّبَى ... وَسُمْرُ الْعَوَالِي دَامِيَاتُ اللَّهَاذِمِ

وَبَيْنَ اخْتِلاسِ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ وَقْفَةٌ ... تَظَلُّ لَهَا الْوِلْدَانُ شِيبَ الْقَوَادِمِ

وَتِلْكَ حُرُوبٌ مَنْ يَغِبْ عَنْ غِمَارِهَا ... لِيَسْلَمَ، يَقْرَعْ بَعْدَهَا سِنَّ نَادِمِ

سَلَلْنَ بِأَيْدِي الْمُشْرِكِينَ قَوَاضِبًا ... سَتُغْمَدُ مِنْهُمْ فِي الطُّلَى وَالْجَمَاجِمِ

يَكَادُ لَهُنَّ الْمُسْتَجِنُّ بِطَيْبَةٍ يُنَادِي ... بِأَعْلَى الصَّوْتِ يَا آلَ هَاشِمِ(1)

أَرَى أُمَّتِي لا يُشْرِعُونَ إِلَى الْعِدَى ... رِمَاحَهُمُ، وَالدِّينُ وَاهِي الدَّعَائِمِ

وَيَجْتَنِبُونَ النَّارَ خَوْفًا مِنَ الرَّدَى ... وَلا يَحْسَبُونَ الْعَارَ ضَرْبَةَ لازِمِ

أَتَرْضَى صَنَادِيدُ الأَعَارِيبِ بِالأَذَى ... وَيُغْضِي عَلَى ذُلٍّ كُمَاةُ الأَعَاجِمِ

ذِكْرُ ظَفَرِ الْمُسْلِمِينَ بِالْفِرِنْجِ-
الظفر ببيمند صاحب انطاكية

(ابن الأثير 10/203-204)

فِي ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ (ايلول/سبتمبر 1100م/493ه). لَقِيَ كُمُشْتِكِينُ بْنُ الدَّانِشْمَنْدِ طَايِلُو، وَإِنَّمَا قِيلَ لَهُ ابْنُ الدَّانِشْمَنْدِ لِأَنَّ أَبَاهُ كَانَ مُعَلِّمًا لِلتُّرْكُمَانِ وَتَقَلَّبَتْ بِهِ الأَحْوَالُ، حَتَّى مَلَكَ، وَهُوَ صَاحِبُ مَلَطْيَةَ وَسِيوَاسَ وَغَيْرِهِمَا، بِيمُنْدَ الْفِرِنْجِيَّ، وَهُوَ مِنْ مُقَدَّمِي الْفِرِنْجِ، قَرِيبَ مَلَطْيَةَ، وَكَانَ صَاحِبُهَا (السابق) قَدْ كَاتَبَهُ، وَاسْتَقْدَمَهُ إِلَيْهِ، فَوَرَدَ عَلَيْهِ فِي خَمْسَةِ آلافٍ، فَلَقِيَهُمُ ابْنُ الدَّانِشْمَنْدِ، فَانْهَزَمَ بِيمُنْدُ وَأُسِرَ. ثُمَّ وَصَلَ مِنَ الْبَحْرِ سَبْعَةُ قَمَامِصَةٍ مِنَ الْفِرِنْجِ، وَأَرَادُوا تَخْلِيصَ بِيمُنْدَ، فَأَتَوْا إِلَى قَلْعَةٍ تُسَمَّى أَنْكُورِيَّةَ، فَأَخَذُوهَا وَقَتَلُوا مَنْ بِهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَسَارُوا إِلَى قَلْعَةٍ أُخْرَى فِيهَا

---

(1) أي صوت النبي (صلى الله عليه وسلم) ينبعث من القبر ليزجر أفراد عائلته (آل هاشم) والمتقاعسين عن أداء واجبهم أحسن قيام في محاربة الصليبيين.

إِسْمَاعِيلُ بْنُ الدَّانِشْمَنْدِ، وَحَصَرُوهَا، فَجَمَعَ ابْنُ الدَّانِشْمَنْدِ جَمْعًا كَثِيرًا، وَلَقِيَ الْفِرَنْجَ، وَجَعَلَ لَهُ كَمِينًا، وَقَاتَلَهُمْ، وَخَرَجَ الْكَمِينُ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يُفْلِتْ أَحَدٌ مِنَ الْفِرَنْجِ، وَكَانُوا ثَلَاثَمِائَةِ أَلْفٍ (!)، غَيْرَ ثَلَاثَةِ آلَافٍ هَرَبُوا لَيْلًا وَأَفْلَتُوا مَجْرُوحِينَ. وَسَارَ الدَّانِشْمَنْدِ إِلَى مَلَطْيَةَ، فَمَلَكَهَا وَأَسَرَ صَاحِبَهَا، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْهِ عَسْكَرُ الْفِرَنْجِ مِنْ أَنْطَاكِيَةَ، فَلَقِيَهُمْ وَكَسَرَهُمْ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْوَقَائِعُ فِي شُهُورٍ قَرِيبَةٍ.

ذِكْرُ مَا مَلَكَ الْفِرَنْجُ مِنَ الشَّامِ – موت كندفري وانتصارات إفرنجية أخرى

(ابن الأثير 222/10)

فِيهَا (1100م/493هـ)، سَارَ كُنْدُفْرِي، مَلِكُ الْفِرَنْجِ بِالشَّامِ، وَهُوَ صَاحِبُ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ، إِلَى مَدِينَةِ عَكَّا، بِسَاحِلِ الشَّامِ، فَحَصَرَهَا، فَأَصَابَهُ سَهْمٌ فَقَتَلَهُ[1]، وَكَانَ قَدْ عَمَّرَ مَدِينَةَ يَافَا وَسَلَّمَهَا إِلَى قُمَّصٍ مِنَ الْفِرَنْجِ اسْمُهُ: طَنْكَرِي، فَلَمَّا قُتِلَ كُنْدُفْرِي سَارَ أَخُوهُ بَغْدَوِينُ إِلَى الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ فِي خَمْسِمِائَةِ فَارِسٍ وَرَاجِلٍ، فَبَلَغَ الْمَلِكَ دُقَاقَ، صَاحِبَ دِمَشْقَ، خَبَرُهُ، فَنَهَضَ إِلَيْهِ فِي عَسْكَرِهِ، وَمَعَهُ الْأَمِيرُ جَنَاحُ الدَّوْلَةِ (صاحب حمص) فِي جُمُوعِهِ، فَقَاتَلَهُ، فَنُصِرَ عَلَى الْفِرَنْجِ.

وَفِيهَا مَلَكَ الْفِرَنْجُ مَدِينَةَ سَرُوجٍ مِنْ بِلَادِ الْجَزِيرَةِ، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْفِرَنْجَ كَانُوا قَدْ مَلَكُوا مَدِينَةَ الرُّهَا بِمُكَاتَبَةٍ مِنْ أَهْلِهَا لِأَنَّ أَكْثَرَهُمْ أَرْمَنٌ، وَلَيْسَ بِهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا الْقَلِيلُ، فَلَمَّا كَانَ الْآنَ جَمَعَ سُقْمَانُ بِسَرُوجٍ جَمْعًا كَثِيرًا مِنَ التُّرْكُمَانِ، وَزَحَفَ إِلَيْهِمْ، فَلَقُوهُ وَقَاتَلُوهُ، فَهَزَمُوهُ فِي رَبِيعٍ الْأَوَّلِ (كانون الثاني–شباط/يناير–فبراير)، فَلَمَّا تَمَّتِ الْهَزِيمَةُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ سَارَ الْفِرَنْجُ إِلَى سَرُوجٍ، فَحَصَرُوهَا وَتَسَلَّمُوهَا، وَقَتَلُوا كَثِيرًا مِنْ أَهْلِهَا وَسَبَوْا حَرِيمَهُمْ، وَنَهَبُوا أَمْوَالَهُمْ، وَلَمْ يَسْلَمْ إِلَّا مَنْ مَضَى مُنْهَزِمًا.

وَفِيهَا مَلَكَ الْفِرَنْجُ مَدِينَةَ حَيْفَا، وَهِيَ بِالْقُرْبِ مِنْ عَكَّةَ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، مَلَكُوهَا عَنْوَةً، وَمَلَكُوا أَرْسُوفَ بِالْأَمَانِ، وَأَخْرَجُوا أَهْلَهَا مِنْهَا. وَفِيهَا، فِي رَجَبٍ (أيار/مايو)، مَلَكُوا مَدِينَةَ قَيْسَارِيَّةَ بِالسَّيْفِ، وَقَتَلُوا أَهْلَهَا، وَنَهَبُوا مَا فِيهَا.

---

(1) تجمع كل المصادر الإسلامية على أن كندفري مات في القتال.

ذِكْرُ حَالِ صَنْجِيلَ الفِرِنْجِيِّ
وَمَا كَانَ مِنْهُ فِي حِصَارِ طَرَابُلُسَ

(ابن الأثير 10/236-237)

كَانَ صَنْجِيلُ الفِرِنْجِيُّ[1]، لَعَنَهُ اللَّهُ، قَدْ لَقِيَ قِلْجَ أَرْسِلَانَ بْنَ سُلَيْمَانَ بْنَ قُتُلْمِشَ، صَاحِبَ قُونِيَةَ، وَكَانَ صَنْجِيلُ فِي مِائَةِ أَلْفِ مُقَاتِلٍ[2]، وَكَانَ قِلْجُ أَرْسِلَانَ فِي عَدَدٍ قَلِيلٍ، فَاقْتَتَلُوا، فَانْهَزَمَ الفِرِنْجُ وَقُتِلَ مِنْهُمْ كَثِيرٌ، وَأُسِرَ كَثِيرٌ وَعَادَ قِلْجُ أَرْسِلَانَ بِالغَنَائِمِ، وَالظَّفَرِ الَّذِي لَمْ يَحْسَبْهُ.

وَمَضَى صَنْجِيلُ مَهْزُومًا فِي ثَلَاثِمِائَةٍ، فَوَصَلَ إِلَى الشَّامِ، فَأَرْسَلَ فَخْرُ المُلْكِ بْنُ عَمَّارٍ، صَاحِبُ طَرَابُلُسَ، إِلَى الأَمِيرِ يَاخِزَ، خَلِيفَةِ جَنَاحِ الدَّوْلَةِ عَلَى حِمْصَ، فَإِلَى المَلِكِ (على دمشق) دُقَاقَ بْنِ تُتُشَ، يَقُولُ: "مِنَ الصَّوَابِ أَنْ يُعَاجَلَ صَنْجِيلُ إِذْ هُوَ فِي هَذِهِ العِدَّةِ القَرِيبَةِ"، فَخَرَجَ الأَمِيرُ يَاخِزُ بِنَفْسِهِ، وَسَيَّرَ دُقَاقُ أَلْفَيْ مُقَاتِلٍ، وَأَتَتْهُمُ الأَمْدَادُ مِنْ طَرَابُلُسَ، فَاجْتَمَعُوا عَلَى بَابِ طَرَابُلُسَ، وَصَافُّوا صَنْجِيلَ هُنَاكَ، فَأَخْرَجَ مِائَةً مِنْ عَسْكَرِهِ إِلَى أَهْلِ طَرَابُلُسَ، وَمِائَةً إِلَى عَسْكَرِ دِمَشْقَ، وَخَمْسِينَ إِلَى عَسْكَرِ حِمْصَ، وَبَقِيَ هُوَ فِي خَمْسِينَ. فَأَمَّا عَسْكَرُ حِمْصَ فَإِنَّهُمُ انْكَسَرُوا عِنْدَ المُشَاهَدَةِ، وَوَلَّوْا مُنْهَزِمِينَ، وَتَبِعَهُمْ عَسْكَرُ دِمَشْقَ. وَأَمَّا أَهْلُ الجَبَلِ فَأَعَانُوهُ عَلَى حِصَارِهَا، وَكَذَلِكَ أَهْلُ السَّوَادِ، وَأَكْثَرُهُمْ نَصَارَى، فَقَاتَلَ مَنْ بِهَا أَشَدَّ قِتَالٍ، فَقُتِلَ مِنَ الفِرِنْجِ ثَلَاثُمِائَةٍ، ثُمَّ إِنَّهُ هَادَنَهُمْ عَلَى مَالٍ وَخَيْلٍ، فَرَحَلَ عَنْهُمْ إِلَى مَدِينَةِ أَنْطَرْسُوسَ، وَهِيَ مِنْ أَعْمَالِ طَرَابُلُسَ، فَحَصَرَهَا، وَفَتَحَهَا، وَقَتَلَ مَنْ بِهَا مِنَ المُسْلِمِينَ، وَرَحَلَ إِلَى حِصْنِ الطُّوبَانِ وَهُوَ يُقَارِبُ رَفَنِيَّةَ، وَمُقَدَّمُهُ يُقَالُ لَهُ ابْنُ العَرِيضِ، فَقَاتَلَهُمْ، فَنُصِرَ عَلَيْهِ أَهْلُ الحِصْنِ، وَأَسَرَ ابْنُ العَرِيضِ مِنْهُ فَارِسًا مِنْ أَكَابِرِ فُرْسَانِهِ، فَبَذَلَ صَنْجِيلُ فِي فِدَائِهِ عَشَرَةَ آلَافِ دِينَارٍ[3] وَأَلْفَ أَسِيرٍ، فَلَمْ يُجِبْهُ ابْنُ العَرِيضِ إِلَى ذَلِكَ.

---

(1) وهو ريموند سان جيل، كونت طولوز ومؤسس الفرقة الطرابلسية

(2) لا بد من التنبيه إلى المبالغة الخيالية في هذه الأرقام، وهي ظاهرة متبعة في التاريخ الإسلامي آنذاك

(3) الدينار عملة ذهبية كانت تستعمل بأشكال مختلفة خلال العهد المتوسط الإسلامي، وكان وزن الدينار من النوع (القانوني) 4.25 غرام ذهب صافي

تحرير بيمند وانكسار بالدوين
في الرملة وذِكْرُ مَا فَعَلَهُ الْفِرِنْجُ

(ابن الأثير 237/10–238)

فِي هَذِهِ السَّنَةِ (1102م/495). أَطْلَقَ الدَّانِشْمَنْدُ بِيمُنْدَ الْفِرِنْجِيَّ، صَاحِبَ أَنْطَاكِيَةَ، وَكَانَ قَدْ أَسَرَهُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ ذَلِكَ، وَأَخَذَ مِنْهُ مِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ، وَشَرَطَ عَلَيْهِ إِطْلَاقَ ابْنَةِ يَاغِي سِيَانَ الَّذِي كَانَ صَاحِبَ أَنْطَاكِيَةَ، وَكَانَتْ فِي أَسْرِهِ. وَلَمَّا خَلَصَ بِيمُنْدُ مِنْ أَسْرِهِ عَادَ إِلَى أَنْطَاكِيَةَ، فَقَوِيَتْ نُفُوسُ أَهْلِهَا بِهِ، وَلَمْ يَسْتَقِرَّ حَتَّى أَرْسَلَ إِلَى أَهْلِ الْعَوَاصِمِ وَقِنَّسْرِينَ وَمَا جَاوَرَهَا يُطَالِبُهُمْ بِالْإِتَاوَةِ، فَوَرَدَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ ذَلِكَ مَا طَمَسَ الْمَعَالِمَ الَّتِي بَنَاهَا الدَّانِشْمَنْدُ.

وَفِيهَا سَارَ صَنْجِيلُ إِلَى حِصْنِ الْأَكْرَادِ[1] فَحَصَرَهُ، فَجَمَعَ جَنَاحُ الدَّوْلَةِ عَسْكَرَهُ لِيَسِيرَ إِلَيْهِ وَيَكْبِسَهُ، فَقَتَلَهُ بَاطِنِيٌّ[2] بِالْمَسْجِدِ الْجَامِعِ (في حمص)، فَقِيلَ: إِنَّ الْمَلِكَ رِضْوَانَ رَبِيبَهُ وَضَعَ عَلَيْهِ مَنْ قَتَلَهُ. فَلَمَّا قُتِلَ صَبَّحَ صَنْجِيلُ حِمْصَ مِنَ الْغَدِ، وَنَازَلَهَا، وَحَصَرَ أَهْلَهَا: وَمَلَكَ أَعْمَالَهَا.

وَنَزَلَ الْقُمْصُ عَلَى عَكَّةَ فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ السَّنَةِ (نيسان/ابريل 1102م)، وَضَيَّقَ عَلَيْهَا، وَكَادَ يَأْخُذُهَا، وَنَصَبَ عَلَيْهَا الْمَنْجَنِيقَاتِ وَالْأَبْرَاجَ، وَكَانَ لَهُ فِي الْبَحْرِ سِتَّ عَشْرَةَ قِطْعَةً، فَاجْتَمَعَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ سَائِرِ السَّوَاحِلِ، وَأَتَوْا إِلَى مَنْجَنِيقَاتِهِمْ، وَأَبْرَاجِهِمْ، فَأَحْرَقُوهَا، وَأَحْرَقُوا سُفُنَهُمْ أَيْضًا، وَكَانَ ذَلِكَ نَصْرًا عَجِيبًا أَذَلَّ اللَّهُ بِهِ الْكُفَّارَ.

وَفِيهَا سَارَ الْقُمْصُ الْفِرِنْجِيُّ، صَاحِبُ الرُّهَا إِلَى بَيْرُوتَ مِنْ سَاحِلِ الشَّامِ، وَحَصَرَهَا وَضَايَقَهَا، وَأَطَالَ الْمُقَامَ عَلَيْهَا، فَلَمْ يَرَ فِيهَا طَمَعًا فَرَحَلَ عَنْهَا.

وَفِيهَا، فِي رَجَبٍ (أيار/مايو 1102م). خَرَجَتْ عَسَاكِرُ مِصْرَ إِلَى عَسْقَلَانَ لِيَمْنَعُوا الْفِرِنْجَ عَمَّا بَقِيَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ، فَسَمِعَ بِهِمْ بَرْدَوِيلُ، صَاحِبُ

---

(1) هو Krak des chevaliers، حصن منيع شمال شرق طرابلس، وقد احتل مكانة مهمة في تاريخ الحروب الصليبية

(2) أي من أتباع الطائفة الباطنية أو الإسماعيلية أو الحشاشين، وقد شكل إرهابهم، الذي سترى أمثلة منه، كابوساً جاثماً على صدر الفرنجة والمسلمين السنة خلال الحروب الصليبية

الْقُدْسِ، فَسَارَ إِلَيْهِمْ فِي سَبْعِمِائَةِ فَارِسٍ، وَقَاتَلَهُمْ، فَنَصَرَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ، وَانْهَزَمَ الْفِرِنْجُ، وَكَثُرَ الْقَتْلُ فِيهِمْ، وَانْهَزَمَ بِرْدَوِيلُ، فَاخْتَفَى فِي أَجَمَةِ قَصَبٍ، فَأُحْرِقَتْ تِلْكَ الْأَجَمَةُ، وَلَحِقَتِ النَّارُ بَعْضَ جَسَدِهِ، وَنَجَا مِنْهَا إِلَى الرَّمْلَةِ، فَتَبِعَهُ الْمُسْلِمُونَ، وَأَحَاطُوا بِهِ فَتَنَكَّرَ، وَخَرَجَ مِنْهَا إِلَى يَافَا، وَكَثُرَ الْقَتْلُ وَالْأَسْرُ فِي أَصْحَابِهِ.

ذِكْرُ مُلْكِ الْفِرِنْجِ جُبَيْلًا وَعَكَّا مِنَ الشَّامِ

(ابن الأثير 255/10)

فِي هَذِهِ السَّنَةِ (1103-1104م/497). وَصَلَتْ مَرَاكِبُ مِنْ بِلَادِ الْفِرِنْجِ إِلَى مَدِينَةِ اللَّاذِقِيَّةِ، وَفِيهَا التُّجَّارُ، وَالْأَجْنَادُ، وَالْحُجَّاجُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ، وَاسْتَعَانَ بِهِمْ صَنْجِيلُ الْفِرِنْجِيُّ عَلَى حِصَارِ طَرَابُلُسَ، فَحَصَرُوهَا مَعَهُ بَرًّا وَبَحْرًا، وَضَايَقُوهَا، وَقَاتَلُوهَا أَيَّامًا، فَلَمْ يَرَوْا فِيهَا مَطْمَعًا، فَرَحَلُوا عَنْهَا إِلَى مَدِينَةِ جُبَيْلٍ، فَحَصَرُوهَا، وَقَاتَلُوا عَلَيْهَا قِتَالًا شَدِيدًا، فَلَمَّا رَأَى أَهْلُهَا عَجْزَهُمْ عَنِ الْفِرِنْجِ أَخَذُوا أَمَانًا، وَسَلَّمُوا الْبَلَدَ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ تَفِ الْفِرِنْجُ لَهُمْ بِالْأَمَانِ، وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ، وَاسْتَنْقَذُوهَا بِالْعُقُوبَاتِ وَأَنْوَاعِ الْعَذَابِ. فَلَمَّا فَرَغُوا مِنْ جُبَيْلٍ سَارُوا إِلَى مَدِينَةِ عَكَّا، اسْتَنْجَدَهُمُ الْمَلِكُ بَغْدَوِينُ، مَلِكُ الْفِرِنْجِ، صَاحِبُ الْقُدْسِ عَلَى حِصَارِهَا، فَنَازَلُوهَا، وَحَصَرُوهَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ.

وَكَانَ الْوَالِي بِهَا اسْمُهُ بَنَا، وَيُعْرَفُ بِزُهْرِ الدَّوْلَةِ الْجُيُوشِيِّ، نِسْبَةً إِلَى مَلِكِ الْجُيُوشِ الْأَفْضَلِ، فَقَاتَلَهُمْ أَشَدَّ قِتَالٍ، فَزَحَفُوا إِلَيْهِ غَيْرَ مَرَّةٍ، فَعَجَزَ عَنْ حِفْظِ الْبَلَدِ، فَخَرَجَ مِنْهُ، وَمَلَكَ الْفِرِنْجُ الْبَلَدَ بِالسَّيْفِ قَهْرًا، وَفَعَلُوا بِأَهْلِهِ الْأَفْعَالَ الشَّنِيعَةَ، وَسَارَ الْوَالِي بِهِ إِلَى دِمَشْقَ، فَأَقَامَ بِهَا، ثُمَّ عَادَ إِلَى مِصْرَ، وَاعْتَذَرَ إِلَى الْأَفْضَلِ فَقَبِلَ عُذْرَهُ.

- 2 -

نقلت الصفحات التالية عن ابن الأثير أيضاً، وأهميتها أنها تروي نجاحات ردة الفعل الإسلامية على قيام الفرنجة بالمراهنة على حرّان، ثغر مابين النهرين على طريق بغداد. لكن أهميتها الأكبر تبرز بسبب ماتبع ذلك من تحالف قوى إسلامية – فرنجية كانت تتقاتل فيما بينها: ذلك أن عدوى ترجيح المصالح الخاصة لدى المسلمين، والتي سهلت انتصار الفرنجة، انتقلت إلى المنتصرين أنفسهم. وهكذا رأينا كيف أن بالدوين الرها وطنكري أنطاكية لم يترددا عن المشاركة في التحالفات المتصارعة التي أقامها الأمراء المسلمون المتخاصمون.

ذِكْرُ غَزْوِ سُقْمَانَ وَجَكَرْمَشَ الفِرِنْجَ

(ابن الأثير 10/257-256)

لَمَّا اسْتَطَالَ الفِرِنْجُ، خَذَلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، بِمَا مَلَكُوهُ مِنْ بِلَادِ الإِسْلَامِ، وَاتَّفَقَ لَهُمُ اشْتِغَالُ عَسَاكِرِ الإِسْلَامِ وَمُلُوكِهِ، بِقِتَالِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، تَفَرَّقَتْ حِينَئِذٍ بِالمُسْلِمِينَ الآرَاءُ، وَاخْتَلَفَتِ الأَهْوَاءُ، وَتَمَزَّقَتِ الأَمْوَالُ. وَكَانَتْ حَرَّانُ لِمَمْلُوكٍ مِنْ مَمَالِيكِ مَلِكْشَاهْ اسْمُهُ قَرَاجَهْ، فَاسْتَخْلَفَ عَلَيْهَا إِنْسَانًا يُقَالُ لَهُ مُحَمَّدٌ الأَصْبَهَانِيُّ، وَخَرَجَ فِي العَامِ المَاضِي، فَعَصَى الأَصْبَهَانِيُّ عَلَى قَرَاجَهْ، وَأَعَانَهُ أَهْلُ البَلَدِ لِظُلْمِ قَرَاجَهْ. وَكَانَ الأَصْبَهَانِيُّ جَلْدًا، شَهْمًا، فَلَمْ يَتْرُكْ بِحَرَّانَ مِنْ أَصْحَابِ قَرَاجَهْ سِوَى غُلَامٍ تُرْكِيٍّ يُعْرَفُ بِجَاوُلِي، وَجَعَلَهُ أَصْفَهْسَلَارَ العَسْكَرِ، وَأَنِسَ بِهِ، فَجَلَسَ مَعَهُ يَوْمًا لِلشُّرْبِ، فَاتَّفَقَ جَاوُلِي مَعَ خَادِمٍ لَهُ عَلَى قَتْلِهِ فَقَتَلَاهُ وَهُوَ سَكْرَانُ. فَعِنْدَ ذَلِكَ سَارَ الفِرِنْجُ إِلَى حَرَّانَ وَحَصَرُوهَا.

فلمّا سمع مُعين الدَّولة سُقمان، وشمس الدَّولة جكرمش[1] ذلك، وكان بينهما حَرْبٌ، وسُقمانُ يُطالِبُ بقتلِ ابنِ أخيه، وكُلٌّ منهما يستعدُّ للقاءِ صاحبِه، وأنا أذكُرُ سببَ قتلِ جكرمش لهُ، إن شاءَ اللّهُ تعالى، أرسلَ كُلٌّ منهما إلى صاحبِهِ يدعُوهُ إلى الاجتماعِ معَهُ لِتلافي أمرِ حرّان، ويُعلِمُهُ أنّهُ قدْ بذلَ نفسَهُ للّهِ تعالى، وثوابِهِ، فكُلٌّ واحدٍ منهُما أجابَ صاحبَهُ إلى ما طلبَ منهُ، وسارا فاجتمعا على الخابُورِ، وتحالفا، وسارا إلى لقاءِ الفرنجِ. وكانَ معَ سُقمانَ سبعةُ آلافِ فارسٍ معَ التُّركمانِ، ومعَ جكرمش ثلاثةُ آلافِ فارسٍ منَ التُّركِ، والعربِ، والأكرادِ، فالتقوا على نهرِ البَليخِ، وكانَ المَصافُّ بينَهُمْ هُناكَ، فاقتتلوا، (أيار/مايو 1104م). فأظهرَ المُسلمُونَ الانهزامَ، فتبعَهُمُ الفرنجُ نحوَ فرسخينِ، فعادَ عليهِمُ المُسلمُونَ فقتلُوهُمْ كيفَ شاءُوا، وامتلأتْ أيدي التُّركمانِ منَ الغنائمِ، ووصلُوا إلى الأموالِ العظيمةِ، لأنَّ سوادَ الفرنجِ كانَ قريبًا، وكانَ بيمُنْدُ، صاحبُ أنطاكيةَ، وطنكري، صاحبُ السّاحلِ، قدِ انفرَدا وراءَ جبلٍ ليأتيا المُسلمينَ منْ وراءِ ظُهورِهِمْ، إذا اشتدّتِ الحَرْبُ، فلمّا خرجا رأيا الفرنجَ مُنهزمينَ، وسوادَهُمْ منهُوبًا، فأقاما بالليلِ، وهربا، فتبعهُما المُسلمُونَ، وقتلُوا منْ أصحابِهِما كثيرًا، وأسرُوا كذلكَ، وأفلتا في ستّةِ فُرسانٍ. وكانَ القُمّصُ بردويلُ، صاحبُ الرُّها، قدِ انهزمَ في جماعةٍ منْ قمامصتِهِمْ، وخاضُوا نهرَ البَليخِ، فوحلتْ خيولُهُمْ، فجاءَ التُّركمانيُّ منْ أصحابِ سُقمانَ فأخذَهُمْ، وحملَ بردويلَ إلى خيمِ صاحبِهِ، وقدْ سارَ فيمنْ معَهُ لاتّباعِ بيمُنْدَ، فرأى أصحابُ جكرمش أنَّ أصحابَ سُقمانَ قدِ استولَوا على مالِ الفرنجِ، ويرجعُونَ هُمْ منَ الغنيمةِ بغيرِ طائلٍ، فقالُوا لجكرمش: "أيُّ منزلةٍ تكُونُ لنا عندَ النّاسِ، وعندَ التُّركمانِ إذا انصرفُوا بالغنائمِ دُوننا"؟ وحسّنُوا لهُ أخذَ القُمّصِ، فأنفذَ فأخذَ القُمّصَ منْ خيمِ سُقمانَ، فلمّا عادَ سُقمانُ شقَّ عليهِ الأمرُ، وركبَ أصحابُهُ للقتالِ، فردَّهُمْ، وقالَ لهُمْ: "لا يقُومُ فرحُ المُسلمينَ في هذهِ الغزاةِ بغمِّهِمْ باختلافِنا، ولا أُؤثرُ شفاءَ غيظي بشماتةِ الأعداءِ بالمُسلمينَ". ورحلَ لوقتِهِ، وأخذَ سلاحَ الفرنجِ، وراياتِهِمْ، وألبسَ أصحابَهُ لُبسَهُمْ، وأركبَهُمْ خيلَهُمْ، وجعلَ يأتي حُصُونَ شيحانَ، وبها الفرنجُ، فيخرُجُونَ ظنًّا منهُمْ أنَّ أصحابَهُمْ نُصرُوا، فيقتُلُهُمْ ويأخُذُ الحِصنَ منهُمْ، فعلَ ذلكَ

---

(1) الأول هو أمير حصن كيفا في ديار بكر، وقد سبق ذكره. أما الثاني فقد كان أمير الموصل.

بِعِدَّةِ حُصُونٍ. وَأَمَّا جَكَرْمِشُ فَإِنَّهُ سَارَ إِلَى حَرَّانَ، فَتَسَلَّمَهَا، وَاسْتَخْلَفَ بِهَا صَاحِبَهُ. وَسَارَ إِلَى الرُّهَا، فَحَصَرَهَا خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا، وَعَادَ إِلَى الْمَوْصِلِ وَمَعَهُ الْقُمُّصُ الَّذِي أَخَذَهُ مِنْ خِيَامِ سُقْمَانَ، فَفَادَاهُ بِخَمْسَةٍ وَثَلَاثِينَ دِينَارًا، وَمِائَةٍ وَسِتِّينَ أَسِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ عِدَّةُ الْقَتْلَى مِنَ الْفِرِنْجِ يُقَارِبُ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ قَتِيلٍ.

بالدوين الرها وطنكري أنطاكية

(ابن الأثير 326/10-321)

لَمَّا هَرَبَ إِيلْغَازِي مِنْ جَاوَلِي[1] سَارَ جَاوَلِي إِلَى الرَّحْبَةِ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى مَاكِسِينَ أَطْلَقَ الْقُمُّصَ الْفِرِنْجِيَّ، الَّذِي كَانَ أَسِيرًا بِالْمَوْصِلِ، وَأَخَذَهُ مَعَهُ، وَاسْمُهُ بَرْدَوِيلُ، وَكَانَ صَاحِبَ الرُّهَا وَسَرُوجَ وَغَيْرِهِمَا، وَبَقِيَ فِي الْحَبْسِ إِلَى الْآنَ (1108م/501هـ)، وَبَذَلَ الْأَمْوَالَ الْكَثِيرَةَ، فَلَمْ يُطْلَقْ، فَلَمَّا كَانَ الْآنَ أَطْلَقَهُ جَاوَلِي، وَخَلَعَ عَلَيْهِ، وَكَانَ مُقَامُهُ فِي السِّجْنِ مَا يُقَارِبُ خَمْسَ سِنِينَ[2]، وَقَرَّرَ عَلَيْهِ أَنْ يَفْدِيَ نَفْسَهُ بِمَالٍ، وَأَنْ يُطْلِقَ أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ فِي سِجْنِهِ، وَأَنْ يَنْصُرَهُ مَتَى أَرَادَ ذَلِكَ مِنْهُ بِنَفْسِهِ وَعَسْكَرِهِ وَمَالِهِ. فلما اتفقا على ذلك سيّر القمص الى قلعة جعبر، وسلمه الى صاحبها سالم بن مَالِكٍ، حَتَّى وَرَدَ عَلَيْهِ ابْنُ خَالَتِهِ جُوسْلِينُ، وَهُوَ مِنْ فُرْسَانِ الْفِرِنْجِ وَشُجْعَانِهَا، وَهُوَ صَاحِبُ تَلِّ بَاشِرَ وَغَيْرِهِ، وَكَانَ أُسِرَ مَعَ الْقُمُّصِ فِي تِلْكَ الْوَقْعَةِ، فَفَدَى نَفْسَهُ بِعِشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، فَلَمَّا وَصَلَ جُوسْلِينُ إِلَى قَلْعَةِ جَعْبَرَ أَقَامَ رَهِينَةً عِوَضَ الْقُمُّصِ، وَأُطْلِقَ الْقُمُّصُ، وَسَارَ إِلَى أَنْطَاكِيَةَ، وَأَخَذَ جَاوَلِي جُوسْلِينَ مِنْ قَلْعَةِ جَعْبَرَ فَأَطْلَقَهُ، وَأَخَذَ عِوَضَهُ أَخَا زَوْجَتِهِ، وَأَخَا زَوْجَةِ الْقُمُّصِ، وَسَيَّرَهُ إِلَى الْقُمُّصِ لِيَقْوَى بِهِ، وَلِيَحُثَّهُ عَلَى إِطْلَاقِ الْأَسْرَى، وَإِنْفَاذِ الْمَالِ وَمَا ضَمِنَهُ، فَلَمَّا وَصَلَ جُوسْلِينُ إِلَى مَنْبِجَ أَغَارَ عَلَيْهَا وَنَهَبَهَا، وَكَانَ مَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِ جَاوَلِي، فَأَنْكَرُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَنَسَبُوهُ إِلَى الْغَدْرِ، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الْمَدِينَةَ لَيْسَتْ لَكُمْ.

---

(1) أمير تركي استولى على الموصل منتزعاً إياها من جكرميش والذي أسر بالدوين صاحب الرها، كما رأينا

(2) من عام 1104، كما رأينا سابقاً

(ذِكْرُ ما جَرى بَيْنَ هَذا القُمَّصِ وبَيْنَ صاحِبِ أَنْطاكِيَةَ)

لَمَّا أُطْلِقَ القُمَّصُ وَسارَ إِلى أَنْطاكِيَةَ أَعْطاهُ طَنْكري صاحِبُها ثَلاثِينَ أَلْفَ دِينارٍ، وَخَيْلاً، وَثِياباً، وَغَيْرَ ذَلِكَ، وكانَ طَنْكري قَدْ أَخَذَ الرُّهَا مِنْ أَصْحابِ القُمَّصِ حِينَ أُسِرَ، فَخاطَبَهُ الآنَ فِي رَدِّها عَلَيْهِ، فَلَمْ يَفْعَلْ، فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ إِلى تَلِّ باشِرَ فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ جُوسْلينُ، وَقَدْ أَطْلَقَهُ جاوُلي، سَرَّهُ ذَلِكَ، وَفَرِحَ بِهِ. وَسارَ إِلَيْهِما طَنْكري، صاحِبُ أَنْطاكِيَةَ، بِعَساكِرِهِ لِيُحارِبَهُما، قَبْلَ أَنْ يَقْوى أَمْرُهُما، وَيَجْمَعا عَسْكَراً، وَيَلْحَقَ بِهِما جاوُلي وَيُنْجِدَهُما، فَكانُوا يَقْتَتِلُونَ، فَإِذا فَرَغُوا مِنَ القِتالِ اجْتَمَعُوا وَأَكَلَ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ وَتَحادَثُوا.[1]

وَأَطْلَقَ القُمَّصُ مِنَ الأَسْرى المُسْلِمِينَ مِائَةً وسِتِّينَ أَسِيراً كُلُّهُمْ مِنْ سَوادِ حَلَبَ، وَكَساهُمْ وَسَيَّرَهُمْ. وَعادَ طَنْكري إِلى أَنْطاكِيَةَ مِنْ غَيْرِ فَصْلِ حالٍ فِي مَعْنى الرُّها، فَسارَ القُمَّصُ وَجُوسْلينُ وَأَغارا عَلى حُصُونِ طَنْكري صاحِبِ أَنْطاكِيَةَ، والْتَجَأَ إِلى وِلايَةِ كَواسيلَ، وَهُوَ رَجُلٌ أَرْمَنِيٌّ وَمَعَهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ المُرْتَدِّينَ وَغَيْرِهِمْ، وَهُوَ صاحِبُ رَعْبانَ، وَكَيْسُومَ، وَغَيْرِهِما مِنَ القِلاعِ، شَمالِيَّ حَلَبَ، فَأَنْجَدَ القُمَّصَ بِأَلْفِ فارِسٍ مِنَ المُرْتَدِّينَ، وَأَلْفَي راجِلٍ، فَقَصَدَهُمْ طَنْكري، فَتَنازَعُوا فِي أَمْرِ الرُّها، فَتَوَسَّطَ بَيْنَهُمُ البِطْرِكُ الَّذِي لَهُمْ، وَهُوَ عِنْدَهُمْ كَالإِمامِ الَّذِي لِلْمُسْلِمِينَ، لا يُخالَفُ أَمْرُهُ، وَشَهِدَ جَماعَةٌ مِنَ المَطارِنَةِ والقِسِّيسِينَ: أَنَّ بَيْمُنْدَ خالَ طَنْكري قالَ لَهُ، لَمَّا أَرادَ رُكُوبَ البَحْرِ، والعَوْدَ إِلى بِلادِهِ، لِيُعِيدَ الرُّها إِلى القُمَّصِ، إِذا خَلَصَ مِنَ الأَسْرِ؛ فَأَعادَها عَلَيْهِ طَنْكري تاسِعَ صَفَرٍ (29 أيلول 1108م(/501هـ)، وَعَبَرَ القُمَّصُ الفُراتَ، لِيُسَلِّمَ إِلى أَصْحابِ جاوُلي المالَ، والأَسْرى، فَأَطْلَقَ فِي طَرِيقِهِ خَلْقاً كَثِيراً مِنَ الأَسْرى مِنْ حَرّانَ وَغَيْرِها. وَكانَ بِسَرُوجَ ثَلاثُمِائَةِ مُسْلِمٍ ضَعْفى: فَعَمَرَ أَصْحابُ جاوُلي مَساجِدَهُمْ، وَكانَ رَئِيسُ سَرُوجَ مُسْلِماً قَدِ ارْتَدَّ، فَسَمِعَهُ أَصْحابُ جاوُلي يَقُولُ فِي الإِسْلامِ قَوْلاً شَنِيعاً، فَضَرَبُوهُ، وَجَرى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الفِرِنْجِ بِسَبَبِهِ نِزاعٌ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلْقُمَّصِ، فَقالَ: هَذا لا يَصْلُحُ لَنا وَلا لِلْمُسْلِمِينَ، فَقَتَلَهُ.

---

(1) هذا من طيبة فرسان ذاك الزمان، وقد أثرت هنا في المؤرخ المسلم

(ذِكْرُ الْحَرْبِ بَيْنَ جَاوَلِي وَالْفِرِنْجِ)

... وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ، فِي صَفَرٍ (أيلول 1109م/502)، كَانَ الْمُصَافُّ بَيْنَ جَاوَلِي سَقَّاوُو وَبَيْنَ طَنْكَرِي الْفِرِنْجِيِّ، صَاحِبِ أَنْطَاكِيَةَ. وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْمَلِكَ رِضْوَانَ (صاحب حلب) كَتَبَ إِلَى طَنْكَرِي، صَاحِبِ أَنْطَاكِيَةَ، يُعَرِّفُهُ مَا هُوَ جَاوَلِي عَلَيْهِ مِنَ الْغَدْرِ، وَالْمَكْرِ، وَالْخِدَاعِ، وَيُحَذِّرُهُ مِنْهُ، وَيُعْلِمُهُ أَنَّهُ عَلَى قَصْدِ حَلَبَ، وَأَنَّهُ إِنْ مَلَكَهَا لَا يَبْقَى لِلْفِرِنْجِ مَعَهُ بِالشَّامِ مُقَامٌ، وَطَلَبَ مِنْهُ النُّصْرَةَ وَالِاتِّفَاقَ عَلَى مَنْعِهِ. فَأَجَابَهُ طَنْكَرِي إِلَى مَنْعِهِ وَبَرَزَ مِنْ أَنْطَاكِيَةَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رِضْوَانُ سِتَّمِائَةِ فَارِسٍ، فَلَمَّا سَمِعَ جَاوَلِي الْخَبَرَ أَرْسَلَ إِلَى الْقُمُّصِ، صَاحِبِ الرُّهَا، يَسْتَدْعِيهِ إِلَى مُسَاعَدَتِهِ، وَأَطْلَقَ لَهُ مَا بَقِيَ عَلَيْهِ مِنْ مَالِ الْمُفَادَاةِ، فَسَارَ إِلَى جَاوَلِي فَلَحِقَ بِهِ، وَهُوَ عَلَى مَنْبِجَ، فَوَصَلَ الْخَبَرُ إِلَيْهِ، وَهُوَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، بِأَنَّ الْمَوْصِلَ قَدِ اسْتَوْلَى عَلَيْهَا السُّلْطَانُ[1]، وَمَلَكُوا خَزَائِنَهُ وَأَمْوَالَهُ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَفَارَقَهُ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ مِنْهُمْ أَتَابِكُ زَنْكِيُّ بْنُ آقْسُنْقُرَ، وَبِكْتَاشُ النَّهَاوَنْدِيُّ، وَبَقِيَ جَاوَلِي فِي أَلْفِ فَارِسٍ، وَانْضَمَّ إِلَيْهِ خَلْقٌ مِنَ الْمُطَّوِّعَةِ، فَنَزَلَ بِتَلِّ بَاشِرَ. وَقَارَبَهُمْ طَنْكَرِي، وَهُوَ فِي أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةِ فَارِسٍ مِنَ الْفِرِنْجِ، وَسِتِّمِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِ الْمَلِكِ رِضْوَانَ، سِوَى الرَّجَّالَةِ، فَجَعَلَ جَاوَلِي فِي مَيْمَنَتِهِ الْأَمِيرَ أَقْسِيَانَ، وَالْأَمِيرَ أَلْتُونْتَاشَ الْأَبَرِيَّ، وَغَيْرَهُمَا، وَفِي الْمَيْسَرَةِ الْأَمِيرَ بَدْرَانَ بْنَ صَدَقَةَ، وَأَصْبَهْبَذَ صَبَاوَةَ، وَسُنْقُرَ دِرَازَ، وَفِي الْقَلْبِ الْقُمُّصَ بِغْدُوِينَ، وَجُوسْلِينَ الْفِرِنْجِيَّيْنِ، وَوَقَعَتِ الْحَرْبُ، فَحَمَلَ أَصْحَابُ أَنْطَاكِيَةَ عَلَى الْقُمُّصِ، صَاحِبِ الرُّهَا، وَاشْتَدَّ الْقِتَالُ، فَأَزَاحَ طَنْكَرِي الْقَلْبَ عَنْ مَوْضِعِهِ، وَحَمَلَتْ مَيْسَرَةُ جَاوَلِي عَلَى رَجَّالَةِ صَاحِبِ أَنْطَاكِيَةَ، فَقَتَلَتْ مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا، وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُ هَزِيمَةِ صَاحِبِ أَنْطَاكِيَةَ، فَحِينَئِذٍ عَمَدَ أَصْحَابُ جَاوَلِي إِلَى جَنَائِبِ الْقُمُّصِ، وَجُوسْلِينَ، وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْفِرِنْجِ، فَرَكِبُوهَا وَانْهَزَمُوا، فَمَضَى جَاوَلِي وَرَاءَهُمْ لِيَرُدَّهُمْ، فَلَمْ يَرْجِعُوا، وَكَانَتْ طَاعَتُهُ قَدْ زَالَتْ عَنْهُمْ حِينَ أُخِذَتِ الْمَوْصِلُ مِنْهُ، فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُمْ لَا يَعُودُونَ مَعَهُ أَهَمَّتْهُ نَفْسُهُ، وَخَافَ مِنَ الْمُقَامِ، فَانْهَزَمَ، وَانْهَزَمَ بَاقِي عَسْكَرِهِ. فَأَمَّا أَصْبَهْبَذُ صَبَاوَةَ فَسَارَ نَحْوَ الشَّامِ، وَأَمَّا بَدْرَانُ بْنُ صَدَقَةَ فَسَارَ

---

(1) السلطان السلجوقي محمد بن ملك شاه (1104 – 1117)، أكبر سندة الإقطاعين بين هؤلاء الأمراء

إِلَى قَلْعَةِ جَعْبَرَ ، وَأَمَّا ابْنُ جَكَرْمِشْ فَقَصَدَ جَزِيرَةَ ابْنِ عُمَرَ ، وَأَمَّا جَاوْلِي فَقَصَدَ الرَّحْبَةَ، وَقُتِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَلْقٌ كَثِيرٌ ، وَنَهَبَ صَاحِبُ أَنْطَاكِيَةَ أَمْوَالَهُمْ وَأَثْقَالَهُمْ، وَعَظُمَ الْبَلَاءُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْفِرِنْجِ، وَهَرَبَ الْقُمُّصُ وَجُوسْلِينُ إِلَى تَلِّ بَاشِرَ وَالْتَجَأَ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَفَعَلَا مَعَهُمُ الْجَمِيلَ، وَدَاوَيَا الْجَرْحَى وَكَسَوَا الْعُرَاةَ، وَسَيَّرَاهُمْ إِلَى بِلَادِهِمْ.

- 3 -

تُبرز الصفحات التالية المنقولة عن ابن القلانسي تفاصيل حية ومباشرة عن سقوط مدن الساحل السوري (طرابلس، بيروت، صيداء كما عن الحصار القائم على صور)، وكذلك عن ردود الفعل التي حدثت داخل عاصمة الإسلام الروحية بغداد على الغزو الإفرنجي وتوسعه. خاصة وأن الرأي العام الإسلامي قد ثار بتأثير من اللاجئين السوريين وبدأ يطالب بعمل عسكري مناسب تقوم به السلطات المركزية (أي الخليفة والسلطان السلجوقي)، التي عادة ما" تعد خيراً".

سقوط طرابلس

(ابن القلانسي 164-163)

وفي شعبان من هذه السنة (502/آذار/مارس 1109م) وصل ريمند بن صنجيل[1] الذي كان نازلاً على طرابلس من بلاد الإفرنج في جملة ستين مركباً في البحر مشحونة بالافرنج والجنويين. فنزل على طرابلس ووقع بينه وبين السرداني ابن أخت صنجيل مشاجرة، ووصل طنكري صاحب انطاكية إليه لمعونته للسرداني، ووصل الملك بغدوين صاحب بيت المقدس في عسكره فأصلح بينهم. وعاد السرداني إلى عرقة ووجد بعض الافرنج في زرعها، فأراد ضربه فضربه الافرنجي فقتله. ولما بلغ الخبر ريمند بن صنجيل، وجه من تسلم عرقة من أصحابه. ونزل الافرنج بجموعهم وحشدهم على طرابلس، وشرعوا في قتالها

---

(1) يذكر هنا ويعد قليل اسم ريمند وفي هذا خلط مع اسم الأب Raymond de Saint-Gilles ريمند صنجيل الذي مات عام 1105 دون أن يتمكن من أخذ طرابلس المحتضرة وقد خلفه ابن إحدى قريباته أي Guillaume Jourdain كونت منطقة سردان الواقعة بين فرنسا واسبانيا (وتسميها المصادر العربية سارداني) وذلك حتى وصل برتراند ليطالب بالوراثة.

ومضايقة أهلها منذ أول شعبان إلى الحادي عشر من ذي الحجة من السنة (6 آذار/مارس–12 آب/اوغست 1109)، وأسندوا أبرجهم إلى السور. فلما شاهد الجند والمقاتلة أهل البلد، سقط في أيديهم وأيقنوا بالهلاك وذلت نفوسهم، لاشتمال اليأس من تأخر وصول الاصطول المصري في البحر والميرة والنجدة. وقد كانت غلة الاصطول أزيحت وسير الريح ترده لما يريد الله تعالى من نفاذ الأمر المقضي، فشد الافرنج القتال عليها وهجموها من الأبراج فملكوها بالسيف في يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة من السنة (12 تموز/يولية 1109م)، ونهبوا ما فيها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها وحصل في أيديهم من أمتعتها وذخائرها ودفاتر دار علمها[1] وما كان منها في خزائن أربابها ما لا يحد عدده ولا يحصر فيذكر. وسلم الوالي بها، وجماعة من جنده كانوا التمسوا الأمان قبل فتحها. فلما ملكت أطلقوا ووصلوا إلى دمشق بعد أيام من فتحها، وعوقب أهلها واستصفيت أموالها واستثيرت ذخائرهم من مكامنها ونزل بهم أشد البلاء ومؤلم العذاب.

وتقرر بين الافرنج والجنويين على أن يكون للجنويين الثلاث من البلد وما نهب منه والثلاثان لريمند بن صنجيل وأفردوا للملك بغدوين من الوسط ما رضي به.

وكان طنكري لما لم ينل ما أراد من نصرة السرداني قد عاد ونزل بانياس وافتتحها وأمن أهلها في شوال من السنة (آيار/مايو 1109) ونزل على ثغر جبيل[2] وفيه فخر الملك ابن عمار (أمير طرابلس) والقوت فيه نزر قليل. فلهم يزل مضايقاً له ولأهله إلى يوم الجمعة الثاني والعشرين من ذي الحجة (23 تموز/يولية 1109م) فراسلهم وبذل لهم الأمان بينهما. (وبهذا خرج فخر الملك سالماً)، وقد وعده باحسان النظر والاقطاع.

ووصل عقيب ذلك الاصطول المصري ولم يكن خرج للمصريين فيما تقدم مثله كثرة رجال ومراكب وعدد وغلال لحماية طرابلس وتقويتها بالغلة الكثيرة

---

(1) دار العلم، مكتبة ومدرسة علمية، وقد كانت فخراً لأمراء طرابلس من بني عمار

(2) المقصود مدينة جبلة لأن الإفرنج استولوا على مدينة جبيل عام 1104

والرجال والمال لمدة سنة مع تقوية ما في المملكة المصرية من ثغور الساحل وأهله ووصل إلى صور في يوم الثامن من فتح طرابلس وقد فات الأمر فيها للقضاء النازل بأهلها. وأقام بالساحل مدة وفرقت الغلة في جهاتها وتمسك به أهل صور وصيدا وبيروت وشكوا أحوالهم وضعفها عن محاربة الافرنج ولم يمكن الاصطول المقام فأقلع عائداً عند استقامة الريح إلى مصر.

سقوط بيروت

(ابن القلانسي 167-168)

وفي هذه السنة (1109/503-1110) خرج طنكري من أنطاكية في حشده ولفيفه المخذول إلى الثغور الشامية فملك طرسوس وما والاها وأخرج صاحب ملك الروم منها وعاد إلى أنطاكية ثم خرج إلى شيزر وقرر عليها عشرة آلاف دينار مقاطعة تحمل إليه بعد أن عاث في عملها ونزل على حصن الأكراد فتسلمه من أهله وتوجه إلى عرقة وكان الملك بغدوين وابن صنجيل قد نزلا على ثغر بيروت براً وبحراً فعاد طنكري إلى أنطاكية وسار جوسلين صاحب تل باشر إلى ثغر بيروت لمعاونة النازلين عليه من الافرنج ويستنجد بهم على عسكر الأمير مودود النازلين على الرها. وشرع الافرنج في عمل البرج ونصبه على سور بيروت فحين نجز وزحفوا به كسر بحجارة المناجيق وأفسد فشرعوا في عمل غيره وعمل ابن صنجيل برجاً آخر.

ووصل في الوقت من اصطول مصر في البحر تسعة عشر مركباً حربية فظهروا على مراكب الافرنج وملكوا بعضها ودخلوا بالميرة إلى بيروت فقويت بها نفوس من فيها من الرعية. وأنفذ الملك بغدوين إلى السويدية[1] يستنجد بمن فيها من الجنوية في مراكبهم فوصل منها إلى بيروت أربعون مركباً مشحنة بالمقاتلة فزحف الافرنج في البر والبحر إليها بأسرهم في يوم الجمعة 21 شوال (13 أيار/مايو 1110)، و[نصبوا] اعلى السور برجين واشتدوا في القتال فقتل مقدم

(1) مرفأ أنطاكية

الاصطول المصري وخلق كثير من المسلمين ولم ير الافرنج من ما تقدم وتأخر أشد من حرب هذا. وانخذل الناس في البلد وأيقنوا بالهلاك فهجم الافرنج على البلد آخر نهار هذا اليوم فملكوه بالسيف قهراً وغلبةً. وهرب الوالي الذي كان فيه في جماعة من أصحابه وحمل إلى الافرنج فقتل ومن كان معه وغنموا ما كان استصحبه من المال ونهب البلد وسبي من كان فيه وأسر واستُصفيت أموالهم وذخائرهم. ووصل عقيب ذلك من مصر ثلاثمائة فارس نجدةً لبيروت فحين حصلوا بالاردن خرجت عليهم فرقة من الافرنج يسيرة العدد فانهزموا منهم إلى الجبال فهلك منهم جماعة. فلما تقرر أمر بيروت رحل الملك بغدوين في الافرنج ونزل على ثغر صيدا وراسل أهله يلتمس منهم تسليمه فاستمهلوه مدة عينوها فأجابهم إلى المهلة بعد أن قرر عليهم ستة آلاف دينار تحمل إليه مقاطعةً وكانت قبل ذلك ألفي دينار ورحل عنها إلى بيت المقدس للحج.

سقوط صيدا

(ابن القلانسي 171)

ووردت الأخبار فيها (1109/503–1110) بوصول بعض ملوك الافرنج[1] في البحر ومعه نيف وستون مركباً مشحونة بالرجال لقصد الحج والغزو في بلاد الاسلام فقصد بيت المقدس وتوجه إليه بغدوين واجتمع معه وتقرر بينهما قصد البلاد الاسلامية. فلما عادا من بيت المقدس نزلا على ثغر صيدا في ثالث شهر ربيع الآخر سنة 504 (19 تشرين أول/اكتوبر 1110) وضايقوه براً وبحراً. وكان الاسطول المصري مقيماً على ثغر صور ولم يتمكن من انجاد صيدا فعملوا البرج وزحفوا به إليها وهو ملبس بحطب الكرم في عدة أيام متفرقة فإذا كان يوم الحرب وقرب من السور زحفوا به وفيه الماء والخل لطفي النار وآلة الحرب.

فلما عاين من بصيدا هذا الأمر ضعفت نفوسهم وأشفقوا من مثل نوبة بيروت فأخرج إليها قاضيها وجماعة من شيوخها وطلبوا من بغدوين الأمان

(1) ملك النروج Sigurd

فأجابهم إلى ذلك وأمنهم العسكرية معهم على النفوس والأموال وإطلاق من أراد الخروج منها إلى دمشق واستحلفوه على ذلك وتوثقوا منه وخرج الوالي والزمام وجميع الأجناد والعسكرية وخلق كثير من أهل البلد وتوجهوا إلى دمشق لعشر بقين من جمادى (الأولى) سنة 504 (4 كانون أول/ديسمبر 1110) وكانت مدة الحصار سبعةً وأربعين يوماً. ورتب بغدوين الأحوال بها والحافظين لها وعاد إلى بيت المقدس ثم عاد بعد مدة يسيرة إلى صيدا فقرر على من أقام بها نيفاً وعشرين ألف دينار فأفقرهم واستغرق أحوالهم وصادر من علم أن له بقية منهم.

أثر أحداث الشام في بغداد

(ابن القلانسي 173)

وفيها (1110/504) وصل السلطان غياث الدنيا والدين محمد بن ملك شاه من همذان إلى بغداد في جمادى الأولى منها ووردت الكتب والرسل إليه من الشام بانهاء الحال وما جرى من الافرنج بعد عودهم عن الفرات ونوبة صيدا والأثارب وأعمال حلب. ولما كان أول جمعة من شعبان حضر رجل من الأشراف الهاشميين من أهل حلب وجماعة من الصوفية والتجار والفقهاء إلى جامع السلطان ببغداد فاستغاثوا وأنزلوا الخطيب عن المنبر وكسّروه وصاحوا وبكوا لما لحق الاسلام من الافرنج وقتل الرجال وسبي النساء والأطفال، ومنعوا الناس من الصلاة، والخدم والمقدمون يعدونهم عن السلطان، بما يمكنهم من انفاذ العساكر والانتصار للاسلام من الافرنج والكفار. وعادوا في الجمعة الثانية، المصير إلى جامع الخليفة وفعلوا مثل ذلك من كثرة البكاء والضجيج والاستغاثة والنحيب. ووصلت عقيب ذلك الخاتون السيدة أخت السلطان زوجة الخليفة إلى بغداد من أصفهان ومعها من التجمل والجواهر والأموال والآلات وأصناف المراكب والدواب والأثاث وأنواع الملابس الفاخرة والخدم والغلمان والجوار والحواشي ما لا يدركه حزر فيحصر ولا عد فيذكر، واتفقت هذه الاستغاثة فتكدر ما كان صافياً من الحال والسرور بمقدمها. وأنكر الخليفة المستظهر بالله أمير المؤمنين ما جرى

وعزم على طلب من كان الأصل والسبب ليوقع به المكروه، فمنعه السلطان من ذلك وعذر الناس فيما فعلوه، وأوعز إلى الأمراء والمقدمين بالعود إلى أعمالهم والتأهب للمسير إلى جهاد أعداء الله الكفار[1].

وفي جمادى الآخرة منها (كانون أول/ديسمبر 1110–كانون ثاني/يناير 1111) وصل رسول متملك الروم[2] بهدايا وتحف ومراسلات مضمونها البعث على قصد الإفرنج والإيقاع بهم والاجتماع على طردهم من هذه الأعمال وترك التراخي في أمرهم واستعمال الجد والاجتهاد في الفتك بهم قبل اعضال خطبهم واستفحال شرهم، ويقول أنه قد منعهم من العبور إلى بلاد المسلمين وحاربهم، فإن طمعوا فيها بحيث تتواصل عساكرهم وامدادهم إلى البلاد الاسلامية احتاج إلى مداراتهم واطلاق عبورهم ومساعدتهم على مقاصدهم واغراضهم للضرورات القائدة إلى ذلك ويبالغ في الحث والتحريض على الاجتماع على حربهم وقلعهم من هذه الديار بالاتفاق عليهم.

حصار صور

(ابن القلانسي 181–178)

وفي هذه السنة (505/1111–1112) جمع بغدوين الملك من أمكنه جمعه من الافرنج وقصد ثغر صور فبادر عز الملك واليه وأهل البلد بمراسلة ظهير الدين أتابك بدمشق يستصرخون به ويستنجدونه ويبذلون تسليم البلد إليه ويسئلونه المبادرة والتعجيل بانفاذ عدة وافرة من الأتراك تصل إليهم سرعة لمعونتهم وتقويتهم

---

(1) كان يقتسم الحكم آنذاك في بغداد كل من الخليفة العباسي وهو السلطان الاسمي وزعيم المسلمين السنة، والسلطان السلجوقي، وهو السلطان الفعلي في كل من إيران والعراق مع فروع إقطاعيي الشام. ولم يكن الانسجام الموجود بين السلطتين كاملاً رغم الزيجات المتعددة بين الأسرتين. يشبها لنا أننا نرى في هذا التناقض، الظاهر في هذه الصفحات والصفحات التالية، صورة ايطاليا في العشرينات الفاشية وقبيل اكتمال الحكم الفاشي، حيث كان يتنازع الحكم الملك فكتورعمانوئيل والدوتشه موسوليني.

(2) Alessio Commeno (1081-1110)

وإن تأخرت المعونة عنهم قادتهم الضرورة إلى تسليمه إلى الافرنج ليأسهم من نصرة الأفضل صاحب مصر[1] فبادر أتابك بإنفاذ جماعة وافرة من الأتراك بالعدد الكاملة تزيد على المائتين فرساناً رماة أبطالاً فوصلت إليهم وأتت أهل صور رجالة كثيرة من صور وجبل عاملة، رغبوا في ذلك مع رجالة من دمشق وصلوا إليهم وحصلوا عندهم وشرع أتابك في إنفاذه عدة أخرى. فحين عرف بغدوين ما تقرر بين أتابك وأهل صور بادر النزول عليها فيمن جمعه وحشده في اليوم الخامس وعشرين من جمادى الأولى سنة 505 (29 تشرين ثاني/نوفمبر 1111) وتقدم بقطع الشجر والنخل وبنى بيوت الاقامة عليها وزحف إليها فقاتلها عدة دفعات ويعود خاسراً لم ينل منها غرضاً وقيل أن أهل صور رشقوا في بضع أيام مقاتلتها في يوم واحد بعشرين ألف سهم.

وخرج ظهير الدين من دمشق حين عرف نزولهم على صور وخيم ببانياس وبث سراياه ورجالة الحرامية في أعمال الافرنج وأطلق لهم النهب والقتل والسلب والأخراب والحرق طلباً لازعاجهم وترحيلهم عنها فتدخل العدة الثانية إلى صور فلم يتمكن من الدخول. ونهض ظهير الدين إلى الحبيس الذي في السواد، وهو حصن منيعٌ لا يُرام، فشد القتال عليه وملكه بالسيف قهراً، وقتل من كان فيه قسراً، وشرع الافرنج في عمل برجي خشب للزحف بهما إلى سور صور، وزحف ظهير الدين إليهم عدة دفعات ليشغله بحيث يخرج عسكر صور فيحرق البرجين. وعرف الافرنج قصده في ذلك وخندقوا عليهم من جميع الجهات ورتبوا على الخندق الرجال بالسلاح لحفظه وحفظ الأبراج، ولم يحفلوا بما يفعل وما يجري على أعمالهم من الغارات عليها والفتك بمن فيها. وهجم الشتاء فلم يضر بالافرنج لأنهم كانوا نزولاً في أرض رملة صلبة والأتراك بالضد من ذلك قد كابدوا من مقامهم شدةً عظيمة ومشقةً مؤلمة إلا إنهم لا يخلون من غارة وفائدة وقطع ميرة عن الافرنج ومادة وأخذ ما يحمل إليهم.

---

(1) الوزير الفاطمي الذي سبق ذكره والذي كان عليه أن ينقذ هذه الثغور الواقعة من الناحية الشكلية تحت السيادة المصرية.

وقطع الأتراك الجسر الذي كان يُعبر عليه إلى صيدا ليقطع المادة أيضاً عنهما فعدلوا عند ذلك إلى استدعاء الميرة في البحر من جميع الجهات ففطن ظهير الدين لذلك ونهض في فريق من العسكر إلى ناحية صيدا وغار على ظاهرها فقتل جماعة من البحرية وأحرق تقدير عشرين مركباً على الشط وهو مع ذلك لا يهمل إصدار الكتب إلى أهل صور بتقوية قلوبهم وتحريضهم على استعمال المصابرة للافرنج والجد في قتالهم.

وتم عمل البرجين وكباشهما التي تكون فيهما في تقدير خمسة وسبعين يوماً وشرع في تقديمهما والزحف بهما في عاشر شعبان (11 شباط/فبراير) وقربا من سور البلد واشتد القتال عليهما وكان طول البرج الصغير منهما نيفاً وأربعين ذراعاً والكبير يزيد على الخمسين ذراعاً. ولما كان أول شهر رمضان (2 آذار/مارس) خرج أهل صور من الأبراج بالنفط والحطب والقطران وآلة الحرق فلم يتمكنوا من الوصول إلى شيء منهما فألقوا النار قريباً من البرج الصغير بحيث لم يتمكن الافرنج من دفعها فهبت ريح وألقت النار على البرج الصغير فاحترق بعد المحاربة الشديدة عليه والمكافحة العظيمة عنه ونهب منه زرديات كثيرة وطوارق[1] وغير ذلك واتصلت النار بالبرج الكبير. واتصل الخبر بالمسلمين بأن الافرنج قد هجروا حربة البلد للاشتغال بحريق البرج وانثنوا عن المقاتلة على الأبراج، وشد الافرنج عليهم وكشفوهم عن البرج واطفأوا ما علق به من النار ورتبوا عدة وافرة من أبطالهم لحفظ البرج والمنجنيقات من جميع الجهات.

وواظبوا الزحف إليها إلى آخر شهر رمضان، وقربوا البرج إلى بعض أبراج البلد وطموا الثلاثة الخنادق التي أمامه، وعمد أهل البلد إلى تعليق حائط البرج الذي بإزاء برج الافرنج وأطلقوا النار فيه، فاحترق التعليق[2] وسقط وجه الحائط في وجه البرج، فمنع من تقديمه إلى السور والزحف به وصار الموضع الذي قصدوه قصيراً، وأبراج البلد تحكم عليه، وبطل تقديمه من ذلك الوجه، وكشف الافرنج الردم وجروه إلى برج آخر من أبراج البلد ودفعوه إليه وقربوه من سور

---

(1) أي قذائف وألواح (ترجمة عن الايطالية)

(2) الدعائم (ترجمة عن الايطالية)

البلد، وصدموا بالكباش التي فيه السور، فزعزعوه، ووقع منه شيء من الحجارة، وأشرف أهل البلد على الهلاك. فعمد رجلٌ من مقدمي البحرية، عارف بالصنعة من أهل طرابلس له فهم ومعرفة بأحوال الحرب، إلى عمل كلاليب حديد لمسك الكبش إذا نطح به السور من رأسه ومن جانبه، بحبالٍ يجذبها الرجال حتى يكاد البرج الخشب يميل من شدة جذبهم بها، فتارةً تكسره الافرنج خوفاً من البرج، وتارةً يميل أو يفسد، وتارةً ينكسر بصخرتين تلقيان عليه من البلد مشدودة احداهما إلى الاخرى. فعملوا عدة من الكباش وهي تكسر على هذه الصفة واحداً بعد واحد، وكان طول كل واحد منها ستين ذراعاً معلقاً في البرج الخشب بحبال، في رأس كل واحد من الكباش حديد يزيد وزنه على عشرين رطلاً. فلما طال تجديد الكباش وقربوا البرج من السور عمد هذا الرجل البحري المقدم ذكره إلى خشبة طويلة جافية قوية أقامها في برج البلد الذي بإزاء برج الافرنج وفي رأسها خشبة على شكل الصليب[1] طولها أربعون ذراعاً تدور على بكر بلولب كيف ما أراد متوليها على مثال ما يكون في الصواري البحرية وفي طرف الخشبة التي تدور سهم حديد وفي طرفها الآخر حبال مدارة بها على ما يريد متوليها، وكان يرفع فيها جرار الكدر والنجاسة ليشغلهم بطرح ذلك عليهم في البرج عن الكباش. وضاق الأمر بالناس وشغلهم ذلك عن أمورهم وأشغالهم وعمد البحري المذكور إلى سلال العنب والقفاف فيجعل فيها الزيت والقير والسراقة والقلفونية وقشر القصب ويطلق فيها النار فإذا علقت بذلك وقع ذلك في الآلة المذكورة حتى يوازي برج الافرنج فتقع النار في أعلى البرج فيبادروا بإطفائها بالخل والماء، فيبادر برفع اخرى، ومع هذا يرمي أيضاً بالزيت المغلي في قدور صغار على البرج فيعظم الوقيد. فلما كثرت النار وحمل بعضها بعضاً وقويت قهرت الرجلين المتولين لرأس البرج، وقتل أحدهما وانهزم الآخر ونزل منه فتمكنت النار من رأسه ونزلت إلى الطبقة الثانية من رأسه ثم إلى الوسطى وعملت في الخشب وقهرت من كان حوله في الطبقات وعجزوا عن اطفائها، وهرب كل من فيه وحوله من الافرنج، وخرج أهل صور إليه فنهبوا ما فيه وغنموا من السلاح والآلات والعدد ما لا يحده وصف.

---

(1) صليب على شكل T

فعند ذلك وقع يأس الافرنج منه وشرعوا في الرحيل عنه وأحرقوا البيوت التي كانوا قد عمروها في المنزل لسكناهم وأحرقوا كثيراً من المراكب التي كانت لهم على الساحل لأنهم كانوا أخذوا صواريها وأرجلها وآلاتها للأبراج وكانت عدتهم تقدير مائتي مركب كباراً وصغاراً منها تقدير ثلاثين مركباً حربية وحملوا في بعضها ما خف من أثقالهم ورحلوا في العاشر من شوال من السنة (10 نيسان/ابريل 1112) وكانت مدة إقامتهم على محاصرة صور أربعة أشهر ونصف شهر. وقصدوا عكا وتفرقوا إلى أعمالهم، وخرج أهل صور وغنموا ما ظفروا به منهم، وعادت الأتراك المندوبون لاسعادهم إلى دمشق، وقد فقد منهم في الحرب نحو عشرين رجلاً وكان لهم فيها الجراية[1] والواجب في كل شهر. ولم يتم على برج من أبراج الافرنج في القديم والحديث مثل ما تم على هذا البرج من إحراقه من رأسه إلى أسفله والذي أعان على هذا هو تساوي البرجين[2] في الارتفاع ولو طال أحدهما على الاخر لملك أقصرهما. وكان عدد المفقودين من أهل صور أربعمائة نفس ومن الافرنج في الحرب أيضاً على ما حكى الحاكي العارف تقدير ألفي نفس. ولم يف أهل صور بما كانوا بذلوه لظهير الدين أتابك من تسليم البلد إليه ولم يظهر لهم في ذلك قولاً وقال: "إنما فعلت ما فعلت لله تعالى وللمسلمين لا لرغبة في مال ولا مملكة". فكثر الدعاء له والشكر بحسن فعله ووعدهم أنه متى دهمهم خطب مثل هذا سارع إليه وبالغ في المعونة عليه، وعاد إلى دمشق بعد مكابدة المشقة في مقابلة الافرنج إلى أن فرج الله عن أهل صور. وشرع أهل صور في ترميم ما شعثه الافرنج من سورها وأعادوا الخنادق إلى حالها ورسمها بعد طمتها وحصنوا البلد وتفرق من كان فيه من الرجالة[3].

---

(1) ليس من الواضح فيما إذا كانت "فيها" تعني: في دمشق – خلال العودة، أو أنها تعني "خلال الحرب" أي في صور نفسها أيام الحصار.

(2) أي البرج المتحرك وبنده وكلاهما مشار إليهما بنفس الكلمة مما لا يساعد على الوضوح

(3) بعد هذا الدفاع الناجح، تم إنقاذ صور مرات عديدة أخرى من قبل طغتكين، ذلك قبل أن تسقط نهائياً في أيدي الصليبيين عام 1124

- 4 -

لكن اول ضربة قاسية على الفرنجة لم تأتِ من بغداد، بل جاءت بعد ان تحرك كل من إيلغازي امير ماردين وأتابك دمشق طغتكين. فقد فاجأ إيلغازي عام 1911 في بلاط (أو سرمدا شرق حلب) الأمير النورماندي روجر صاحب انطاكية فهزمه شر هزيمة وقتله. وفيما يلي روايةٌ حول هذه الحادثة كتبها المؤرخ الحلبي كمال الدين، وهو الذي تابع أحداثها بصورة مباشرة وقدم لنا صدى صادقاً عنها. نورد بعد ذلك رواية ابن القلانسي الذي لم يفته أن يشير إلى عدم انتهاز المسلمين فرصة استعادة انطاكية رغم أنها كانت آنئذ سهلة المنال.

(كمال الدين 2/187-190)

هزيمة سرجال صاحب إنطاكية وموته

(وقعة تل عفرين)

وتوجه إيلغازي إلى ماردين ومعه أتابك (طغتكين)، وراسلا من بَعُدَ وقَرُب من عساكر المسلمين والتركمان، فجمعا عسكراً عظيماً، وتوجه إيلغازي في عسكر يزيد عن أربعين ألفاً في سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، وقطع الفرات من عبْر بدايا ومنجة[1].

وامتدت عساكره في أرض تل باشر وتل خالد وما يقاربهما، يقتل وينهب ويأسر، وغنموا كل ما قدروا عليه. ووصل من رسل حلب من يستحثه على

(1) في معجم البلدان لياقوت 162/3: سنجة: بفتح أوله وسكون ثانيه ثم جيم- قال الأديبي: هو نهر عظيم لا يُثبيأ خوضه لأن قراره رملٌ سيّال كلما وطئه الإنسان برجله سال به فغرّقه، وهو يجري بين حصن منصور وكيسوم وهما من ديار مضر - بالضاد المعجمة.

الوصول لتواصل غارات الفرنج من جهة الأثارب، وأياس أهلها من أنفسهم، فسار إلى مرج دابق ثم إلى المسلمية، ثم إلى قنسرين في أواخر صفر من سنة ثلاث عشرة وخمسمائة (حزيران/يونية 1119).

وسارت سراياه[1] في أعمال الروج والفرنج يقتلون ويأسرون، وأخذوا حصن قسطون في الروج، وجمع سرجال[2] صاحب أنطاكية الفرنج والأرمن وغيرهم، وخرج إلى جسر الحديد (على العاصي)، ثم رحلوا ونزلوا بالبلاط بين جبلين، مما يلي درب سرمدا[3]، شمالي الأثارب، وذلك في يوم الجمعة التاسع من شهر ربيع الأول (20 حزيران/يونية 1119).

وضجر الأمراء من طول المقام، وإيلغازي ينتظر أتابك طغتكين ليصل إليه ويتفقا على ما يفعلانه، فاجتمعوا وحثوا إيلغازي على مناجزة العدو فجدد إيلغازي الأيمان على الأمراء والمقدمين أن يتناصحوا في حربهم، ويصابروا في قتال العدو، وأنهم لا ينكلون ويبذلون مهجهم في الجهاد، فحلفوا على ذلك بنفوس طيبة.

وسار المسلمون جرايد، وخلفوا الخيام بقنسرين، وذلك في يوم الجمعة السادس عشر من شهر ربيع الأول (27 حزيران/يونية 1119)،، فباتوا قريباً من الفرنج وقد شرعوا في عمارة حصن مطل على تل عفرين والفرنج يتوهمون أن المسلمين ينازلون الأثارب أو زَرْدنا، فما شعروا عند الصبح إلا ورايات المسلمين قد أقبلت، وأحاطوا بهم من كل جانب.

---

(1) هناك في المخطوطة جملة مكررة ((وقطع الفرات من عبر ... وسارت)) ولا محال لوجودها، وقد كتبت فوق الجملة بخط دقيق ((من لا... إلى)) وهي دلالة الحذف، وبدونها تستقيم الجملة، على أن نبدل الكلمة في الأصل وهي ((سرايا هم)) فرسمها((سراياه)) متابعة للسّياق.

(2) سرجال هو: سير روجير ((Sir Roger)) ملك أنطاكية. – وفي ابن القلانسي 200: ((وورد الأخبار ببروز روجير صاحب أنطاكية منها فيمن جمعه وحشده من طوائف الافرنج ورجال الأرمن))– في ابن الأثير 289/8 'سيرجال'.

(3) في ابن القلانسي 201 ((قد نزلوا في الموضع المعروف بشرمدا وقيل دانيث البقل بين أنطاكية وحلب)) – وفي معجم البلدان لياقوت 82/3: ((سَرْمَدٌ: بلفظ السرمد، الدائم، موضع من أعمال حلب)) – وفي دوسو 221 أنها منذ الحروب المصرية القديمة وتسمى Sarmad أو Sarmeda وهي عند المؤرخين الفرنجة Sarmit. (الهوامش الأربعة السابقة من النص الأصلي، غير مذكورة عند غابريلي)

وأقبل القاضي أبو الفضل بن الخشاب يحرض الناس على القتال، وهو راكب على حجر وبيده رمح، فرآه بعض العسكر فازدراه وقال: "إنما جئنا من بلادنا تبعاً لهذا المعمم[1]! فأقبل على الناس، وخطبهم خطبة بليغة استنهض فيها عزائمهم، واسترهف هممهم بين الصفين، فأبكى الناس وعظم في أعينهم.

ودار طغان أرسلان بن دملاج[2] من ورائهم ونزل في خيامهم، وقتل من فيها ونهبها، وألقى الله النصر على المسلمين، وصار من انهزم من الفرنج وقصد الخيام قُتل.

وحمل الترك بأسرهم حملة واحدة من جميع الجهات صدقوهم فيها، وكانت السهام كالجراد، ولكثرة ما وقع في الخيل والسواد من السهام عادت منهزمة وغلبت فرسانها، وطحنت الرجالة والأتباع والغلمان بالسهام، وأخذوهم بأسرهم أسرى.

وقتل سرجال في الحرب[3]، وفقد من المسلمين عشرون نفراً (فقط!) منهم سليمان بن مبارك بن شبل، وسلم من الفرنج مقدار عشرين نفراً لا غير، وانهزم جماعة من أعيانهم وقتل في المعركة ما يقارب خمسة عشر ألفاً من الفرنج؛ وكانت الوقعة يوم السبت (28 حزيران/يونية). وقت الظهر، فوصل البشير إلى حلب بالنصر، والمصاف قائم، والناس يصلون صلاة الظهر بجامع حلب، سمعوا صيحة عظيمة بذلك من نحو الغرب، ولم يصل أحد من العسكر إلى نحو صلاة العصر.

وأحرق أهل القرى القتلى من الفرنج، فوجد في رماد فارس واحد أربعون نصل نشاب، ونزل إيلغازي في خيمة سرجال، وحمل إليه المسلمون ما غنموه، فلم يأخذ منهم إلا سلاحاً يهديه لملوك الإسلام، ورد عليهم ما حملوه بأسره.

ولما حضر الأسرى بين يدي إيلغازي، كان فيهم رجل عظيم الخلقة مشتهراً بالقوة، وأسره رجل ضعيف قصير قليل السلاح، فلما حضر بين يدي إيلغازي قال

---

(1) العمامة يضعها رجال الدين والشرع لدى المسلمين

(2) أمير أرزان في الجزيرة، من أعمال إيلغازي

(3) في ابن الأثير 289/8: ((وأما سيرجال صاحب أنطاكية فانه قتل وحمل رأسه)) (هامش من النص الأصلي)

له التركمان: أما تستحي يأسرك مثل هذا الضعيف وعليك مثل هذا الحديد. فقال. والله ما أخذني هذا، ولا هو مولاي وإنما أخذني رجل عظيم أعظم مني وأقوى، وسلمني إلى هذا وكان عليه ثوب أخضر وتحته فرس أخضر.[1]

(ابن القلانسي 200/1)

ولما وصل ظهير الدين أتابك إلى حلب للاجتماع مع نجم الدين (إيلغازي) على الأمر المقرر بينهما بعد مضي الأجل المعين عليه بتدبيرهما وجد التركمان قد اجتمعوا إليه من كل فج وكل صوب في الأعداد المتكثرة الوافرة والقوة الظاهرة كأنهم الأسود تطلب فريسها والشواهين إذا حامت على مكاسرها. ووردت الأخبار ببروز روجير صاحب انطاكية منها في من جمعه وحشده من طوائف الافرنج ورجالة الأرمن من سائر أعمالهم وأطرافهم بحيث يزيد عددهم على العشرين ألف فارس وراجل سوى الأتباع وهو العدد الكثير في أتم عدة وأكمل شكة وإنهم قد نزلوا في الموضع المعروف بشرمدا، وقيل دانيث البقل بين انطاكية وحلب. فحين عرف المسلمون ذلك طاروا إليهم بأجنحة الصقور إلى حماية الوكور؛ فما كان بأسرع من وقوع العين، وتقارب الفريقين حتى حمل المسلمون عليهم وأحاطوا بهم من جميع الجهات وسائر الجنبات، ضرباً بالسيوف ورشقاً بالسهام. ومنح الله تعالى –وله الحمد– حزب الاسلام النصر على المردة الطغام، ولم تمض ساعة من نهار يوم السبت السابع من شهر ربيع الأول من سنة 513 (28 حزيران/يونية 1118) إلا والافرنج على الأرض سطحة واحدة فارسهم وراجلهم بخيلهم وسلاحهم بحيث لم يفلت منهم شخص يخبر خبرهم، ووجد مقدمهم روجير صريعاً بين القتلى. ولقد حكي جماعة من المشاهدين لهذه الوقعة إنهم طافوا في مكان هذه المعركة لينظروا آية الله تعالى الباهرة وإنهم شاهدوا بعض الخيول مصرعة كالقنافذ من كثرة النشاب الواقع فيها. وكان هذا الفتح من أحسن الفتوح والنصر الممنوح لم يتفق مثله للاسلام في سالف الأعوام ولا الآنف من الأيام. وبقيت

(1) اللون الأخضر الفردوسي لا يترك مجالاً للشك بأن الحديث يدور عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أو عن مبعوث آخر من السماء، أتى لمساعدة المسلمين على النصر.

انطاكية شاغرة خالية من حماتها ورجالها خاوية من كماتها وأبطالها فريسة الواثب نهزة الطالب، فوقع التغافل عنها لغيبة ظهير الدين أتابك عن هذه الوقعة لتسرع التركمان إليها من غير تأهب لها للأمر النافذ والقدر النازل واشتغال الناس باحراز الغنائم التي امتلأت بها الأيدي وقويت بها النفوس وسرت بحسنها القلوب فتلك بيوتهم خاوية[1] والحمد لله رب العالمين.

صفات بغدوين الثاني وموته

(ابن القلانسي 233)

في هذه السنة (526/1131–1132)[2] ورد الخبر من ناحية الافرنج بهلاك بغدوين الرويس ملك الافرنج صاحب بيت المقدس بعكا في يوم الخميس الخامس والعشرين من شهر رمضان منها (8 آب/اغسطس 1132) وكان شيخاً قد عركه الزمان بحوادثه وعانى الشدائد من نوائبه وكوارثه ووقع في أيدي المسلمين عدة وقعات اسيراً في محارباته ومصافاته، وهو يتخلص منهم بحيله المشهورة، وخدعه المخبورة، ولم يخلف فيهم بعده صاحب رأي صائب ولاتدبير صالح. وقام فيهم بعده الملك القومص الجديد الكندايجور[3]، الواصل إليهم في البحر من بلادهم، فلم يتسدد في رأيه، ولاأصاب في تدبيره، فاضطربوا لفقده واختلفوا من بعده.

---

(1) استشهاداً بعبارة قرآنية (قرآن كريم 27، 28) مطبقة هنا على الأعداء المهزومين. ويستعمل المؤلف في النص السجع والمحسنات البديعية الأخرى تناغماً مع سمو الموضوع.

(2) يجب تقديم هذا التاريخ سنة كاملة لأن بغدوين الثاني مات في الواقع في القدس في 21 آب/اوغست 1131 الموافق تماما لـ 25 رمضان 525.

(3) وهو Cont d'Anjou.

- 5 -

بدأ الهجوم الإسلامي المعاكس بصورة فعلية حقيقية عندما دخل مسرح الأحداث اتابكُ الموصل وحلب نور الدين زنكي، التركي الأصل، (والذي حكم بين 1129-1146). وقد لقيت مواقف أبي نور الدين الحربية أصداء احتفالية لدى ابن الأثير الذي كان موظفاً ومؤرخاً مخلصاً للسلالة الزنكية التي لم يطل حكمها في بلاد مابين النهرين وسورية: لقد هيأت الأقدار لزنكي- بحسب الرؤية الدينية الأثيرية للتاريخ - وراثة طغتكين دمشق الذي توفي عام 1128 بعد أن كان أول خصم معتبر للصليبيين.

زنكي، قائدٌ هيّئتْهُ الأقدارُ لنصرةِ الإسلام في سورية

(ابن الأثير 458/10)

ولَوْلا أنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَنَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِمُلْكِ أتَابِكَ بِبِلادِ الشَّامِ، لَمَلَكَهَا الْفِرِنْجُ، لأنَّهُمْ كَانُوا يَحْصُرُونَ بَعْضَ الْبِلادِ الشَّامِيَّةِ، وَإذَا عَلِمَ ظَهِيرُ الدِّينِ طُغْتِكِينُ بِذَلِكَ جَمَعَ عَسَاكِرَهُ، وَقَصَدَ بِلادَهُمْ وَحَصَرَهَا، وَأَغَارَ عَلَيْهَا، فَيَضْطَرُّ الْفِرِنْجُ إِلَى الرَّحِيلِ لِدَفْعِهِ عَنْ بِلادِهِمْ، فَقَدَّرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ تُوُفِّيَ هَذِهِ السَّنَةَ (1128/522)، فَخَلا لَهُمُ الشَّامُ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ مِنْ رَجُلٍ يَقُومُ بِنُصْرَةِ أَهْلِهِ، فَلَطَفَ اللَّهُ بِالْمُسْلِمِينَ بِوِلايَةِ عِمَادِ الدِّينِ (زنكي)، فَفَعَلَ بِالْفِرِنْجِ مَا نَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

ذِكْرُ مُلْكِ زَنْكِي قَلْعَةَ بَعْرِينَ (حصن الفرنجة) وَهَزِيمَةِ الْفِرِنْجِ

(ابن الأثير 33-34/11)

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ فِي شَوَّالٍ (531/تموز/يوليه 1137) سَارَ أَتَابَكُ زَنْكِي مِنَ الْمَوْصِلِ إِلَى الشَّامِ، وَحَصَرَ قَلْعَةَ بَعْرِينَ[1]، وَهِيَ تُقَارِبُ مَدِينَةَ حَمَاةَ، وَهِيَ مِنْ

---

(1) سماها الصليبيون Mont Ferrand، وهي بين طرطوس وحماه.

أمنع معاقل الفرنج، وأحصنها، فلما نزل عليها قاتلها وزحف إليها، فجمع الفرنج فارسهم وراجلهم، وساروا في قضهم وقضيضهم وملوكهم وقمامصتهم وكنودهم إلى أتابك زنكي ليرحلوه عن بعرين، فلم يرحل، وصبر لهم إلى أن وصلوا إليه، فلقيهم وقاتلهم أشد قتال رآه الناس، وصبر الفريقان، ثم أجلت الوقعة عن هزيمة الفرنج، وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب، واحتمى ملوكهم[1]، وفرسانهم بحصن بعرين لقربه منهم، فحصرهم زنكي فيه، ومنع عنهم كل شيء حتى الأخبار. فكان من به منهم لا يعلم شيئاً من أخبار بلادهم لشدة ضبط الطرق وهيبته على جنده.

ثم إن القسوس والرهبان دخلوا بلاد الروم وبلاد الفرنج وما والاها مستنفرين على المسلمين، وأعلموهم أن زنكي إن أخذ قلعة بعرين ومن فيها من الفرنج ملك جميع بلادهم في أسرع وقت، وأن المسلمين ليس لهم همة إلا قصد البيت المقدس، فحينئذ اجتمعت النصرانية، وساروا على الصعب والذلول، وقصدوا الشام[2]، وكان منهم ما نذكره. وأما زنكي فإنه جد في قتال الفرنج فصبروا، وقلت عليهم الذخيرة، فإنهم كانوا غير مستعدين، ولم يكونوا يعتقدون أن أحداً يقوم عليهم، بل كانوا يتوقعون ملك باقي الشام، فلما قلت الذخيرة أكلوا دوابهم، وأذعنوا بالتسليم ليؤمنهم ويتركهم يعودون إلى بلادهم، فلم يجبهم إلى ذلك، فلما سمع باجتماع من بقي الفرنج، ووصول من قرب إليهم، أعطى لمن في الحصن الأمان، وقرر عليهم خمسين ألف دينار يحملونها إليه، فأجابوه إلى ذلك فأطلقهم، فخرجوا وسلموا إليه، فلما فارقوه بلغهم اجتماع من اجتمع بسببهم، فندموا على التسليم حيث لا ينفعهم الندم، وكان لا يصلهم شيء من الأخبار ألبتة؛ فلهذا سلموا.

وكان زنكي في مدة مقامه عليهم قد فتح المعرة وكفرطاب من الفرنج فكان أهلهما وأهل سائر الولايات التي بين حلب وحماة مع أهل بعرين في الخزي؛ لأن الحرب بينهم قائمة على ساق، والنهب والقتل لا يزال بينهم، فلما ملكها أمن الناس، وعمرت البلاد، وعظم دخلها، وكان فتحاً مبيناً، ومن رآه علم صحة قولي.

---

(1) ملك القدس Folco ومن معه من البارونات (جمع بارون).

(2) وذلك مع الامبراطور البيزنطي Giovanni II Comneno (1118 - 1143).

وَمِنْ أَحْسَنِ الأَعْمَالِ وَأَعْدَلِهَا مَا عَمِلَهُ زَنْكِي مَعَ أَهْلِ المَعَرَّةِ، فَإِنَّ الفِرِنْجَ لَمَّا مَلَكُوا المَعَرَّةَ كَانُوا قَدْ أَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ وَأَمْلاكَهُمْ، فَلَمَّا فَتَحَهَا زَنْكِي الآنَ حَضَرَ مَنْ بَقِيَ مِنْ أَهْلِهَا وَمَعَهُمْ أَعْقَابُ مَنْ هَلَكَ، وَطَلَبُوا أَمْلاكَهُمْ، فَطَلَبَ مِنْهُمْ كُتُبَهَا، فَقَالُوا: إِنَّ الفِرِنْجَ أَخَذُوا كُلَّ مَا لَنَا، وَالكُتُبَ الَّتِي لِلأَمْلاكِ فِيهَا. فَقَالَ: اطْلُبُوا دَفَاتِرَ حَلَبَ، وَكُلُّ مَنْ عَلَيْهِ خَرَاجٌ عَلَى مِلْكٍ يُسَلَّمُ إِلَيْهِ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ، وَأَعَادَ عَلَى النَّاسِ أَمْلاكَهُمْ، وَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ الأَفْعَالِ وَأَعْدَلِهَا.

التحالف الإفرنجي – الدمشقي ضد زنكي

(ابن القلانسي 73–270)

وفي أول هذه السنة المباركة مستهل المحرم (1139/534–1140)[1] ورد الخبر بفراغ عماد الدين أتابك من ترتيب أمر بعلبك وقلتها وترميم ما تشعث منها وشروعه في التأهب للنزول على مدينة دمشق لمضايقتها وورد عقيب ذلك الخبر برحيله عنها في العسكر ونزوله في البقاع[2] في شهر ربيع الأول منها (تشرين أول/اكتوبر 1139) وأنفذ رسوله إلى الأمير جمال الدين محمد بن تاج الملوك بوري بن أتابك[3] صاحبها في التماس تسليم البلد إليه ويعوض عنه بما يقع الاختيار والاقتراح عليه فلم يجب إلى ما رغب فيه فرحل عن البقاع ونزل على داريا ظاهر دمشق في يوم الأربعاء ثالث عشر ربيع الآخر منها (6 كانون ثاني/يناير). وكان عند نزوله على داريا قد التقت الطلائع فظفر بجماعة وانهزم الباقون إلى البلد وزحف بعد ذلك إلى البلد في عسكر من ناحية المصلى[4] في يوم الجمعة الثامن وعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة فظفر بجماعة وافرة من أحداث البلد والغوطة وأطلق السيف فيهم فمنهم من مضى قتيلاً وأسيراً ومنهم من عاد إلى البلد سالماً وجريحاً وأشرف البلد في هذا اليوم على الهلاك لولا لطف

---

(1) غابرييلي: وفي هذه السنة...

(2) كان يسمى في القديم Celesiria بين سلسلتي لبنان الشرقية والغربية

(3) حفيد طغتكين ورابع خليفة له على إمارة دمشق.

(4) مكان إقامة صلاة الجماعة

الله تعالى وعاد إلى مخيمه بمن أسر بعد من قتل وأمسك أياماً عن الحرب[1]. وتابع المراسلة والتلطف في تسليم البلد وأخذ العوض عنه بعلبك وحمص وما يقترح معهما فآثر جمال الدين محمد بن تاج الملوك الدخول في هذا الأمر لما فيه من الصلاح وحقن الدماء وعمارة الأعمال وسكون الدهماء وإباءة غيره عند الاستشارة فيه وجعل يزحف بعسكره في أيام متفرقة بحيث لم يصدق في القتال ولا بالغ في التضييق والنزال اشفاقاً من سفك الدماء كالكاف المسالم والمتأني في الوقائع والمغانم. وابتدأ بجمال الدين محمد ابن تاج الملوك مرض اتصل به في جمادى الأولى من السنة فصار يخف تارةً ويثقل ويمضي ويعود ويقل ويزيد إلى أن اشتد به اشتداداً وقع اليأس معه منه ولم يكن له فيه طبيب ولا راق ولم يزل على هذه الحال إلى أن قضى محتوم نحبه وصار إلى رحمه ربه في ليلة الجمعة الثامن من شعبان منها (29 آذار/مارس 1140) في الوقت الذي أصيب فيه أخوه شهاب الدين محمود بن تاج الملوك رحمهما الله فعجب الناس من ذلك واتفاق الوقت والساعة وسبحوا الله وقدسوه وجهز ودفن في تربة جدته بالفراديس[2].

فاجتمع رأي المقدمين وأصحاب الأمر من بعده على سد ثلمة فقده بنصب ولده الأمير عضد الدولة أبي سعيد آبق بن جمال الدين محمد في مكانه وأخذت له بذلك الوعود المؤكدة بالأيمان المشددة على الاخلاص في الطاعة والصدق في الخدمة والمناصحة فاستقام الأمر وصلح التدبير وزال الخلف وسكنت الأمور بعد اضطرابها وقرت النفوس بعد استيحاشها. وحين عرف عماد الدين أتابك هذه القضية زحف في عسكره إلى البلد طامعاً في خلف يجري بين المقدمين بوفاته فينال به بعض طلباته فكان الأمر بالضد مما أمل والحال بالعكس فيما ظن ولم يصادف من أجناد دمشق وأحداثها إلا الثبات على القراع والصبر على المناوشة والمصاع فعاد منكفئاً إلى عسكره وقد ضعفت نفسه وضاق لهذا الأمر صدره. وقد كان تقرر الأمر مع الافرنج على الاتفاق والاعتضاد والموازرة والاسعاد والامتزاج

(1) قال الفارقي: إن في هذه السنة ملك أتابك زنكي قلعة بعلبك ونزل على دمشق وحاصرها مدة ثم سلموا إليه قلعة بصرى -(عن النص الأصلي).

(2) باب الفراديس من أبواب دمشق

في دفعه والاختلاط في صده عن مراده ومنعه ووقعت المعاهدة على ذلك بالأيمان المؤكدة والضمان للوفاء بما بذلوه والتمسوا على ذلك مالاً معيناً يحمل إليهم ليكون عوناً لهم على ما يحاولونه وقوة ورهاناً تمكن بها نفوسهم وأجيبوا إلى ذلك وحمل إليهم المال والرهائن من أقارب المقدمين وشرعوا في التأهب للانجاد والاستعداد للموازرة والاسعاد وكاتب بعضهم بعضاً بالبعث على الاجتماع من سائر المعاقل والبلاد على ابعاد أتابك وصده عن نيل الأرب من دمشق والمراد قبل استفحال أمره واعضال خطبه وقوة شوكته واستظهاره على عصب الافرنج وقصد بلادهم.

فحين تيقن صورة الحال في هذا العزم وتجمعهم لقصده مع عسكر دمشق رحل عن منزله بداريا في يوم الأحد الخامس من شهر رمضان طالباً ناحية حوران للقاء الافرنج إن قربوا منه وطلبهم إن بعدوا عنه وأقام على هذا الاعتزام مدةً ثم عاد إلى ناحية غوطة دمشق[1] ونزل بعذراء يوم الأربعاء لست بقين من شوال (12 حزيران/يونية) فأحرق عدة ضياع من المرج والغوطة إلى حرستا التين ورحل يوم السبت تالي متشاملاً حين تحقق نزول الافرنج بالمدان في جموعهم. وكان الشرط مع الافرنج أن يكون في جملة المبذول لهم انتزاع ثغر بانياس من يد ابراهيم بن طرغث وتسليمها إليهم فاتفق أن ابرهيم بن طرغث واليه كان قد نهض من أصحابه إلى ناحية صور للاغارة عليها فصادفه ريمند[2] صاحب أنطاكية في قصده واصلاً إلى اسعاد الافرنج على انجاد أهل دمشق فالتقيا فكسره وقتل في الوقعة ومعه نفر يسير من أصحابه وعاد من بقي منهم إلى بانياس فتحصنوا بها وجمعوا إليها رجال وادي التيم وغيرهم ومن أمكن جمعه من الرجال للذب عنها والمراماة دونها فنهض إليها الأمير معين الدين[3] في عسكر دمشق ونزل عليها ولم يزل محارباً بالمنجنيقات ومضايقاً لها بأنواع المحاربات ومعه فريق وافر من

---

(1) الغوطة منطقة خصبة كلها بساتين وجنائن تحيط بدمشق وفيها البلدات التي وردت هنا أسماؤها

(2) Raimondo di Poitiers

(3) معين الدين أنر (Aynard في المصادر الفرنجية)، قائد عسكري تركي، كان يتزعم من الناحية العملية إمارة دمشق في هذه السنوات، وذلك باسم الأمير الشاب أبق Abaq.

عسكر الافرنج عامة شوال (ايار–حزيران/مايو–يونية 1140).

وورد الخبر بأن الأمير عماد الدين أتابك قد نزل على بعلبك وأنفذ يستدعي التركمان من مطانهم كذا في شوال لقصد بانياس ودفع المنازلين لها عنها ولم تزل الحالية جارية على هذه القضية إلى آخر ذي الحجة من السنة.

... ولم تزل بانياس على حالها في المضايقة والمحاصرة إلى أن نفدت منها الميرة وقل قوت المقاتلة فسلمت إلى معين الدين وعوض عنها الوالي الذي كان بها بما أرضاه من الاقطاع والاحسان وسلمها إلى الافرنج ووفى لهم بالشروط ورحل عنها منكفئاً إلى دمشق ظافراً بأمله خامداً لعمله في أواخر شهر شوال.

وفي صبيحة يوم السبت السابع من ذي القعدة من السنة (22 حزيران/يونية) حصل عماد الدين أتابك بعسكره جريدةً بظاهر دمشق ووصل المصلى وقرب من سور البلد ولم يشعر به أحمد لكون الناس في أعقاب نومهم فلما تبلج الصباح وعرف خبره علت الجلبة والصواح ونفر الناس واجتمعوا إلى الأسوار وفتح الباب وخرجت الخيل والرجالة وكان قد فرق عسكره إلى حوران والغوطة والمرج وسائر الأطراف للغارة ووقف هو في خواصه بإزاء عسكر دمشق بحيث لا يمكن أحداً من أصحابه في اتباع أحد من خيله المغيرة ونشبت الحرب بينه وبين عسكر دمشق وخرج من الفريقين جملة وافرة وأحجم عنهم لاشتغاله بمن بثه من سراياه في الغارات وحصل في أيديهم من خيول الجشار [1] والأغنام والأحمال والأبقار والأثاث ما لا يحصى كثرة لأنهم جاءوا على غفلة وغرة ونزل من يومه بمرج راهط إلى أن اجتمعت الرجال والغنائم وسار عائداً على الطريق الشمالية بالغنائم الدثرة المتناهية في الكثرة.

---

(1) خيول المراعي (عن الايطالية)

بعد أن خاب أمله في دمشق استعاد زنكي الرجاء بفتح الرها (1144) وتحطيم مقاطعتها المحلية، فأصبحت أول مازال من الدويلات النصرانية الأربع التي نشأت خلال الحملة الأولى. نورد في البداية صفحات من ابن القلانسي ثم من ابن الأثير الذي، وإن كتب بأسلوب الحكايات والنوادر، فإنه ينطلق هنا أيضاً من الحوادث اليومية المحلية ليلقي نظرة شاملة أوسع على مسرح الصراع القائم بين الغرب والاسلام. غير أن زنكي مالبث أن قُتل بعد عامين على تحقيق ذلك الانتصار وهو يحارب ضد غيره من المسلمين. وقد ورث برنامجه السياسي- العسكري ابنه نور الدين سلطان حلب. نرى هنا أن مدائح ابن الأثير لزنكي تبين- بعيداً عن الظلال العاطفية- السمات التاريخية الهامة التي كانت تميز هذه الشخصية العظيمة.

زنكي يفتح الرها

(ابن القلانسي 280-279)

وفي هذه السنة (1144/539) وردت الأخبار من ناحية الشمال بأن الأمير عماد الدين أتابك افتتح مدينة الرها بالسيف مع ما هي عليه من القوة والحصانة والامتناع على قاصديها والحماية على طالبيها من العساكر الجمة ومنازلتها، وأن السبب في ذلك أن الأمير عماد الدين أتابك لم يزل لها طالباً وفي تملكها راغباً ولانتهاز الفرصة فيها مترقباً لا يبرح ذكرها جائلاً في خلده وسره وأمرها ماثلاً في خاطره وقلبه إلى أن عرف أن جوسلين (الثاني) صاحبها قد خرج منها في جل رجاله وأعيان حماته وابطاله لأمر اقتضاه وسبب من أسباب إلى البعد عنها دعاه للأمر المقضي والقدر النازل فحين تحقق ذلك بادر بقصدها وسارع إلى النزول في

العسكر الدثر عليها لمضايقتها والحصر لمن فيها وكاتب طوائف التركمان بالاستدعاء لهم للمعونة عليها والاسعاد وأداء فريضة الجهاد فوصل إليه منهم الخلق الكثير والجم الغفير بحيث أحاطوا بها من جميع الجهات وحالوا بينها وبين ما يصل إليها من المير والأقوات والطائر لا يكاد يقرب منها خوفاً على نفسه من صوائب سهام منازليها ويقظة المضيقين عليها ونصب على أسوارها المناجيق ترمي عليها دائماً والمحاربة لأهلها مضراً ومواظباً. وشرع الخراسانيون والحلبيون العارفون بمواضع النقوب الماضون فيها فنقبوا في عدة مواضع عرفوا أمرها وتيقنوا نفعها وضرها ولم يزالوا على هذه الحال في الايغال في النقب والتمادي في بطن الأرض إلى أن وصلوا إلى تحت أساس أبراج السور فعلقوه بالأخشاب المحكمة والآلات المنتخبة وفرغوا من ذلك ولم يبق غير اطلاق النار فيها. فاستأذنوا عماد الدين أتابك في ذلك فأذن لهم بعد أن دخل في النقب وشاهد حاله واستعظم كونه وهاله، فلما أطلقت النار في تعليق النقوب، تمكنت من أخشابها وابانتها فوقع السور في الحال وهجم المسلمون البلد بعد أن قتل من الجهتين الخلق الكثير على الهدم وقتل من الافرنج والأرمن وجرح ما أوجب هزيمتهم عنه وملك البلد بالسيف في يوم السبت سادس وعشرين من جمادى الآخرة منها (23 كانون أول/ديسمبر 1144) ضحوة النهار.[1] وشرع في النهب والقتل والأسر والسبي وامتلأت الأيدي من المال والأثاث والدواب والغنائم والسبي ما سرت به النفوس وابتهجت بكثرته القلوب وشرع عماد الدين أتابك بعد أن أمر برفع السيف والنهب في عمارة ما انهدم وترميم ما تشعث ورتب من رآه لتدبير أمرها وحفظها والاجتهاد في مصالحها وطيب بنفوس أهلها ووعدهم بإجمال السيرة فيهم وبسط المعدلة في أقاصيهم وأدانيهم. ورحل عنها وقصد سروج وقد هرب الافرنج منها فملكها وجعل لا يمر بعمل من أعمالها ولا معقل من معاقلها فينزل عليه إلا سلم إليه في الحال.

---

(1) قال الفارقي في تاريخه: انه فتحها عنوة في 25 من جمادى الآخرة وكان 23 كانون الأول من السنة وكان أخذتها الافرنج بعد موت تاج الدولة في سنة 492 ثم رحل عنها بعد ما رتب أمرها ونزل على البيرة فحاصرها مدة، وكانت النصارى يقولون أن أتابك يُقتل ليلة الميلاد وكانو منتظرين ذلك وكان فتحها ليلة الميلاد وسلم أتابك وكذبوا (هامش عن النص الأصلي).

(ابن الأثير 11/66-64)

في هذه السنة سادس جمادى الآخرة[1]، فتح أتابك عماد الدين زنكي بن آقسنقر مدينة الرها من الفرنج، وفتح غيرها من حصونهم بالجزيرة أيضاً، وكان ضررهم قد عم بلاد الجزيرة، وشرهم قد استطار فيها، ووصلت غاراتهم إلى أدانيها وأقاصيها، وبلغت آمد، ونصيبين، ورأس عين، والرقة. وكانت مملكتهم بهذه الديار من قريب ماردين إلى الفرات مثل الرها، وسروج، والبيرة، وسن ابن عطير، وجملين، والموزر، والقرادي وغير ذلك. وكانت هذه الأعمال مع غيرها مما هو غرب الفرات لجوسلين، وكان صاحب رأي الفرنج والمقدم على عساكرهم، لما هو عليه من الشجاعة والمكر. وكان أتابك يعلم أنه متى قصد حصرها اجتمع فيها من الفرنج من يمنعها، فيتعذر عليه ملكها لما هي عليه من الحصانة، فاشتغل بديار بكر ليوهم الفرنج أنه غير متفرغ لقصد بلادهم. فلما رأوا أنه غير قادر على ترك الملوك الأرتقية وغيرهم من ملوك ديار بكر، حيث إنه محارب لهم، اطمأنوا، وفارق جوسلين الرها وعبر الفرات إلى بلاده الغربية، فجاءت عيون أتابك إليه فأخبرته فنادى في العسكر بالرحيل، وأن لا يتخلف عن الرها أحد من غد يومه، وجمع الأمراء عنده، وقال: قدموا الطعام؛ وقال: "لا يأكل معي على مائدتي هذه إلا من يطعن غداً معي على باب الرها"، فلم يتقدم إليه غير (أمير) واحد وصبي لا يعرف، لما يعلمون من إقدامه وشجاعته، وأن أحداً لا يقدر على مساواته في الحرب. فقال الأمير لذلك الصبي: "ما أنت في هذا المقام"؟ فقال أتابك: "دعه، فوالله إني أرى وجهاً لا يتخلف عني". وسار والعساكر معه، ووصل إلى الرها، وكان هو أول من حمل على الفرنج ومعه ذلك الصبي، وحمل فارس من خيالة الفرنج على أتابك عرضاً، فاعترضه ذلك الأمير فطعنه فقتله[2]، وسلم الشهيد، ونازل البلد، وقاتله ثمانية وعشرين يوماً، فزحف إليه عدة دفعات، وقدم النقابين فنقبوا سور البلد، ولج في قتاله خوفاً من اجتماع الفرنج والمسير إليه واستنقاذ البلد

(1) لابد ان كلمة ((عشرين)) قد سقطت سهواً لأن التاريخ الصحيح هو الذي ذكره تاريخ ابن القلانسي قبل قليل أي السبت 26 جمدى الثاني عام 539 – 23 كانون أول 1144.

(2) يقول غابرييلي إن النص يحتمل تفسيرين حول أي منهما قتل الآخر.

منه، فسقطت البَدَنَةُ الَّتِي نقبها النقابون، [وأخذ] البَلَدَ عَنْوَةً وَقَهْرًا، وحصر قلعته فملكها أيضًا، ونهب الناسُ الأموالَ وسبوا الذُّرِّيَّةَ وقتلوا الرِّجالَ. فلما رأى أتابك البَلَدَ أعجبه، ورأى أنَّ تخريب مثله لا يجوزُ في السياسة، فأمر فنودي في العساكر بردِّ من أخذوهُ من الرِّجالِ والنِّساءِ والأطفالِ إلى بيوتهم، وإعادةِ ما غنموهُ من أثاثهم وأمتعتهم، فردُّوا الجميعَ عن آخره لم يُفقد منهم أحدٌ، إلَّا الشاذُّ النَّادرُ الذي أُخِذَ، وفارق (من أخذهُ) العسكرَ، فعاد البَلَدُ إلى حاله الأوَّلِ، وجعل فيه عسكرًا يحفظه، وتسلَّم مدينةَ سَرُوجَ وسائرَ الأماكنِ الَّتِي كانت بيد الفرنجِ شرقيَّ الفراتِ، ما عدا البِيرة[1]، فإنَّها حصينةٌ منيعةٌ وعلى شاطئ الفراتِ، فسار إليها وحصرها، وكانوا قد أكثروا ميرتها ورجالها. فبقي على حصارها إلى أن رحل عنها، على ما نذكره إن شاء اللَّه تعالى.

حُكي أنَّ بعض العلماءِ بالأنسابِ والتَّواريخِ قال: كان صاحبُ جزيرةِ صقليَّة قد أرسل سريَّةً في البحرِ إلى طرابلس الغربِ وتلك الأعمالِ، فنهبوا وقتلوا؛ وكان بصقليَّة إنسانٌ من العلماءِ المسلمين، وهو من أهلِ الصَّلاحِ، وكان صاحبُ صقليَّة يُكرِمُهُ ويحترمهُ، ويرجعُ إلى قولِهِ، ويُقدِّمُهُ على من عندهُ من القُسوسِ والرُّهبانِ؛ وكان أهلُ ولايته يقولون إنَّهُ مُسلمٌ بهذا السَّببِ.

ففي بعضِ الأيامِ كان جالسًا في منظرةٍ له تُشرفُ على البحرِ، وإذ قد أقبل مركبٌ لطيفٌ، وأخبره من فيه أنَّ عسكرهُ دخلوا بلادَ الإسلامِ، وغنموا وقتلوا وظفروا؛ وكان المسلمُ إلى جانبه وقد أغفى، فقال له الملكُ: يا فلانُ! أما تسمعُ ما يقولون؟ قال: لا! قال: إنَّهم يُخبرون بكذا وكذا. أين كان محمَّدٌ عن تلك البلادِ وأهلها؟ فقال له: كان قد غُيِّبَ عنهم، وشهد فتحَ الرُّها، وقد فتحها المسلمون الآن؛ فضحك منهُ من هناك من الفرنجِ، فقال الملكُ: لا تضحكوا، فواللَّه ما يقولُ إلَّا الحقَّ؛ فبعد أيامٍ وصلت الأخبارُ من فرنجِ الشامِ بفتحها[2]. وحكى لي جماعةٌ من

---

(1) وهي Biregik التركية حالياً.

(2) هناك تزامن غير دقيق مع حملة صقلية عام 1142، أو مع تلك الناجحة التي جرت عام 1146 ضد طرابلس. والحادثة تؤكد هنا تسامح رجار الثاني المعاصر للمسلمين أما المسلم المذكور الذي كان غافياً فقد يكون الإدريسي بالذات.

أهلِ الدِّينِ والصَّلاحِ أنَّ إنسانًا صالحًا رأى الشَّهيدَ في منامِه، فقال لهُ: ما فعلَ اللهُ بك؟ قال: غفرَ لي بفتحِ الرُّها.

ذكرُ قتلِ أتابك عمادِ الدِّينِ زنكي وشيءٍ من سيرتِه

(ابن الأثير 11/74-72)

في هذهِ السَّنةِ (541)، لخمسٍ مضينَ من ربيعِ الآخرِ (14 أيلول/سبتمبر 1146)، قُتلَ أتابك الشَّهيدُ[1] عمادُ الدِّينِ زنكي بنُ آقسنقر، صاحبُ الموصلِ والشَّامِ، وهوَ يُحاصِرُ قلعةَ جعبر، على ما ذكرناهُ، قتلهُ جماعةٌ من مماليكِهِ ليلًا غيلةً، وهربُوا إلى قلعةِ جعبر، فصاحَ من بها إلى العسكرِ يُعلمُونهُمْ بقتلِه، وأظهرُوا الفرحَ، فدخلَ أصحابُهُ، فأدركُوهُ وبهِ رمقٌ. حدَّثني والدي عن بعضِ خواصِّه، قالَ: "دخلتُ إليهِ في الحالِ وهوَ حيٌّ، فحينَ رآني ظنَّ أنِّي أريدُ قتلَهُ، فأشارَ إليَّ بإصبعِهِ السَّبَّابةِ يستعطفُني، فوقعتُ من هيبتِه، فقلتُ: يا مولايَ من فعلَ بكَ هذا؟ فلمْ يقدرْ على الكلامِ، وفاضتْ نفسُهُ لوقتِه، رحمهُ اللهُ".

قالَ: وكانَ حسنَ الصُّورةِ، أسمرَ اللَّونِ، مليحَ العينينِ، قدْ وخطَهُ الشَّيبُ، وكانَ قدْ زادَ عمرُهُ على ستِّينَ سنةً؛ لأنَّهُ كانَ لمَّا قُتلَ والدُهُ[2] صغيرًا، كما ذكرناهُ قبلُ، ولمَّا قُتلَ دُفنَ بالرَّقَّةِ. وكانَ شديدَ الهيبةِ على عسكرِهِ ورعيَّتِه، عظيمَ السِّياسةِ، لا يقدرُ القويُّ على ظلمِ الضَّعيفِ، وكانتِ البلادُ، قبلَ أنْ يملكَها خرابًا منَ الظُّلمِ، وتنقُّلِ الوُلاةِ، ومجاورةِ الفرنجِ، فعمرَها، وامتلأتْ أهلًا وسكَّانًا. حكى لي والدي قالَ: رأيتُ الموصلَ وأكثرُها خرابٌ، بحيثُ يقفُ الإنسانُ قريبَ محلَّةِ الطَّبَّالينَ ويرى الجامعَ العتيقَ، والعرصةَ، ودارَ السُّلطانِ، ليسَ بينَ ذلكَ عمارةٌ؛ وكانَ الإنسانُ لا يقدرُ على المشي إلى الجامعِ العتيقِ إلَّا ومعَهُ منْ يحميهِ، لبُعدِهِ عنِ العمارةِ، وهوَ الآنَ في وسطِ العمارةِ، وليسَ في هذهِ البقاعِ المذكورةِ كلِّها

---

(1) مع أن الزنكي قد قتل وهو يحارب مسلمين آخرين (العقيلي صاحب جبر)، فإن ابن الأثير المخلص له يدعوه هنا وفي أمكنة أخرى بالشهيد: ذلك لكفاحه المرير ضد الفرنج.

(2) الأمير اقسنقر، والذي تمرد عام 1094 على سلطان حلب تتش فقتله هذا.

أَرْضَ بِرَاحٍ، وَحَدَّثَنِي أَيْضًا أَنَّهُ وَصَلَ إِلَى الْجَزِيرَةِ فِي الشِّتَاءِ، فَدَخَلَ الأَمِيرُ عِزُّ الدِّينِ الدُّبَيْسِيُّ، وَهُوَ مِنْ أَكَابِرِ أُمَرَائِهِ، وَمِنْ جُمْلَةِ أَقْطَاعِهِ مَدِينَةُ دَقُوقَا، وَنَزَلَ فِي دَارِ إِنْسَانٍ يَهُودِيٍّ، فَاسْتَغَاثَ الْيَهُودِيُّ إِلَى أَتَابَكَ، وَأَنْهَى حَالَهُ إِلَيْهِ، فَنَظَرَ إِلَى الدُّبَيْسِيِّ فَتَأَخَّرَ، وَدَخَلَ الْبَلَدَ وَأَخْرَجَ بَرْكَهُ وَخِيَامَهُ. قَالَ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ غِلْمَانَهُ يَنْصِبُونَ خِيَامَهُ فِي الْوَحْلِ، وَقَدْ جَعَلُوا عَلَى الأَرْضِ تِبْنًا يَقِيهِمُ الطِّينَ، وَخَرَجَ فَنَزَلَهَا، وَكَانَتْ سِيَاسَتُهُ إِلَى هَذَا الْحَدِّ.[1] وَكَانَتِ الْمَوْصِلُ مِنْ أَقَلِّ بِلَادِ اللَّهِ فَاكِهَةً، فَصَارَتْ فِي أَيَّامِهِ، وَمَا بَعْدَهَا، مِنْ أَكْثَرِ الْبِلَادِ فَوَاكِهَ وَرَيَاحِينَ وَغَيْرَ ذَلِكَ. وَكَانَ أَيْضًا شَدِيدَ الْغَيْرَةِ وَلَا سِيَّمَا عَلَى نِسَاءِ الأَجْنَادِ، وَكَانَ يَقُولُ: إِنْ لَمْ نَحْفَظْ نِسَاءَ الأَجْنَادِ بِالْهَيْبَةِ، وَإِلَّا فَسَدْنَ لِكَثْرَةِ غَيْبَةِ أَزْوَاجِهِنَّ فِي الأَسْفَارِ. وَكَانَ أَشْجَعَ خَلْقِ اللَّهِ، أَمَّا قَبْلَ أَنْ يَمْلِكَ فَيَكْفِيهِ أَنَّهُ حَضَرَ مَعَ الأَمِيرِ مَوْدُودٍ صَاحِبِ الْمَوْصِلِ مَدِينَةَ طَبَرِيَّةَ، وَهِيَ لِلْفِرِنْجِ، فَوَصَلَتْ طَعْنَتُهُ بَابَ الْبَلَدِ وَأَثَّرَ فِيهِ، وَحَمَلَ أَيْضًا عَلَى قَلْعَةِ عَقْرِ الْحُمَيْدِيَّةِ، وَهِيَ عَلَى جَبَلٍ عَالٍ، فَوَصَلَتْ طَعْنَتُهُ إِلَى سُورِهَا، إِلَى أَشْيَاءَ أُخَرَ. وَأَمَّا بَعْدَ الْمُلْكِ فَقَدْ كَانَ الأَعْدَاءُ مُحْدِقِينَ بِبِلَادِهِ، وَكُلُّهُمْ يَقْصِدُهَا، وَيُرِيدُ أَخْذَهَا، وَهُوَ لَا يَقْنَعُ بِحِفْظِهَا، حَتَّى إِنَّهُ لَا يَنْقَضِي عَلَيْهِ عَامٌ إِلَّا وَيَفْتَحُ مِنْ بِلَادِهِمْ. فَقَدْ كَانَ الْخَلِيفَةُ الْمُسْتَرْشِدُ بِاللَّهِ مُجَاوِرَهُ فِي نَاحِيَةِ تَكْرِيتَ، وَقَصَدَ الْمَوْصِلَ وَحَصَرَهَا، ثُمَّ إِلَى جَانِبِهِ، مِنْ نَاحِيَةِ شَهْرَزُورَ وَتِلْكَ النَّاحِيَةِ السُّلْطَانُ مَسْعُودٌ؛ ثُمَّ ابْنُ سُقْمَانَ صَاحِبُ خِلَاطَ؛ ثُمَّ دَاوُدُ بْنُ سُقْمَانَ صَاحِبُ حِصْنِ كِيفَا؛ ثُمَّ صَاحِبُ آمِدَ وَمَارِدِينَ؛ ثُمَّ الْفِرِنْجُ مِنْ مُجَاوَرَةِ مَارِدِينَ إِلَى دِمَشْقَ؛ ثُمَّ أَصْحَابُ دِمَشْقَ، فَهَذِهِ الْوِلَايَاتُ قَدْ أَحَاطَتْ بِوِلَايَتِهِ مِنْ كُلِّ جِهَاتِهَا، فَهُوَ يَقْصِدُ هَذَا مَرَّةً وَهَذَا مَرَّةً، وَيَأْخُذُ مِنْ هَذَا وَيُصَانِعُ هَذَا، إِلَى أَنْ مَلَكَ مِنْ كُلِّ مَنْ يَلِيهِ طَرَفًا مِنْ بِلَادِهِ، وَقَدْ أَتَيْنَا عَلَى أَخْبَارِهِ فِي كِتَابِ "الْبَاهِرِ" فِي تَارِيخِ دَوْلَتِهِ وَدَوْلَةِ أَوْلَادِهِ[2]، فَيُطْلَبُ مِنْ هُنَاكَ.

---

(1) يمدح كل المؤرخين على الإطلاق زنكي بسبب رعايته ودفاعه عن مواطنيه ضد عنف ولصوصية الجنود. ويقول المؤرخ الحلبي كمال الدين، أنه عندما كان يخرج من المدينة، فإن الجنود يظهرون وكأنهم يسيرون بين سلسلتين طويلتين، وذلك لحرصهم على ألا يدوسوا شيئاً من الزرع لأنهم يعلمون أنه لا مزاح مع الأتابك.

(2) وهو تاريخ أتابكة الموصل، حيث عبر ابن أثير عن حبه وإخلاصه ومناصرته للعائلة الزنكية.

– 7 –

كان حصار دمشق القصير والفاشل (1148) أبرز ماحدث خلال الحملة الصليبية الثانية التي لم تُظهر أي جدارة خاصة وأنها بدأت تحت وهم يقول بسقوط الرها. نرى هنا أن رواية شاهد العيان ابن القلانسي تؤكد رواية ابن الأثير وتكملها، ونجد أيضاً صفحات بلاغية أخرى كتبها مؤرخ متأخر آخر هو ابن الجوزي. كما نقرأ كيف ترمز ميتة الفندلاوي الفقيه الشيخ الكبير شهيداً في سبيل الدين والوطن إلى المقاومة الاسلامية في مظهرها الأنبل والأشد صرامة.

الحملة الثانية وحصار دمشق

(ابن القلانسي 297–300)

وفي أوائلها (543/1148) تواترت الأخبار من سائر الجهات بوصول مراكب الافرنج المقدم ذكرهم إلى ساحل البحر وحصولهم على سواحل الثغور الساحلية صور وعكا واجماعهم مع من كان بها من الافرنج ويقال إنهم بعد ما فني منهم بالقتل والمرض والجوع تقدير مائة ألف عنان وقصدوا بيت المقدس وقضوا مفروض حجهم وعاد بعد ذلك من عاد إلى بلادهم في البحر. وقد هلك منهم بالموت والمرض الخلق العظيم وهلك من ملوكهم من هلك وبقي المان[1] أكبر ملوكهم ومن هو دونه واختلفت الآراء بينهم فيما يقصدون منازلته من البلاد الاسلامية والأعمال الشامية إلى أن استقرت الحال بينهم على منازلة مدينة دمشق وحدثتهم نفوسهم الخبيثة بملكتها وتبايعوا ضياعها وجهاتها. وتواصلت الأخبار بذلك وشرع متولي أمرها الأمير معين الدين أنر في التأهب والاستعداد لحربهم

(1) الامبراطور كونراد الثالث. أما مشاركة لويس السابع ملك فرنسا فلم يكن لها ذكر كبير في المصادر الإسلامية.

وزفع شرهم وتحصين ما يخشى من الجهات وترتيب الرجال في المسالك والمنافذ وقطع مجاري الميرة إلى منازلهم وطم الآبار وعفى المناهل وصرفوا أعنتهم إلى ناحية دمشق في حشدهم وحدهم وحديدهم في الخلق الكثير على ما يقال تقدير الخمسين ألف من الخيل والرجل ومعهم من السواد والجمال والأبقار ما كثروا به العدد الكثير ودنوا من البلد وقصدوا المنزل المعروف بمنازل العساكر فصادفوا الماء معدوماً فيه مقطوعاً عنه فقصدوا ناحية المزة فخيموا عليها لقربها من الماء وزحفوا إليه بخيلهم ورجلهم. ووقف المسلمون بإزائهم في يوم السبت السادس من شهر ربيع الأول سنة 43 (24 آب/اغسطس 1148) ونشبت الحرب بين الفريقين واجتمع عليهم من الأجناد والأتراك القتال وأحداث البلد والمطوعة والغزاة الجم الغفير واشتجر القتل بينهم واستظهر الكفار على المسلمين بكثرة الأعداد والعدد وغلبوا على الماء وانتشروا في البساتين وخيموا فيها وقربوا من البلد وحصلوا منه بمكان لم يتمكن أحد من العساكر قديماً ولا حديثاً منه. واستشهد في هذا اليوم الفقيه الامام يوسف الفندلاوي المالكي رحمه الله[1] قريب الربوة على الماء لوقوفه في وجوههم وترك الرجوع عنهم اتباعاً لأوامر الله تعالى في كتابه الكريم[2] وكذلك عبد الرحمن الحلحولي الزاهد رحمه الله جرى أمره هذا المجرى.

وشرعوا في قطع الأشجار والتحصين بها وهدم القناطر وباتوا تلك الليلة على هذه الحال وقد لحق الناس من الارتياع لهول ما شاهدوه والروع بما عاينوه ما ضعفت به القلوب وحرجت معه الصدور وباكروا الظهور إليهم في غد تلك اليوم وهو يوم الأحد تاليه وزحفوا إليهم ووقع الطراد بينهم واستظهر المسلمون عليهم وأكثروا القتل والجراح فيهم. وأبلى الأمير معين الدين في حربهم بلاءً حسناً وظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يشاهد في غيره بحيث لا ينى في ذيادتهم ولا يُفثئ عن جهادهم ولم تزل رحى الحرب دائرةً بينهم وخيل الكفار محجمةً عن الحملة المعروفة لهم إلى أن تتهيأ الفرصة لهم إلى أن مالت الشمس إلى الغروب وأقبل

---

(1) (وفي كتاب العبر للحافظ الذهبي: هو ابو الحجاج يوسف بن دوباس المغربي الفندلاوي، قتل شهيداً في حصار الفرنج مقبلاً غير مدبر. والدعاء عند قبره خارج الباب الصغير مستجاب. (هامش من النص الأصلي)

(2) اشارة إلى عموم الآيات القرآنية المتعلقة بالجهاد..

الليل وطلبت النفوس الراحة وعاد كل منهم إلى مكانه وبات الجند بإزائهم وأهل البلد على أسوارهم للحرس والاحتياط وهم يشاهدون أعداءهم بالقرب منهم.

وكانت المكاتبات قد نفذت إلى ولاة الأطراف بالاستصراخ والاستنجاد وحصلت خيل التركمان تتواصل ورجالة الأطراف تتتابع وباكرهم المسلمون وقد قويت نفوسهم وزال روعهم وثبتوا بإزائهم وأطلقوا فيهم السهام ونبل الجرخ بحيث تتبع في مخيمهم في راجل أو فارس أو فرس أو جمل.

ووصل في هذا اليوم من ناحية البقاع وغيرها رجالة كثيرة من الرماة فزادت بهم العدة وتضاعفت العدة وانفصل كل فريق إلى مستقره هذا اليوم وباكروهم من غدٍ يوم الثلاثاء كالبزاة إلى تعاقيب الحجل والشواهين إلى مطار الحجل وأحاطوا بهم في مخيمهم وحول مجثمهم وقد تحصنوا بأشجار البساتين وأفسنوها رشقاً بالنشاب وحذفاً بالأحجار. وقد أحجموا عن البروز وخافوا وفشلوا ولم يظهر منهم أحد وظن بهم إنهم يعملون مكيدةً ويدبرون حيلةً ولم يظهر منهم إلا النفر اليسير من الخيل والرجل على سبيل المكاردة والمناوشة خوفاً من المهاجنة إلى أن يجدوا لحملتهم مجالاً أو يجدون لفرهم احتيالاً وليس يدنو منهم أحد إلا صرع بزشقة أو طعنة وطمع فيهم نفر كثير من رجالة الأحداث والضياع، وجعلوا يرصدونهم في المسالك وقد انثنوا فيقتلون من ظفروا به ويحضرون رؤوسهم لطلب الجوائز عنها وحصل من رؤوسهم العدد الكثير وتواترت إليهم أخبار العساكر الاسلامية بالخفوف إلى جهادهم والمسارعة إلى استئصالهم فأيقنوا بالهلاك والبوار وحلول الدمار واعملوا الآراء بينهم فلم يجدوا لنفوسهم خلاصاً من الشبكة التي حصلوا فيها والهوة التي ألقوا بنفوسهم إليها غير الرحيل سحراً يوم الأربعاء التالي مجفلين والهرب مخذولين مغلولين. وحين عرف المسلمون ذلك وبانت لهم آثارهم في الرحيل برزوا لهم في بكرة هذا اليوم وسارعوا نحوهم في آثارهم بالسهام بحيث قتلوا في أعقابهم من الرجال والخيول والدواب العدد الكثير ووجد في آثار منازلهم وطرقاتهم من دفائن قتلاهم[1] وفاخر خيولهم ما لا عدد

---

(1) يتخيل فرانشيسكو غابريلي أنه قد يكون بين هؤلاء القتلى واحد من شخصيات الكوميديا الإلهية الذين يقول الشاعر الإيطالي الكبير دانتي أنهم قضوا خلال الحروب الصليبية اعتقاداً منهم أنهم يدافعون عن قبر المسيح. واسم هذه الشخصية هو Cacciaguida.

له ولا حصر يلحقه بحيث لها أرائح من جيفهم تكاد تصرع الطيور في الجو وكانوا قد أحرقوا الربوة والقبة الممدودة في تلك الليلة واستبشر الناس بهذه النعمة التي أسبغها الله عليهم وأكثروا من الشكر له تعالى ما أولاهم من إجابة دعائهم الذي واصلوه في أيام هذه الشدة فلله على ذلك الحمد والشكر.

ذِكْرُ حَصْرِ الفِرِنْجِ دِمَشْقَ وَمَا فَعَلَ سَيْفُ الدِّينِ غَازِي بْنُ زَنْكِي

(ابن الأثير 11/86-85)

فِي هَذِهِ السَّنَةِ (1148/543) سَارَ مَلِكُ الأَلْمَانِ مِنْ بِلَادِهِ فِي خَلْقٍ كَثِيرٍ وَجَمْعٍ عَظِيمٍ مِنَ الفِرِنْجِ عَازِمًا عَلَى قَصْدِ بِلَادِ الإِسْلَامِ، وَهُوَ لَا يَشُكُّ فِي مُلْكِهَا بِأَيْسَرِ قِتَالٍ لِكَثْرَةِ جُمُوعِهِ، وَتَوَفُّرِ أَمْوَالِهِ وَعُدَدِهِ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى الشَّامِ قَصَدَهُ مَنْ بِهِ مِنَ الفِرِنْجِ وَخَدَمُوهُ، وَامْتَثَلُوا أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، فَأَمَرَهُمْ بِالمَسِيرِ مَعَهُ إِلَى دِمَشْقَ لِيَحْصُرُوهَا وَيَمْلِكَهَا بِزَعْمِهِ، فَسَارُوا مَعَهُ وَنَازَلُوهَا وَحَصَرُوهَا.

وَكَانَ صَاحِبُهَا مُجِيرُ الدِّينِ أَبَقُ بْنُ بُورِي بْنِ طُغْتِكِينَ، وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ، وَإِنَّمَا الحُكْمُ فِي البَلَدِ لِمُعِينِ الدِّينِ أُنُرَ، مَمْلُوكِ جَدِّهِ طُغْتِكِينَ، وَهُوَ الَّذِي أَقَامَ مُجِيرَ الدِّينِ؛ وَكَانَ مُعِينُ الدِّينِ عَاقِلًا، وَعَادِلًا، خَيِّرًا، حَسَنَ السِّيرَةِ، فَجَمَعَ العَسَاكِرَ وَحَفِظَ البَلَدَ. وَأَقَامَ الفِرِنْجُ يُحَاصِرُونَهُمْ، ثُمَّ إِنَّهُمْ زَحَفُوا سَادِسَ رَبِيعٍ الأَوَّلِ (24 تموز/يوليه) بِفَارِسِهِمْ وَرَاجِلِهِمْ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ أَهْلُ البَلَدِ وَالعَسْكَرُ فَقَاتَلُوهُمْ، وَصَبَرُوا لَهُمْ، وَفِيمَنْ خَرَجَ لِلْقِتَالِ الفَقِيهُ حُجَّةُ الدِّينِ يُوسُفُ بْنُ دِي نَاسٍ الفَنْدَلَاوِيُّ المَغْرِبِيُّ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا، فَقِيهًا عَالِمًا، فَلَمَّا رَآهُ مُعِينُ الدِّينِ، وَهُوَ رَاجِلٌ، قَصَدَهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَقَالَ لَهُ: يَا شَيْخُ، أَنْتَ مَعْذُورٌ لِكِبَرِ سِنِّكَ، وَنَحْنُ نَقُومُ بِالذَّبِّ عَنِ المُسْلِمِينَ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَعُودَ، فَلَمْ يَفْعَلْ وَقَالَ لَهُ: قَدْ بِعْتُ وَاشْتَرَى مِنِّي، فَوَاللَّهِ لَا أَقَلْتُهُ وَلَا اسْتَقَلْتُهُ، فَعَنَى قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: [إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ] [التوبة111] وَتَقَدَّمَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ عِنْدَ النَّيْرَبِ نَحْوَ نِصْفِ فَرْسَخٍ عَنْ دِمَشْقَ.

وَقَوِيَ الفِرِنْجُ وَضَعُفَ المُسْلِمُونَ، فَتَقَدَّمَ مَلِكُ الأَلْمَانِ حَتَّى نَزَلَ بِالمَيْدَانِ الأَخْضَرِ، فَأَيْقَنَ النَّاسُ بِأَنَّهُ يَمْلِكُ البَلَدَ. وَكَانَ مُعِينُ الدِّينِ قَدْ أَرْسَلَ إِلَى سَيْفِ

الدِّينِ غَازِي بْنِ أَتَابَك زَنْكِي يَدْعُوهُ إِلَى نُصْرَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَفِّ الْعَدُوِّ عَنْهُمْ، فَجَمَعَ عَسَاكِرَهُ وَسَارَ إِلَى الشَّامِ، وَاسْتَصْحَبَ مَعَهُ أَخَاهُ نُورَ الدِّينِ مَحْمُودًا مِنْ حَلَبَ، فَنَزَلُوا بِمَدِينَةِ حِمْصَ، وَأَرْسَلَ إِلَى مُعِينِ الدِّينِ يَقُولُ لَهُ: قَدْ حَضَرْتُ وَمَعِي كُلُّ مَنْ يَحْمِلُ السِّلَاحَ فِي بِلَادِي، فَأُرِيدُ أَنْ يَكُونَ نُوَّابِي بِمَدِينَةِ دِمَشْقَ لِأَحْضُرَ وَأَلْقَى الْفِرِنْجَ، فَإِنِ انْهَزَمْتُ دَخَلْتُ أَنَا وَعَسْكَرِي الْبَلَدَ وَاحْتَمَيْنَا بِهِ، وَإِنْ ظَفِرْتُ فَالْبَلَدُ لَكُمْ لَا أُنَازِعُكُمْ فِيهِ. فَأَرْسَلَ إِلَى الْفِرِنْجِ يَتَهَدَّدُهُمْ إِنْ لَمْ يَرْحَلُوا عَنِ الْبَلَدِ، فَكَفَّ الْفِرِنْجُ عَنِ الْقِتَالِ خَوْفًا مِنْ كَثْرَةِ الْجِرَاحِ، وَرُبَّمَا اضْطُرُّوا إِلَى قِتَالِ سَيْفِ الدِّينِ، فَأَبْقَوْا عَلَى نُفُوسِهِمْ، فَقَوِيَ أَهْلُ الْبَلَدِ عَلَى حِفْظِهِ، وَاسْتَرَاحُوا مِنْ لُزُومِ الْحَرْبِ، وَأَرْسَلَ مُعِينُ الدِّينِ إِلَى الْفِرِنْجِ الْغُرَبَاءِ: إِنَّ مَلِكَ الْمَشْرِقِ قَدْ حَضَرَ، فَإِنْ رَحَلْتُمْ، وَإِلَّا سَلَّمْتُ الْبَلَدَ إِلَيْهِ، وَحِينَئِذٍ تَنْدَمُونَ؛ وَأَرْسَلَ إِلَى فِرِنْجِ الشَّامِ يَقُولُ لَهُمْ: بِأَيِّ عَقْلٍ تُسَاعِدُونَ هَؤُلَاءِ عَلَيْنَا، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ إِنْ مَلَكُوا دِمَشْقَ أَخَذُوا مَا بِأَيْدِيكُمْ مِنَ الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ، وَأَمَّا أَنَا فَإِنْ رَأَيْتُ الضَّعْفَ عَنْ حِفْظِ الْبَلَدِ سَلَّمْتُهُ إِلَى سَيْفِ الدِّينِ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ مَلَكَ دِمَشْقَ لَا يَبْقَى لَكُمْ مَعَهُ مُقَامٌ فِي الشَّامِ، فَأَجَابُوهُ إِلَى التَّخَلِّي عَنْ مَلِكِ الْأَلْمَانِ، وَبَذَلَ لَهُمْ تَسْلِيمَ حِصْنِ بَانِيَاسَ إِلَيْهِمْ. وَاجْتَمَعَ السَّاحِلِيَّةُ بِمَلِكِ الْأَلْمَانِ، وَخَوَّفُوهُ مِنْ سَيْفِ الدِّينِ وَكَثْرَةِ عَسَاكِرِهِ وَتَتَابُعِ الْأَمْدَادِ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ رُبَّمَا أَخَذَ دِمَشْقَ وَتَضْعُفُ عَنْ مُقَاوَمَتِهِ، وَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى رَحَلَ عَنِ الْبَلَدِ، وَتَسَلَّمُوا قَلْعَةَ بَانِيَاسَ، وَعَادَ الْفِرِنْجُ الْأَلْمَانِيَّةُ إِلَى بِلَادِهِمْ مِنْ وَرَاءِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ شَرَّهُمْ. وَقَدْ ذَكَرَ الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ عَسَاكِرَ فِي تَارِيخِ دِمَشْقَ: أَنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ حَكَى لَهُ أَنَّهُ رَأَى الْفِنْدَلَاوِيَّ فِي الْمَنَامِ، فَقَالَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؛ وَأَيْنَ أَنْتَ؟ فَقَالَ: غَفَرَ لِي، وَأَنَا فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ.[1]

(سبط ابن الجوزي، 300)

... وكان زمان الفواكه، فنزل الفرنج وأكلوا منها شيئاً كثيراً، فأحلت أجوافهم ومات منهم خلق كثير، ومرض الباقون. ولما ضاق بأهل دمشق الحال، أخرجوا الصدقات بالأموال، على قدر أحوالهم، واجتمع الناس في الجامع، الرجال والنساء

(1) عن الآية الكريمة 43/42 من السورة 37 (الصافات)

والصبيان، ونشروا مصحف عثمان[1] وحثوا الرماد على رؤوسهم وبكوا وتضرعوا، فاستجاب الله لهم. فكان مع الإفرنج قسيس كبير طويل اللحية يقتدون به، فأصبح في اليوم العاشر على نزولهم دمشق، فركب حماره وعلق في عنقه صليباً، وجعل بين يديه صليبين، وعلق في رأس حماره صليباً، وجمع بين يديه الأناجيل والصلبان والكتب، والخيالة والرجالة، ولم يتخلف من الفرنجية أحد إلا من يحفظ الخيام. وقال لهم القسيس..."قد وعدني المسيح أني أفتح اليوم". وفتح المسلمون الأبواب واستسلموا للموت، وغاروا للإسلام وحملوا حملة رجل واحد، وكان يوماً لم يرَ في الجاهلية والإسلام مثله، وقصد واحد من أحداث دمشق القسيس، وهو في أول القوم، فضربه فأبان رأسه وقتل حماره، وحُمِلَ الباقون فانهزم الإفرنج. وقتلوا منهم عشرة آلاف وأحرقوا الصلبان والخيالة بالنفط، وتبعوهم إلى الخيام وحال بينهم الليل، فأصبحوا وقد رحلوا ولم يبق لهم أثر.

---

(1) نسخة قيمة من القرآن الكريم تعود لعهد الخليفة عثمان (رضي الله عنه) عندما جرت أولى محاولات جمع القرآن (الكريم) (644 – 56). ويرجح أنها كانت أيضاً النسخة التي كان يقرأ فيها عندما قتل.

- 8 -

بعد مضي ستة أعوام على المقاومة الناجحة التي أبدتها دمشق ضد الصليبيين حقق نور الدين ابن زنكي في عام 1154 حلم أبيه القديم وملك العاصمة السورية دون منازلة ولا حرب. انطلق نور الدين من دمشق وكذلك من حلب- قاعدة أسلافه، وبدأ بتنظيم قوى جديدة يقاوم بها الصليبيين، وقد امتدت هذه المقاومة حوالي عشرين سنة بين نجاح وفشل، ثم إنه مات بعدها عام 1174. لكنه عندما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة كان نجم صلاح الدين أحد ضباط جيشه المجهولين قد سطع بالفعل لينتشر منذ بعض الوقت في انحاء مصر ويتوج قرناً من صراع المسلمين المرير ضد الغزاة الصليبيين. نرى أن ابن الأثير سطّر عن نور الدين صفحات خلابة ذلك كما فعل من قبل مع أبيه. ونضيف نحن هنا أن نور الدين كان يتمتع على خلاف زنكي بروحانية أشد صفاء وبقدر أعمق من الإنسانية.

انتصارات نور الدين وفوزه بدمشق

(ابن القلانسي، 340-342)

ووصل نور الدين إلى البلد المحروس[1] في يوم الخميس السابع والعشرين من شهر ربيع الأول (552/أيار/مايو 1157) لتقرير الأمر في إخراج آلات الحرب وتجهيزها إلى العسكر بحيث يقيم أياماً يسيرة ويتوجه في الحال إلى ناحية العساكر المجتمعة من التركمان والعرب للجهاد في الكفرة الأضداد والله يسهل أسباب الاداله منهم ويعجل البوار والهلاك لهم إن شاء الله تعالى.

---

(1) دمشق.

وفي وقت وصوله شرع في انجاز ما وصل لأجله وأمر بتجهيز ما يحتاج إليه من المناجيق والسلاح إلى العسكر المنصور بالنداء في البلد المحروس في الغزاة والمجاهدين والأحداث المتطوعة من فتيان البلد والغرباء بالتأهب والاستعداد لمجاهدة الافرنج أولي الشرك والالحاد. وبادر بالمسير في الحال إلى عسكره المنصور مغذاً غير متلوم ولا متربث في يوم السبت انسلاخ شهر ربيع الأول، وتبعه بين الأحداث والمتطوعة والفقهاء والصوفية والمتدينين العدد الكثير، الدثر المباهي في الوفور والكثرة، فالله تعالى يقرن آراءه وعزماته بالنصر المشرق المنار والظفر باخراب المردة الكفار ويعجل لهم أسباب الهلاك والبوار بحيث لا تبقى لهم باقية ولا يرى لهم رائحة ولا غادية، وما ذلك على الله تعالى القادر القاهر بعزيز.

ولما كان يوم السبت السابع من شهر ربيع الآخر (18 أيار/مايو) تالي اليوم المقدم ذكره عقيب نزول الملك العادل نور الدين على بانياس في عسكره المنصور ومضايقته لها بالمنجنيقات والحرب سقط الطائر[1] من العسكر المنصور بظاهر بانياس، يتضمن كتابه الاعلان بورود المبشر من معسكر أسد الدين[2] بناحية هونين في التركمان والعرب بأن الافرنج خذلهم الله أنهضوا سرية من أعيان مقدميهم وأبطالهم تزيد على مائة فارس سوى أتباعهم لكبس المذكورين ظناً منهم إنهم في قل ولم يعلموا إنهم في ألوف فلما دنوا منهم وثبوا إليهم كالليوث إلى فرائسها فأطبقوا عليهم بالقتل والأسر والسلب ولم يفلت منهم إلا اليسير ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى وعددهم من الخيول المنتخبة والطوارق والقناريات إلى البلد في اليوم الاثنين تالي اليوم المذكور وطيف بهم فيه، فسُرت القلوب بمشاهدتهم وأكثروا الشكر لله على هذه النعمة المسهلة بعد الأولى المتكملة، والله المأمول لتعجيل هلاكهم وبوارهم، وما ذلك على الله بعزيز. وتتلو هذه الموهبة المجددة سقوط الطائر من المعسكر المحروس ببانياس في يوم الثلاثاء يتلو المذكور، بذكر افتتاح مدينة بانياس بالسيف قهراً، على مضي أربع ساعات من يوم الثلاثاء المذكور، عند تناهي النقب واطلاق النار فيه وسقوط البرج المنقوب،

(1) كان نور الدين أول من نظم خدمة بريد نظامية باستعمال الحمام الزاجل.

(2) أسد الدين شيركوه كردي من خلصاء نور الدين وعم صلاح الدين.

وهجوم الرجال فيه، وبذل السيف في قتل من فيه، ونهب ما حواه، وانهزام من سلم إلى القلعة وانحصارهم بها، وإن أخذهم بمنية الله تعالى لا يبطئ والله يسهله ويعجله.

واتفق بعد ذلك للأقضية المقدرة إن الافرنج تجمعوا من معاقلهم عازمين على استنقاذ الهنفري[1] صاحب بانياس ومن معه من أصحابه الافرنج المحصورين بقلعة بانياس وقد أشرفوا على الهلاك وبلغوا في السؤال للأمان للمولى نور الدين ويسلمون ما في أيديهم من القلعة وما حوته لينجوا سالمين فلم يجبهم إلى ما سألوه ورغبوا فيه. فلما وصل ملك الافرنج[2] في جمعه من الفارس والراجل من ناحية الجبل على حين غفلة من العسكرين النازلين على بانياس لحصارها، والنازل على الطريق لمنع الواصل إليها، واقتضت السياسة الاندفاع عنها بحيث وصلوا إليها واستخصلوا من كان فيها، فحين شاهدوا ما عم بانياس من خراب سورها ومنازل سكانها، بنوا من عمارتها بعد خرابها. وذلك في أيام من العشر الأخير من شهر ربيع الآخر (أوائل حزيران/يونية 1157) وفي يوم الأربعاء التاسع من جمادى الأولى (19 حزيران/يونية) سقطت الأطيار بالكتب من المعسكر المحروس النوري تتضمن الأعلام بأن الملك العادل نور الدين، أعز الله نصره، لما عرف إن معسكر الكفرة الافرنج على الملاحة بين طبرية وبانياس نهض في عسكره المنصور من الأتراك والعرب وجدّ في السير. فلما شارفهم وهم غازون، وشاهدوا راياته قد أظلتهم، بادروا بلبس السلاح والركوب وافترقوا أربع فرق وحملوا على المسلمين، فعند ذلك ترجل الملك نور الدين وترجلت معه الأبطال وأرهقوهم بالسهام وخرصان الرماح، فما كان إلا كلا ولا، حتى تزلزلت بهم الأقدام ودهمهم البوار والحمام، وأنزل الله العزيز القهار نصره على الأولياء الأبرار وخذلانه على المردة الكفار، وتمكنا من فرسانهم قتلاً وأسراً واستأصلت السيوف الرجالة، وهم العدد الكثير والجم الغفير، ولم يفلت منهم على ما حكاه الخبير الصادق غير عشرة نفر ممن ثبطه الأجل وأطار قلبه الوجل، وقيل إن ملكهم لعنهم الله فيهم

(1) Honfroi de Toron

(2) بالدوين الثالث

وقيل إنه في جملة القتلى ولم يعرف له خبر والطلب مجدٌّ له، والله المعين على الأظفار به، ولم يفقد من عسكر الاسلام سوى رجلين؛ أحدهما من الأبطال المذكورين قتل أربعةً من شجعان الكفرة، وقُتل عند حضور أجله وانتهاء مهله، والآخر غريب لا يُعرف، فكل منهما مضى شهيداً مثاباً مأجوراً رحمهما الله. وامتلأت أيدي العسكرية من خيولهم وعددهم وكراعهم وأثاث سوادهم الشيء الذي لا يحصى كثرة وحصلت كنيستهم في يد الملك نور الدين بآلاتها المشهورة، وكان فتحاً من الله القادر الناصر، عزيزاً ونصراً مبيناً أعز الله بهما الاسلام وأهله وأذل الشرك وحزبه.

ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى إلى دمشق في يوم الأحد تالي يوم الفتح وقد رتّبوا على كل جمل فارسين من أبطالهم ومعهما راية من راياتهم منشورة، وفيها من جلود رؤوسهم بشعرها عدة، والمقدمون منهم وولاة المعاقل والأعمال كل واحد منهم على فرس، وعليه الزردية والخوذة وفي يده راية والرجالة من السرجندية والتركبولية[1] كل ثلاثة وأربعة وأقل وأكثر في حبل، وخرج من أهل البلد الخلق الذي لا يحصى لهم عدد من الشيوخ والشبان والنسوان والصبيان لمشاهدة ما منح الله تعالى ذكره كافة المسلمين من هذا النصر المشرق الأعلام وأكثروا من التسبيح ومواصلة التقديس لله تعالى، مولى النصر لأوليائه ومذيلهم من أعدائه، وواصلوا الدعاء الخالص للملك العادل نور الدين المحامي عنهم والمرامي دونهم والثناء على مكارمه والوصف لمحاسنه ونظم في ذلك أبيات في هذا المعنى وهي:

مثل يوم الفرنج حين علتهم	ذلّة الأسر والبلا والشقاء
وبراياتهم على العيس زفوا	بين ذلٍّ وحسرةٍ وعناء
بعد عزٍّ لهم وهيبة ذكرٍ	في مصافّ الحروب والهيجاء
هكذا هكذا هلاك الأعادي	عند شن الاغارة الشعواء
شؤم أخذ الجشار وكان وبالاً	عمهم في صباحهم والمساء

(1) التركبولية "أبناء الأتراك" كانوا جنوداً موقتين ومحليين في الجيوش الصليبية.

نقضوا هدنة الصلاح بجهلٍ — بعد تأكيدها بحسن الوفاء

فلقوا بغيهم بما كان فيه — من فساد بجلهم واعتداء

لا حمى الله شملهم من شتات — بمواضٍ تفوق حد المضاء

فجزاء الكفور قتلٌ وأسر — وجزاء الشكور خير الجزاء

فلرب العباد حمدٌ وشكرٌ — دائمٌ مع تواصل النعماء

وَفَاةُ نُورِ الدِّينِ مَحْمُودِ بْنِ زَنْكِي – رَحِمَهُ اللَّهُ

(ابن الأثير 267-264/11)

فِي هَذِهِ السَّنَةِ (1174/569) تُوُفِّيَ نُورُ الدِّينِ مَحْمُودُ بْنُ زَنْكِي بْنِ آقْسُنْقُرَ، صَاحِبُ الشَّامِ وَدِيَارِ الْجَزِيرَةِ وَمِصْرَ، يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ حَادِيَ عَشَرَ شَوَّالٍ (15 أيار/مايو)، بِعِلَّةِ الْخَوَانِيقِ، وَدُفِنَ بِقَلْعَةِ دِمَشْقَ، وَنُقِلَ مِنْهَا إِلَى الْمَدْرَسَةِ الَّتِي أَنْشَأَهَا بِدِمَشْقَ، عِنْدَ سُوقِ الْخَوَّاصِينَ. وَمِنْ عَجِيبِ الاتِّفَاقِ أَنَّهُ رَكِبَ ثَانِيَ شَوَّالٍ وَإِلَى جَانِبِهِ بَعْضُ الأُمَرَاءِ الأَخْيَارِ، فَقَالَ لَهُ الأَمِيرُ: "سُبْحَانَ مَنْ يَعْلَمُ هَلْ نَجْتَمِعُ هُنَا فِي الْعَامِ الْمُقْبِلِ أَمْ لا"؟ فَقَالَ نُورُ الدِّينِ: "لا تَقُلْ هَكَذَا، بَلْ سُبْحَانَ مَنْ يَعْلَمُ هَلْ نَجْتَمِعُ بَعْدَ شَهْرٍ أَمْ لا"؟ فَمَاتَ نُورُ الدِّينِ – رَحِمَهُ اللَّهُ – بَعْدَ أَحَدَ عَشَرَ يَوْمًا، وَمَاتَ الأَمِيرُ قَبْلَ الْحَوْلِ، فَأَخَذَ كُلٌّ مِنْهُمَا بِمَا قَالَهُ. وَكَانَ قَدْ شَرَعَ يَتَجَهَّزُ لِلدُّخُولِ إِلَى مِصْرَ لِأَخْذِهَا مِنْ صَلاحِ الدِّينِ يُوسُفَ بْنِ أَيُّوبَ[1]، فَإِنَّهُ رَأَى فُتُورًا فِي غَزْوِ الْفِرَنْجِ مِنْ نَاحِيَتِهِ، وَكَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَمْتَنِعُ صَلاحُ الدِّينِ مِنَ الْغَزْوِ الْخَوْفُ مِنْهُ وَمِنَ الاجْتِمَاعِ بِهِ، فَإِنَّهُ يُؤْثِرُ كَوْنَ الْفِرَنْجِ فِي الطَّرِيقِ لِيَمْتَنِعَ بِهِمْ عَلَى نُورِ الدِّينِ، فَأَرْسَلَ إِلَى الْمَوْصِلِ وَدِيَارِ الْجَزِيرَةِ وَدِيَارِ بَكْرٍ يَطْلُبُ الْعَسَاكِرَ لِلْغَزَاةِ، وَكَانَ عَزْمُهُ

---

(1) كان صلاح الدين قد ذهب إلى مصر كقائد في جيش نور الدين، وهناك ألغى الخلافة الفاطمية واستولى عملياً على البلد، رغم انه لم يعلن الانفصال رسمياً عن تبعيته لنور الدين. ومن هنا فقد سمي الأخير في هذا السياق "صاحب مصر"، إلا أنه لم يكن يمارس هناك أية سلطة مباشرة.

أَنْ يَتْرُكَهَا مَعَ ابْنِ أَخِيهِ سَيْفِ الدِّينِ غَازِي، صَاحِبِ الْمَوْصِلِ بِالشَّامِ، وَيَسِيرُ هُوَ بِعَسَاكِرِهِ إِلَى مِصْرَ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَتَجَهَّزُ لِذَلِكَ أَتَاهُ أَمْرُ اللَّهِ الَّذِي لا مَرَدَّ لَهُ.

حَكَى لِي طَبِيبٌ يُعْرَفُ بِالطَّبِيبِ الرَّحَبِيِّ وَهُوَ كَانَ يَخْدُمُ نُورَ الدِّينِ، وَهُوَ مِنْ حُذَّاقِ الأَطِبَّاءِ، قَالَ: اسْتَدْعَانِي نُورُ الدِّينِ فِي مَرَضِهِ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ مَعَ غَيْرِي مِنَ الأَطِبَّاءِ، فَدَخَلْنَا إِلَيْهِ وَهُوَ فِي بَيْتٍ صَغِيرٍ بِقَلْعَةِ دِمَشْقَ، وَقَدْ تَمَكَّنَتِ الْخَوَانِيقُ مِنْهُ، وَقَارَبَ الْهَلاكَ، فَلا يَكَادُ يُسْمَعُ صَوْتُهُ، وَكَانَ يَخْلُو فِيهِ لِلتَّعَبُّدِ، فَابْتَدَأَ بِهِ الْمَرَضُ، فَلَمْ يَنْتَقِلْ عَنْهُ، فَلَمَّا دَخَلْنَا وَرَأَيْنَا مَا بِهِ قُلْتُ لَهُ: "كَانَ يَنْبَغِي أَنْ لا تُؤَخِّرَ إِحْضَارَنَا إِلَى أَنْ يَشْتَدَّ بِكَ الْمَرَضُ الآنَ، وَيَنْبَغِي أَنْ تُعَجِّلَ الانْتِقَالَ مِنْ هَذَا الْمَوْضِعِ إِلَى مَكَانٍ فَسِيحٍ مُضِيءٍ، فَلَهُ أَثَرٌ فِي هَذَا الْمَرَضِ". وَشَرَعْنَا فِي عِلاجِهِ، وَأَشَرْنَا بِالْفَصْدِ، فَقَالَ ابْنُ سِتِّينَ: لا يُفْتَصَدُ، وَامْتَنَعَ مِنْهُ، فَعَالَجْنَاهُ بِغَيْرِهِ، فَلَمْ يَنْجَعْ فِيهِ الدَّوَاءُ، وَعَظُمَ الدَّاءُ، وَمَاتَ — رَحِمَهُ اللَّهُ وَرَضِيَ عَنْهُ

وَكَانَ أَسْمَرَ، طَوِيلَ الْقَامَةِ، وَلَيْسَ لَهُ لِحْيَةٌ إِلا فِي حَنَكِهِ، وَكَانَ وَاسِعَ الْجَبْهَةِ، حَسَنَ الصُّورَةِ، حُلْوَ الْعَيْنَيْنِ، وَكَانَ قَدِ اتَّسَعَ مُلْكُهُ جِدًّا، وَخُطِبَ لَهُ بِالْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ وَبِالْيَمَنِ لَمَّا دَخَلَهَا شَمْسُ الدَّوْلَةِ بْنُ أَيُّوبَ وَمَلَكَهَا[1]، وَكَانَ مَوْلِدُهُ سَنَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ وَخَمْسِمِائَةٍ (1117)، وَطَبَّقَ ذِكْرُهُ الأَرْضَ بِحُسْنِ سِيرَتِهِ وَعَدْلِهِ. وَقَدْ طَالَعْتُ سِيَرَ الْمُلُوكِ الْمُتَقَدِّمِينَ، فَلَمْ أَرَ فِيهَا بَعْدَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ[2] أَحْسَنَ مِنْ سِيرَتِهِ، وَلا أَكْثَرَ تَحَرِّيًا مِنْهُ لِلْعَدْلِ. وَقَدْ أَتَيْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ ذَلِكَ فِي كِتَابِ "الْبَاهِرِ" مِنْ أَخْبَارِ دَوْلَتِهِمْ[3]، وَلْنَذْكُرْ هَهُنَا نُبْذَةً مُخْتَصَرَةً لَعَلَّ يَقِفُ عَلَيْهَا مَنْ لَهُ حُكْمٌ فَيَقْتَدِي بِهِ: فَمِنْ ذَلِكَ زُهْدُهُ وَعِبَادَتُهُ وَعِلْمُهُ، فَإِنَّهُ كَانَ لا يَأْكُلُ وَلا يَلْبَسُ [وَلا يَتَصَرَّفُ] فِي الَّذِي يَخُصُّهُ [إِلا] مِنْ مِلْكٍ كَانَ لَهُ قَدِ اشْتَرَاهُ مِنْ سَهْمِهِ

(1) نرى هنا أيضاً أنها كانت شكلية بحتة سلطة نور الدين على الحجاز ("المدينتين المقدستين" أي مكة والمدينة) وعلى اليمن الذي استولى عليها أخو صلاح الدين. والواقع أن هذه البلدان كانت تحت السلطة الأيوبية.

(2) الخلفاء الراشدون هم الخلفاء الأربعة الذين جاءوا بعد محمد (صلى الله عليه وسلم)، أي أبو بكر وعمر وعثمان وعلي (رضي الله عنهم) ويجمع معهم عادةً الخليفة عمر بن عبد العزيز (عمر الثاني 717–719)، ويعتبرون جميعهم في مفاهيم السنة التقليدية الخلفاء المثاليين بل انموذج الحكم الصالح.

(3) تاريخ أتابكة الموصل السابق ذكره.

مِنَ الْغَنِيمَةِ وَمِنَ الأَمْوَالِ الْمُرْصَدَةِ لِمَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَقَدْ شَكَتْ إِلَيْهِ زَوْجَتُهُ مِنَ الضَّائِقَةِ، فَأَعْطَاهَا ثَلاثَ دَكَاكِينَ فِي حِمْصَ كَانَتْ لَهُ، مِنْهَا يَحْصُلُ لَهُ فِي السَّنَةِ نَحْوُ عِشْرِينَ دِينَارًا، فَلَمَّا اسْتَقَلَّتْهَا قَالَ: لَيْسَ لِي إِلَّا هَذَا، وَجَمِيعُ مَا بِيَدِي أَنَا فِيهِ خَازِنٌ لِلْمُسْلِمِينَ لا أَخُونُهُمْ فِيهِ، وَلا أَخُوضُ نَارَ جَهَنَّمَ لأَجْلِكِ. وَكَانَ يُصَلِّي كَثِيرًا بِاللَّيْلِ، وَلَهُ فِيهِ أَوْرَادٌ حَسَنَةٌ، وَكَانَ كَمَا قِيلَ:

جَمَعَ الشَّجَاعَةَ وَالْخُشُوعَ لِرَبِّهِ مَا أَحْسَنَ الْمِحْرَابَ[1] فِي الْمِحْرَابِ

وَكَانَ عَارِفًا بِالْفِقْهِ عَلَى مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ، لَيْسَ عِنْدَهُ فِيهِ تَعَصُّبٌ، وَسَمِعَ الْحَدِيثَ، وَأَسْمَعَهُ طَلَبًا لِلأَجْرِ. وَأَمَّا عَدْلُهُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَتْرُكْ فِي بِلادِهِ، عَلَى سَعَتِهَا، مَكْسًا وَلا عُشْرًا بَلْ أَطْلَقَهَا جَمِيعَهَا فِي مِصْرَ وَالشَّامِ وَالْجَزِيرَةِ وَالْمَوْصِلِ، وَكَانَ يُعَظِّمُ الشَّرِيعَةَ، وَيَقِفُ عِنْدَ أَحْكَامِهَا، وَأَحْضَرَهُ إِنْسَانٌ إِلَى مَجْلِسِ الْحُكْمِ، فَمَضَى مَعَهُ إِلَيْهِ، وَأَرْسَلَ إِلَى الْقَاضِي كَمَالِ الدِّينِ بْنِ الشَّهْرَزُورِيِّ يَقُولُ: "قَدْ جِئْتُ مُحَاكِمًا، فَاسْلُكْ مَعِي مَا تَسْلُكُ مَعَ الْخُصُومِ"، وَظَهَرَ الْحَقُّ لَهُ، فَوَهَبَهُ الْخَصْمَ الَّذِي أَحْضَرَهُ، وَقَالَ: أَرَدْتُ أَنْ أَتْرُكَ لَهُ مَا يَدَّعِيهِ، إِنَّمَا خِفْتُ أَنْ يَكُونَ الْبَاعِثُ لِي عَلَى ذَلِكَ الْكِبْرَ وَالأَنَفَةَ مِنَ الْحُضُورِ إِلَى مَجْلِسِ الشَّرِيعَةِ، فَحَضَرْتُ، ثُمَّ وَهَبْتُهُ مَا يَدَّعِيهِ. وَبَنَى دَارَ الْعَدْلِ فِي بِلادِهِ، وَكَانَ يَجْلِسُ هُوَ وَالْقَاضِي فِيهَا يُنْصِفُ الْمَظْلُومَ، وَلَوْ أَنَّهُ يَهُودِيٌّ، مِنَ الظَّالِمِ وَلَوْ أَنَّهُ وَلَدُهُ أَوْ أَكْبَرُ أَمِيرٍ عِنْدَهُ، وَأَمَّا شَجَاعَتُهُ، فَإِلَيْهَا النِّهَايَةُ، وَكَانَ فِي الْحَرْبِ يَأْخُذُ قَوْسَيْنِ وَتَرْكَشَيْنِ[2] لِيُقَاتِلَ بِهَا، فَقَالَ لَهُ الْقُطْبُ النَّشَاوِيُّ الْفَقِيهُ: "بِاللَّهِ عَلَيْكَ لا تُخَاطِرْ بِنَفْسِكَ وَبِالإِسْلامِ وَالْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ أُصِبْتَ فِي مَعْرَكَةٍ لا يَبْقَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحَدٌ إِلَّا أَخَذَهُ السَّيْفُ". فَقَالَ لَهُ نُورُ الدِّينِ: "وَمَنْ مَحْمُودٌ حَتَّى يُقَالَ لَهُ هَذَا؟ مَنْ قَبْلِي مَنْ حَفِظَ الْبِلادَ وَالإِسْلامَ؟ ذَلِكَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ". وَأَمَّا مَا فَعَلَهُ مِنَ الْمَصَالِحِ، فَإِنَّهُ بَنَى أَسْوَارَ مُدُنِ الشَّامِ جَمِيعِهَا وَقِلاعِهَا، فَمِنْهَا دِمَشْقُ وَحِمْصُ وَحَمَاةُ وَحَلَبُ وَشَيْزَرُ وَبَعْلَبَكُّ وَغَيْرُهَا، وَبَنَى الْمَدَارِسَ الْكَثِيرَةَ لِلْحَنَفِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ، وَبَنَى الْجَامِعَ النُّورِيَّ

---

(1) ترجمها غابرييلي: "ما أحسن المُحارب في المحراب"، وهذا وجه صحيح في فهم بيت الشعر. [المترجم]

(2) سهمين

بِالْمَوْصِلِ، وَبَنَى الْبِيمَارِسْتَانَاتِ وَالْخَانَاتِ فِي الطُّرُقِ، وَبَنَى الْخَانْكَاهَاتِ لِلصُّوفِيَّةِ فِي جَمِيعِ الْبِلَادِ، وَوَقَفَ عَلَى الْجَمِيعِ الْوُقُوفَ الْكَثِيرَةَ. سَمِعْتُ أَنَّ حَاصِلَ وَقْفِهِ كُلَّ شَهْرٍ تِسْعَةُ آلَافِ دِينَارٍ صُورِيٍّ. وَكَانَ يُكْرِمُ الْعُلَمَاءَ وَأَهْلَ الدِّينِ وَيُعَظِّمُهُمْ وَيُعْطِيهِمْ وَيَقُومُ إِلَيْهِمْ وَيُجْلِسُهُمْ مَعَهُ، وَيَنْبَسِطُ مَعَهُمْ، وَلَا يَرُدُّ لَهُمْ قَوْلًا، وَيُكَاتِبُهُمْ بِخَطِّ يَدِهِ، وَكَانَ وَقُورًا مَهِيبًا مَعَ تَوَاضُعِهِ، وَبِالْجُمْلَةِ فَحَسَنَاتُهُ كَثِيرَةٌ وَمَنَاقِبُهُ غَزِيرَةٌ لَا يَحْتَمِلُهَا هَذَا الْكِتَابُ.

– 9 –

يمكن أن نعطي للصفحات التالية عنواناً مثل "مشاهد وعادات افرنجية بمنظور أحد المسلمين"، وكلها عدا واحدة منها مأخوذة من سيرة أسامة بن منقذ، أمير شيزر الفارس المثقف الذي عايش تقريباً هذا القرن من الحروب الصليبية. ستجد في هذه المذكرات المشوشة لكن الغنية بالنوادر والإشارات التاريخية المهمة كثيراً من الأخبار عن العلاقات التي أقامها مع الإفرنج في أزمان الحرب والسلم والتي توحي بمشاعر العداوة والفضول والمحبة التي تظهر حسب اختلاف الظروف. تتعارض هذه المشاهد المليئة أحياناً بالمفارقات اللطيفة مع رتابة مقارعات السلاح التي تسود في معظم صفحات المؤرخين المحترفين.

فروسية إفرنجية

(اسامة، 48)

والإفرنج خذلهم الله ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا للفرسان، ولا عندهم ناس إلا الفرسان، فهم أصحاب الرأي وهم أصحاب القضاء والحكمة، وقد حاكمتهم مرة على قطعان غنم أخذها صاحب بانياس من الشعراء وبيننا وبينهم صلح، وأنا إذ ذاك بدمشق. فقلت للملك فلك بن فلك[1] "هذا تعدى علينا وأخذ دوابنا، وهو وقت ولاد الغنم، فولدت وماتت أولادها وردها علينا بعد أن أتلفها". "فقال الملك لستة سبعة من الفرسان: "قوموا أعملوا له حكماً"، فخرجوا من مجلسه وأعتزلوا وتشاوروا حتى أتفق رأيهم كلهم على شيء واحد وعادوا إلى مجلس الملك فقالوا: "قد حكمنا أن صاحب

(1) ملك القدس فلك (1131 – 1134)، راجع الفصول التالية عن علاقته مع أسامة.

بانياس عليه غرامة ما أتلف من غنمهم"، فأمره الملك بالغرامة فتوسل إلي وثقل علي وسألني حتى أخذت منه أربع مائة دينار. وهذا الحكم بعد أن تعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا أحد من مقدمي الأفرنج يغيّره ولا ينقضه، فالفارس أمر عظيم عندهم. ولقد قال لي الملك: "يا فلان وحق ديني لقد فرحت البارحة فرحاً عظيم. وما كنت اعتقد أنك فارس". قلت: "يا مولاي أنا فارس من جنسي وقومي"[1]. وإذا كان الفارس دقيقاً عظيماً كان أعجب لهم.

قرصنة افرنجية

(أسامة، 25-26)

ثم اتصلت بخدمه الملك العادل نور الدين رحمه الله وكاتب الملك الصالح[2] في تسير أهلي وأولادي الذين تخلفوا بمصر وكان محسناً إليهم. فرد الرسول واعتذر بأنه يخاف عليهم من الإفرنج، وكتب إلي يقول" ترجع إلى مصر[3] وأنت تعرف ما بيني وبينك، وإن كنت مستوحشاً من أهل القصر فتصل إلى مكة وأنفذ لك كتاباً بتسليم مدينه أسوان إليك، وأمدك بما تتقوى به على محاربة الحبشة، فأسوان ثغر من ثغور المسلمين، واسيّر أهلك وأولادك". ففاوضت الملك العادل واستطلعت أمره فقال "يا فلان، ما صدقت متى تخلص من مصر وفتنتها، تعود إليها! العمر أقصر من ذلك. أنا انفذ أخذ لأهلك الأمان من ملك الإفرنج أسير من يحضرهم"، فانفذ رحمه الله أخذ أمان الملك وصليبه في البر والبحر. وسيرتُ الأمان مع غلام لي وكتاب الملك العادل وكتابي إلى الملك الصالح، فسيرهم في عُشاريَ من الخاص[4] إلى دمياط، وحمل لهم كل ما يحتاجونه من النفقات والزاد ووصى بهم.

---

(1) هناك في هذا الفصل تأرجح بين معنيي كلمة فارس بالفرنسية، 'Cavalier' 'Chevalier'. أما في الإيطالية والعربية فلا توجد لهما إلا لفظة واحدة.

(2) هذا لايعني أنه ملك بالفعل، والإشارة هنا إلى الوزير الفاطمي طلائع بن رزيك، الذي استبد بمصر تحت سلطة الخليفة الفايز، وقد مات عام 1161

(3) كان أسامة يشارك في سياسته الداخلية، المليئة بالفتن الدموية، ومن هنا اشارته التالية إلى خشيته او وحشته من أهل القصر.

(4) مركب نهري خاص

واقلعوا من دمياط في بطسه من بطس الإفرنج، فلما دنوا من عكار والملك، لا رحمه الله، فيها، نفذ قوماً في مركب صغير كسروا البطسه بالفؤوس، واصحابي يرونهم، وركب ووقف على الساحل نهب كل ما فيه. فخرج إليه غلامٌ لي سباحةً والأمان معه وقال له "يا مولاي الملك، ما هذا أمانك"؟ قال "بلى، ولكن هذا رسم المسلمين إذا انكسر لهم مركب على بلد نهبه أهل ذلك البلد. "قال "فتسبينا"؟ قال "لا"، وانزلهم -لعنه الله- في دار، وفتش النساء حتى أخذ كل ما معهم. وقد كان في المركب حلى اودعه النساء وكسوات وجوهر وسيوف وسلاح وذهب وفضه بنحو من ثلاثين ألف دينار، فأخذ الجميع ونفذ لهم خمس مائه دينار، وقال "توصلوا بهذه إلى بلادكم". وكانوا رجالاً ونساء في خمسين نسمه. وكنت آنذاك مع الملك العادل في بلاد الملك مسعود[1] رعبان وكيسون. فهون على سلامة أولادي وأولاد أخي، وحرمنا ذهاب ما ذهب من المال إلا ما ذهب لي من الكتب، فإنها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة، فإن ذهابها حزازة في قلبي ما عشت.

الطب الإفرنجي

(أسامة، 98 -97)

ومن عجيب طبهم ان صاحب المنيطرة[2] كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه، فأرسل إليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت، فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له: "ما أسرع ما داويت المرضى"! قال "أحضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف، فعملت للفارس لبخة ففتحت الدملة فصلحت، فحميت المرأة ورطبت مزاجها فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم "هذا ما يعرف شيئاً يداويهم". وقال للفارس "أيما أحب لك ان تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين"؟ قال: "أعيش برجل واحدة". قال "أحضروا لي

---

(1) سلطان قونية السلجوقي، وقد حدث هذا حوالي عام 1155.

(2) يسميها الصليبيون Moinestre، وهي في لبنان، خمسة عشر كيلو متر غربي جبيل.

فارساً قوياً وفأساً قاطعاً". حضر الفارس والفأس وأنا حاضر، فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس "أضرب رجله بالفأس ضرباً واحداً واقطعها"، فضربه وأنا أراه ضربة واحداً ما انقطعت، فضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق، ومات من ساعته. أبصر المرأة فقال "هذه المرأة في رأسها شيطان قد عشقها، احلقوا شعرها"، فحلقوه وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل فزاد بها النشاف، فقال "الشيطان قد دخل في رأسها. "فأخذ الموسى وشق رأسها صليباً وسلخ وسطه، حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح، فماتت من وقتها. فقلت لهم "بقي لكم إلي حاجة"؟ قالوا "لا". فجئت وتعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه[1].

الفرنجة والغيرة الزوجية

(أسامة، 101-100)

وليس عندهم شيء من النخوة والغيرة، يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث، فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى. ومما شاهدت من ذلك أني كنت إذا جئت إلى نابلس أنزل في دار رجل يقال له معز داره عمارة المسلمين لها طاقات تفتح إلى الطريق، يقابلها من جانب الطريق الأخر دار لرجل إفرنجي يبيع الخمر للتجار، يأخذ في قنينة من النبيذ ،وينادي عليه، ويقول فلان التاجر قد فتح بتية[2] من هذا الخمر، من أراد منها شيئاً فهي من موضع كذا وكذا، وأجريه عن بداية النبيذ الذي في تلك القنينة. فجاء يوماً ووجد رجلاً مع امرأته في الفراش فقال له "أي شيء أدخلك عند امرأتي"؟ قال "كنت تعبان، دخلت أستريح"، قال "كيف دخلت الى فراشي"، قال "وجدت فراشاً مفروشاً نمت فيه "قال "والمرأة نائمة معك؟" قال "الفراش لها كنت أقدر أن أمنعها من فراشها؟" قال" وحق

---

(1) من المؤكد أن أطباء الإفرنج لم يكونوا كلهم من الجزارين، كما جاء في هذا الوصف. لكن هذا التهكم يجد تبريراً له في تفوق المعارف الطبية الشرقية على تلك الغربية في ذلك الوقت.

(2) برميل

ديني إن عدت فعلتها تخاصمت أنا وأنت" فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته. ومن ذلك انه كان عندنا رجل حمامي يقال له سالم من أهل المعرة في حمام لوالدي رحمه الله قال "فتحت حماماً في المعرة أتعيش فيها، فدخل إليها فارس منهم، وهم ينكرون على من يشد في وسطه المئزر في الحمام، فمد يده وجذب مئزري من وسطي، رماه، فرآني وأنا قريب عهد بحلق عانتي، فقال سالم فتقربت منه، فمد يده على عانتي وقال" سالم، جيد! وحق ديني أعمل لي كذا واستلقى على ظهره وله مثل لحيته في ذلك الموضع، فحلقته فمر يده عليه فاستوطأه، فقال سالم" بحق دينك اعمل للداما" والداما بلسانهم الست يعني امرأته. وقال لغلام له قل للداما تجيء. فمضى الغلام أحضرها وأدخلها، فاستلقت على ظهرها وقال أعمل كما عملت لي، فحلقت ذلك الشعر وزوجها قاعد ينظرني فشكرني ووهبني حق خدمتي. فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم ما فيهم الغيرة والنخوة وفيهم الشجاعه العظيمة، وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والأنفة من سوء الأحدوثة.

فرنج مستشرقون

(أسامة، 104-103)

ومن الإفرنج قوم قد تبلدوا وعاشروا المسلمين فهم أصلح من القريبين العهد ببلادهم، ولكنهم شاذ لا يقاس عليه. فمن ذلك أنني نفذت صاحباً إلى إنطاكية في شغل، وكان بها الرئيس ثادرس بن الصفي[1] وبيني وبينه صداقة، وهو نافذ الحكم في أنطاكية. فقال لصاحبي يوماً: "قد دعاني صديق لي من الإفرنج، تجيء معي حتى ترى زيهم "قال" فمضيت معه فجئنا إلى دار فارس من الفرسان العتق الذين خرجوا في أول خروج الإفرنج، وقد اعتفى من الديوان والخدمة، وله بإنطاكية ملك يعيش منه، فأحضر مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة، ورآني متوقفاً عن الأكل فقال" كل طيب النفس، فأنا ما أكل من طعام الإفرنج ولي طباخات

(1) Teodoro Sofiano، يونني، رئيس بلدية أنطاكية.

مصريات لا أكل إلا من طبخهن، ولا أدخل داري لحم خنزير[1]. فأكلت وأنا محترز وانصرفنا. فأنا بعد مجتازاً في السوق وامرأة إفرنجية تعلقت بي وهي تبربر بلسانهم وما أدري ما تقول. فاجتمع علي خلق من الإفرنج فأيقنت من الهلاك. وإذا ذلك الفارس قد أقبل فرآني، فجاء فقال لتلك المرأة "ما لك ولهذا المسلم"؟ قالت "هذا قتل أخي عرس"، وكان هذا عرس فارساً بأفامية قتله بعض جند حماة. فصاح عليهم وقال "هذا رجل برجاسي أي تاجر لا يقاتل ولا يحضر قتال"، وصاح على أولئك المجتمعين، فتفرقوا وأخذ يدي ومضى، فكان تأثير تلك المواكلة خلاصي من القتل.

الديوية في القدس

(أسامة، 99)

فمن جفاء أخلاقهم قبحهم الله، أنني إذا زرت بيت المقدس دخلت إلى المسجد الأقصى، وفي جانبه مسجد صغير جعله الإفرنج كنيسة. فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى وفيه الداوية وهم أصدقائي، يخلون لي ذلك المسجد الصغير أصلي فيه. فدخلت يوماً، كبّرت[2] ووقفت في الصلاة، فهجم علي واحداً من الإفرنج مسكني ورد وجهي إلى الشرق، وقال "كذا صلي" فتبادر إليه قوم من الداوية أخذوه أخرجوه عني، وعدت أنا إلى الصلاة، فأغفلهم وعاد هجم علي ذلك بعينه ورد وجهي إلى الشرق وقال "كذا صلي"! فعاد الداوية دخلوا إليه وأخرجوه واعتذروا إلي وقالوا "هذا غريب وصل من بلاد الإفرنج هذه الأيام، وما رأى من يصلي لغير الشرق". فقلت "حسبي من الصلاة"! فخرجت وكنت أعجب من ذلك الشيطان وتغير وجهه ورعدته وما لحقه من نظر الصلاة إلى القبلة[3].

---

(1) شكل هذا الطعام النجس كابوساً بالنسبة لهذا الضيف الحذر، لهذا فقد أكل وهو محترز رغم تطمينات صاحب البيت.

(2) يقول المسلمون في بدء صلواتهم "الله أكبر"

(3) كان مسيحيو العهد المتوسط يصلون ووجوههم متجهة نحو الشرق، بينما يصلي المسلمون نحو القبلة أي باتجاه مكة.

ورأيت واحداً منهم جاء إلى الأمير معين الدين رحمه الله وهو في الصخرة فقال "تريد تبصر الله صغيراً؟ قال "نعم". فمشى بين أيدينا حتى أورانا صورة مريم والمسيح عليه السلام صغير في حجرها. فقال "هذا الله صغير" –تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً.[1]

شراء الأسرى

(أسامة، 60-62)

كنت أتردد إلى ملك الأفرنج في الصلح بينه وبين جمال الدين محمد بن تاج الملوك رحمه الله[2] ليد كانت للوالد رحمه الله على بغدوين الملك والد الملكة امرأة الملك فلك بن فلك[3]، فكان الإفرنج يسوقون أساراهم إلي لأشتريهم، فكنت أشتري منهم من سهّل الله تعالى خلاصه. فخرج شيطان منهم يدعى كليام جيبا في موكب له يغزي، فأخذ مركباً فيه حجاج من المغاربة نحو أربع مائة نفس رجال ونساء. فكان يجيئني أقوام مع مالكهم فأشتري منهم من قدرت على شراه، وفيهم رجل شاب يسلّم ويقعد لا يتكلم، فسألت عنه فقيل لي "هو رجل زاهد صاحبه دباغ". فقلت له "بكم تبيعني هذا"، قال وحق ديني ما أبيعه إلا هو وهذا الشيخ جملة كما أشتريتهما بثلاثة وأربعين ديناراً"، فأشتريتهما واشتريت لي منهم نفراً، واشتريت للأمير معين الدين رحمه الله[4] منهم نفراً بمائة وعشرين ديناراً ووزنت ما كان معي وضمنت علي بالباقي. وجئت إلى دمشق فقلت للأمير معين الدين رحمه الله "لقد اشتريت لك أسارى أختصك بهم، وما كان معي ثمنهم. والآن قد وصلت إلى بيتي إن أردتهم وزنت ثمنهم وإلا وزنته أنا". قال "لا بل أنا أزن والله ثمنهم وأنا أرغب الناس في ثوابهم". وكان

---

(1) تطبيقاً لآية قرآنية على تجديف هذا الشخص

(2) التحالف الفرنجي – الدمشقي عام 1140، ويبدو من هذا النص أن المؤلف شارك في المحادثات.

(3) حلّ بالدوين الثاني، خلال إحدى فترات أسره ضيفاً على أمراء شيزر، ذلك كما يخبرنا أسامة نفسه في مكان آخر.

(4) من أمراء دمشق، وقد سبق ذكره.

رحمه الله أسرع الناس إلى فعل خير وكسب مثوبة ووزن ثمنهم، وعدت بعد أيام إلى عكا، وقد بقي من الأسرى عند كليام جيبا ثمانية وثلاثون أسيراً وفيهم امرأة لبعض الذين خلصهم الله تعالى على يدي فاشتريتها منه، وما وزنت ثمنها، فركبت إلى داره لعنه الله، وقلت "تبيعني منهم عشرة"؟ قال "وحق ديني ما أبيع إلا الجميع". قلت "ما معي ثمن الجميع، وأنا أشتري بعضهم، والنوبة الأخرى أشتري الباقي". قال "ما أبيعك إلا الجميع". فانصرفت وقدر الله سبحانه أنهم هربوا في تلك الليلة جميعهم وسكان ضياع عكا كلهم من المسلمين إذا وصل إليهم الأسير أخفوه وأوصلوه إلى بلاد الإسلام. وتطلبهم ذلك الملعون فما ظفر منهم بأحد وأحسن الله سبحانه خلاصهم، وأصبح يطالبني بثمن المرأة التي كنت أشتريتها قبل أن تهرب. وألزمني بوزن ثمنها، فوزنته وهان ذلك علي لمسرتي بخلاص أولئك المساكين.

عرض لإرسال ابن إلى أوربا

(أسامة، 97)

كان في العسكر الملك فُلك بن فُلك[1] فارس محتشم إفرنجي قد وصل من بلادهم يحج ويعود، فأنس بي وصار ملازمي ويدعوني أخي وبيننا المودة والمعاشرة فلما عزم على التوجه في البحر إلى بلاده قال لي يا أخي أني سائر إلى بلادي، وأريدك تنفذ معي ابنك، وكان ابني معي وهو ابن أربعة عشر سنة، إلى بلادي يبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية. وإذا رجع كان مثل رجل عاقل. فطرق سمعي كلام ما يخرج من رأس عاقل. فإن ابني لو أسر ما بلغ به الأسر أكثر من رواحه إلى بلاد الإفرنج. فقلت له "وحياتك هذا الذي كان في نفسي، لكن منعني من ذلك ان جدته تحبه وما تركته يخرج معي حتى استحلفتني أن أرده إليها" قال "أمك تعيش"؟ قلت "نعم". قال "لا تخالفها".[2]

---

(1) King Folco

(2) وهذا من التقليدي في العائلة المسلمة في العهود الوسيط، فعندما تفق أسامة الحجة ذكر الجدة ولم يذكر الأم، ومن المؤسف أن العرض لم يقبل، إذ لو سافر ابن مؤرخنا إلى الغرب لترك لنا شهادة قيمة عنه!

باز عكا الكبير

(أسامة، 142-143)

وكنت قد مضيت مع الأمير معين الدين رحمه الله إلى عكا إلى عند ملك الإفرنج فُلك بن فُلك فرأينا رجلاً من الجنوية وقد وصل من بلاد الإفرنج ومعه باز كبير مقرنص يصيد الكركي ومعه كلبة صغيرة إذا أرسل الباز على الكركي عدت تحته، فإذا أخذ الكركي وحطه عضته فلا يقدر على الخلاص منها. وقال لنا ذلك الجنويان الباز عندنا إذا كان ذنبه ثلاثة عشر ريشة اصطاد الكركي. فعددنا ذنب ذلك الباز فكان كذلك. فطلب الأمير معين الدين رحمه الله فأخذه من ذلك الجنوي هو والكلبة وأعطاه للأمير معين الدين فجاء معه، فرأيته في الطريق يثب على الغزلان كما يثب إلى اللحم، ووصلنا به إلى دمشق، فما طال عمره بها ولا صاد شيئاً ومات.

الخشوع الإسلامي والخشوع المسيحي

(أسامة، كتاب العصا، 529-528)

زرت قبر يحيى بن زكريا، عليهما السلام[1] بقرية يقال لها سبسطية من أعمال نابلس، فلما صليت خرجت إلى ساحة بين يدي الموضع الذي فيه القبر، محوّط عليها، وإذا باب مردود ففتحته ودخلت، وإذا كنيسة فيها نحو من عشرة شيوخ رؤوسهم مكشوفة كأنها القطن المندوف، وقد استقبلوا الشرق[2] وفي صدورهم عصي في رؤوسها عوارض معوجّة على قدر صدر الرجل، وهم معهدون عليها، ويمتح بين أيديهم بقراد[3]، فرأيت منظراً يرق له القلب، وساءني وأسفني أني لم أر في المسلمين من هو على مثل اجتهادهم. فمضت على ذلك مدة فقال لي يوماً

---

(1) يعتبر المسلمون كلاً من يحيى المعمدان وزكريا (عليهما السلام) نبيين ويقدسونهما.

(2) الصلاة المسيحية كما رأينا قبلها.

(3) النص والمعنى غير واضحين في هذه العبارة: ويبدو أن الصلبان المذكورة على شكل عصي كانت مرسومة على أثواب الكهنة من اتباع القديس يوحنا.

معين الدين أنر، رحمه الله، وأنا وهو نسير عند دار الطواويس[1]، أشتهي أنزل أزور دور المشايخ، قلت الأمر كذلك، فنزلنا ومشينا إلى منزل عرضي طويل، فدخلنا وأنا أظن أن ما فيه أحدا، وإذا فيه نحو من مائة سجادة رجل من الصوفية، عليهم السكينة، والخشوع عليهم ظاهر. فسرني ما رأيت منهم وحمدت الله عز وجل، ورأيت في المسلمين من هم أكثر اجتهاداً من أولئك القسوس. لم أكن قبل ذلك رأيت الصوفية في دارهم ولا عرفت طريقتهم.

(1) حيث كان خان فذه بعض الصوفيين في دمشق

القسم الثاني

صلاح الدين والحملة الثالثة



- 1 -

أهم المصادر الإسلامية الأساسية التي تتحدث عن شخصية صلاح الدين ومنجزاته هم موظفوه واقرباؤه امثال عماد الدين وبهاء الدين. كتب الأول تاريخ فتح القدس (حتى موت السلطان)، لكن التكلف البلاغي يطغى على اسلوب شاهد العيان ذي الأهمية المتزايدة. أما الثاني فقد كتب سيرة البطل باسلوب سهل بسيط يسوده دفء محبب واخلاص لايصل البتة الى الافراط في التقريظ. هناك مصدر ثالث يشار اليه في معرض الحديث عن صلاح الدين نجده في قسم خصص لهذا الموضوع في "كتاب الحديقتين" لمؤلفه أبو شامة وهو في الحقيقة تصنيف لمقاطع مقتبسة من عماد الدين (بعد تجريدها من اسلوبها الزاهي) وبهاء الدين وابن الأثير، هذا مع وجود مقاطع ذات قيمة معينة انقذها المؤلف من الضياع بعد ان اقتبسها من مصادر مفقودة (ابن أبي الطي) فضلاً عن فصول ووثائق ديوان السلطان. أما ابن الأثير فرغم تحيزه الواضح ضد صلاح الدين بسبب ارتباطاته المحلية فان أعماله تحتفظ بقيمتها المعتادة التي تعكس الاحداث بطريقة صادقة وتستعمل المصادر الأولية برؤية حيادية.

أما أفضل صورة شاملة لبطل الإسلام الكبير فهي تلك التي يفتتح بها بهاء الدين سيرته والتي نقدمها الآن كاملة.

صورة صلاح الدين الأخلاقية

(بهاء الدين، 7–41)

ذكر ما شاهدناه من مواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للأمور الشرعية.

ورد في الحديث[1] الصحيح عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: بني الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج إلى بيت الله الحرام. وكان رحمة الله عليه حسن العقيدة كثير الذكر لله تعالى قد أخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء وفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسناً وإن لم يكن بعبارة الفقهاء فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه. غير مارق سهم النظر إلى التعطيل والتمويه جارية على نمط الاستقامة موافقة لقانون النظر الصحيح مرضية عند أكابر العلماء، وكان قد جمع له الشيخ قطب الدين النيسابوري عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب. وكان من شدة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده حتى ترسخ في أذهانهم في الصغر ورأيته وهو يأخذها عليهم وهم يلقونها من حفظهم بين يديه.

وأما الصلاة فإنه كان رحمه الله تعالى شديد المواظبة عليها بالجماعة حتى أنه ذكر يوماً أن له سنين ما صلى إلا جماعة. وكان إن مرض يستدعي الإمام وحده ويكلف نفسه القيام ويصلي جماعة. وكان يواظب على السنن الرواتب، وكان له صلوات يصليها إذا استيقظ في الليل[2] وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح ولم يكن يترك الصلاة ما دام عقله عليه. ولقد رأيته قدس الله روحه يصلي في مرضه الذي مات فيه قائماً وما ترك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التي تغيب فيها ذهنه. وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلى. وأما الزكاة فإنه مات رحمه الله تعالى ولم يحفظ ما تجب عليه به الزكاة وأما صدقة النفل فإنها استنفدت جميع ما ملكه من الأموال فإنه ملك ما ملك ولم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية[3] وجرماً واحداً ذهباً ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الأملاك.

---

(1) الحديث يضم أحاديث نقلت عن النبي (صلى الله عليه وسلم) عبر سلسلة من الرواة الذين يؤكدون صحتها. وقد أصبح علم الحديث جانباً هاماً في علوم الدين الاسلامي.

(2) كتب غابرييلي عن هذه الصلوات إنها ركعتا قيام الليل، ثم قام بتفسير معنى الركعة وقال إنها وحدة من وحدات الصلاة تضم القيام والجلوس.

(3) أي ممهورة باسمه الرسمي الملك الناصر (الملك ناصر الدين)

وأما صوم رمضان فإنه كان عليه منه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعددة وكان القاضي الفاضل[1] قد تولى ثبت تلك الأيام وشرع رحمه الله في قضاء تلك الفوائت بالقدس الشريف في السنة التي توفي فيها وقد واظب على الصوم مدة حتى بقيت عليه فوائت رمضانين شغلته الأمراض وملازمة الجهاد عن قضائها ومع كون الصوم لا يوافق مزاجه ألهمه الله تعالى الصوم وأقدره على ما قضاه من تلك الفوائت فكان يصوم وأنا أثبت الأيام التي يصومها لأن القاضي كان غائباً وكان الطبيب يلوم وهو لا يسمع ويقول "لا أعلم ما يكون" فكأنه كان ملهماً ما يراد به رحمه الله تعالى.

وأما الحج فإنه كان لم يزل عازماً عليه وناوياً له سيما في العام الذي توفي فيه فإنه صمم العزم عليه وأمر بالتأهب وعملنا الرفادة ولم يبق إلا المسير فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت وخلو اليد عما يليق بأمثاله فأخر إلى العام المستقبل فقضى الله ما قضى وهذا شيء اشترك في العلم به الخاص والعام.

وكان رحمه الله تعالى يحب سماع القرآن العظيم ويستجيد إمامه ويشترط أن يكون عالماً بعلم القرآن العظيم متقناً لحفظه. وكان يستقرئ من يحرسه في الليل وهو في برجه الجزءين والثلاثة والأربعة وهو يسمع. وكان يستقرئ وهو في مجلسه العام من جرت عادته بذلك الآية والعشرين والزائد على ذلك ولقد اجتاز على صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن فاستحسن قراءته فقربه وجعل له حظاً من خاص طعامه ووقف عليه وعلى أبيه جزأ من مزرعة.

وكان رحمه الله تعالى خاشع القلب رقيقه غزير الدمعة إذا سمع القرآن يخشع قلبه وتدمع عينه في معظم أوقاته. وكان رحمه الله شديد الرغبة في سماع الحديث ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه المختصين به وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له. وإن كان

---

(1) قاضي القضاة ومستشار صلاح الدين الخاص، وسنقرأ عنه لاحقاً عدة مرات.

ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه وسمع عليه. تردد إلى الحافظ[1] الأصفهاني بالإسكندرية حرسها الله تعالى وروى عنه أحاديث كثيرة.

كان رحمه الله تعالى يحب أن يقرأ الحديث بنفسه وكان يستحضرني في خلوته ويحضر شيئاً من كتب الحديث ويقرؤها هو فإذا مر بحديث فيه عبرة رق قلبه ودمعت عينه.

وكان رحمة الله عليه كثير التعظيم لشعائر الدين يقول ببعث الأجسام ونشورها ومجازاة المحسن بالجنة والمسيء بالنار مصدقاً بجميع ما وردت به الشرائع منشرحاً بذلك صدره مبغضاً للفلاسفة والمعطلة ومن يعاند الشريعة ولقد أمر ولده صاحب حلب الملك الظاهر عز الله أنصاره بقتل شاب نشأ يقال له السهروردي[2] قيل عنه أنه كان معانداً للشرائع مبطلاً وكان قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره وعرف السلطان به فأمره بقتله فطلبه أياماً فقتله.

كان قدس الله روحه حسن الظن بالله كثير الاعتماد عليه عظيم الإنابة إليه. ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه. وذلك أن الفرنج خذلهم الله كانوا نازلين ببيت نوبة وهو موضع قريب من القدس الشريف حرسها الله تعالى بينهما بعض مرحلة وكان السلطان بالقدس وقد أقام يزكاً على العدو محيطاً به وقد سير إليهم الجواسيس والمخبرين فتواصلت الأخبار بقوة عزمهم على الصعود إلى القدس ومحاصرته وتركيب القنابل عليه واشتدت مخافة المسلمين بسبب ذلك فاستحضر الأمراء وعرفهم ما قد دهم المسلمين من الشدة وشاورهم في الإقامة بالقدس فأتوا بمجاملة باطنها غير ظاهرها وأصر الجميع على أن لا مصلحة في إقامته بنفسه فإنها مخاطرة بالإسلام وذكروا أنهم يقصدونهم ويخرج هو رحمه الله بطائفة من العسكر يكون حول العدو كما كان الحال بعكا ويكون هو ومن معه بصدد منع

(1) جاء لقب الحافظ الذي لقب به هذا الشاعر الفارسي الشهير من معنى الكلمة وهو يطلق على حفظة نصوص القرآن الكريم وعلى علماء الفقه بصورة عامة.

(2) فيلسوف متصوف من حلب راح 1911 ضحية التعصب الفكري الديني الذي شرّعه صلاح الدين فكشف عن جانب حقيقي من شخصيته بعيد عن الصورة التي كونها عنه عصر التنوير Illuminism.

ميرتهم أو التضييق عليهم ويكونون هم بصدد حفظ البلد والدفع عنه وانفصل مجلس المشورة على ذلك وهو مصر على أن يقيم بنفسه علماً منه أنه إن لم يقم لم يقم أحد فلما انصرف الأمراء إلى بيوتهم جاء من عندهم خبر أنهم لا يقيمون إلا أن يقيم أخوه الملك العادل أو أحد أولاده حتى يكون هو الحاكم عليهم والذي يأتمرون بأمره فعلم أن هذه إشارة منهم إلى عدم الإقامة وضاق صدره وتقسم فكره واشتدت فكرته، ولقد جلست في خدمته في تلك الليلة وكانت ليلة الجمعة من أول الليل إلى أن قارب الصبح وكان الزمان شتاءً وليس معنا ثالث إلا الله تعالى ونحن نقسم أقساماً ونرتب على كل قسم بمقتضاه حتى أخذني الإشفاق عليه والخوف على مزاجه فإنه كان يغلب عليه اليبس فشفعت إليه حتى يأخذ مضجعه لعله ينام ساعة فقال رحمه الله لعلك جاءك النوم ثم نهض فما وصلت إلى بيتي وأخذت لبعض شأني إلا وأذن المؤذن وطلع الصبح وكنت أصلي معه الصبح في معظم الأوقات فدخلت عليه وهو يمر الماء على أطرافه فقال ما أخذني النوم أصلاً فقلت قد علمت فقال من أين فقلت لأني ما نمت وما بقي وقت للنوم ثم اشتغلنا بالصلاة وجلسنا على ما كنا عليه فقلت له قد وقع لي واقع وأظنه مفيداً إن شاء الله تعالى فقال وما هو فقلت له الإخلاد إلى الله تعالى والإنابة إليه. والاعتماد في كشف الغمة عليه. فقال: وكيف نصنع فقلت اليوم الجمعة يغتسل المولى عند الرواح ويصلي على العادة بالأقصى موضع مسرى النبي صلّى الله عليه وسلّم ويقدم المولى التصدق بشيء خفية على يد من يثق به ويصلي المولى ركعتين بين الأذان والإقامة ويدعو الله في سجوده فقد ورد فيه حديث صحيح وتقول في باطنك: إلهي قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصرة دينك ولم يبق إلا الإخلاد إليك والاعتصام بحبلك والاعتماد على فضلك أنت حسبي ونعم الوكيل. فإن الله أكرم من أن يخيب قصدك ففعل ذلك كله وصليت إلى جانبه على العادة وصلى الركعتين بين الأذان والإقامة ورأيته ساجداً ودموعه تتقاطر على شيبته ثم على سجادته ولا أسمع ما يقول فلم ينقض ذلك اليوم حتى وصلت رقعة من عز الدين جرديك وكان على اليزك يخبر فيها أن الفرنج مختبطون وقد ركب اليوم عسكرهم بأسره إلى الصحراء ووقفوا إلى قائم الظهيرة ثم عادوا إلى خيامهم وفي

بكرة السبت جاءت رقعة ثانية تخبر عنهم بمثل ذلك. ووصل في أثناء النهار جاسوس أخبر أنهم اختلفوا فذهبت الفرنسيسية إلى أنهم لا بد لهم من محاصرة القدس وذهب الأنكتار وأتباعه إلى أنه لا يخاطر بدين النصرانية ويرميهم في الجبل مع عدم المياه فإن السلطان كان قد أفسد جميع ما حول القدس من المياه أنهم خرجوا للمشورة ومن عادتهم أنهم يتشاورون للحرب على ظهور الخيل وأنهم قد نصوا على عشرة أنفس منهم وحكموهم فأي شيء أشاروا به لا يخالفونهم ولما كانت بكرة الاثنين جاء المبشر يخبر أنهم رحلوا عائدين إلى جهة الرملة فهذا ما شهدته من آثار استبتاطه وإخلاده إلى الله تعالى رحمه الله.

ذكر عدله رحمه الله تعالى

روى أبو بكر الصديق[1] رضي الله عنه أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: الوالي العادل ظل الله في أرضه فمن نصحه في نفسه أو في عباده أظله الله تحت عرشه يوم لا ظل إلا ظله ومن خانه في نفسه أو في عباده خذله الله يوم القيامة، يرفع للوالي العادل في كل يوم عمل ستين صديقاً كلهم عابد مجتهد لنفسه.

ولقد كان رحمه الله عادلاً رؤوفاً رحيماً ناصراً للضعيف على القوي. وكان يجلس للعدل كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً.

على أنه كان في جميع زمانه قابلاً لجميع ما يعرض عليه من القصص في كل يوم ويفتح باب العدل ولم يرد قاصداً للحوادث والحكومات. وكان يجلس مع الكاتب ساعة إما في الليل أو في النهار ويوقع على كل قصة بما يجريه الله على قلبه ولم يرد قاصداً أبداً أو منتحلاً ولا طالب حاجة وهو مع ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة رحمة الله عليه. ولقد كان رؤوفاً بالرعية ناصراً للدين

(1) أول خليفة جاء بعد محمد (صلى الله عليه وسلم) 632-634.

مواظباً على تلاوة القرآن العزيز عالماً بما فيه عاملاً به لا يعدوه أبداً رحمة الله عليه. وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع قضيته وكشف ظلامته واعتنى بقصته. ولقد رأيته واستغاث إليه إنسان من أهل دمشق يقال له ابن زهير على تقي الدين ابن أخيه فأنفذ إليه ليحضر إلى مجلس الحكم وكان تقي الدين من أعز الناس عليه وأعظمهم عنده ولكنه لم يحابه في الحق.

وأعظم من هذه الحكاية مما يدل على عدله قضية جرت له مع إنسان تاجر يدعى عمر الخلاطي وذلك أني كنت يوماً في مجلس الحكم بالقدس الشريف إذ دخل علي شيخ حسن تاجر معروف يسمى عمر الخلاطي معه كتاب حكمي يسأل فتحه فسألته من خصمك فقال "خصمي السلطان وهذا بساط العدل وقد سمعنا أنك لا تحابي أحداً" قلت "وفي أي قضية هو خصمك" فقال "إن سنقر الخلاطي كان مملوكي ولم يزل على ملكي إلى أن مات وكان في يده أموال عظيمة كلها لي ومات عنها واستولى عليها السلطان وأنا مطالبه بها" فقلت له "يا شيخ وما أقعدك إلى هذه الغاية" فقال "الحقوق لا تبطل بالتأخر وهذا الكتاب الحكمي ينطق بأنه لم يزل في ملكي إلى أن مات". فأخذت الكتاب منه وتصفحت مضمونه فوجدته يتضمن حلية سنقر الخلاطي وأنه قد اشتراه من فلان التاجر بأرجيش اليوم الفلاني من شهر كذا من سنة كذا وأنه لم يزل في ملكه إلى أن شذ عن يده في سنة كذا وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجه ما وتم الشرط إلى آخره فتعجبت من هذه القضية وقلت للرجل "لا ينبغي سماع هذا بلا وجود الخصم وأنا أعرّفه وأعرّفك ما عنده في ذلك"، فرضي الرجل بذلك واندفع. فلما اتفق المثول بين يديه في بقية ذلك اليوم عرفته القضية فاستبعد ذلك استبعاداً عظيماً وقال "كنت نظرت في الكتاب" فقلت: "نظرت فيه ورأيته متصل الورود والقبول إلى دمشق وقد كتب عليه كتاب حكمي من دمشق وشهد به على يد قاضي دمشق شهود معروفون" فقال مبارك "نحن نحضر الرجل ونحاكمه ونعمل في القضية ما يقضيه الشرع". ثم اتفق بعد ذلك جلوسه معي خلوة فقلت له: "هذا الخصم يتردد ولا بد أن نسمع دعواه" فقال "أقم عني وكيلا يسمع الدعوى ثم تقيم الشهود شهادتهم وأخر فتح الكتاب إلى حين حضور الرجل ها هنا"، ففعلت ذلك

ثم أحضر الرجل واستدناه حتى جلس بين يديه وكنت إلى جانبه ثم نزل من طراحته حتى ساواه وقال "إن كان لك دعوى فاذكرها" فحرر الرجل الدعوى على معنى ما شرح أولاً، فأجابه السلطان أن سنقر هذا كان مملوكي ولم يزل على ملكي حتى أعتقته وتوفي وخلف ما خلفه لورثته، فقال الرجل "لي بينة تشهد بما ادعيته" ثم سأل فتح كتاب ه ففتحه فوجدته كما شرحه، فلما سمع السلطان التاريخ قال لي "عندي من يشهد أن سنقر هذا في هذا التاريخ كان في ملكي وفي يدي بمصر وأني اشتريته مع ثمانية أنفس في تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة وأنه لم يزل في يدي وملكي إلى أن أعتقته"؛ ثم استحضر جماعة من أعيان الأمراء والمجاهدين فشهدوا بذلك وذكروا القصة كما ذكرها والتاريخ كما ادعاه، فابلس الرجل فقلت له "يا مولاي هذا الرجل ما فعل ذلك إلا طلباً لمراحم السلطان وقد حضر بين يدي المولى ولا يحسن أن يرجع خائب القصد" فقال: "هذا باب آخر"؛ وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة قد شذ عني مقدارها. فانظر إلى ما في طي هذه القضية من المعاني الغريبة العجيبة والتواضع والانقياد إلى الحق وإرغام النفس والكرم في موضع المؤاخذة مع القدرة التامة، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

ذكر طرف من كرمه رحمه الله

قال صلى الله عليه وسلم إذا عثر الكريم فإن الله آخذ بيده وفي الكرم أحاديث؛ وكرمه قدس الله روحه، كان أظهر من أن يسطر، وأشهر من أن يذكر لكن نبهت عليه جملة، وذلك أنه ملك ما ملك ومات ولم يوجد في خزانته من الفضة إلا سبعة وأربعون درهماً ناصرية ومن الذهب إلا جرم واحد صوري ما علمت وزنه، وكان رحمه الله يهب الأقاليم وفتح آمد[1] وطلبها منه ابن قره أرسلان[2] فأعطاه إياه.

ورأيته قد اجتمع عنده جمع من الوفود بالقدس الشريف، وكان قد عزم على التوجه إلى دمشق ولم يكن في الخزانة ما يعطي للوفود، فلم أزل أخاطبه في

(1) في بلاد الرافدين

(2) محمد بن قره ارسلان، أمير ارتوقي على حصن كيفا (1174–1185) Hasankeyf وهي اليوم في تركيا.

معناهم، حتى باع أشياء من بيت المال، وفضضنا ثمنها عليهم ولم يفضل منه درهم واحد. وكان رحمه الله يعطي في وقت الضيق كما يعطي في حال السعة. وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال حذراً أن يفاجئهم معهم لعلمهم بأنه متى علم به أخرجه، وسمعته يقول في معرض حديث جرى: يمكن أن يكون في الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب" فكأنه بذلك أراد نفسه. رحمه الله تعالى.

وكان يعطي فوق ما يؤمل الطالب فما سمعته قط يقول أعطينا لفلان. وكان يعطي الكثير ويبسط وجهه للعطاء بسطه لمن لم يعطه شيئاً. وكان رحمه الله يعطي ويكرم أكثر مما يعطى وكان قد عرفه الناس فكانوا يستزيدونه في كل وقت وما سمعته قط يقول قد زدت مراراً فكم أزيد.

وأكثر الرسائل كانت تكون في ذلك على لساني ويدي وكنت أخجل منه من كثرة ما يطلبون ولا أخجل منه من كثرة ما أطلبه لهم لعلمي بعدم مؤاخذته في ذلك، وما خدمه أحد إلا وأغناه عن سؤال غيره.

أما تعداد عطاياه وتعداد صنوفها فلا تطمع فيها حقيقة أصلاً وقد سمعت من صاحب ديوانه يقول لي قد تجارينا عطاياه فحصرنا عدد ما وهب من الخيل بمرج عكا فكان عشرة آلاف فرس، ومن شاهد مواهبه يستقل هذا القدر. اللهم إنك ألهمته الكرم وأنت أكرم منه فتكرم عليه برحمتك ورضوانك يا أرحم الراحمين.

ذكر شجاعته قدس الله روحه

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن الله يحب الشجاعة ولو على قتل حية.

ولقد كان رحمه الله تعالى من عظماء الشجعان قوي النفس شديد البأس عظيم الثبات لا يهوله أمر ولقد رأيته يعطي دستوراً في أوائل الشتاء ويبقى في شرذمة يسيرة في مقابلة عددهم الكثير وقد سألت باليان بن بارزان[1] وهو من

(1) Balian II d'Ibelin الثاني أحد سفراء الفرنج المفوضين في سلام 1192. ستعاود رؤية هذه الأحداث والشخصيات فيما بعد.

كبار ملوك الساحل وهو جالس بين يديه، رحمه الله، يوم انعقاد الصلح عن عدتهم، فقال الترجمان عنه أنه يقول "كنت أنا وصاحب صيدا وكان أيضاً من ملوكهم وعقلائهم قاصدين عسكرنا من صور، فلما أشرفنا عليه تجاوزناه فحزرهم هو خمس مائة ألف وحزرتهم أنا بستمائة ألف أو قال عكس ذلك" قلت "فكم هلك منهم" فقال "أما بالقتل فقريب من مائة ألف وأما بالموت والغرق فلا نعلم وما رجع من هذا العالم إلا الأقل".

وكان لا بد له من أن يطوف حول العدو في كل يوم مرة أو مرتين إذا كنا قريباً منهم. وكان رحمه الله تعالى إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد على يده جنيب ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة ويرتب الأطلاب ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها. وكان يشارف العدو ويجاوره رحمه الله. ولقد قرئ عليه جزآن من الحديث بين الصفين وذلك أني قلت له قد سمع الحديث في جميع المواطن الشريفة ولم ينقل أنه سمع بين الصفين فإن رأى المولى أن يؤثر عنه ذلك كان حسناً فأذن في ذلك فأحضر جزءه كما أحضر من له به سماع فقرأ عليه ونحن على ظهور الدواب بين الصفين تمشي تارة ونقف أخرى.

وما رأيته استكثر العدو أصلاً ولا استعظم أمرهم قط، وكان مع ذلك في حال التفكر والتدبير تذكر بين يديه الأقسام كلها، ويرتب على كل قسم بمقتضاه من غير حدة ولا غضب يعتريه. ولقد انهزم المسلمون في يوم المصاف الأكبر بمرج عكا، حتى القلب ورجاله، ووقع الكوس[1] والعلم، وهو -رضي الله عنه- ثابت القدم في نفر يسير، حتى انحاز إلى الجبل بجميع الناس ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا، ولم يزل كذلك حتى نصر عسكر المسلمين على العدو في ذلك اليوم، وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس، ولم يزل رحمه الله مصابراً لهم وهم في العدة الوافرة، إلى أن ظهر له ضعف المسلمين، فصالح وهو مسؤول من جانبهم، فإن الضعف والهلاك كان فيهم أكثر، ولكنهم كانوا يتوقعون النجدة ونحن لا نتوقعها، وكانت المصلحة في الصلح، وظهر ذلك لما أبدت الأقضية الإلهية

---

(1) الطبول (غابريلي)

والأقدار ما في مكنونها[1]. وكان رحمه الله يمرض ويصح وتعتريه أحوال مهولة وهو مصابر مرابط، وتتراءى النيران[2] ونسمع منهم صوت الناقوس[3] ويسمعون منا صوت الأذان إلى أن انقضت الوقعة على أحسن حال وأيسره، قدس الله روحه ونور ضريحه.

ذكر اهتمامه بأمر الجهاد

قال الله تعالى: {والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين}[4] ونصوص الجهاد كثيرة. ولقد كان رحمه الله شديد المواظبة عليه عظيم الاهتمام به، ولو حلف حالفٌ أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد أو في الأرفاد لصدق وبر في يمينه. ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً بحيث ما كان له حديث إلا فيه ولا نظر إلا في آلته ولا كان له اهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه. ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه ومسكنه وسائر بلاده وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة. ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريحية على مرج عكا فلو لم يكن في البرج لقتلته ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماماً. كان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد وأنا ممن جمع له فيه كتاباً جمعت فيه آدابه وكل آية وردت فيه وكل حديث روي في فضله وشرحت غريبها.

وكان رحمه الله كثيراً ما يطالعه، حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل عز نصره، ولأحكين عنه ما سمعته منه، وذلك أنه كان قد أخذ كوكب[5] في ذي القعدة سنة أربع وثمانين وخمسمائة (كانون ثاني/يناير 1189) وأعطى العسكر

---

(1) هنا تبرز الأسباب الجدلية والتبريرية التي ستجدها حول سلام 1192 المثير للجدل

(2) نيران المعسكرين

(3) ألواح خشبية كان مسيحيو الشرق يستعملونها محل الناقوس

(4) قرآ ن (كريم) الآية 69 من السورة 29 (العنكبوت- وقد ذكر غابرييلي أنها السورة 62 لأنه اعتمد على نسخة مترجمة لمعاني القرآن الكريم رتبت آياتها بشكل مختلف).

(5) حصن اسبتارية قرب طبرية

دستوراً[1]، وأخذ عسكر مصر في العود إلى مصر، وكان مقدمها أخاه الملك العادل عز نصره، فسار معه ليودعه ويحظى بصلاة العيد[2] في القدس الشريف حرسه الله تعالى وسرنا في خدمته. ولما صلى العيد في القدس وقع له أن يمضي إلى عسقلان ويودعهم بعسقلان ثم يعود على طريق الساحل يتفقد البلاد الساحلية إلى عكا ويرتب أحوالها، فأشاروا عليه أن يفعل فإن العساكر إذا فارقتنا نبقى في عدة يسيرة والفرنج كلهم بصور، وهذه مخاطرة عظيمة، فلم يلتفت رحمه الله، وودع أخاه والعسكر بعسقلان، ثم سرنا في خدمته إلى الساحل طالبي عكا. وكان الزمان شتاء والبحر هائجاً شديداً، وموجه كالجبال[3]، كما قال تعالى، وكنت حديث عهد برؤية البحر فعظم أمر البحر عندي حتى خيل لي أنني لو قال لي: إن جزت في البحر ميلاً واحداً ملكتك الدنيا، لما كنت أفعل، واستسخفت رأي من ركب البحر رجاء دينار أو درهم، واستحسنت رأي من لا يقبل شهادة راكب بحر[4]، هذا كله خطر لي لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر، فبينا أنا في ذلك إذ التفت إلي رحمه الله، وقال "أما أحكي لك شيئاً في نفسي أنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائره واتبعتهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت" فعظم وقع هذا الكلام عندي حيث ناقض ما كان خطر لي وقلت له "ليس في الأرض أشجع نفساً من المولى، ولا أقوى منه نية في نصرة دين الله تعالى". فقال "فكيف" فقلت "أما الشجاعة فلأن مولانا ما يهوله أمر هذا البحر وهوله. وأما نصرة دين الله فهو أن المولى ما يقنع بقلع أعداء الله من موضع مخصوص في الأرض حتى تطهر جميع الأرض منهم"، واستأذنت أن أحكي له ما كان خطر لي فحكيت له ثم قلت "ما هذه إلا نية جميلة ولكن المولى يسير في البحر العساكر وهو سور الإسلام ومنعته فلا ينبغي له أن يخاطر بنفسه"، فقال "أنا

---

(1) إجازة أو تصريح (ترجمة عن غبريلي)
(2) عيد الأضحى بعد الحج (عرفة) في شهر ذي الحجة
(3) (استعارة عن) القرآن (الكريم) {مَوْجٍ كَالْجِبَالِ} الآية 44 من السورة 11 (هود)
(4) سنرى لاحقاً أن هناك آراء فقهية تقول بعدم قبول شهادة من يركب البحر

أستفتيك ما أشرف الميتات"؟ فقلت "الموت في سبيل الله" فقال "غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات". فانظر إلى هذه الطوية ما أطهرها وإلى هذه النفس ما أشجعها وأجرأها، رحمة الله عليه. اللهم إنك تعلم أنه بذل جهده في نصرة دينك، وجاهد رجاء رحمتك، فارحمه.

صبره واحتسابه رحمة الله عليه

قال الله سبحانه وتعالى: {ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم}[1]. ولقد رأيته رحمه الله بمرج عكا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماميل كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه، بحيث لا يستطيع الجلوس، وإنما يكون منكباً على جانبه إن كان بالخيمة، وامتنع من مد الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس، وكان يأمر أن يفرق على الناس. وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريباً من العدو وقد رتب الناس ميمنة وميسرة وقلباً تعبية القتال، وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة المغرب، يطوف على الأطلاب، صابراً على شدة الألم، وقوة ضربان الدمامل، وأنا أتعجب من ذلك فيقول "إذا ركبت يزول عني ألمها حتى أنزل" وهذه عناية ربانية.

ولقد مرض -رحمه الله- ونحن على الخروبة[2] وكان قد تأخر عن تل الحجل بسبب مرضه، فبلغ الإفرنج فخرجوا طمعاً في أن ينالوا شيئاً من المسلمين، وهي نوبة النهر فخرجوا في مرحلة الآبار التي تحت التل. فأمر رحمه الله بالثقل[3] حتى يتجهز بالرحيل والتأخر عن جهة الناصرة، وكان عماد الدين صاحب سنجار متمرضاً أيضاً فأذن له أن يتأخر مع الثقل، وأقام هو، ثم رحل العدو في اليوم الثاني بطلبنا، فركب على مضض ورتب العسكر للقاء القوم تعبية الحرب، وجعل طرف الميمنة الملك العادل وطرف الميسرة تقي الدين وجعل ولده

(1) قرآن كريم "الآية 110 السورة 16 (النحل)

(2) مكان بين حيفا ومار يوحنا في عكا.

(3) الأمتعة (ترجمة عن غابرييلي)

الملك الظاهر والملك الأفضل -عز نصرهما - في القلب ونزل هو وراء القوم يطلبهم. وأول ما نزل من التل أحضر بين يديه أفرنجي قد أسر من القوم، فأمر بضرب عنقه بين يديه بعد عرض الإسلام عليه وإبائه عنه، وكلما سار العدو يطلب رأس النهر سار هو مستديراً إلى ورائهم، حتى يقطع بينهم وبين خيامهم، وهو يسير ساعة، ثم ينزل يستريح ويتظلل بمنديل على رأسه من شدة وقع الشمس، ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدو ضعفاً. ولم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النهر ونزل هو قبالتهم على تل مطل عليهم، إلى أن دخل الليل. ثم أمر العساكر المنصورة إن عادت إلى محل المصابرة وأن يبيتوا تحت السلاح، وتأخر هو ونحن في خدمته إلى قمة الجبل، فضربت له خيمة لطيفة، وبتنا تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرضه ونشاغله، وهو ينام تارة ويستيقظ أخرى حتى لاح الصباح، ثم ضرب البوق وركب هو وركبت العساكر ، وأحدقت بالعدو ورحل العدو عائداً إلى خيامهم من الجانب الغربي من النهر، وضايقهم المسلمون في ذلك اليوم مضايقة شنيعة. وفي ذلك اليوم قدم أولاده بين يديه احتساباً وجميع من حضر منهم، ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده إلا أنا والطبيب وعارض الجيش والغلمان بأيديهم الأعلام والبيارق لا غير، فيظن الرائي لها عن بعد أن تحتها خلقاً عظيماً. ولم يزل العدو سائراً والقتل يعمل فيهم وكلما قتل منهم شخص دفنوه وكلما جرح منهم رجل حملوه حتى لا يبقى بعدهم من يعلم قتله وجرحه وهم سائرون ونحن نشاهدهم حتى اشتد بهم الأمر، ونزلوا عند الجسر، وكان الإفرنج متى نزلوا إلى الأرض آيس المسلمون من بلوغ غرض منهم لأنهم يجتمعون في حالة النزول جماعة عظيمة. وبقي رحمه الله في موضعه، العساكر على ظهور الخيل قبالة العدو إلى آخر النهار، ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ما باتوا عليه بارحتهم. وعدنا إلى منزلنا في الليلة الماضية وعاد العسكر في الصباح إلى ما كان عليه بالأمس من مضايقة العدو، ورحل العدو، وسار على ما مضى من القتل والقتال حتى دنا إلى خيامه وخرج إليه منها من أنجده حتى وصلوا إلى خيامهم. فانظر إلى هذا الصبر والاحتساب وإلى أي غاية بلغ هذا الرجل. اللهم إنك ألهمته الصبر والاحتساب ووفقته فلا تحرمه ثوابه يا أرحم الراحمين.

ولقد رأيته رحمه الله تعالى وقد جاءه خبر وفاة ولد له بالغ يسمى إسماعيل فوقف على الكتاب ولم يعرف أحداً ولم نعرف حتى سمعناه من غيره ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوى أنه لما قرأ الكتاب دمعت عينه. ولقد رأيته ليلة على صفد وهو يحاصرها وقد قال: لا ننام الليلة حتى تنصب لنا خمس مناجيق، ورتب لكل منجنيق قوماً يتولون نصبه، وكنا طول الليل في خدمته، قدس الله روحه- في ألذ مفاكهة وأرغد عيش، والرسل تتواصل تخبره بأن قد نصب من المنجنيق الفلاني كذا ومن المنجنيق الفلاني كذا، حتى أتى الصباح وقد فرغ منها ولم يبق إلا تركيب خنازيرها عليها، وكانت من أطول الليالي وأشدها برداً ومطراً. ورأيته وقد وصل إليه خبر وفاة تقي الدين ابن أخيه ونحن في مقابلة الإفرنج جريدة على الرملة وبيننا وبينهم شوط فرس لا غير، فأحضر الملك العادل وعلم الدين سليمان وسابق الدين وعز الدين، وأمر بالناس فطردوا من قريب الخيمة بحيث لم يبق حولها أحد زيادة عن غلوة سهم. ثم أظهر الكتاب ووقف عليه وبكى بكاءً شديداً حتى أبكانا من غير أن نعلم السبب، ثم قال -رحمه الله - والعبرة تخنقه، "توفي تقي الدين" فاشتد بكاؤه وبكاء الجماعة ثم عدت إلى نفسي فقلت "استغفروا الله تعالى من هذه الحالة وانظروا أين وفيم أنتم وأعرضوا عما سواه" فقال رحمه الله "نعم أستغفر الله"، وأخذ يكررها ثم قال "لا يعلم أحد" واستدعى بشيء من الماورد فغسل عينيه ثم أشخص الطعام وحضر الناس ولم يعلم بذلك أحد حتى عاد العدو إلى يافا وعدنا نحن إلى النطرون وهو مقر ثقلنا.

وكان رحمه الله شديد الشغف والشفقة بأولاده الصغار وهو صابر على مفارقتهم راض ببعدهم، وكان صابراً على مر العيش وخشونته مع القدرة التامة على غير ذلك احتساباً لله تعالى. اللهم إن ترك ذلك ابتغاء مرضاتك فارض عنه وارحمه.

ذكر نبذ من حلمه وعفوه رحمه الله

قال الله سبحانه وتعالى: {والعافين عن الناس والله يحب المحسنين}[1]. لقد كان متجاوزاً قليل الغضب ولقد كنت في خدمته بمرج عيون قبل خروج الإفرنج إلى عكا -يسر الله فتحها- وكان من عادته أن يركب في وقت الركوب، ثم ينزل فيمد الطعام ويأكل مع الناس، ثم ينهض إلى خيمة خاصة له ينام فيها، ثم يستيقظ من منامه، ويصلي ويجلس خلوة وأنا في خدمته تقرأ شيئاً من الحديث أو شيئاً من الفقه، ولقد قرأ علي كتاباً مختصراً تصنيف الرازي يشتمل على الأرباع الأربعة من الفقه. ونزل يوماً على عادته ومد الطعام بين يديه ثم عزم على النهوض فقيل له أن 'وقت الصلاة قد قرب' فعاد إلى الجلوس وقال 'نصلي وننام' ثم جلس يتحدث حديث متضجر وقد أخلا المكان إلا ممن لزم. فتقدم إليه مملوك كبير محترم عنده وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين فقال "هل أنا الآن ضجران أخرها ساعة"، فلم يفعل، وقدم القصة إلى قريب من وجهه الكريم بيده وفتحها بحيث يقرأها فوقف على 'الاسم المكتوب في رأسها فعرفه، فقال 'رجل مستحق" فقال "يوقع المولى له" فقال 'ليست الدواة حاضرة الآن' وكان رحمه الله جالساً في باب الخركاه[2] بحيث لا يستطيع أحد الدخول إليها والدواة في صدرها والخركاه كبيرة، فقال له المخاطب 'هذه الدواة في صدر الخركاه'، وليس لهذا معنى إلا أمره إياه بإحضار الدواة لا غير، فالتفت -رحمه الله- فرأى الدواة فقال 'والله لقد صدق' ثم امتد على يده اليسرى ومد يده اليمنى فأحضرها ووقع له. فقلت قال الله تعالى في حق نبيه صلى الله عليه وسلم {وإنك لعلى خلق عظيم}[3]. وما أرى المولى إلا قد شاركه في هذا الخلق فقال 'ما ضرنا شيئاً قضينا حاجته وحصل الثواب'، ولو وقعت هذه الواقعة لآحاد الناس وأفرادهم لقام وقعد ومن الذي يقدر أن يخاطب أحداً هو تحت حكمه بمثل ذلك وهذا غاية الإحسان والحلم {والله لا يضيع أجر المحسنين}.[4]

---

(1) قرآن (كريم) الآية 134 سورة 3 (آل عمران)

(2) ترجمها غابرييلي بـ (الخيمة)

(3) قران (كريم) الآية 4 سورة 68 (القلم)

(4) قران (كريم) الآية 120 سورة 9 (التوبة)

ولقد كانت طراحته تداس عند التزاحم عليه لعرض القصص، وهو لا يتأثر لذلك. ولقد نفرت يوماً بغلتي من الجمال، وأنا راكب في خدمته، فزحمت وركه حتى آلمته، وهو يتبسم -رحمه الله. ولقد دخلت بين يديه في يوم ريح مطير إلى القدس الشريف، وهو كثير الوحل فنضحت البغلة عليه من الطين، حتى أتلفت جميع ما كان عليه، وهو يتبسم، وأردت التأخر عنه بسبب ذلك فما تركني.

ولقد كان يسمع من المستغيثين والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع ويلقى ذلك بالبشر والقبول. وهذه حكاية يندر أن يسطر مثلها: وذلك أنه كان قد اتجه أخو ملك الإفرنج (خذلهم الله) إلى يافا، فإن العسكر كان قد رحل عنهم، وبعد وتراجع إلى النطرون، وهو مكان بينه وبين يافا للعسكر مرحلتان للمجدّ وثلاث معتادة، وجمع -رحمه الله- العسكر ومضى إلى قيسارية يلتقي نجدتهم عساه يبلغ منهم غرضاً، وعلم الإفرنج الذين كانوا بيافا ذلك وكان بها الأنكتار[1] ومعه جماعة، فجهز معظم من كان عنده في المراكب إلى قيسارية خشية على النجدة أن يتم عليها أمر، وبقي الأنكتار في نفر يسير لعلمهم ببعده -رحمه الله - عنهم، وبعد العسكر، ولما وصل رحمه الله إلى قيسارية ورأى النجدة قد وصلت إلى البلد واحتمت به وعلم أنه لا ينال منهم غرضه، سرى من ليلته في أول الليل إلى آخره حتى أتى يافا صباحاً. والأنكتار في سبعة عشر فارساً وثلاثمائة راجل، نازل خارج البلد في خيمة له، فصبحه العسكر صباحاً. فركب الملعون، وكان شجاعاً باسلاً صاحب رأي في الحرب، وثبت بين يدي العسكر ولم يدخل البلد. فاستدار العسكر الإسلامي بهم إلا من جهة البحر، وتعبى العسكر تعبية القتال. وأمر السلطان العسكر بالحملة انتهازاً للفرصة، فأجابه بعض الأكراد بكلام فيه خشونة حاصلة، فعتب لعدم التوفير في إقطاعه. فعطف -رحمه الله - عنان فرسه كالمغضب، لعلمه أنهم لا يعملون في ذلك اليوم شيئاً، وتركهم وانصرف راجعاً، وأمر بخيمته التي كانت منصوبة أن قلعت. وانفضوا متيقنين أن السلطان في ذلك اليوم ربما صلب جماعة. ولقد حكى لي ولده الملك الظاهر (أعز الله أنصاره) أنه خاف منه في ذلك اليوم، حتى أنه لم يتجاسر أن يقع في عينيه مع أنه حمل في ذلك اليوم وأوغل، إلى أن منعه- رحمه الله. ولم يزل

---

(1) أي ريتشارد قلب الأسد

سائراً حتى نزل بيازور، وهي مرحلة لطيفة، فضربت له خيمة لطيفة هناك، ونزل بها ونزل العسكر في منازلهم تحت صوارئيات لطيفة، كما جرت العادة في مثل ذلك. وما من أمراء إلا من يرعد خيفة منه ومن يعتقد أنه مأخوذ مسخوط عليه. قال "ولم تحدثني نفسي بالدخول عليه خيفة منه، حتى استدعاني، قال "فدخلت عليه وقد وصله من دمشق المحروسة فاكهة كثيرة، فقال "اطلبوا الأمراء حتى يأكلوا شيئاً" قال "فسري عني ما كنت أجده وطلبت الأمراء فحضروا وهم خائفون فوجدوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الطمأنينة والأمن والسرور، وانصرفوا على عزم الرحيل كأن لم يجر شيء أصلاً. فانظر إلى هذا الحلم الذي لا يتأتى في مثل هذا الزمان ولا يحكى عمن تقدم من الملوك.

ذكر محافظته على أسباب المروءة

قال النبي صلّى الله عليه وسلّم: (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق). وكان صلّى الله عليه وسلّم إذا صافحه الرجل لا يترك يده حتى يكون الرجل هو التارك الذي يبدأ بذلك. ولقد كان السلطان كثير المروءة ندي اليد كثير الحياء مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف، لا يرى أن يفارقه الضيف حتى يطعم عنده ولا يخاطبه بشيء إلا وينجزه، وكان يكرم الوافد عليه وإن كان كافراً. ولقد وفد عليه البرنس، صاحب إنطاكية، فما أحس به إلا وهو واقف على باب خيمته، بعد وقوع الصلح في شهر شوال سنة ثمان وثمانين وخمس مائة (تشرين الثاني/نوفمبر 1192) عند منصرفه من القدس إلى دمشق، عرض له في الطريق وطلب منه شيئاً، فأعطاه العمق، وهي بلاد كان أخذها منه عام فتح الساحل وهو سنة أربع وثمانين (1188 1189). ولقد رأيته وقد دخل عليه صاحب صيدا بالناصرة فاحترمه وأكرمه وأكل معه الطعام، ومع ذلك عرض عليه الإسلام، فذكر له طرفاً من محاسنه وحثه عليه.

وكان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار، وكان يوصينا بأن لا نغفل عمن يجتاز بالخيم من المشايخ[1] المعروفين حتى يحضرهم عنده وينالهم من إحسانه.

---

(1) من مشايخ الفرق الصوفية أو غيرهم من الثقاة المسنين المعروفين بالفضل والصلاح

ولقد مر بنا سنة أربع وثمانين وخمس مائة رجل جمع بين العلم والتصوف، وكان من ذوي الأقدار وأبوه صاحب تبريز فأعرض هو عن فن أبيه واشتغل بالعلم والعمل وحج ووصل زائراً لبيت الله المقدس، ولما قضى لبانته منه ورأى آثار السلطان رحمه الله فيه وقع له زيارته، فوصل إلينا إلى المعسكر المنصور، فما أحسست به إلا وقد دخل علي في الخيمة، فلقيته ورحبت به وسألته عن سبب ذلك ووصوله فأخبرني بذلك، وأنه يؤثر زيارة السلطان لما رأى له من الآثار الحميدة الجميلة. فعرفت السلطان بذلك في ليلة وصول هذا الرجل فاستحضره، وروى عنه حديثاً، ثم انصرفنا وبات عندي في الخيمة، فلما صليت الصبح أخذ يودعني، فقبحت له المسير بدون وداع السلطان، فلم يلتفت ولم يلو على ذلك، وقال "قد قضيت حاجتي منه ولا عرض لي فيما عدا رؤيته وزيارته"، وانصرف من ساعته. ومضى على ذلك ليال فسأل السلطان عنه فأخبرته بفعله، فظهر عليه آثار الغضب كيف لم أخبره برواحه، وقال "كيف يطرقنا مثل هذا الرجل وينصرف عنا من غير إحسان يمسه منا"، وشدد النكير علي في ذلك. فما وجدت بداً من أن أكتب كتاباً إلى محيي الدين قاضي دمشق كلفته فيه السؤال عن حال الرجل، وإيصال رقعة كتبتها إليه طي كتابي، أخبره فيها بإنكار السلطان رواحه من غير اجتماعه به، وحسنت له فيها العود، وكان بيني وبينه صداقة تقتضي مثل ذلك، فما أحسست به إلا وقد عاد إلي، فرحب به السلطان، وانبسط معه وأمسكه أياماً، ثم خلع عليه خلعة حسنة، وأعطاه مركباً لائقاً وثياباً كثيرة يحملها إلى بنيه وأتباعه وجيرانه، وانصرف عنه وهو أشكر الناس وأخلصهم دعاءً لأيامه.

ولقد رأيته وقد مثل بين يديه أسير إفرنجي قد أصابه كرب، بحيث أنه ظهرت عليه أمارات الخوف والجزع. فقال للترجمان "من أي شيء يخاف"، فأجرى الله على لسانه أن قال "كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه أيقنت أنه ما أرى إلا الخير". فرقّ له، ومنّ عليه، وأطلقه. ولقد كنت راكباً في خدمته في بعض الأيام قبالة الإفرنج وقد وصل بعض اليزكية، ومعه امرأة شديدة التخوف كثيرة البكاء متواترة الدق على صدرها. قال اليزكي "إن هذه خرجت من عند الإفرنج، فسألت الحضور بين يديك وقد أتينا

بها"، فأمر الترجمان أن يسألها عن قصتها، فقالت "اللصوص المسلمون دخلوا البارحة إلى خيمتي وسرقوا ابنتي وبت البارحة أستغيث إلى بكرة النهار"، فقال لي المملوك "السلطان هو أرحم ونحن نخرجك إليه تطلبين ابنتك منه"، فأخرجوني إليك وما أعرف ابنتي إلا منك". فرقّ لها ودمعت عينه وحركته مروءته وأمر من ذهب إلى سوق العسكر يسأل عن الصغيرة، من اشتراها، ويدفع له ثمنها ويحضرها، وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه، فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه. فما كان إلا أن وقع نظرها عليها فخرت إلى الأرض تعفر وجهها في التراب، والناس يبكون على ما نالها وهي ترفع طرفها إلى السماء ولا نعلم ما تقول فسلمت ابنتها إليها، وحملت حتى أعيدت إلى عسكرهم.

وكان لا يرى الإساءة إلى من صحبه وإن أفرط في الخيانة ولقد أبدل في خزائنه كيسان من الذهب المصري بكيسين من الفلوس فما عمل بالنواب شيئاً سوى أن صرفهم من عملهم لا غير.

ولقد دخل البرنس أرناط صاحب الكرك[1] مع ملك الإفرنج بالساحل لما أسرهما في وقعة حطين في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (1187) والواقعة مشهورة تجيء مشروحة في موضعها[2] إن شاء الله تعالى، وكان قد أمر بإحضارهما، وكان أرناط هذا اللعين كافراً عظيماً جباراً شديداً وكانت قد اجتازت به قافلة من مصر، حين كان بين المسلمين وبينهم هدنة، فغدرها وأخذها ونكل بهم وعذبهم وأسكنهم المطامير والحبوس الحرجة، وذكروا له حديث الهدنة فقال "قولوا لمحمدكم يخلصكم"، فلما بلغه -رحمه الله- ذلك عنه نذر أنه متى أظفره الله به قتله بنفسه. فلما أمكنه الله منه في ذلك اليوم قوي عزمه على قتله وفاءً بنذره، فأحضره مع الملك، فشكا الملك العطش، فأحضر له قدحاً من شراب، فشرب منه ثم ناوله أرناط، فقال السلطان للترجمان "قل للملك أنت الذي سقيته وأما أنا فما أسقيه من شرابي ولا أطعمه من طعامي"، فقصد - رحمه الله - أن من أكل من طعامي فالمروءة تقتضي أن لا أؤذيه، ثم ضرب عنقه بيده وفاءً بنذره. وأخذ عكا،

---

(1) Renaud de Chatillon

(2) توجد هذه القصة المأساوية حتى في اخبار تاريخ حطين

وأخرج الأسرى كلهم من ضيق الأسر، وكانوا زهاء أربعة آلاف أسير، وأعطى كل واحد منهم نفقة يصل بها إلى بلده وأهله. هكذا بلغني على ألسنة جماعة، لأني لم أحضر هذه الواقعة.

وكان حسن العشرة لطيف الأخلاق طيب الفكاهة حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم عارفاً بسيرهم وأحوالهم حافظاً لأنساب خيلهم عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها بحيث كان يستفيد محاضره منه ما لا يسمع من غيره. وكان حسن الخلق يسأل الواحد منا عن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه وتقلبات أحواله. وكان طاهر المجلس لا يذكر بين يديه أحد إلا بخير السمع، فلا يحب أن يسمع عن أحد إلا الخير، وطاهر اللسان فما رأيته ولع بشتم قط، وكان حسن العهد والوفاء فما أحضر بين يديه يتيم إلا وترحم على مخلفيه وجبر قلبه وأعطاه خبز أبيه[1]، وإن كان له من أهله كبير يعتمد عليه سلمه إياه، وإلا أبقى له من الخبز ما يكف حاجته، وسلمه إلى من يعتني بتربيته ويكفلها. وكان لا يرى شيخاً إلا ويرق له ويعطيه ويحسن إليه ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفاه الله إلى مقر رحمته ومكان رضوانه.

فهذه نبذ من محاسن أخلاقه ومكارم شيمه، اقتصرت عليها خوف الإطالة والسآمة وما سطرت إلا ما شاهدته أو أخبرني الثقة به وحققته وهذا بعض ما اطلعت عليه في زمان خدمتي له وهو يسير فيما اطلع عليه غيري ممن طالت صحبته وتقدمت خدمته ولكن هذا القدر يكفي الأديب في الاستدلال على طهارة تلك الأخلاق والخلال.

---

(1) أي أنه كان يخصص له كلاً أو قسم مما كان مخصصاً لأبيه إذا كان هذا موظفاً عسكرياً أو مدنياً.

- 2 -

من المعروف أن 1187/583 كان عام النصر الذي توج الحملات الاسلامية التي قادها صلاح الدين. فبعد انتصارات حطين المدوية، والتي بدا أنها حطمت قوى الصليبيين في الأراضي المقدسة، بدأت تتساقط كثير من مراكزهم الساحلية، ثم حدثت الخسارة الكبيرة التي اصابت العالم المسيحي برجوع القدس للمسلمين واستسلامها بطريقة سطعت فيها انسانية السلطان الايوبي وحكمة تدبيره. سيرشدنا في رواية هذه الاحداث كل من عماد الدين وابن الاثير (أما بهاء الدين فقد كان شاهد عيان منذ عام 1188 فقط)؛ وسنستشهد بالمصدرين السابقين لرواية وقائع حطين واستسلام القدس، على أنه من المفيد مقارنتهما ببعضهما من نواحي الشكل والمضمون، إذ أن اعتدال ابن الأثير ووضوح روايته ورصانتها جعلتنا نقدمها على الرواية المطرزة المتعبة التي كتبها عماد الدين، مع أن هذا هو شاهدٌ أقوى لأنه عاش عن قرب الوقائع المروية.

وقائع حطين

(ابن الأثير، 11/347-351)

ذِكْرُ اخْتِلَافِ الْفِرِنْجِ بِالشَّامِ، وَانْحِيَازِ الْقُمُّصِ صَاحِبِ طَرَابُلُسَ إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ

كَانَ الْقُمُّصُ، صَاحِبُ طَرَابُلُسَ، وَاسْمُهُ رِيمُنْدُ بْنُ رِيمُنْدَ الصَّنْجِيلِيُّ[1]، قَدْ تَزَوَّجَ بِالْقُومِصَةِ، صَاحِبَةِ طَبَرِيَّةَ[2]، وَانْتَقَلَ إِلَيْهَا، وَأَقَامَ عِنْدَهَا بِطَبَرِيَّةَ. وَمَاتَ مَلِكُ الْفِرِنْجِ بِالشَّامِ، وَكَانَ مَجْذُومًا[3]، وَأَوْصَى بِالْمُلْكِ إِلَى ابْنِ أُخْتٍ لَهُ، وَكَانَ

---

(1) الكونت ريمند الثالث- of Saint Gilles

(2) الكونتس Echive

(3) بالدوين الرابع (1174-1185)

صَغِيرًا[1]، فَكَفَلَهُ الْقُمُّصُ، وَقَامَ بِسِيَاسَةِ الْمُلْكِ وَتَدْبِيرِهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِلْفِرِنْجِ ذَلِكَ الْوَقْتَ أَكْبَرُ مِنْهُ شَأْنًا، وَلَا أَشْجَعُ رَأْيًا مِنْهُ، فَطَمِعَ فِي الْمُلْكِ بِسَبَبِ هَذَا الصَّغِيرِ، فَاتَّفَقَ أَنَّ الصَّغِيرَ تُوُفِّيَ، فَانْتَقَلَ الْمُلْكُ إِلَى أُمِّهِ، فَبَطَلَ مَا كَانَ الْقُمُّصُ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ [بِهِ]. ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْمَلِكَةَ[2] هَوِيَتْ رَجُلًا مِنَ الْفِرِنْجِ الَّذِينَ قَدِمُوا الشَّامَ مِنَ الْغَرْبِ اسْمُهُ كِي، فَتَزَوَّجَتْهُ، وَنَقَلَتِ الْمُلْكَ إِلَيْهِ، وَجَعَلَتِ التَّاجَ عَلَى رَأْسِهِ، وَأَحْضَرَتِ الْبَطْرَكَ، وَالْقُسُوسَ، وَالرُّهْبَانَ، وَالْإِسْبِتَارِيَّةَ، وَالدَّاوِيَّةَ، وَالْبَارُونِيَّةَ، وَأَعْلَمَتْهُمْ أَنَّهَا قَدْ رَدَّتِ الْمُلْكَ إِلَيْهِ، وَأَشْهَدَتْهُمْ عَلَيْهَا بِذَلِكَ، فَأَطَاعُوهُ، وَدَانُوا لَهُ. فَعَظُمَ ذَلِكَ عَلَى الْقُمُّصِ، وَسُقِطَ فِي يَدَيْهِ، وَطُولِبَ بِحِسَابِ مَا جَبَى مِنَ الْأَمْوَالِ مُدَّةَ وِلَايَةِ ذَلِكَ الصَّبِيِّ، فَادَّعَى أَنَّهُ أَنْفَقَهُ عَلَيْهِ، وَزَادَهُ ذَلِكَ نُفُورًا، وَجَاهَرَ بِالْمُشَاقَّةِ وَالْمُبَايَنَةِ، وَرَاسَلَ صَلَاحَ الدِّينِ، وَانْتَمَى إِلَيْهِ، وَاعْتَضَدَ بِهِ، وَطَلَبَ مِنْهُ الْمُسَاعَدَةَ عَلَى بُلُوغِ غَرَضِهِ مِنَ الْفِرِنْجِ. فَفَرِحَ صَلَاحُ الدِّينِ وَالْمُسْلِمُونَ بِذَلِكَ، وَوَعَدَهُ النُّصْرَةَ، وَالسَّعْيَ لَهُ فِي كُلِّ مَا يُرِيدُ، وَضَمِنَ لَهُ أَنَّهُ يَجْعَلُهُ مَلِكًا مُسْتَقِلًّا لِلْفِرِنْجِ قَاطِبَةً، وَكَانَ عِنْدَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ فُرْسَانِ الْقُمُّصِ أَسْرَى فَأَطْلَقَهُمْ. فَحَلَّ ذَلِكَ عِنْدَهُ أَعْظَمَ مَحَلٍّ، وَأَظْهَرَ طَاعَةَ صَلَاحِ الدِّينِ، وَوَافَقَهُ عَلَى مَا فَعَلَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْفِرِنْجِ، فَاخْتَلَفَتْ كَلِمَتُهُمْ وَتَفَرَّقَ شَمْلُهُمْ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الْمُوجِبَةِ لِفَتْحِ بِلَادِهِمْ، وَاسْتِنْقَاذِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ مِنْهُمْ، عَلَى مَا نَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَسَيَّرَ صَلَاحُ الدِّينِ السَّرَايَا نَاحِيَةَ طَبَرِيَّةَ، فَشَنَّتِ الْغَارَاتِ عَلَى بِلَادِ الْفِرِنْجِ، وَخَرَجَتْ سَالِمَةً غَانِمَةً، فَوَهَنَ الْفِرِنْجُ بِذَلِكَ، وَضَعُفُوا وَتَجَرَّأَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِمْ، وَطَمِعُوا فِيهِمْ.

ذِكْرُ غَدْرِ الْبِرِنْسِ أَرْنَاطَ

كَانَ الْبِرِنْسُ أَرْنَاطُ، صَاحِبُ الْكَرَكِ[3]، مِنْ أَعْظَمِ الْفِرِنْجِ وَأَخْبَثِهِمْ، وَأَشَدِّهِمْ عَدَاوَةً لِلْمُسْلِمِينَ، وَأَعْظَمِهِمْ ضَرَرًا عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا رَأَى صَلَاحُ الدِّينِ ذَلِكَ مِنْهُ قَصَدَهُ

---

(1) بالدوين الخامس، مات في 1186 بعد عدة أشهر من توليه الملك إسمياً

(2) Sibilla اخت بالدوين الرابع وام بالدوين الخامس وزوجة ثانية لغويدو دي لوزينيانو Guido di Lusignano

(3) كرك معاب في شرق الاردن وكانت تشرف على طرق تصل بين مصر وسورية كما بين سورية والحجاز.

بِالْحَصْرِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، وَبِالْغَارَةِ عَلَى بِلَادِهِ كَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، فَذَلَّ، وَخَضَعَ، وَطَلَبَ الصُّلْحَ مِنْ صَلَاحِ الدِّينِ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ، وَهَادَنَهُ وَتَحَالَفَا، وَتَرَدَّدَتِ الْقَوَافِلُ مِنَ الشَّامِ إِلَى مِصْرَ، وَمِنْ مِصْرَ إِلَى الشَّامِ.

فَلَمَّا كَانَ هَذِهِ السَّنَةُ (1186/582–1187) اجْتَازَ بِهِ قَافِلَةٌ عَظِيمَةٌ غَزِيرَةُ الْأَمْوَالِ، كَثِيرَةُ الرِّجَالِ، وَمَعَهَا جَمَاعَةٌ صَالِحَةٌ مِنَ الْأَجْنَادِ، فَغَدَرَ اللَّعِينُ بِهِمْ، وَأَخَذَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ، وَغَنِمَ أَمْوَالَهُمْ وَدَوَابَّهُمْ وَسِلَاحَهُمْ، وَأَوْدَعَ السُّجُونَ مَنْ أَسَرَهُ مِنْهُمْ. فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ صَلَاحُ الدِّينِ يَلُومُهُ، وَيُقَبِّحُ فِعْلَهُ وَغَدْرَهُ، وَيَتَهَدَّدُهُ إِنْ لَمْ يُطْلِقِ الْأَسْرَى وَالْأَمْوَالَ، فَلَمْ يُجِبْ إِلَى ذَلِكَ، وَأَصَرَّ عَلَى الِامْتِنَاعِ، فَنَذَرَ صَلَاحُ الدِّينِ نَذْرًا أَنْ يَقْتُلَهُ إِنْ ظَفِرَ [بِهِ]، فَكَانَ مَا نَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

ذِكْرُ حَصْرِ صَلَاحِ الدِّينِ الْكَرَكَ

فِي هَذِهِ السَّنَةِ (1187/583) كَتَبَ صَلَاحُ الدِّينِ إِلَى جَمِيعِ الْبِلَادِ يَسْتَنْفِرُ النَّاسَ لِلْجِهَادِ، وَكَتَبَ إِلَى الْمَوْصِلِ وَدِيَارِ الْجَزِيرَةِ وَإِرْبِلَ وَغَيْرِهَا مِنْ بِلَادِ الشَّرْقِ، وَإِلَى مِصْرَ وَسَائِرِ بِلَادِ الشَّامِ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الْجِهَادِ، وَيَحُثُّهُمْ عَلَيْهِ، وَيَأْمُرُهُمْ بِالتَّجَهُّزِ لَهُ بِغَايَةِ الْإِمْكَانِ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ دِمَشْقَ، أَوَاخِرَ الْمُحَرَّمِ (نيسان/ابريل 1187)، فِي عَسْكَرِهِ الْخَاصِّ، فَسَارَ إِلَى رَأْسِ الْمَاءِ، وَتَلَاحَقَتْ بِهِ الْعَسَاكِرُ الشَّامِيَّةُ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا جَعَلَ عَلَيْهِمْ وَلَدَهُ الْمَلِكَ الْأَفْضَلَ عَلِيًّا لِيَجْتَمِعَ إِلَيْهِ مَنْ يَرِدُ إِلَيْهِ مِنْهَا، وَسَارَ هُوَ إِلَى بُصْرَى، جَرِيدَةً. وَكَانَ سَبَبُ مَسِيرِهِ وَقَصْدِهِ إِلَيْهَا أَنَّهُ أَتَتْهُ الْأَخْبَارُ أَنَّ الْبِرِنْسَ أَرْنَاطَ، صَاحِبَ الْكَرَكِ، يُرِيدُ أَنْ يَقْصِدَ الْحُجَّاجَ لِيَأْخُذَهُمْ مِنْ طَرِيقِهِمْ، وَأَظْهَرَ أَنَّهُ إِذَا فَرَغَ مِنْ أَخْذِ الْحُجَّاجِ يَرْجِعُ إِلَى طَرِيقِ الْعَسْكَرِ الْمِصْرِيِّ يَصُدُّهُمْ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ، فَسَارَ إِلَى بُصْرَى لِيَمْنَعَ الْبِرِنْسَ أَرْنَاطَ مِنْ طَلَبِ الْحُجَّاجِ، وَيَلْزَمَ بَلَدَهُ خَوْفًا عَلَيْهِ.

وَكَانَ مِنَ الْحُجَّاجِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَقَارِبِهِ مِنْهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ لَاجِينَ، وَهُوَ ابْنُ أُخْتِ صَلَاحِ الدِّينِ، وَغَيْرُهُ، فَلَمَّا سَمِعَ أَرْنَاطُ بِقُرْبِ صَلَاحِ الدِّينِ مِنْ بَلَدِهِ لَمْ يُفَارِقْهُ، وَانْقَطَعَ عَمَّا طَمِعَ فِيهِ، فَوَصَلَ الْحُجَّاجُ سَالِمِينَ. فَلَمَّا وَصَلُوا وَفَرَغَ سِرُّهُ مِنْ جِهَتِهِمْ سَارَ إِلَى الْكَرَكِ فَحَصَرَهُ وَضَيَّقَ عَلَيْهِ وَانْتَظَرَ وُصُولَ الْعَسْكَرِ الْمِصْرِيِّ، فَوَصَلُوا

إِلَيْهِ عَلَى الْكَرَكِ، وَبَثَّ سَرَايَاهُ مِنْ هُنَاكَ عَلَى وِلَايَةِ الْكَرَكِ وَالشَّوْبَكِ وَغَيْرِهِمَا، فَنَهَبُوا وَخَرَّبُوا وَأَحْرَقُوا، وَالْبِرِنْسُ مَحْصُورٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْمَنْعِ عَنْ بَلَدِهِ.

وَسَائِرُ الْفِرِنْجِ قَدْ لَزِمُوا طَرَفَ بِلَادِهِمْ، خَوْفًا مِنَ الْعَسْكَرِ الَّذِي مَعَ وَلَدِهِ الْأَفْضَلِ، فَتَمَكَّنَ مِنَ الْحَصْرِ وَالنَّهْبِ وَالتَّحْرِيقِ وَالتَّخْرِيبِ، هَذَا فِعْلُ صَلَاحِ الدِّينِ.

ذِكْرُ الْغَارَةِ عَلَى بَلَدِ عَكَّا

أَرْسَلَ صَلَاحُ الدِّينِ إِلَى وَلَدِهِ الْأَفْضَلِ يَأْمُرُهُ أَنْ يُرْسِلَ قِطْعَةً صَالِحَةً مِنَ الْجَيْشِ إِلَى بَلَدِ عَكَّا يَنْهَبُونَهُ وَيُخَرِّبُونَهُ، فَسَيَّرَ مُظَفَّرَ الدِّينِ كُوكُبُرِي بْنَ زَيْنِ الدِّينِ، وَهُوَ صَاحِبُ حَرَّانَ وَالرُّهَا، وَأَضَافَ إِلَيْهِ قَايْمَازَ النَّجْمِيَّ وَدِلْدِرِمَ الْيَارُوقِيَّ – وَهُمَا مِنْ أَكَابِرِ الْأُمَرَاءِ – وَغَيْرَهُمَا فَسَارُوا لَيْلًا، وَصَبَّحُوا صَفُّورِيَّةَ أَوَاخِرَ صَفَرٍ (1 أيار/مايو 1187). فَخَرَجَ إِلَيْهِمُ الْفِرِنْجُ فِي جَمْعٍ مِنَ الدَّاوِيَّةِ وَالْإِسْبِتَارِيَّةِ وَغَيْرِهِمَا، فَالْتَقَوْا هُنَاكَ، وَجَرَتْ بَيْنَهُمْ حَرْبٌ تَشِيبُ لَهَا الْمَفَارِقُ السُّودُ.

ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى نَصْرَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَانْهَزَمَ الْفِرِنْجُ، وَقُتِلَ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ، وَأُسِرَ الْبَاقُونَ، وَفِيمَنْ قُتِلَ مُقَدَّمُ الْإِسْبِتَارِيَّةِ[1]، وَكَانَ مِنْ فُرْسَانِ الْفِرِنْجِ الْمَشْهُورِينَ، وَلَهُ النِّكَايَاتُ الْعَظِيمَةُ فِي الْمُسْلِمِينَ، وَنَهَبَ الْمُسْلِمُونَ مَا جَاوَرَهُمْ مِنَ الْبِلَادِ، وَغَنِمُوا وَسَبَوْا، وَعَادُوا سَالِمِينَ، وَكَانَ عَوْدُهُمْ عَلَى طَبَرِيَّةَ، وَبِهَا الْقُمُّصُ، فَلَمْ يُنْكِرْ ذَلِكَ، فَكَانَ فَتْحًا كَثِيرًا، فَإِنَّ الدَّاوِيَّةَ وَالْإِسْبِتَارِيَّةَ هُمْ جَمْرَةُ الْفِرِنْجِ، وَسُيِّرَتِ الْبَشَائِرُ إِلَى الْبِلَادِ بِذَلِكَ.

ذِكْرُ عَوْدِ صَلَاحِ الدِّينِ إِلَى عَسْكَرِهِ وَدُخُولِهِ إِلَى الْفِرِنْجِ

لَمَّا أَتَتْ صَلَاحَ الدِّينِ الْبِشَارَةُ بِهَزِيمَةِ الْإِسْبِتَارِيَّةِ وَالدَّاوِيَّةِ، وَقَتْلِ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ، وَأَسْرِ مَنْ أُسِرَ، عَادَ عَنِ الْكَرَكِ إِلَى الْعَسْكَرِ الَّذِي مَعَ وَلَدِهِ الْمَلِكِ الْأَفْضَلِ، وَقَدْ تَلَاحَقَتْ سَائِرُ الْأَمْدَادِ وَالْعَسَاكِرِ، وَاجْتَمَعَ بِهِمْ، وَسَارُوا جَمِيعًا. وَعَرَضَ الْعَسْكَرَ، فَبَلَغَتْ عِدَّتُهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ فَارِسٍ مِمَّنْ لَهُ الْإِقْطَاعُ وَالْجَامَكِيَّةُ[2]، سِوَى

---

(1) Roger des Moulins

(2) امتيازات ورواتب عسكرية (ترجمة عن غابرييلي)

الْمُتَطَوِّعَةِ، فَعَبَّأَ عَسْكَرَهُ قَلْبًا وَجَنَاحَيْنِ، وَمَيْمَنَةً وَمَيْسَرَةً وَجَالِيشِيَّةً وَسَاقَةً، وَعَرَفَ كُلٌّ مِنْهُمْ مَوْضِعَهُ وَمَوْقِفَهُ، وَأَمَرَهُ بِمُلَازَمَتِهِ. وَسَارَ عَلَى تَعْبِيَةٍ، فَنَزَلَ بِالْأُقْحُوَانَةِ بِقُرْبِ طَبَرِيَّةَ، وَكَانَ الْقُمُّصُ قَدِ انْتَمَى إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ، كَمَا ذَكَرْنَا، وَكُتُبُهُ مُتَّصِلَةٌ إِلَيْهِ يَعِدُهُ النُّصْرَةَ، وَيُمَنِّيهِ الْمُعَاضَدَةَ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا.[1] فَلَمَّا رَأَى الْفِرِنْجُ اجْتِمَاعَ الْعَسَاكِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَتَصْمِيمَ الْعَزْمِ عَلَى قَصْدِ بِلَادِهِمْ، أَرْسَلُوا إِلَى الْقُمُّصِ الْبَطْرَكَ وَالْقُسُوسَ وَالرُّهْبَانَ، وَكَثِيرًا مِنَ الْفُرْسَانِ، فَأَنْكَرُوا عَلَيْهِ انْتِمَاءَهُ إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ، وَقَالُوا لَهُ: لَا شَكَّ أَنَّكَ أَسْلَمْتَ، وَإِلَّا لَمْ تَصْبِرْ عَلَى مَا فَعَلَ الْمُسْلِمُونَ أَمْسِ بِالْفِرِنْجِ، يَقْتُلُونَ الدَّاوِيَّةَ وَالْإِسْبِتَارِيَّةَ، وَيَأْسِرُونَهُمْ، وَيَجْتَازُونَ بِهِمْ عَلَيْكَ، وَأَنْتَ لَا تُنْكِرُ ذَلِكَ وَلَا تَمْنَعُ عَنْهُ. وَوَافَقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ مَنْ عِنْدَهُ مِنْ عَسْكَرِ طَبَرِيَّةَ وَطَرَابُلُسَ، وَتَهَدَّدَهُ الْبَطْرَكُ أَنَّهُ يُحْرِمُهُ، وَيَفْسَخُ نِكَاحَ زَوْجَتِهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ التَّهْدِيدِ. فَلَمَّا رَأَى الْقُمُّصُ شِدَّةَ الْأَمْرِ عَلَيْهِ خَافَ، فَاعْتَذَرَ وَتَنَصَّلَ وَتَابَ، فَقَبِلُوا عُذْرَهُ، وَغَفَرُوا زَلَّتَهُ، وَطَلَبُوا مِنْهُ الْمُوَافَقَةَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَالْمُوَازَرَةَ عَلَى حِفْظِ بِلَادِهِمْ، فَأَجَابَهُمْ إِلَى الْمُصَالَحَةِ وَالِانْضِمَامِ إِلَيْهِمْ، وَالِاجْتِمَاعِ مَعَهُمْ. وَسَارَ مَعَهُمْ إِلَى مَلِكِ الْفِرِنْجِ، وَاجْتَمَعَتْ كَلِمَتُهُمْ بَعْدَ فُرْقَتِهِمْ، وَلَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَجَمَعُوا فَارِسَهُمْ وَرَاجِلَهُمْ، ثُمَّ سَارُوا مِنْ عَكَّا إِلَى صَفُّورِيَّةَ، وَهُمْ يُقَدِّمُونَ رِجْلًا وَيُؤَخِّرُونَ أُخْرَى، قَدْ مُلِئَتْ قُلُوبُهُمْ رُعْبًا.

معركة حطين

(ابن الأثير، 11/355-351)

ذِكْرُ فَتْحِ صَلَاحِ الدِّينِ طَبَرِيَّةَ

لَمَّا اجْتَمَعَ الْفِرِنْجُ وَسَارُوا إِلَى صَفُّورِيَّةَ، جَمَعَ صَلَاحُ الدِّينِ أُمَرَاءَهُ وَوُزَرَاءَهُ وَاسْتَشَارَهُمْ، فَأَشَارَ أَكْثَرُهُمْ عَلَيْهِ بِتَرْكِ اللِّقَاءِ وَأَنْ يُضْعِفَ الْفِرِنْجَ بِشَنِّ الْغَارَاتِ،

(1) قرآن (كريم) الآية 120 سورة 4 (النساء)، والآية ترد في سورة أخرى، إلا أن غابرييلي ذكر الآية 19 من السورة السادسة، وهذا خطأ.

وَإِخْرَابِ الْوِلَايَاتِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ. فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أُمَرَائِهِ: الرَّأْيُ عِنْدِي أَنَّنَا نَجُوسُ بِلَادَهُمْ، وَنَنْهَبُ، وَنُخَرِّبُ، وَنُحَرِّقُ، وَنَسْبِي، فَإِنْ وَقَفَ أَحَدٌ مِنَ الْعَسْكَرِ الْفِرِنْجِ بَيْنَ أَيْدِينَا لَقِينَاهُ، فَإِنَّ النَّاسَ بِالْمَشْرِقِ يَلْعَنُونَنَا وَيَقُولُونَ تَرَكَ قِتَالَ الْكُفَّارِ، وَأَقْبَلَ يُرِيدُ قِتَالَ الْمُسْلِمِينَ، الرَّأْيُ أَنْ نَفْعَلَ فِعْلًا نُعْذَرُ فِيهِ وَنَكُفُّ الْأَلْسِنَةَ عَنَّا. فَقَالَ صَلَاحُ الدِّينِ: الرَّأْيُ عِنْدِي أَنْ نَلْقَى بِجَمْعِ الْمُسْلِمِينَ جَمْعَ الْكُفَّارِ، فَإِنَّ الْأُمُورَ لَا تَجْرِي بِحُكْمِ الْإِنْسَانِ، وَلَا نَعْلَمُ قَدْرَ الْبَاقِي مِنْ أَعْمَارِنَا، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ نُفَرِّقَ هَذَا الْجَمْعَ إِلَّا بَعْدَ الْجِدِّ بِالْجِهَادِ. ثُمَّ رَحَلَ مِنَ الْأُقْحُوَانَةِ الْيَوْمَ الْخَامِسَ مِنْ نُزُولِهِ بِهَا، وَهُوَ يَوْمُ الْخَمِيسِ لِسَبْعٍ بَقِينَ مِنْ رَبِيعٍ الْآخِرِ (2 تموز/يوليه 1187)، فَسَارَ حَتَّى خَلَّفَ طَبَرِيَّةَ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَصَعِدَ جَبَلَهَا، وَتَقَدَّمَ حَتَّى قَارَبَ الْفِرِنْجَ، فَلَمْ يَرَ مِنْهُمْ أَحَدًا، وَلَا فَارَقُوا خِيَامَهُمْ، فَنَزَلَ وَأَمَرَ الْعَسْكَرَ بِالنُّزُولِ.

فَلَمَّا جَنَّهُ اللَّيْلُ جَعَلَ فِي مُقَابِلِ الْفِرِنْجِ مَنْ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْقِتَالِ، وَنَزَلَ جَرِيدَةً إِلَى طَبَرِيَّةَ وَقَاتَلَهَا، وَنَقَبَ بَعْضَ أَبْرَاجِهَا، وَأَخَذَ الْمَدِينَةَ عَنْوَةً فِي لَيْلَةٍ، وَلَجَأَ مَنْ بِهَا إِلَى الْقَلْعَةِ الَّتِي لَهَا: فَامْتَنَعُوا بِهَا، وَفِيهَا صَاحِبَتُهَا، وَمَعَهَا أَوْلَادُهَا، فَنَهَبَ الْمَدِينَةَ وَأَحْرَقَهَا.

فَلَمَّا سَمِعَ الْفِرِنْجُ نُزُولَ صَلَاحِ الدِّينِ إِلَى طَبَرِيَّةَ وَمِلْكَهُ الْمَدِينَةَ، وَأَخْذَ مَا فِيهَا، وَإِحْرَاقَهَا، وَإِحْرَاقَ مَا تَخَلَّفَ مِمَّا لَا يُحْمَلُ، اجْتَمَعُوا لِلْمَشُورَةِ، فَأَشَارَ بَعْضُهُمْ بِالتَّقَدُّمِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ وَقِتَالِهِمْ، وَمَنْعِهِمْ عَنْ طَبَرِيَّةَ. فَقَالَ الْقُمُّصُ: إِنَّ طَبَرِيَّةَ لِي وَلِزَوْجَتِي، وَقَدْ فَعَلَ صَلَاحُ الدِّينِ بِالْمَدِينَةِ مَا فَعَلَ، وَبَقِيَ الْقَلْعَةُ، وَفِيهَا زَوْجَتِي، وَقَدْ رَضِيتُ أَنْ يَأْخُذَ الْقَلْعَةَ وَزَوْجَتِي وَمَا لَنَا بِهَا وَيَعُودَ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَسَاكِرَ الْإِسْلَامِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا مَا رَأَيْتُ مِثْلَ هَذَا الْعَسْكَرِ الَّذِي مَعَ صَلَاحِ الدِّينِ كَثْرَةً وَقُوَّةً، وَإِذَا أَخَذَ طَبَرِيَّةَ لَا يُمْكِنُهُ الْمُقَامُ بِهَا، فَمَتَى فَارَقَهَا وَعَادَ عَنْهَا أَخَذْنَاهَا، وَإِنْ أَقَامَ بِهَا لَا يَقْدِرُ عَلَى الْمُقَامِ بِهَا إِلَّا بِجَمِيعِ عَسَاكِرِهِ، وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى الصَّبْرِ طُولَ الزَّمَانِ عَنْ أَوْطَانِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ فَيُضْطَرُّ إِلَى تَرْكِهَا، وَنَفْتَكُّ مَنْ أُسِرَ مِنَّا. فَقَالَ لَهُ بِرِنْسُ أَرْنَاطُ، صَاحِبُ الْكَرَكِ: قَدْ أَطَلْتَ فِي التَّخْوِيفِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا شَكَّ أَنَّكَ تُرِيدُهُمْ، وَتَمِيلُ إِلَيْهِمْ، وَإِلَّا مَا كُنْتَ تَقُولُ هَذَا، وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّهُمْ كَثِيرُونَ، فَإِنَّ النَّارَ لَا يَضُرُّهَا كَثْرَةُ الْحَطَبِ. فَقَالَ: أَنَا وَاحِدٌ مِنْكُمْ إِنْ تَقَدَّمْتُمْ تَقَدَّمْتُ، وَإِنْ تَأَخَّرْتُمْ تَأَخَّرْتُ،

وستزون ما يكون. فقوي عزمهم على التقدم إلى المسلمين وقتالهم، فرحلوا من معسكرهم الذي لزموه، وقربوا من عساكر الإسلام، فلما سمع صلاح الدين بذلك عاد عن طبرية إلى عسكره، وكان قريبا منه، وإنما كان قصده بمحاصرة طبرية أن يفارق الفرنج مكانهم ليتمكن من قتالهم. وكان المسلمون قد نزلوا على الماء، والزمان قيظ شديد الحر، فوجد الفرنج العطش، ولم يتمكنوا من الوصول إلى ذلك الماء من المسلمين، وكانوا قد أفنوا ما هناك من ماء الصهاريج ولم يتمكنوا من الرجوع خوفا من المسلمين، فبقوا على حالهم إلى الغد، وهو يوم السبت، وقد أخذ العطش منهم. وأما المسلمون فإنهم فيهم، وكانوا من قبل يخافونهم، فباتوا يحرض بعضهم بعضا، وقد وجدوا ريح النصر والظفر، وكلما رأوا حال الفرنج خلاف عادتهم مما ركبهم من الخذلان، زاد طمعهم وجرأتهم، فأكثروا التكبير والتهليل طول ليلتهم، ورتب السلطان تلك الليلة الجاليشية[1]، وفرق فيهم النشاب.

ذكر انهزام الفرنج بحطين

أصبح صلاح الدين والمسلمون يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر (4 تموز/يوليه 1187)، فركبوا وتقدموا إلى الفرنج، ودنا بعضهم من بعض، إلا أن الفرنج قد اشتد بهم العطش وانخذلوا، فاقتتلوا، واشتد القتال، وصبر الفريقان، ورمى جاليشية المسلمين من النشاب ما كان كالجراد المنتشر، فقتلوا من خيول الفرنج كثيرا. هذا القتال بينهم، والفرنج قد جمعوا نفوسهم براجلهم وهم يقاتلون سائرين، نحو طبرية، لعلهم يردون الماء. فلما علم صلاح الدين مقصدهم صدهم عن مرادهم، ووقف بالعسكر في وجوههم، وطاف بنفسه على المسلمين يحرضهم ويأمرهم بما يصلحهم وينهاهم عما يضرهم، والناس يأتمرون لقوله ويقفون عند نهيه، فحمل مملوك من مماليكه الصبيان حملة منكرة على صف الفرنج، فقاتل قتالا عجب منه الناس، ثم تكاثر الفرنج عليه فقتلوه. فحين قتل حمل المسلمون حملة منكرة ضعضعوا الكفار، وقتل منهم كثيرا، فلما رأى القمص شدة الأمر، علم

(1) طلائع النشابين (ترجمة عن غابرييلي)

أنهم لاطاقة لهم بالمسلمين، فاتفق هو وجماعتُهُ وحملُوا على مَنْ يَليهِمْ، وكَانَ الْمُقدّمُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فِي تِلْكَ النَّاحِيَةِ، تَقِيُّ الدِّينِ عُمَرَ ابْنَ أَخِي صَلاحِ الدِّينِ، فَلَمَّا رَأَى حَمْلَةَ الْفِرِنْجِ حَمْلَةَ مَكْرُوبٍ، عَلِمَ أَنَّهُ لا سَبِيلَ إِلَى الْوُقُوفِ فِي وُجُوهِهِمْ. فَأَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَفْتَحُوا لَهُمْ طَرِيقًا يَخْرُجُونَ مِنْهُ.

وَكَانَ بَعْضُ الْمُتَطَوِّعَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ أَلْقَى فِي تِلْكَ الأَرْضِ نَارًا، وَكَانَ الْحَشِيشُ كَثِيرًا فَاحْتَرَقَ، وَكَانَتِ الرِّيحُ عَلَى الْفِرِنْجِ فَحَمَلَتْ حَرَّ النَّارِ وَالدُّخَانَ إِلَيْهِمْ، فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِمُ الْعَطَشُ، وَحَرُّ الزَّمَانِ، وَحَرُّ النَّارِ، وَالدُّخَانُ، وَحَرُّ الْقِتَالِ. فَلَمَّا انْهَزَمَ الْقُمُّصُ سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَكَانُوا يَسْتَسْلِمُونَ، ثُمَّ عَلِمُوا أَنَّهُمْ لا يُنْجِيهِمْ مِنَ الْمَوْتِ إِلا الإِقْدَامُ عَلَيْهِ، فَحَمَلُوا حَمَلاتٍ مُتَدَارِكَةً كَادُوا يُزِيلُونَ [بِهَا] الْمُسْلِمِينَ، عَلَى كَثْرَتِهِمْ، عَنْ مَوَاقِفِهِمْ لَوْلا لُطْفُ اللَّهِ بِهِمْ. إِلا أَنَّ الْفِرِنْجَ لا يَحْمِلُونَ حَمْلَةً فَيَرْجِعُونَ إِلا وَقَدْ قُتِلَ مِنْهُمْ، فَوَهَنُوا لِذَلِكَ وَهْنًا عَظِيمًا، فَأَحَاطَ بِهِمُ الْمُسْلِمُونَ إِحَاطَةَ الدَّائِرَةِ بِقُطْرِهَا، فَارْتَفَعَ مَنْ بَقِيَ مِنَ الْفِرِنْجِ إِلَى تَلٍّ بِنَاحِيَةِ حِطِّينَ، وَأَرَادُوا أَنْ يَنْصِبُوا خِيَامَهُمْ، وَيَحْمُوا نُفُوسَهُمْ بِهِ، فَاشْتَدَّ الْقِتَالُ عَلَيْهِمْ مِنْ سَائِرِ الْجِهَاتِ، وَمَنَعُوهُمْ عَمَّا أَرَادُوا، وَلَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ نَصْبِ خَيْمَةٍ غَيْرِ خَيْمَةِ مَلِكِهِمْ. وَأَخَذَ الْمُسْلِمُونَ صَلِيبَهُمُ الأَعْظَمَ الَّذِي يُسَمُّونَهُ صَلِيبَ الصَّلَبُوتِ، وَيَذْكُرُونَ أَنَّ فِيهِ قِطْعَةً مِنَ الْخَشَبَةِ الَّتِي صُلِبَ عَلَيْهَا الْمَسِيحُ[1] – عَلَيْهِ السَّلامُ – بِزَعْمِهِمْ، فَكَانَ أَخْذُهُ عِنْدَهُمْ مِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ عَلَيْهِمْ، وَأَيْقَنُوا بَعْدَهُ بِالْقَتْلِ وَالْهَلاكِ. هَذَا وَالْقَتْلُ وَالأَسْرُ يَعْمَلانِ فِي فُرْسَانِهِمْ وَرَجَّالَتِهِمْ، فَبَقِيَ الْمَلِكُ عَلَى التَّلِّ فِي مِقْدَارِ مِائَةٍ وَخَمْسِينَ فَارِسًا مِنَ الْفُرْسَانِ الْمَشْهُورِينَ وَالشُّجْعَانِ الْمَذْكُورِينَ.

---

(1) يقول القرآن (الكريم) إن الذي صُلب هو شخص آخر وليس شخص يسوع المسيح، وهذا يعكس (كذا) مذاهب دوسيتية Docetism (المترجم: جاء في موسوعة ويكيبيديا أن: "الدوسيتية هي مذهب مسيحي يتعلق بطبيعة المسيح الحقيقية. أصل الاسم عن فعل في اليونانية يعني "الظهور" أو "الظاهر". وبهذا فإن المذهب يعتقد أن آلام المسيح وطبيعته البشرية ليست إلا أموراً ظاهرية وغير حقيقية. وقد تطور المذهب بين أفراد الغنوصيين من أوائل المسيحيين الذين ثاروا ضد ما اعتبروه فضيحة الصليب، خاصة وأن بعضهم نظر فكرة أن المسيح لم يصلب لأن شخصاً آخر وضع محله على الصليب أو لأن حادثة صلب المسيح على الجلجلة كانت مجرد وهم. بل إن هؤلاء كانوا يعتقدون أن كل ما شوهد من حياة المسيح كان قائماً على وهم الآخرين. وقد وجد هذا المذهب عدة أصداء خلال تاريخ المسيحية عبر العصور وظهر تحت عدة مسميات ومذاهب).

فحكى لي عن الملكِ الأفضل – ولدِ صلاحِ الدّين – قال: "كُنْتُ إلى جانبِ أبي في تلك المصافّ، وهو أوّلُ مصافٍّ شاهدتُه، فلمّا صار ملكُ الفرنج على التلّ في تلك الجماعة حملوا حملةً منكرةً على مَنْ بإزائهم من المسلمين حتّى ألحقوهم بوالدي". قال: "فنظرْتُ إليه، وقد علتْه كآبةٌ، وارْبدَّ لونُه، وأمسك بلحيتِه، وتقدّم، وهو يصيحُ: كذبَ الشّيطانُ". قال: "فعادَ المسلمون على الفرنج، فرجعوا إلى التلّ، فلمّا رأيتُ الفرنجَ قد عادوا، والمسلمون يتبعونهم، صحْتُ من فرحي: هزمْناهُم! فعادَ الفرنجُ فحملوا حملةً ثانيةً مثلَ الأولى حتّى ألحقوا المسلمين بوالدي، وفعل مثْلَ ما فعلَ أوّلًا. وعطفَ المسلمون عليهم فألحقوهم بالتلّ، فصحْتُ أنا أيضًا: هزمْناهُم! فالتفتَ والدي إليّ وقال: "اسكُتْ! ما نهزِمُهم حتّى تسقُطَ تلك الخيمةُ". قال: "فهو يقولُ لي، وإذا الخيمةُ قد سقطت، فنزل السلطانُ وسجد شكرًا لله تعالى، وبكى من فرحِه". وكان سببُ سقوطِها أنّ الفرنج لمّا حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشًا، وقد كانوا يرجون الخلاصَ في بعضِ تلك الحملات ممّا هُم فيه، فلمّا لم يجدوا إلى الخلاص طريقًا، نزلوا عن دوابّهم وجلسوا على الأرضِ، فصعد المسلمون إليهم، فألقوا خيمةَ الملك، وأسروهم على بكرةِ أبيهم، وفيهم الملكُ[1] وأخوه، والبرنس أرناط، صاحبُ الكرك، ولم يكُنْ للفرنج أشدُّ منه عداوةً للمسلمين.

وأسروا أيضًا صاحبَ جُبَيْل، وابْنَ هنفري، ومقدّمَ الداويّة[2]، وكان من أعظمِ الفرنج شأنًا، وأسروا أيضًا جماعةً من الداويّة، وجماعةً من الإسبتاريّة، وكثُر القتلُ والأسْرُ فيهم، فكان من يرى القتلى لا يظنُّ أنّهم أسروا واحدًا، ومن يرى الأسرى لا يظنُّ أنّهم قتلوا أحدًا، وما أُصيبَ الفرنجُ، منذُ خرجوا إلى الساحلِ، وهو سنةَ إحدى وتسعين وأربعمائة (1098) إلى الآن، بمثلِ هذه الوقعة.

فلمّا فرغ المسلمون منهم نزل صلاحُ الدّين في خيمتِه، وأُحضِرَ ملكُ الفرنج عندَه، وبرنس صاحبُ الكرك، وأجلس الملكَ إلى جانبِه وقد أهلكَه العطشُ، فسقاه ماءً مثلوجًا، فشرب، وأعطى فضلَه برنس صاحبَ الكرك، فشرب. فقال صلاحُ الدّين: "إنّ هذا الملعونَ لم يشربِ الماءَ بإذني فينالَ أماني"، ثمّ كلّم البرنس،

---

(1) غريدو دي لوزينيانو

(2) المعلم الكبير Gerard de Ridefort

وَقَرَّعَهُ بِذُنُوبِهِ، وَعَدَّدَ عَلَيْهِ غَدَرَاتِهِ، وَقَامَ إِلَيْهِ بِنَفْسِهِ فَضَرَبَ رَقَبَتَهُ، وَقَالَ: "كُنْتُ نَذَرْتُ دَفْعَتَيْنِ أَنْ أَقْتُلَهُ إِنْ ظَفِرْتُ بِهِ: إِحْدَاهُمَا لَمَّا أَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَى مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَالثَّانِيَةُ لَمَّا أَخَذَ الْقَفَلَ غَدْرًا"، فَلَمَّا قَتَلَهُ وَسُحِبَ وَأُخْرِجَ ارْتَعَدَتْ فَرَائِصُ الْمَلِكِ، فَسَكَّنَ جَأْشَهُ وَأَمَّنَهُ. وَأَمَّا الْقُمَّصُ: صَاحِبُ طَرَابُلُسَ، فَإِنَّهُ لَمَّا نَجَا مِنَ الْمَعْرَكَةِ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ، وَصَلَ إِلَى صُورَ، ثُمَّ قَصَدَ طَرَابُلُسَ، وَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا أَيَّامًا قَلَائِلَ حَتَّى مَاتَ غَيْظًا وَحَنَقًا مِمَّا جَرَى عَلَى الْفِرِنْجِ خَاصَّةً، وَعَلَى دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ عَامَّةً.

ذِكْرُ عَوْدِ صَلَاحِ الدِّينِ إِلَى طَبَرِيَّةَ، وَمُلْكِ قَلْعَتِهَا مَعَ الْمَدِينَةِ

لَمَّا فَرَغَ صَلَاحُ الدِّينِ مِنْ هَزِيمَةِ الْفِرِنْجِ أَقَامَ بِمَوْضِعِهِ بَاقِيَ يَوْمِهِ، وَأَصْبَحَ يَوْمَ الْأَحَدِ، فَعَادَ إِلَى طَبَرِيَّةَ وَنَازَلَهَا، فَأَرْسَلَتْ صَاحِبَتُهَا تَطْلُبُ الْأَمَانَ لَهَا وَلِأَوْلَادِهَا وَأَصْحَابِهَا وَمَالِهَا، فَأَجَابَهَا إِلَى ذَلِكَ، فَخَرَجَتْ بِالْجَمِيعِ، فَوَفَّى لَهَا، فَسَارَتْ آمِنَةً، ثُمَّ أَمَرَ بِالْمَلِكِ وَجَمَاعَةٍ مِنْ أَعْيَانِ الْأَسْرَى فَأُرْسِلُوا إِلَى دِمَشْقَ، وَأَمَرَ بِمَنْ أُسِرَ مِنَ الدَّاوِيَّةِ وَالِاسْبِتَارِيَّةِ أَنْ يُجْمَعُوا لِيَقْتُلَهُمْ. ثُمَّ عَلِمَ أَنَّ مَنْ عِنْدَهُ أَسِيرٌ لَا يَسْمَحُ بِهِ لِمَا يَرْجُو مِنْ فِدَائِهِ، فَبَذَلَ فِي كُلِّ أَسِيرٍ مِنْ هَذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ خَمْسِينَ دِينَارًا مِصْرِيَّةً، فَأُحْضِرَ عِنْدَهُ فِي الْحَالِ مِائَتَا أَسِيرٍ مِنْهُمْ، فَأَمَرَ بِهِمْ فَضُرِبَتْ أَعْنَاقُهُمْ. وَإِنَّمَا خَصَّ هَؤُلَاءِ بِالْقَتْلِ لِأَنَّهُمْ أَشَدُّ شَوْكَةً مِنْ جَمِيعِ الْفِرِنْجِ، فَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِمْ، وَكَتَبَ إِلَى نَائِبِهِ بِدِمَشْقَ لِيَقْتُلَ مَنْ دَخَلَ الْبَلَدَ مِنْهُمْ سَوَاءٌ كَانَ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ، فَفَعَلَ ذَلِكَ، وَلَقَدِ اجْتَزْتُ بِمَوْضِعِ الْوَقْعَةِ بَعْدَهَا بِنَحْوِ سَنَةٍ، فَرَأَيْتُ الْأَرْضَ مَلْأَى مِنْ عِظَامِهِمْ تَبِينُ عَلَى الْبُعْدِ، مِنْهَا الْمُجْتَمِعُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَمِنْهَا الْمُفْتَرِقُ، هَذَا سِوَى مَا جَحَفَتْهُ السُّيُولُ، وَأَخَذَتْهُ السِّبَاعُ فِي تِلْكَ الْآكَامِ وَالْوِهَادِ

دخول السلطان صلاح الدين بالعسكر الى ديار الفرنج

(عماد الدين، 18-29)

أصبح بالمخيم عارضاً من المعسكر، لعارض ثجّاج، وبحر بالعجاج عجّاج، وخضمّ بالصواهل السوابح والمناصل والصفائح ذي أمواج. وقد رتّب أبطاله

واطلابه، وسحب على وجه الأرض سحابة، ونقل به من الثرى إلى الثريا ترابه، وإطار إلى النسر الواقع من الغبار غُرابه. وقد فضّ الفضاء ختام القتام، وشنّت للشدائد كتبٌ الكُبُت على خصام الجمام، وحنّت ضلوع الحنايا على أجنّة السهام، وتكفّلت العوجاء بالمعتدلة، وضمّت المنفلتة إلى المنفتلة، ووفت الأوتار بالأوتار، وثار كل طُلّب لطلب الثأر. ووقف السلطان يوم العرض يرتّب العسكر ترتيباً، ويبوّبه تبويباً، ويعبّئه بعيداً وقريباً. وقرّر لكل أمير أمراً، ولكل مقدام مقاماً، ولكل موفّق موقفاً، ولكل كمين مكاناً، ولكل قِرْن قِرناً، ولكل جمر مطفئاً، ولكل جمع مُكفئاً، ولكل زند مُورياً، ولكل حدّ مُمهياً، ولكل قضية حُكماً، ولكل حنيّة سهماً، ولكل يمين مِقْضباً، ولكل يمانٍ مُقْتضباً، ولكل ضامر مضماراً، ولكل مغوار مغاراً، ولكل رامٍ مُرتمى، ولكل نامٍ منتمى، ولكل سامٍ منتمى، ولكل اسم مُسمّى. وعيّن لكل أمير موقفاً في الميمنة والميسرة لا ينتقل عنه، ولا يغيب جمعه ولا يبرح أحد منه.

وأخرج الجاليشيّة الرُماة الكُماة من كل طُلّب، ووصّى كل حزب يقرّبه من حزب. وقال: "إذا دخلنا بلد العدو، فهذه هيأة عساكرنا، وصورة مواردنا ومصادرنا، ومواضع أطلابنا، ومطالع أبطالنا، ومصارع أسنّتنا، وشوارع أعنّتنا، وميادين جُرْدنا، وبساتين زُرْدنا، ومواقف صروفنا، ومصارف وقوفنا، ومرامي مرمانا، ومجالي مجالنا". وقوّى الآمال بما بذله من الأموال، وحقّق في إنجاز المواعد وإنجاح المقاصد رجاء الرجال. وجمع العُدد، وفرّق العُدد، ووهب الجياد وأجاد المواهب، ورغب في العطايا وأعطى الرغائب، ونثر الخزائن، ونثل الكنائن، وأنفق الذخائر، واستنفذ كرائمها والأخاير، وقسم أحمال النُشّاب، فتفرّق الناس منه بأكثر من ملءِ الجِعاب. وأجرى الجُرد وأجنى الأجناد، وأذكى المذاكي وأشهد الإشهاد، وأذال مَناقب المناقب، واستمال معاطف المعاطب، وقوى القواطع، وروّى الروائع. وعاد إلى المخيّم مسروراً محبوراً، مقبولاً مبروراً، موفوراً مشكوراً وقد رتّب وربّت وقنّب وكتّب وثبّت ونبّت، قد بزّ عمله، وأبرّ أمله، وفلج نشره، ولاح بشره، وتأرّج ريّاه[1]، وتبلّج محيّاه، وأيقن بالظفر وظفر باليقين، وأمن الى الدعوة المستدعية الى التامين، وتيمّن بأوضاح غراية المباسم، وإيضاح إعرابه في إقتضاء دَين الدِين.

---

(1) ترجمها غابرييلي (فاح عطره).

وأنس ببهجة الخيل ولهجة الخير، وسُرّ سره بما سُنّي له من وجه السير، وشدّ حُزُم الحَزم، وجدّ في العزم الجزم، وقدّم الإسراج للإسراء، وألجم الجراب للعراء، ورحل يوم الجمعة سابع عشر شهر ربيع الآخر (27 حزيران/يونية 1187م) التوفيق مسايرُه، والتأييد موازره، والتمكين مضافره، والسعد مظاهره، والجدّ مكاثره، واليُمن محاضره، والعزّ مسامره، والظفر مجاوره، والإسلام شاكره، والله عز وجلّ ناصره. وسارعلى الهيأة التي قدمنا ذكرها من المناقب المُقنبة، والكتائب المكتّبة، والمراتب المرتّبة، والمذاهب المهذّبة، والسلاهب المجنّبة، والصوائب المجعبة، والقواضب المقرّبة، والثعالب المُذربة، واللهاذم الهاذمة، والصلادم اللادمة، والضراغم الضاغمة. وخيّم على خسفين وقد أذن الله الخسف بالعدو وخسوفه، وكسف الكفر وكُسوفه، وبات والوجوه سافرة، والعيون في سبيل الله ساهرة، والأيدي لسيوف الأيد شاهرة، والألسن لأنعم الله شاكرة، والقلوب بالإخلاص عامرة، والأنفس للأنس مسامرة، والأقدام بالأقدار متظافرة متظاهرة. ثم أصبح سائراً ونزل على الأردن بثغر الأقحُوانة، بعزم الصيال وعزّ الصيانة، وأحاط ببحيرة طبريّة بحزه المحيط، وضاق ببسائط خيامه ذلك البسيط، وبرزت الأرض في قُشُب أثوابها، وتفتحت السماء لتنزل الملائكة من أبوابها، ورست سفن المضارب على تلك الأثباج، وطمّت الأطلاب أمواجاً على أمواج، وانعقدت سماء العجاج، وطلعت فيها أنجم الخرصان والزجاج، وأعاد الأقحوانة رياضاً نضرة، وحدائق مزهرة، من فرس ورْد، وفارس كالأسد الورْد، ومشرفيات كطاقات الرياحين، ويزنيات كأشجار البساتين، ورايات صفر تخفق بعذبات الياسمين، وألوية حمر كشقائق النعمان، وموضونة زُغف كالغُدران، ومصقولة بيض كالخُلجان، ومريشة زرق كالإطيار ومحْنية عُوج كالأفنان، وبيض تلمع كثغور الأقحوان، وخبب ترائك على بحور الدارعين، وعقبان صواهلّ تروق وتروع الناظرين والسامعين.

والفرنج قد صفّوا راياتهم بصفّورية، ولوّوا الألوية، ومدّوا على مدود الضوامر الزواخر قناطر القنطاريات، وأوقدوا في ظلام القتام الثائر سُرُج السُريجيّات، وصوبوا إلى صوب قَرا الأقران نبّات اليزنيات، وأحاطوا حول مراكزهم بدوائرهم، وحاطوا بوائرهم بوائرهم، وجمعوا الأوشاب والأوباش، ورتّبوا الجيش وثبّتوا الجأش،

وحشدوا الفارس والراجل، والرامح والنابل، ونشروا ذوائب الذوابل، وحشروا أبطال الباطل. ورفعوا صليب الصأبوت، فأجمع إليه عبّاد الطاغوت، وضُلاّل الناسوت واللاهوت، وناثوا في نوادي اقاليم أهل الأقانيم[1]، وصلّبوا الصليب الأعظم بالتعظيم.

وما عصاهم من له عصا، وخرجوا عن العدّ والإحصا، وكانوا عدد الحصى، وصاروا في زهاء خمسين ألفاً أو يزيدون، ويكيدون ما يكيدون، قد توافوا على صعيد، ووافوا من قريب وبعيد، وهم هناك مقيمون، لا يرومون حركة ولا يَريمون. والسلطان صلاح الدين في كل صباح يسير إليهم، ويُشرف عليهم، ويراميهم، وينكي فيهم، ويتعرّض لهم ليتعرضوا له، ويردّوا عن رقابهم سيوفه وعن شعابهم سُيوله، فربضوا وما نهضوا، وقعدوا وما نهضوا، فلوا برزوا لبرز إليهم القتل في مضاجعهم، وعاينوا مقام صارعهم في سَوْقهم إلى مصارعهم، وفزعوا ممّا فيه وقعوا، وجبُنوا عمّا له تشجعوا، فرأى السلطان أن يطيّب ربّه، من طبريّة، ويشرف على خِطّتها بالخطيّة والمشرفيّة، ويحوز حوزتها، ويملك مملكتها، فجزعلى الأردنّ أردان الرّدينات، وأطلع النقع المُثار من البحر بحوافر الأعوجيّات... واستسهل عليها ولم يستوعر نيات الغربيّات، فأمر عساكره، وأمراء جيشه وأكابره، أن يقيموا قُبالة الفرنج، ويُضيقوا عليهم واسع النهج، فإن خرجوا للمصاف، بادروا إلى الانتقام منهم والانتصاف، وإن تحرّكوا إلى بعض الجوانب، وثبوا بهم وثّب الأسود بالأرانب، وإن قصدوا طبرية لصونها، وأن يكونوا في عَوْنها، عجّلوا الإعلام، ليعجّل عليهم الإقدام.

فتح طبرية

ونزل على طبريّة في خواصته، وذوي استخلاصه، وأحضر الجاندارية والنقّابين، والخُراسانية والحجّارين، وأطاف بسورها، وشرع في هدم معمورها، وصدّقها القتال، وما صدّقت عنها النزال. وكان ذلك يوم الخميس وهو يومَ

(1) أي "المسيحيين" مثل الذين يعبدون الأقانيم الثلاثة أو الأشخاص الإلهية

الخميس. وأخذ النقابون النقب في برج فهدّوه وهدموه، وتسلقوا فيه وتسلّموه، ودخل الليل وصباح الفتح مُسفر، وليل الويل على العدو معتكر، وامتنعت القلعة بمن فيها، من القُومصيّة ببنت طبريّة وبنيها. ولما سمع القومص بفتح طبريّة وأخذ بلده، سُقط في يده، وخرج عن جِلْد جَلَده وسمح للفرنج بسنده ولَدَده.

وقال لهم: "لا قعود بعد اليوم، ولا بدّ لنا من وقم القوم، وإذا أخذت طبريّة أخذت البلاد، وذهبت الطراف والتلاد وما بقي لي صبر، وما بعد هذا الكسر لي جبر"[1]، وكان الملك قد حالفه: فما خالفه، ووافقه فما نافقه، وما حضه فما ماذقه، ووانده فما رادده، وواعده فما عاوده، ورحل بجمعه، وبصره وسمعه، وثعابينه وشياطينه، وسراجيبه وسراحينه، وأتباع غيّه، وأشياع بغيه. فمادت الأرض بحركته، وغامت السماء من غبرته. ووصل الخبر بأن الفرنج ركبوا، وثابوا عن ثَبات ثُباتهم ووثبوا، وعبّوا وعبُّوا، ودبُّوا حتى يخْبوا، وشبُّوا النار، وبثّوا الثار، وقدموا المنزول بالدار البدار، وذلك في يوم الجمعة رابع عشري شهر ربيع الآخر. فما كذّب السلطانُ الخبر حتى صدق عزمه، بما سبق به حكمه، وسُرّ حين أحاط بمسيرهم علمه، وقال: "قد حصل المطلوب، وكمل المخطوب، وجاءنا ما نريد، ولنا بحمد الله الجدّ الجديد، والحدّ الحديد، والبأس الشديد، والنصر العتيد، وإذا صحّت كسرتهم، وقُتلت وأسرت أُسرتهم، فطبريّة وجميع الساحل ما دونها مانع، ولا عن فتحها وازع".

واستخار الله وسار، وعدم القرار، وجاء يوم الجمعة رابع عشري شهر ربيع الآخر والفرنج سائرون إلى طبريّة بقضّهم وقضيضهم، وكأنّهم على اليفاع في حضيضهم، وقد ماجت خضارمهم، وهاجت ضراغمهم، وطارت قشاعمهم، وثارت غماغمهم، وسدّت الآفاق غمائمهم، وشاقت ضاربيها جماجمهم، وهم كالجبال السائرة، وكالبحار الزاخرة، أمواجها متلطمة، وأفواجها مزدحمة، وفجاجها محتدمة، وأعلاجها مصطلمة. وقد جرى الجوّ، وذوي الدوّ، والفضاء منفضّ، والقضاء منقضّ، والثرى قد استزار الثرى، وجرّ ذيل الخيل قد برى البرى، والحوافر الحوافز للأرض حوافر، والفوارس اللوابس في البيض سوافر. وذئاب الذياد وإجلاد الجلاد

---

(1) يبدو الكونت هنا في موقف مضاد لذاك الذي رسمه به ابن الأثير في بدء المعركة

قد حملوا كل عُدّة، وكملوا كل عدّة. فرتّب السلطان في مقابلتهم اطلابه، وقصر على مقاتلتها أرابه، وحصل بعسكره قدامهم، ورقب على الحملة إقدامهم. وحجز بينهم وبين الماء، ومنع ذمامهم على الذماء، وحلأهم عن الورْد، وصدّعهم بالصدّ. ذاك واليوم قَيْظ، وللقوم غيظ، وقد وقدت الهاجرة، فوقدتها غير هاجرة، وشربت ما كان في إداوتها فهي على الظماء غير صابرة. وحجز الليل بين الفريقين، وحجرت الخيل على الطريقين، وبات الإسلام للكفار مقابلاً، والتوحيد للتثليث مقاتلاً، والهدى للضلال مراقباً، والإيمان للشرك محارباً. وهيّئت نزكات النيران، وهتّئت درجات الجنان، وأنتظر مالك واستبشر رضوان. حتى إذا أسفر الصباح، وسفر الصباح، وفجّر الفجر أنهار النهار، ونفّر النفيرُ غُراب الغبار، وانتبهت في الجفون الصوارم، والتهبت الضوامر الضوارم، وتيقظت الأوتار، وتحفّظت النار، وسُلّ الغرار، وسلب القرار. خرج الجاليشية تحرق بنيران النصال أهل النار، ورنت القسيّ وغنّت الأوتار، ورقصت مُزان الشُزاد، لجلاء عرائس الجلاد. وبرزت البيض من مُلائها في الفلا عارية، وربعت السمر لكلّتها من الكُلى راعية، فرّجا الفرنج فرَجا، وطلب طُلّبهم المحرج مخرجا، فكلما خرجوا جُرحوا، وبرّح بهم حَرّ الحرب فما برحوا، وحملوا وهم ظُماء، وما لهم سوى ما بأيديهم من ماء الفرند ماء، فشوتهم نار السهام وأشوتهم، وصمّمت عليهم قلوب القسيّ القاسيةُ وأصمتهم، وأعجزوا وأزعجوا، وأحرجوا وأخرجوا، وكلّما حملوا ردّوا وأردوا، وكلما ساروا وشدّوا أُسروا وشُدّوا، وما ثبت منهم نملة، ولا ثبت عنهم حملة، واضطربوا، والتهفوا والتهبوا، وناشبهم النُشّاب فعادت أُسُودهم قنافذ، وضايقتهم السهام فوسّعت فيهم الخرق النافذ. فأووا إلى جبل حطّين يعصمهم من طوفان الدمار، فحاطت بحطين بوارق البوار، ورشقتهم الظباء، وفرشتهم على الربا ورشقتهم الحنايا، وقشرتهم المنايا، وقرشتهم البلايا، ورشفتهم الرزايا وصاروا للرَدى ذرايا، وللقضايا رمايا. ولم أحسّ القومص بالكسرة حسر عن ذراع الحسرة، واقتال من العزيمة، واحتال في الهزيمة، وكان ذلك قبل اضطراب الجمع واضطرام الجمر، واحتداد الحرب واحتداد الحرّ، فخرج بطُلّبه يطلب الخروج، واعوجّ إلى الوادي وما ود أن يعوج ومضى كومض البرق، ووسّع خُطا خُرقه قبل اتساع

الخرق، وأقلت في عدّة معدودة، ولم يلتفت إلى ردّة مردودة، وغاب حالة حضور الوغى وناب الرعب الذي نوى الهزيمة به وما ونى، ثم استجرت الحرب واشتجرا الطعن والضرب، وأحيط بالفرنج من حواليهم بما حوزوا إليهم، ودارت دائرة الدوائر عليهم، وشرعوا في ضرب خيامهم، وضمّ نظامهم. فحطّوا على حطيّن مضاربهم، وفلّت حدودُ الرُماة الكُماة مضاربهم، وأُعجلوا عن نصب الخيَم ورفعها، وشُغلوا عن أصل الحياة وفروعها، وترجّوا خيراً فترجّلوا عن الخيل، وتجلّدوا وتجالدوا فجرفهم السيف جرف السيل، وأحاط بهم العسكر احاطة النار بأهلها. ولجأوا إلى حَزْم الأرض فبلغ حزامهم الطِبْيَيْن من سهلها[1].

وأسر الشيطان وجنوده، ومُلك الملك وكُنوده، وجلس السلطان لعرض اكابر الأسرى، وهم يتهادون في القيود تهادي السكارى، فقدّم بدايته مقدّم الداويّة، ومعه عدّة كثيرة منهم ومن الاسبتارية، وأحضر الملك كي واخوه جُفري، وأوك صاحب جُبيل وهنفري، والابرنس أرناط صاحب الكرك، وهو أول من وقع في الشرك، وكان السلطان نذر دمه، وقال لأعجلنّ عند وجدانه عدمه، فلمّا حضر بين يديه أجلسه إلى جنب الملك والملك بجنبه، وقرّعه على غدره وذكره بذنبه، وقال له كم تحلف وتحنث، وتعهد وتنكث، وتبرم الميثاق وتنقض، وتقبل على الوفاق ثم تعرض، فقال التُرجمان عنه إنه يقول قد جرت بذلك عادة الملوك وما سلكت غير السَنَن المسلوك، وكان الملك يلهث ظَمِيا، ويميل من سكرة الرعب منتشيا، فآنسه السلطان وحاوره، وفثأ سَوْرة الوجل الذي ساوره، وسكّن رعبه، وأمّن قلبه، وأتي بماء مثلوج أزال لَهثه، وأزاح من العطش ما كرثه، وناوله الابرنس ليخمد أيضاً لهيبه، فأخذه من يده وشربه، فقال السلطان للملك "لمْ تأخذ منّي في سقيه إذنا، فلا يوجب ذلك له منّي أمْنا"، ثم ركب وخلاهما، وبذار الزهَل أصلاهما، ولم ينزل إلى أن ضُرب سُرادقه، وركزت أعلامه وبيارقه، وعادت عن الحَوْمة إلى الحمى فيالقه، فلمّا دخل سرادقه، استحضر الابرنس فقام إليه وتلقّاه بالسيف فحلّ عاتقه، وحين صُرع، أمر برأسه فقُطع، وجُرّ برجله قدّام الملك حين أُخرج، فارتاع وانزعج،

---

(1) أراد بهذه الصورة البلاغية الأنيقة ماقاله ابن الأثير بكلمات بسيطة: "ترجلوا عن الفرس وجلسوا على الأرض".

فعرف السلطان أنه خامره الفزع، وساوره الهلع وسامره الجزع، فاستدعاه واستدناه وأمّنه وطمّنه، ومكّنه من قربه وسكّنه، وقال له ذاك رداء له أردته، وغدرته كما تراه غادرته، وقد هلك بغيه وبغيه، وتبا زند حياته ووزدها عن وزنه وزنه".

وصحّت هذه الكسرة وتمّت هذه النصرة يوم السبت وضربت ذلّة أهل السبت على أهل الأحد، وكانوا أسوداً فعادوا من النقد[1]، فما أفلت من تلك الآلاف إلاّ آحاد، وما نجا من أولئك الأعداء إلاّ إعداد، وامتلأ الملأ بالأسرى والقتلى. وانجلى الغبار عنهم بالنصر الذي تجلّى، وقيدت الأسرى في الحبال واجبة القلوب، وفُرشت القتلى في الوهاد والجبال واجبة الجُنوب، وحطّت حطّين تلك الجيف عن متنها، وطاب نشر النصر بنتنها، وعبرتْ بها فلقيتُ أشلاء المشلولين في الملتقى ملقاة بالعراء عُراة، ممزّقة بالمآزق، مفصّلة المفاصل مفرّقة المرافق، مفلّقة المفارق، محذوفة الرقاب، مقصوفة الأصلاب، مقطّعة الهام، موزّعة الأقدام، مجدوعة الآناف، منزوعة الأطراف، مُعضّاة الأعضاء، مجزّأة الأجزاء، مفقوءة العيون، مبعوجة البطون، مخضوبة الضفائر، معضوبة المرائر، مبريّة البنان، مفريّة اللبان، مقصومة الأضالع، مقصومة الأشاجع، مرضوضة الصدور، مفضوضة النحور، منصّفة الأجساد، مقصّفة الأعضاد، مقلّصة الشفاه، مخلّصة الجباه، قانية الذوائب، دامية الترائب، مشكوكة الأضلاع، مفكوكة الأذرع، مكسورة العظام، محسورة اللثام، بائدة الوجوه، بادية المكروه، مبشورة الأبشار، معشورة الأعشار، منشورة الشعور، مقشورة الظهور، مهدومة البنيان، مهتومة الأسنان، مُهرقة الدماء، مرهقة الذماء، هاوية الذرى، واهية العُرى، سائلة الأحداق، مائلة الأعناق، مفتوتة الأفلاذ، مبتوتة الأفخاذ، مشدوخة الهامات، مسلوخة الثبات، عديمة الأرواح، هشيمة الأشباح، كالأحجار بين الأحجار، عبرة لأولي الأبصار[2].

وصارت تلك المعركة بالدماء دأماء، وعادت الغبراء حمراء، وجرت أنهار الدم المثير، ومتقر بتلك الخبائث المُظْلمة وجه الدين المطهّر. فما أطيب نفحات

(1) أي أن المسيحيين أذلّوا كأنهم بهوت جبناء. وكان غابرييلي قد ترجم العبارة "وعادوا مثل أغنام يائسة بعدما كانوا أسودا"

(2) لابد أن عماد الدين اعتبر هذه السجية البلاغية الرهيبة برهاناً ساطعاً على روعة أدبه.

الظفر من ذلك الخبث، وما ألهب عذبات العذاب في تلك الجثث، وما أحسن عمارات القلوب بقبح تلك الشعث، وما أجزأ صلوات البشائر بوقوع ذلك الحدث، هذا حساب من قُتل فقد حصرت ألسنة الأمم عن حصره وعدّه، وأمّا من أسر فلم تكف أطناب الخيم لقيده وشدّه، ولقد رأيت في حبل واحد ثلاثين وأربعين يقودهم فارس، وهنالك العُتاة عُناة، والغُداة عراة، وذوو الأسرة أسرى، وأولوا الأثرة عثرى، والقوامص قنائص، والفوارس فرائس، وغوالي الأرواح رخائص ووجوه الداوية الداوية عوابس، والرؤوس تحت الأخامص، ومطالع الأجسام ذوات المقاطع والمخالص. فكم أصْيَد صيد، وقائد قُيّد وقيد، ومشرك مكسَّر، وكافر مفكّر، ومثلّث منصّف، ومُكيّف مُكتّف، وجارح مجروح، وقارح مفروح، وملك مملوك، وهاتك مهتوك، ومتبّر مبتور، ومحسّر محسور، وكابٍ في الكبْل، ومغتال في الغُلول، وحُرّ في الرقّ، ومُبطل في يد المُحِق.

الصليب الأعظم والاستيلاء عليه يوم المُصاف

لم يؤسّر الملك حتى أخذ صليب الصلبوت، وأهلك دونه أهل الطاغوت. وهو الذي إذا نُصب وأقيم ورُفع، سجد له كل نصراني وركع، وهم يزعمون أنه من الخشبة التي يزعمون أنه صُلب عليها معبودهم، فهو معبودهم ومسجودهم وقد غلّفوه بالذهب الأحمر، وكلّلوه بالدرّ والجوهر، وأعدّوه ليوم الروع المشهود، ولموسم عيدهم الموعود، فإذا أخرجته القسوس، وحملته الرؤوس، تبادروا إليه، وانثالوا عليه، ولا يسع لأحدهم عنه التخلّف، ولا يسوغ للمتخلّف عن أتباعه في نفسه التصرّف، وأخذُه أعظم عندهم من أسر الملك، وهو أشدّ مُصاب لهم في ذلك المعترك، فإن الصليب السليب ما له عوض، ولا لهم في سواه غرض، والتألّه له عليهم مفترض، فهو إلههم، وتُعفّر له جباهُهم، وتسبّح له أفواهُهم، يتغاشون عند احضاره، ويتعاشون لإبصاره، ويتلاشون لإظهاره، ويتغاضون إذا شاهدوه، ويتواجدون إذا وجدوه، ويبذلون دونه المهج، ويطلبون به الفرج، بل صاغوا على مثاله صلبانا يعبدونها، ويخشعون لها في بيوتهم ويشهدونها. فلمّا أخذ هذا الصليب الأعظم عظم مُصابهم، ووهت أصلابهم، وكان الجمع المكسور عظيماً،

والموقف المنصور كريماً، فكأنّهم لمّا عرفوا اخراج هذا الصليب، لم يتخلّف أحد من يومهم العصيب، فهلكوا قتلا وأسرا، وملكوا قهرا وقسراء ونزل السلطان على صحراء طبريّة كالأسد المُصحر، والقمر المُبدر.

ذكر فتح حصن طبريّة

وندب إلى حصنها من تسلّمه أماناء وأسكنه بعد الكفر إيماناً، وكانت الست صاحبة طبريّة قد حمته، ونقلت إليه كل ما ملكته وحوته، فأمّنها على أصحابها وأموالها، وخرجت بنسائها ورجالها ورحالها، وسارت إلى طرابلس بلد زوجها القومص بمالها وحالها. وعادت طبريّة أهلة آمنة بأهل الإيمان، وعُيّن لولايتها صارم الدين قايماز النجمي وهو من الأكابر الأعيان، هذا والملك الناصر نازل ظاهر طبريّة، وقد طبّ البريّة، وعسكره طبّق البرّيّة.

ذكر ما اعتمده في الأسرى الداوية والأسبتارية من ضرب رقابهم وإعطاء بِشر الوجوه بإعطايهم[1]

فلما أصبح يوم الاثنين سابع عشري شهر ربيع الآخر بعد الفتح بيومين، طلب الاسرى من الداويّة والأسبتاريّة وقال "أنا أطهر الأرض من الجنسين النجسين". وجعل لكل من يُحضر منهما أسيرا خمسين، فأحضر العسكر في الحال مئين، وأمر بضرب أعناقهم، واختار قتلهم على استرقاقهم، وكان عنده جماعة من أهل العلم والتصوّف، وعدّة من ذوي التعفّف والتعيّف، فسأل كلُّ واحد في قتل واحد، وسلّ سيفه وحسر عن ساعد، والسلطان جالس، ووجه باشر والكفر عابس، والعساكر صفوف، والأمراء في السماطين وقوف، فمنهم من فرى وبرى وشكر، ومنهم من أبى ونبا وعُذر، ومنهم من يُضحك منه، وينوب سواه عنه.

---

(1) يشكل هذا النص الذي يرويه مؤرخنا شاهد العيان، بأسلوبه المطرز المعتاد، لطخة تعيب شهامة صلاح الدين المزعومة. من جهة أخرى لايمكن تفسيرهذه المذبحة إلا بذلك الحقد الذي زرعته الطائفتان الحربيتان في الجانب الإسلامي، وذلك من خلال سلوكهما الحربي الذي لم يكن بكل تأكيد أكثر إنسانية (ومسيحية) من سلوك أعدائهم.

وشاهدتُ هناك الضحوك القتّال، ورأيت منه القوّال الفعّال، فكم وعدٍ أنجزه، وحمد أحرزه، وأجرٍ استدامه بدم أجراه، وبرّ أعتق إليه بعُنُق بَراه، ونصل خضبه، لنصر خطبه، وأسل اعتقله، لأسد عقله، وداء داواه، لداويّ أدواه، وقوة أهداها لهُداة قوّاها، ولواء نشره للأولاء طواها، وكفر أماته لاسلام أحياه، وشرك هدمه لتوحيد بناه، وعزمة أمضاها، لأمة أرضاها، وعدو قصمه، لوليّ غصمه. وسيّر ملك الفرنج وأخاه وهنفري وصاحب جُبيل ومقدم الداوية وجميع أكابرهم الماسورين إلى دمشق ليُودعوا السجون وتستبدل حركاتهم السكون، وتفرّقت العساكر بما حوته أيديهم من السّبي أيدي سبا، وخمد جمر جمع الكفر وخبا.

ذِكْرُ فَتْحِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ

(ابن الأثير، 11/361-366)

لَمَّا فَرَغَ صَلَاحُ الدِّينِ مِنْ أَمْرِ عَسْقَلَانَ وَمَا يُجَاوِرُهَا مِنَ الْبِلَادِ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ، وَكَانَ قَدْ أَرْسَلَ إِلَى مِصْرَ أَخْرَجَ الْأُسْطُولَ الَّذِي بِهَا فِي جَمْعٍ مِنَ الْمُقَاتِلَةِ، وَمُقَدَّمُهُمْ حُسَامُ الدِّينِ لُؤْلُؤٌ الْحَاجِبُ، وَهُوَ مَعْرُوفٌ بِالشَّجَاعَةِ، وَالشَّهَامَةِ، وَيُمْنِ النَّقِيبَةِ. فَأَقَامُوا فِي الْبَحْرِ يَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ عَلَى الْفِرِنْجِ، كُلَّمَا رَأَوْا لَهُمْ مَرْكَبًا غَنِمُوهُ، وَشَانِيًا أَخَذُوهُ. فَحِينَ وَصَلَ الْأُسْطُولُ وَخَلَا سِرُّهُ مِنْ تِلْكَ النَّاحِيَةِ سَارَ عَنْ عَسْقَلَانَ إِلَى الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ، وكان به البطرك[1] المعظم عندهم، وهو أعظم شأناً من ملكهم، وبه أيضاً باليان بن بيرزان، صاحب الرملة[2]، وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك، وبه أيضاً من خلص من فرسانهم من حطين، وقد جمعوا وحشدوا، واجتمع أهل تلك النواحي عسقلان وغيرها، فَاجْتَمَعَ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ الْخَلْقِ، كُلُّهُمْ يَرَى الْمَوْتَ أَيْسَرَ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَمْلِكَ الْمُسْلِمُونَ الْبَيْتَ الْمُقَدَّسَ وَيَأْخُذُوهُ مِنْهُمْ، وَيَرَى أَنَّ بَذْلَ نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَأَوْلَادِهِ بَعْضُ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ حِفْظِهِ، وَحَصَّنُوهُ تِلْكَ الْأَيَّامَ بِمَا وَجَدُوا إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَصَعِدُوا عَلَى سُورِهِ بِحَدِّهِمْ وَحَدِيدِهِمْ، مُجْمِعِينَ عَلَى

---

(1) Eraclio

(2) Balian d'Ibelin

حفظِهِ والذَّبِّ عنْهُ بِجُهْدِهِمْ وطاقتِهِمْ، مُظْهِرِينَ الْعَزْمَ على الْمُناضلَةِ دُونَهُ بِحسبِ استطاعتِهِمْ، ونصبُوا الْمجانيقَ على أسْوارِهِ ليَمْنعُوا منْ يُرِيدُ الدُّنُوَّ مِنْهُ والنُّزُولَ عليْهِ.

ولَمَّا قَرُبَ صلاحُ الدِّينِ منْهُ تقدَّمَ أميرٌ في جماعةٍ منْ أصْحابِهِ، غيْرَ مُحْتاطٍ ولا حذِرٍ، فلقِيَهُ جمْعٌ مِنَ الْفِرنْجِ قدْ خرجُوا منَ الْقُدْسِ ليكُونُوا يَزَكًا، فقاتلُوهُ وقاتلَهُمْ، فقتلُوهُ وقتلُوا جماعةً مِمَّنْ معهُ، فأهمَّ الْمُسْلِمِينَ قتْلُهُ، وفُجِعُوا بِفقْدِهِ، وساروا حتَّى نزَلُوا على الْقُدْسِ مُنْتصفَ رجبٍ (ايلول/سبتمبر 1187). فلمَّا نزلُوا عليْهِ رأى الْمُسْلِمُونَ على سُورِهِ مِنَ الرِّجالِ ما هالَهُمْ، وسمِعُوا لأهْلِهِ مِنَ الْجلَبةِ، والضَّجِيجِ مِنْ وسطِ الْمدِينةِ ما استدلُّوا بِهِ على كثْرةِ الْجمْعِ، وبقِيَ صلاحُ الدِّينِ خمْسةَ أيَّامٍ يطُوفُ حوْلَ الْمدِينةِ لِينْظُرَ مِنْ أيْنَ يُقاتِلُهُ، لأنَّهُ في غايةِ الْحصانةِ والامْتِناعِ، فلَمْ يجِدْ عليْهِ موْضِعَ قِتالٍ إلا مِنْ جِهةِ الشَّمالِ، نحْوَ بابِ عمُودا، وكنِيسةِ صهْيُونَ. فانتقلَ إلى هذِهِ النَّاحِيةِ في الْعِشْرِينَ مِنْ رجبٍ ونزلَها، ونصبَ تِلْكَ اللَّيْلةَ الْمجانِيقَ، فأصْبحَ مِنَ الْغدِ وقدْ فرغَ مِنْ نصْبِها، ورمى بِها. ونصبَ الْفِرنْجُ على سُورِ الْبلدِ مجانِيقَ ورمَوْا بِها، وقُوتِلُوا أشدَّ قِتالٍ رآهُ أحدٌ مِنَ النَّاسِ، كُلُّ واحِدٍ مِنَ الْفرِيقيْنِ يرى ذلِكَ دِينًا، وحتْمًا واجِبًا، فلا يحْتاجُ فِيهِ إلى باعِثٍ سُلْطانِيٍّ بلْ كانُوا يمْنعُونَ ولا يمْتنِعُونَ ويزْجُرُونَ ولا ينْزجِرُونَ. وكانَ خيَّالةُ الْفِرنْجِ كُلَّ يوْمٍ يخْرُجُونَ إلى ظاهِرِ الْبلدِ يُقاتِلُونَ ويُبارِزُونَ، فيُقْتلُ مِنَ الْفرِيقيْنِ، ومِمَّنِ استُشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الأمِيرُ عِزُّ الدِّينِ عِيسى بْنُ مالِكٍ، وهُوَ مِنْ أكابِرِ الأُمراءِ وكانَ أبُوهُ صاحِبَ قلْعةِ جعْبرٍ، وكانَ يصْطلِي الْقِتالَ بِنفْسِهِ كُلَّ يوْمٍ، فقُتِلَ إلى رحْمةِ اللَّهِ تعالى. وكانَ محْبُوبًا إلى الْخاصِّ والْعامِّ، فلمَّا رأى الْمُسْلِمُونَ مصْرعهُ عظُمَ عليْهِمْ ذلِكَ، وأخذَ مِنْ قُلُوبِهِمْ، فحملُوا حمْلةَ رجُلٍ واحِدٍ، فأزالُوا الْفِرنْجَ عنْ مواقِفِهِمْ فأدْخلُوهُمْ بلدَهُمْ، ووصلَ الْمُسْلِمُونَ إلى الْخنْدقِ، فجازُوهُ والْتصقُوا إلى السُّورِ فنقبُوهُ، وزحفَ الرُّماةُ يحْمُونهُمْ، والْمجانِيقُ تُوالِي الرَّمْيَ لِتكْشِفَ الْفِرنْجَ عنِ الأسْوارِ لِيتمكَّنَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ النَّقْبِ، فلمَّا نقبُوهُ حشَوْهُ بِما جرتْ بِهِ الْعادةُ[1].

---

(1) يملؤ النقب بعد حفره بمواد محترقة، ما إن تشتعل حتى يسقط الجدار الذي يعلوه.

فَلَمَّا رَأَى الْفِرِنْجُ شِدَّةَ قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَحَكُّمَ الْمَجَانِيقِ بِالرَّمْيِ الْمُتَدَارِكِ، وَتَمَكُّنَ النَّقَّابِينَ مِنَ النَّقْبِ، وَأَنَّهُمْ قَدْ أَشْرَفُوا عَلَى الْهَلَاكِ، اجْتَمَعَ مُقَدَّمُوهُمْ يَتَشَاوَرُونَ فِيمَا يَأْتُونَ وَيَذَرُونَ، فَاتَّفَقَ رَأْيُهُمْ عَلَى طَلَبِ الْأَمَانِ، وَتَسْلِيمِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ. فَأَرْسَلُوا جَمَاعَةً مِنْ كُبَرَائِهِمْ وَأَعْيَانِهِمْ فِي طَلَبِ الْأَمَانِ، فَلَمَّا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلسُّلْطَانِ امْتَنَعَ مِنْ إِجَابَتِهِمْ، وَقَالَ: لَا أَفْعَلُ بِكُمْ إِلَّا كَمَا فَعَلْتُمْ بِأَهْلِهِ حِينَ مَلَكْتُمُوهُ سَنَةَ إِحْدَى [ثِنْتَين][1] وَتِسْعِينَ وَأَرْبَعِمَائَةٍ (1099)، مِنَ الْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَجَزَاءُ السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا. فَلَمَّا رَجَعَ الرُّسُلُ خَائِبِينَ مَحْرُومِينَ، أَرْسَلَ بَالْيَانُ بْنُ بِيرْزَانَ وَطَلَبَ لِنَفْسِهِ لِيَحْضُرَ عِنْدَ صَلَاحِ الدِّينِ فِي هَذَا الْأَمْرِ وَتَحْرِيرِهِ، فَأُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ، وَحَضَرَ عِنْدَهُ، وَرَغِبَ فِي الْأَمَانِ، وَسَأَلَ فِيهِ، فَلَمْ يُجِبْهُ إِلَى ذَلِكَ، وَاسْتَعْطَفَهُ فَلَمْ يَعْطِفْ عَلَيْهِ، وَاسْتَرْحَمَهُ فَلَمْ يَرْحَمْهُ. فَلَمَّا أَيِسَ مِنْ ذَلِكَ قَالَ لَهُ: أَيُّهَا السُّلْطَانُ اعْلَمْ أَنَّنَا فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ فِي خَلْقٍ كَثِيرٍ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، وَإِنَّمَا يَفْتُرُونَ عَنِ الْقِتَالِ رَجَاءَ الْأَمَانِ؛ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّكَ تُجِيبُهُمْ إِلَيْهِ كَمَا أَجَبْتَ غَيْرَهُمْ، وَهُمْ يَكْرَهُونَ الْمَوْتَ وَيَرْغَبُونَ فِي الْحَيَاةِ. فَإِذَا رَأَيْنَا أَنَّ الْمَوْتَ لَا بُدَّ مِنْهُ، فَوَاللَّهِ لَنَقْتُلَنَّ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا وَنُحَرِّقُ أَمْوَالَنَا وَأَمْتِعَتَنَا، وَلَا نَتْرُكُكُمْ تَغْنَمُونَ مِنْهَا دِينَارًا وَاحِدًا وَلَا دِرْهَمًا، وَلَا تَسْبُونَ وَتَأْسِرُونَ رَجُلًا وَلَا امْرَأَةً. وَإِذَا فَرَغْنَا مِنْ ذَلِكَ أَخْرَبْنَا الصَّخْرَةَ وَالْمَسْجِدَ الْأَقْصَى وَغَيْرَهُمَا مِنَ الْمَوَاضِعِ، ثُمَّ نَقْتُلُ مَنْ عِنْدَنَا مِنْ أُسَارَى الْمُسْلِمِينَ، وَهُمْ خَمْسَةُ آلَافِ أَسِيرٍ، وَلَا نَتْرُكُ لَنَا دَابَّةً وَلَا حَيَوَانًا إِلَّا قَتَلْنَاهُ، ثُمَّ خَرَجْنَا إِلَيْكُمْ كُلُّنَا فَقَاتَلْنَاكُمْ قِتَالَ مَنْ يُرِيدُ [أَنْ] يَحْمِيَ دَمَهُ وَنَفْسَهُ، وَحِينَئِذٍ لَا يُقْتَلُ الرَّجُلُ حَتَّى يَقْتُلَ أَمْثَالَهُ، وَنَمُوتُ أَعِزَّاءَ أَوْ نَظْفَرُ كِرَامًا.

اسْتَشَارَ صَلَاحُ الدِّينِ أَصْحَابَهُ. فَأَجْمَعُوا عَلَى إِجَابَتِهِمْ إِلَى الْأَمَانِ، وَأَنْ لَا يَخْرُجُوا وَيَحْمِلُوا عَلَى رُكُوبِ مَا لَا يُدْرَى عَاقِبَةُ الْأَمْرِ فِيهِ عَنْ أَيِّ شَيْءٍ تَنْجَلِي، وَنَحْسِبُ أَنَّهُمْ أُسَارَى بِأَيْدِينَا، فَنَبِيعُهُمْ نُفُوسَهُمْ بِمَا يَسْتَقِرُّ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَأَجَابَ صَلَاحُ الدِّينِ حِينَئِذٍ إِلَى بَذْلِ الْأَمَانِ لِلْفِرِنْجِ.

فَاسْتَقَرَّ أَنْ يَزِنَ الرَّجُلُ عَشَرَةَ دَنَانِيرَ يَسْتَوِي فِيهِ الْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ، وَيَزِنَ الطِّفْلُ مِنَ الذُّكُورِ وَالْبَنَاتِ دِينَارَيْنِ، وَتَزِنَ الْمَرْأَةُ خَمْسَةَ دَنَانِيرَ، فَمَنْ أَدَّى ذَلِكَ إِلَى أَرْبَعِينَ

(1) حسب غابرييلي والنسخة العربية الأصلية، لكن نسخة الانترنت تذكر 491.

يَوْمًا فَقَدْ نَجَا، وَمَنِ انْقَضَتِ الأَرْبَعُونَ يَوْمًا عَنْهُ وَلَمْ يُؤَدِّ مَا عَلَيْهِ فَقَدْ صَارَ مَمْلُوكًا، فَبَذَلَ بَالْيَانُ بْنُ بِيرْزَانَ عَنِ الْفُقَرَاءِ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، فَأُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ. وَسُلِّمَتِ الْمَدِينَةُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ رَجَبٍ (2 تشرين أول/اكتوبر 1187)، وَكَانَ يَوْمًا مَشْهُودًا، وَرُفِعَتِ الأَعْلَامُ الإِسْلَامِيَّةُ عَلَى أَسْوَارِهَا. وَرَتَّبَ صَلَاحُ الدِّينِ عَلَى أَبْوَابِ الْبَلَدِ، فِي كُلِّ بَابٍ، أَمِينًا مِنَ الأُمَرَاءِ لِيَأْخُذُوا مِنْ أَهْلِهِ مَا اسْتَقَرَّ عَلَيْهِمْ، فَاسْتَعْمَلُوا الْخِيَانَةَ، وَلَمْ يُؤَدُّوا فِيهِ أَمَانَةً، وَاقْتَسَمَ الأُمَنَاءُ الأَمْوَالَ، وَتَفَرَّقَتْ أَيْدِي سَبَأٍ، وَلَوْ أُدِّيَتْ فِيهِ الأَمَانَةُ لَمَلأَ الْخَزَائِنَ، وَعَمَّ النَّاسَ. فَإِنَّهُ كَانَ فِيهِ عَلَى الضَّبْطِ سِتُّونَ أَلْفَ رَجُلٍ مَا بَيْنَ فَارِسٍ وَرَاجِلٍ سِوَى مَنْ يَتْبَعُهُمْ مِنَ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ، وَلَا يَعْجَبُ السَّامِعُ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْبَلَدَ كَبِيرٌ، وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ مِنْ تِلْكَ النَّوَاحِي مِنْ عَسْقَلَانَ وَغَيْرِهَا، وَالدَّارُومِ، وَالرَّمْلَةِ، وَغَزَّةَ وَغَيْرِهَا مِنَ الْقُرَى، بِحَيْثُ امْتَلأَتِ الطُّرُقُ وَالْكَنَائِسُ، وَكَانَ الإِنْسَانُ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَمْشِيَ. وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى كَثْرَةِ الْخَلْقِ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ وَزَنَ مَا اسْتَقَرَّ مِنَ الْقَطِيعَةِ، وَأَطْلَقَ بَالْيَانُ بْنُ بِيرْزَانَ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفَ رَجُلٍ وَزَنَ عَنْهُمْ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، وَبَقِيَ بَعْدَ هَذَا جَمِيعِهِ مَنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ مَا يُعْطِي، وَأُخِذَ أَسِيرًا سِتَّةَ عَشَرَ أَلْفَ آدَمِيٍّ مَا بَيْنَ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ وَصَبِيٍّ، هَذَا بِالضَّبْطِ وَالْيَقِينِ.

ثُمَّ إِنَّ جَمَاعَةً مِنَ الأُمَرَاءِ ادَّعَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ رَعِيَّةِ إِقْطَاعِهِ مُقِيمُونَ بِالْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ، فَيُطْلِقُهُمْ وَيَأْخُذُ هُوَ قَطِيعَتَهُمْ، وَكَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ الأُمَرَاءِ يُلْبِسُونَ الْفِرِنْجَ زِيَّ الْجُنْدِ الْمُسْلِمِينَ، وَيُخْرِجُونَهُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنْهُمْ قَطِيعَةً قَرَّرُوهَا، وَاسْتَوْهَبَ جَمَاعَةٌ مِنْ صَلَاحِ الدِّينِ عَدَدًا مِنَ الْفِرِنْجِ، فَوَهَبَهُمْ لَهُمْ، فَأَخَذُوا قَطِيعَتَهُمْ، وَبِالْجُمْلَةِ فَلَمْ يَصِلْ إِلَى خِزَانَتِهِ إِلَّا الْقَلِيلُ.

وَكَانَ بِالْقُدْسِ بَعْضُ نِسَاءِ الْمُلُوكِ مِنَ الرُّومِ قَدْ تَرَهَّبَتْ[1] وَأَقَامَتْ بِهِ، وَمَعَهَا مِنَ الْحَشَمِ وَالْعَبِيدِ وَالْجَوَارِي خَلْقٌ كَثِيرٌ، وَلَهَا مِنَ الأَمْوَالِ وَالْجَوَاهِرِ النَّفِيسَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ، فَطَلَبَتِ الأَمَانَ لِنَفْسِهَا وَمَنْ مَعَهَا، فَأَمَّنَهَا وَسَيَّرَهَا. وَكَذَلِكَ أَيْضًا أَطْلَقَ مَلِكَةَ الْقُدْسِ[2] الَّتِي كَانَ زَوْجُهَا الَّذِي أَسَرَهُ صَلَاحُ الدِّينِ قَدْ مَلَكَ الْفِرِنْجَ بِسَبَبِهَا، وَنِيَابَةً عَنْهَا كَانَ يَقُومُ بِالْمُلْكِ، وَأَطْلَقَ مَالَهَا وَحَشَمَهَا، وَاسْتَأْذَنَتْهُ فِي الْمَصِيرِ إِلَى زَوْجِهَا،

---

(1) يصعب مع هذا الخبر تحديد هوية تلك المرأة، وفيما إذا كانت هي نفسها Maria Comnena أرملة الملك Amaury الأول والتي تزوجت بعدها باليان دي ابيلين.

(2) Sibilla زوجة الملك غويتو دي لوزينيانو

وَكَانَ جِبْنَتٍ مَحْبُوسًا بِقَلْعَةِ نَابُلُس، فَأَذِنَ لَهَا، فَأَتَتْهُ وَأَقَامَتْ عِنْدَهُ. وَأَتَتْهُ أَيْضًا امْرَأَةُ لِلْبِرِنْسِ أَرْنَاط صَاحِبِ الْكَرَكِ، وَهُوَ الَّذِي قَتَلَهُ صَلاحُ الدِّينِ بِيَدِهِ يَوْمَ الْمَصَافِ بِحِطِّينَ، فَشَفَعَتْ فِي وَلَدٍ لَهَا مَأْسُورٍ[1]، فَقَالَ لَهَا صَلاحُ الدِّينِ: إِنْ سَلَّمْتِ الْكَرَكَ أَطْلَقْتُهُ، فَسَارَتْ إِلَى الْكَرَكِ، فَلَمْ يَسْمَعْ مِنْهَا الْفِرِنْجُ الَّذِي فِيهِ، وَلَمْ يُسَلِّمُوهُ، فَلَمْ يُطْلِقْ وَلَدَهَا، وَلَكِنَّهُ أَطْلَقَ مَا لَهَا وَمَنْ تَبِعَهَا. وَخَرَجَ الْبَطْرَكُ الْكَبِيرُ الَّذِي لِلْفِرِنْجِ، وَمَعَهُ مِنْ أَمْوَالِ الْبِيَعِ مِنْهَا: الصَّخْرَةُ وَالْأَقْصَى، وَقُمَامَةُ وَغَيْرُهَا، مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، وَكَانَ لَهُ مِنَ الْمَالِ مِثْلُ ذَلِكَ، فَلَمْ يَعْرِضْ لَهُ صَلاحُ الدِّينِ، فَقِيلَ لَهُ لِيَأْخُذَ مَا مَعَهُ يُقَوِّي بِهِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: لَا أَغْدِرُ بِهِ، وَلَمْ يَأْخُذْ مِنْهُ غَيْرَ عَشَرَةِ دَنَانِيرَ، وَسَيَّرَ الْجَمِيعَ وَمَعَهُمْ مَنْ يَحْمِيهِمْ إِلَى مَدِينَةِ صُورَ.

وَكَانَ عَلَى رَأْسِ قُبَّةِ الصَّخْرَةِ صَلِيبٌ كَبِيرٌ مُذَهَّبٌ، فَلَمَّا دَخَلَ الْمُسْلِمُونَ الْبَلَدَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ تَسَلَّقَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ إِلَى أَعْلَى الْقُبَّةِ لِيَقْلَعُوا الصَّلِيبَ، فَلَمَّا فَعَلُوا وَسَقَطَ صَاحَ النَّاسُ كُلُّهُمْ صَوْتًا وَاحِدًا مِنَ الْبَلَدِ وَمِنْ ظَاهِرِهِ الْمُسْلِمُونَ وَالْفِرِنْجُ: أَمَّا الْمُسْلِمُونَ فَكَبَّرُوا فَرَحًا، وَأَمَّا الْفِرِنْجُ فَصَاحُوا تَفَجُّعًا وَتَوَجُّعًا، فَسَمِعَ النَّاسُ ضَجَّةً كَادَتِ الْأَرْضُ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ لِعِظَمِهَا وَشِدَّتِهَا.

فَلَمَّا مَلَكَ الْبَلَدَ وَفَارَقَهُ الْكُفَّارُ أَمَرَ صَلاحُ الدِّينِ بِإِعَادَةِ الْأَبْنِيَةِ إِلَى حَالِهَا الْقَدِيمِ، فَإِنَّ الدَّاوِيَّةَ بَنَوْا غَرْبِيَّ الْأَقْصَى أَبْنِيَةً لِيَسْكُنُوهَا، وَعَمِلُوا فِيهَا مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ هُرْيٍ وَمُسْتَرَاحٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَأَدْخَلُوا بَعْضَ الْأَقْصَى فِي أَبْنِيَتِهِمْ فَأُعِيدَ إِلَى الْأَوَّلِ، وَأَمَرَ بِتَطْهِيرِ الْمَسْجِدِ وَالصَّخْرَةِ مِنَ الْأَقْذَارِ وَالْأَنْجَاسِ، فَفُعِلَ ذَلِكَ أَجْمَعُ. وَلَمَّا كَانَ الْجُمُعَةُ الْأُخْرَى، رَابِعَ شَعْبَانَ (9 تشرين أول/اكتوبر)، صَلَّى الْمُسْلِمُونَ فِيهِ الْجُمُعَةَ، وَمَعَهُمْ صَلاحُ الدِّينِ، وَصَلَّى فِي قُبَّةِ الصَّخْرَةِ[2]، وَكَانَ الْخَطِيبُ وَالْإِمَامُ مُحْيِي الدِّينِ بْنَ الزَّكِيِّ، قَاضِي دِمَشْقَ، ثُمَّ رَتَّبَ فِيهِ صَلاحُ الدِّينِ خَطِيبًا وَإِمَامًا بِرَسْمِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ. وَأَمَرَ أَنْ يُعْمَلَ لَهُ مِنْبَرٌ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ نُورَ الدِّينِ

---

(1) Stefania أم Honfroi de Theron

(2) أسلفنا بأن الأقصى ومسجد الصخرة، المسمى مسجد عمر، هما مسجدان متقاربان لكن متميزان. من المؤكد بأن هذا الحفل الكبير جرى في الأقصى، قام صلاح الدين بعدها بالصلاة في مسجد الصخرة، ويبدو هذا بصورة واضحة في الرواية التي سنستشهد بها بعد قليل عن عماد الدين

مَحْمُودًا كَانَ قَدْ عَمِلَ بِحَلَبَ مِنْبَرًا أَمَرَ الصُّنَّاعَ بِالْمُبَالَغَةِ فِي تَحْسِينِهِ وَإِتْقَانِهِ، وَقَالَ: هَذَا قَدْ عَمِلْنَاهُ لِيُنْصَبَ بِالْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ، فَعَمِلَهُ النَّجَّارُونَ فِي عِدَّةِ سِنِينَ لَمْ يُعْمَلْ فِي الْإِسْلَامِ مِثْلُهُ، فَأَمَرَ بِإِحْضَارِهِ، فَحُمِلَ مِنْ حَلَبَ وَنُصِبَ بِالْقُدْسِ، وَكَانَ بَيْنَ عَمَلِ الْمِنْبَرِ وَحَمْلِهِ مَا يَزِيدُ عَلَى عِشْرِينَ سَنَةً، وَكَانَ هَذَا مِنْ كَرَامَاتِ نُورِ الدِّينِ، وَحُسْنِ مَقَاصِدِهِ، رَحِمَهُ اللَّهُ.[1] وَلَمَّا فَرَغَ صَلَاحُ الدِّينِ مِنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ تَقَدَّمَ بِعِمَارَةِ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى وَاسْتِنْفَادِ الْوُسْعِ فِي تَحْسِينِهِ وَتَرْصِيفِهِ، وَتَدْقِيقِ نُقُوشِهِ، فَأَحْضَرُوا مِنَ الرُّخَامِ الَّذِي لَا يُوجَدُ مِثْلُهُ، وَمِنَ الْفَصِّ الْمُذَهَّبِ الْقُسْطَنْطِينِيِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، قَدِ ادُّخِرَ عَلَى طُولِ السِّنِينَ. فَشَرَعُوا فِي عِمَارَتِهِ، وَمَحَوْا مَا كَانَ فِي تِلْكَ الْأَبْنِيَةِ مِنَ الصُّوَرِ، وَكَانَ الْفِرِنْجُ فَرَشُوا الرُّخَامَ فَوْقَ الصَّخْرَةِ وَغَيَّبُوهَا، فَأَمَرَ بِكَشْفِهَا. وَكَانَ سَبَبُ تَغْطِيَتِهَا بِالْفَرْشِ أَنَّ الْقِسِّيسِينَ بَاعُوا كَثِيرًا مِنْهَا لِلْفِرِنْجِ الْوَارِدِينَ إِلَيْهِمْ مِنْ دَاخِلِ الْبَحْرِ لِلزِّيَارَةِ، فَكَانُوا يَشْتَرُونَهُ بِوَزْنِهِ ذَهَبًا رَجَاءَ بَرَكَتِهَا، وَكَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا دَخَلَ بِلَادَهُ بِالْيَسِيرِ مِنْهَا بَنَى لَهُ الْكَنِيسَةَ، وَيَجْعَلُ فِي مَذْبَحِهَا، فَخَافَ بَعْضُ مُلُوكِهِمْ أَنْ تَفْنَى، فَأَمَرَ بِهَا فَفُرِشَ فَوْقَهَا حِفْظًا لَهَا. فَلَمَّا كُشِفَتْ نَقَلَ إِلَيْهَا صَلَاحُ الدِّينِ الْمَصَاحِفَ الْحَسَنَةَ، وَالرَّبَعَاتِ الْجَيِّدَةَ، وَرَتَّبَ الْقُرَّاءَ، وَأَدَرَّ عَلَيْهِمُ الْوَظَائِفَ الْكَثِيرَةَ، فَعَادَ الْإِسْلَامُ هُنَاكَ غَضًّا طَرِيًّا. وَهَذِهِ الْمَكْرُمَةُ مِنْ فَتْحِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ لَمْ يَفْعَلْهَا بَعْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ[2]، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، غَيْرُ صَلَاحِ الدِّينِ، رَحِمَهُ اللَّهُ، وَكَفَاهُ ذَلِكَ فَخْرًا وَشَرَفًا.

وَأَمَّا الْفِرِنْجُ مِنْ أَهْلِهِ فَإِنَّهُمْ أَقَامُوا، وَشَرَعُوا فِي بَيْعِ مَا لَا يُمْكِنُهُمْ حَمْلُهُ مِنْ أَمْتِعَتِهِمْ وَذَخَائِرِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَمَا لَا يُطِيقُونَ حَمْلَهُ، وَبَاعُوا ذَلِكَ بِأَرْخَصِ الثَّمَنِ، فَاشْتَرَاهُ التُّجَّارُ مِنْ أَهْلِ الْعَسْكَرِ، وَاشْتَرَاهُ النَّصَارَى مِنْ أَهْلِ الْقُدْسِ الَّذِينَ لَيْسُوا مِنَ الْفِرِنْجِ، فَإِنَّهُمْ طَلَبُوا مِنْ صَلَاحِ الدِّينِ أَنْ يُمَكِّنَهُمْ مِنَ الْمُقَامِ فِي مَسَاكِنِهِمْ، وَيَأْخُذَ مِنْهُمُ الْجِزْيَةَ، فَأَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، فَاشْتَرَوْا حِينَئِذٍ مِنْ أَمْوَالِ الْفِرِنْجِ. وَتَرَكَ الْفِرِنْجُ أَيْضًا أَشْيَاءَ كَثِيرَةً لَمْ يُمْكِنْهُمْ بَيْعُهَا مِنَ الْأَسِرَّةِ وَالصَّنَادِيقِ وَالْبُتِيَّاتِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ،

---

(1) نرى أن ابن الأثير لا يترك فرصة تمر دون أن يظهر تعلقه بالأسرة الزنكية التي أطاح بها صلاح الدين.

(2) الخليفة الثاني (634 - 644). فتح المسلمون في عهده القدس للمرة الأولى (637).

وتَرَكُوا أيْضًا مِنَ الرُّخَامِ الَّذِي لَا يُوجَدُ مِثْلُهُ، مِنَ الأَسَاطِينِ وَالأَلْوَاحِ وَالْفَصِّ وَغَيْرِهِ، شَيْئًا كَثِيرًا ثُمَّ سَارُوا.

(عماد الدين، 47-69)

ثم رحل من عسقلان للقدس طالباً، وبالعزم غالباً، وللنصر مصاحباً، ولذيل العزّ ساحباً، قد أصحب رَيِّض مناه، وأخصب روض غناه، وأصبح رائح الرجاء، أرِجَ الأرجاء، سيِّب العُرْف، طيِّب العَرْف، ظاهر اليد، قاهر الأيْد. سنى عسكره قد فاض بالفضاء فضاء. وملأ الملأ فأفاض الآلاء. وقد بسط عثيرُ قَتَامه مُلاءته على الفَلَق، وكأنّما أعاد العَجاجُ رأدَ الضحى جنح الغسَق. فالأرض شاكية من إجحاف الجحافل، والسماء حاظية بأقساط القساطل. وسار سارّاً بالأحوال الحوالي، مرويّة أحاديث فتوحه العوالي من العوالي، مطويّة مدارمناجحه على ما تنشره الآمال من الأمالي، وقد حلت وعلت من مغارس النصر ومطالعه المجاني المُجاني، والإسلام يخطب من القدس عروساً، ويبذل لها في المهر نفوساً، ويحمل إليها نُعْمَى ليحمل عنها بُؤسى، ويهدي بشراً ليذهب عبوساً، ويُسمِع صرخة الصخرة المستصرخة المستعدية لإعدائها على أعدائها، وإجابة دعائها، وتلبية ندائها، وإطلاع زُهْر المصابيح في سمائها، وإعادة الإيمان الغريب منها إلى وطنه، وردّه إلى سكونه وسَكَنه، وإقصاء الذين أقصاهم الله بلعنته من الأقصى، وجذب قياد فتحه الذي استعصى، وإسكات الناقوس منه بإنطاق الأذان، وكفّ كفّ الكفر عنه بأيمان الإيمان، وتطهيره من أنجاس تلك الأجناس، وإدناس أدنى الناس، وإفحام الأفهام بإخراس الأجراس. وطار الخبر إلى القدس فطارت قلوب من به رعباً وطاشت، وخفقت أفئدتهم خوفاً من جيش الإسلام وجاشت، وتمنّت الفرنج لمّا شاعت الأخبار أنها ما عاشت، وكان به من مقدّمي الإفرنج باليان بن بارزان والبطرك الأعظم، ومن كِلا الطائفتين الأسبتاريّة والداويّة المقدّم. فاشتغل بال باليان، واشتعل بالنيران، وخمدت نار بَطَر البطرك، وضاقت بالقوم منازلهم فكأنّ كلّ دار منها شَرَك للمُشرِك. وقاموا بالتدبير في مقام الإدبار، وتقسّمت أفكار الكفّار، وأيس الفرنج من الفرج، وأجمعوا على بذل المهج.

ذكر كنيسة قُمامة[1]

وقالوا ههنا نطرح الرؤوس، ونسبك النفوس، ويسفك الدماء، وتُهلك الدهماء، ونصبر على اقتراح القروح واجتراح الجروح، ونسمح بالأرواح شحًا بمحلّ الروح، فهذه قُمامتنا، فيها مُقامتنا، ومنها تقوم قيامتنا، وتصبح همامتنا، وتصحّ ندامتنا، وتسيح علامتنا، وتسُحّ غمامتنا، وبها غرامنا، وعليها غرامتنا، وبإكرامها كرامتنا، وبسلامتها سلامتنا، وباستقامتها استقامتنا، وفي استدامتها استدامتنا، وإن تخلّينا عنها لزمت لآمتنا، ووجبت ملامتنا، ففيها التصلّب والمطلب، والمذبح والمقرّب، والمجمع والمعبد، والمهبط والمصعد، والمرقى والمرقب، والمشرب والملعب، والمموّضه والمذهّب، والمطلع والمقطع، والمربّى والمربع، والمرخّم والمخرّم، والمحلّل والمحرّم، والصُور والأشكال، والأنظار والأمثال، والأساد والأشبال، والأشباه والأشباح، والأعمدة والألواح، والأجسام والأرواح، وفيها صور الحواريّين في حوارهم، والأحبار في أخبارهم، والرهابين في صوامعهم، والأقسّاء في مجامعهم، والسحرة وحبالها[2]، والكهنة وخيالها، ومثال السيّدة والسيّد، والهيكل والمولد، والمائدة والحوت، والمنعوت والمنحوت، والتلميذ والمعلّم، والمهد والصبيّ المتكلم[3]، وصورة الكبش والحمار، والجنّة والنار، والنواقيس والنواميس. قالوا وفيها صُلب المسيح، وقُرّب الذبيح، وتجسّد اللاهوت، وتألّه الناسوت، واستقام التركيب، وقام الصليب، ونزل النور، وزال الديجور، وازدوجت الطبيعة بالأقنوم، وامتزج الموجود بالمعدوم، وعُمدت معمودية المعبود، ومَخضت البتول بالمولود[4].

---

(1) في العربية: القيامة. لكن الكتاب المسلمين آنذاك كانوا يرون من واجبهم تحويل الاسم إلى: القمامة وذلك للحط من قيمتها. وقد أوردها عماد الدين هنا وبعد ذلك تحت هذا الاسم، ويقصد القبر المقدس.

(2) إشارة إلى آية قرآنية تذكر رمي سحرة مصر الحبال أمام موسى (عليه السلام) ليتخيلوا أنها تسعى – الآية 66 سورة 20 (طه).

(3) هذا صدى قرآني آخر: المائدة هي مائدة القربان المقدس التي يرى (كذا) محمد (صلى الله عليه وسلم) أن معجزة أنزلتها من السماء، قرآن (كريم) السورة 5 (المائدة). أما المسيح الصبي المتكلم، قرآن (كريم) "الآية 30 وما بعدها من السورة 19 (مريم)، فهو صدى (كذا) لـ Evangelium Infantiae.

(4) معلومات مجتزأة وعداء مسبق ساهمت في دفع هذا الكاتب المسلم على رسم هذا الخليط العجيب من العقائد والطقوس المسيحية، لكن هذا التصوير الكاريكاتوري للمسيحية، بعيداً عن "الأسلوب المطرز"، هو نفسه الذي نراه عادة لدى مسلمي العهد المتوسط، ولا نستطيع أن نقول بأن الأمر كان مختلفاً لدى الطرف الآخر.

وأضافوا إلى متعبّدهم من هذه الضلالات، ما ضلّوا فيه بالشُّبه عن نهج الدلالات، وقالوا: دون مقبْرة ربّنا نموت، وعلى خوف فوْتها منّا نفوت، وعنها ندافع، وعليها نقارع، ومالنا لا نقاتل، وكيف لا نتنازع ولا ننازل، ولأيّ معنى نتركهم حتى يأخذوا، وندعهم حتى يستخلصوا ما استخلصناه منهم ويستنقذوا. وتأهّبوا وتباهَوْا، وما انتهَوْا بل تناهَوا.

ونصبوا المناجيق أمّات الأسواء على الأسوار، وستروا بظلمات الستائر وجوه الأنوار. واستشاطت شياطينهم، وسرحت سراحينهم، وطغت طواغيتهم، وأصلتت مصاليتهم، ونشرت طواميرهم، وتسعّرت مساعيرهم. وهاج هائجهم، وماج مائجهم، ودعت دواعيهم، وعدت عواديهم، وسعت أفاعيهم، وحضّتهم قسوسهم، وحرّضتهم رؤوسهم، وحرّكتهم نفوسهم، وجاءتهم بجزى السُّوء جواسيسهم، وأخبرتهم بإقبال العساكر الناصريّة[1] منصورة الجنود، منشورة البنود، موصولة القواطع بالأشاجع مهجورة الغمود، مشهورة القواضب، مشهودة الكتائب، مفوّدة الضوامر إلى ثار العدى، مؤذنة الضمائر بنار الهدى، مشبوبة العزائم، مجنوبة الصلادم، مسلولة الظبا، مطلولة الربا، مجنونة أجنّة أغمادها، مسنونة أسنّة صعادها، مطلقة أعنّة جيادها، محققة مظنّة طرادها. قد سالت الوهاد بآكامها، وجالت الأعلام في أعلامها، وسدّت الفجاج أفواجها، ومدّت العجاج أمواجها، وحجبت الغزالة عقبانها، وألهبت الذبالة خرصانها. وجرت بالجبال رياحها، وجُرّت كالحبال رماحها، واشتمل على الضراغم غيلها، وأقبل بالعظائم قبيلها، ووافى كل وافٍ بعهد ربّه، كافٍ لكفّ خطبه، شافٍ لهم قلبه، صافٍ بفيض شربه، خافٍ في لَبُوسه، نافٍ لبُوسه، بامل بياسه، عاسل بأمراسه، ناسل بنَبْت الغمد من جفنه، غاسل نبْت الحدّ بدم قرنه، واصل بيض الهند بسواعده، فاصل خطاب الخطوب ببوارقه ورواعده، حادّ بجدّه. وكل شابٍّ لنار الحرب شابٌّ، وربّ دين لدين الربّ رابّ، وكل جيش كالبحر عبّاب، وكل سالٍ ذي نياب عن الهدى ذابّ، وكل قائل بالآخرة للحياة الدنيا قالٍ، سائل من الله الشهادة عن حبّ البقاء سالٍ، مائل في سبيل الله إلى انفاق مالٍ. وأقبل السلطان بإقبال سلطانه، وابطال شجعانه، وأقيال أولاده وإخوانه، وإشبال

(1) رأينا أن هذا نسبة الى لقب صلاح الدين الناصرلدين الله

مماليكه وغلمانه، وكرام أمرائه، وعظام أوليائه. في مقانب بالمناقب مقنّبه، وكتائب بالمواكب مكتّبة، وذوابل بالكواكب منصّله، وجحافل بفضاء المضارب محفلة، وألوية صُفر للأواء[1] بني الأصفر[2]، وبيض وسمر ترزُق زُرْق العدى من الموت الأحمر، وقباب وقبائل، وقنّا وقنابل، وصوافن وصواهل، وعوامل وعوايل، وفوارس فوارس، وكلّ من يبخُل للشحّ بنفيه النفوس والنفائس. وأصبح يسأل عن الأقصى وطريقه الأدنى، وفريقه الأسنى، ويذكر ما يفتح الله عليه بحسن فتحه من الحسنى.

وصف البيت المقدّس

وقال: "إن أسعدنا من الله على اخراج أعدائه من بيته المقدّس فما أسْعدنا، وأيّ يدٍ له عندنا إذا أيّدنا، فإنه مكث في يد الكفر إحدى وتسعين سنة[3]، لم يتقبّل الله فيه من عابد حسنة، ودامت همم الملوك دونه مُتوسّنه. وخلّت القرون عنه متخلّية، وحلّت الفرنج به متولّية. فما ادّخر الله فضيلة فتحه إلاّ لآل أيّوب، ليجمع لهم بالقبول القلوب، وخصّ به عصر الإمام الناصر لدين الله ليفضّله به على الاعصار، ولتفخر به مصر وعسكرها على سائر الأمصار. وكيف لا يهتمّ بافتتاح البيت المقدّس الأقوى، والمسجد الأقصى المؤسّس على التقوى، وهو مقام الأنبياء، وموقف الأولياء، ومعبد الأتقياء، ومزار أبدال الأرض وملائكة السماء، ومنه المحشر والمنشر، ويتوافد إليه من أولياء الله بعد المعشر المعشر، وفيه الصخرة التي صينت جدّة ابهاجها من الإنهاج، ومنها منهاج المعراج، ولها القبّة الشمّاء التي على رأسها كالتاج، وفيه ومض البارق ومضى البُراق[4]، وأضاءت

---

(1) ترجمها غابرييلي (ألوية صفر لشقاء بني الأصفر).

(2) بعيداً عن تلاعب الألفاظ (الاشتقاق الحقيقي هو من ذكر توراني عن Sofer قريب Esau)، ويرى العرب أنهم قدامى الرومان ثم اللاتين والغربيين، وقد سموا بعدها بالعيون الزرق كوصف عرقي وكوصف تشاؤم وتطير.

(3) الأعوام القمرية للهجرة، من 492 (1099) إلى 583 (1187).

(4) البراق السماوي الذي يعتقد إن محمداً (صلى الله عليه وسلم) انطلق عليه في معجزة المعراج من الصخرة نحو العالم الآخر. وتظهر في النص رغم تزويقات عماد الدين تلك المعالم التي جعلت ومازالت تجعل القدس ثمينة بل ومقدسة لدى المسلمين. راجع بعدها الرسالة التي بعث بها صلاح الدين ريتشارد وظهرت فيها نفس الأسباب.

ليلة الإسراء بحلول السراج المنير فيه الآفاق. ومن أبوابه باب الرحمة[1] الذي يستوجب داخله إلى الجنة بالدخول الخلود، وفيه كرسيّ سليمان ومحراب داود، وله عين سُلْوان التي تُمثّل لواردها من الكوثر الحوض المورود. وهو أول القبلتين[2]، وثاني البيتين، وثالث الحرمين. وهو أحد المساجد الثلاثة التي جاء في الخبر النبوي أنها تشدّ إليها الرّحال، ويعقد الرجاء بها الرجال. ولعلّ الله يعيده بنا إلى أحسن صورة، كما شرّفه بذكره مع أشرف خلقه في أوّل سورة، وقال عزّ من قائل [سُبحٰنَ الذي أسرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرامِ إلى المَسْجِدِ الأقْصَى][3]. وله فضائل ومناقب لا تحصى، وإليه ومنه كان الإسراء، ولأرضه فتحت السماء، وعنه تؤثر أنبا الأنبياء، وآلاء الأولياء، ومشاهد الشهداء، وكرامات الكرماء، وعلامات العلماء. وفيه مبارك المبارّ، ومسارح المسارّ، وصخرته الطولى، القبلة الأولى، ومنها تعالت القدم النبويّة، وتوالت البركة العلويّة، وعندها صلّى نبيّنا صلعم بالنبيّين، وصحب الروح الأمين، وصعد منها إلى أعلى عليّين، وفيه محراب مريم عم الذي قال الله فيه [كُلّما دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَريا][4]. ولنهاره التعبّد ولليله المَحْيا، وهو الذي أسسه داود وأوصى ببنائه سليمان، ولأجل إجلاله أنزل الله سُبحان، وهو الذي افتتحه الفاروق[5] وافتتحت به سورة الفرقان، فما أجلّه وأعظمه، وأشرفه وأفخمه، وأعلاه وأجلاه، وأسماه وأسناه، وأيمن بركاته وأبرك ميامنه، وأحسن حالاته وأحلى محاسنه، وأزين مباهجه وأبهج مزاينه. وقد أظهر الله طوله، بقوله [الذي باركْنا حَوْلَه][6] وكم فيه من الآيات التي أراها الله نبيّه، وجعل مسموعنا من فضائله مرئية."

---

(1) باب الرحمة، المسمى اليوم بالباب الذهبي، أحد أبواب المعبد المقدس.

(2) القبلة هي وجهة الصلاة التي جعلها (كذا) محمد (صلى الله عليه وسلم) نحو القدس قبل أن يحوّلها نهائياً (كذا) نحو مكة. فالقدس هي إذن أول القبلتين، وثالث الحرمين بعد مكة والمدينة، وفيها بيت الله الثاني بعد الكعبة.

(3) قرآن (كريم) الآية 1 من السورة 17 (الإسراء)، وفيها ذكر إسراء النبي (صلى الله عليه وسلم) من مكة الى القدس. وبعده المعراج الليلي نحو السماء.

(4) قرآن (كريم) الآية 37 من السورة 3 (آل عمران)

(5) لقب الخليفة عمر

(6) قرآن (كريم) الآية 1 من السورة 17 (الإسراء)

ووصف السلطان من خصائصه ومزاياه، ما وثَّق على استعادة آلائه مواثيقه وألاياه، وأقسم لا يبرح حتى يَبَرّ قسَمُه، ويُرفع بأعلاه علَمه وتخطوا إلى زيارة موضع القدم النبويّة قدمه، ويصغي إلى صرخة الصخرة، ويبقي بالبُشرى بِشر أسرة الأسْره[1] وسار واثقاً بكمال النصرة وزوال العسرة، وحسر الفرنج قناع الحسرة، ونزل على غربيّ القدس يوم الأحد خامس عشر رجب (20 ايلول/سبتمبر) وقلب الكفر قد وجب، وحزب الشرك قد شارف الشّجى والشّجب، والفتر قد أظهر العجب. وكان في القدس حينئذ من الفرنج ستّون ألف مقاتل، من سائف ونابل، وبطل للباطل، وعامي عاسل بالعاسل، قد وقفوا دون البلد يبارزون ويحاجزون، ويعاجزون ويناجزون، ويرمون ويُدمون، ويَحمُون ويحمُون، ويحتدّون ويحتّدمون، ويضطربون ويضطرمون، ويذودون ويذبّون، ويشبّون ويسبّون، ويصرّخون ويُحرّضون، ويلبثون ويتغوّثون، ويلوذون ويلوبون، ويجولون ويجوبون، ويُقدمون ويحجمون، ويتململون ويألمون ويتعاوون، ويتضاغون، ويحترقون للبلايا، ويقترحون المنايا. وقاتلوا أشد قتال، وناضلوا أحدّ نضال، ونازلوا أجدّ نزال، وطافوا بصحاف الصفاح، لإرواء الظُّبا الظماء من ماء الأرواح، وجالوا بالأوجال، وأجالوا قداح الآجال، وصالوا لقطع الأوصال. والتهموا والتهبوا، وتشبّبوا ونشبوا، واستهدفوا للسهام، واستوقفوا للحمام، وقالوا "كل واحد منا بعشرين، وكل عشرة بمئتين، ودون القيامة تقوم القيامة، ولحب سلامتها نُقلى السلامة" ودامت الحرب، واستمرّ الطّعن والضرب.

فانتقل السلطان يوم الجمعة العشرين من رجب (25 ايلول/سبتمبر) إلى الجانب الشماليّ وخيّم هنالك، وضيّق على الفرنج المسالك، ووسّع عليهم المهالك، ونصب المجانيق، ومرّى من آفاتها الأفاويق، وأصرخ الصخرة بالصخور، وحشر حشْر السوء منهم وراء السور، فما عادوا يخرجون من السور الرؤوس، إلا ويلقون البوس، واليوم العبوس، ويُلقون على الردى النفوس. فالداوية ذويّ، وللبارونيّة من البوار في الهاوية هُويّ. وللاسبتار تبار، وما للفريريّة من الموت فرار، وما بين الحجار المحلّقة وبين المرمى إليهم حجاب، وفي كل قلب من الفئتين من نار

---

(1) أي من العائلة الأيوبية.

حرصه التهاب، إذا الوجوه لقَبْل النصال مكشوفة، والقلوب للوجد بالقتال ملهوفة، والأيدي على قوائم السيوف المفتوحة مضمومة، والنفوس لاستبطاء الهمم في الاهتمام مهمومة، وقواعد السور ونواجذ شراريفه بالأحجار الخارجة من الكفات مهدومة مهتومة، فكأنّ المجانيق مجانين يُراصُون، ومناجيد لا يُرامُون، وجبال تجذبها حبال، ورجال تنجدها رجال، وأمّات الدواهي والمنايا، وحوامل تلد البلايا، لا حَجْر عليها في حَجَر، ولا أمن عقدها من حذر، ولا تخطر سهامها إلا بالخطر، ولا يفطر مروزها إلا مرارات ذوي الفِطَر[1]. فكم نجم من سمائها ينقضّ، وصخر من أرضها يرفضّ، وجمر من شرارها ينفضّ. وما شيء كآفات كفّاتها، وآيات نكاياتها؛ ودركات ادراكاتها، ولفتات فلتاتها، وجذبات غذباتها. فما زالت تقلع بمقالعها، وتقرع بمقارعها، وتشدخ بأشطانها، وتمرح في أرسانها؛ وتصدم وتهدم، وتصرع وتصدع، وتنهز بدلائها، وتجهز ببلائها، وتحلّ تركيب الجلاميد بأفراد جلاميدها وتفلّ شمل المباني بتفريقها وتبديدها، وتقوّض القواعد بضربها من أساسها، وتنفّض المقاعد بجذبها في أمراسها، وتشفه الموارد بشربها من كأسها؛ حتى تركت السُوّر سُؤرا، وجعلت الذاب عنه محسورا، وعاد العتوّ من نظمه المبتور مبتورا، وخرق الخندق وحُفر الزحف، وظهر للإسلام الفتح وللكفر الحتف، وأُخذ النقب، وسُهل الصعب، وبُذل المجهود، وحصل المقصود، وكُفل المراد، وكُلم المزاد، وثُغر الثغر، وأُمر الأمر، وأربى الأرب، واستتبّ السبب، وخاف القوم الزؤم، واستعاضوا من الصحّة السُقْم وأسلم البلد وقُطع زُنّار خندقه، وبرز ابن بارزان ليأمن من السلطان بموثقه، وطلب الامان لقومه، وتمنّع السلطان وتسامى في سومه؛ وقال "لا أمن لكم ولا أمان، وما هو أنا إلاّ أن نديم لكم الهوان، وغدا نملككم قسرا، ونوسعكم قتلا وأسرا. ونسفك من الرجال الدماء، ونسلّط على الذرّيّة والنساء السباء." وأبى في تأمينهم إلاّ الإباء؛ فتعرّضوا للتضرّع، وتخوّفوا وخوّفوا عاقبة التسرّع، وقالوا: "إذا أيسنا من أمانكم، وخفنا من سلطانكم، وخبنا من احسانكم، وأيقنا أنه لا نجاة ولا نجاح، ولا صلح ولا صلاح، ولا سِلْم ولا سلامة،

---

(1) يبدو أنه يريد القول إنها كانت تبث الرعب بشكل تتفطر معه مرارة من يستطيع تفسير أثرها المميت. لكن هذه الصور لم تذكر إلا لصالح السجع الذي يضيع في هذه الترجمة.

ولا نعمة ولا كرامة، فأنّا نستقتل فنقاتل قتال الندم، ونقابل الوجوه بالعدم، ونُقدِم إقدام المُستشري بالشرّ، ونقتحم اقتحام المستضري من الضرّ، ونُلقي أنفسنا على النار، ولا نُلقي بأيدينا إلى التهلكة والعار، ولا يُجرح واحد منا حتى يَجرح عشرة، ولا تضمّنا يد الفتك حتى تُرى أيدينا بالفتك منتشره، وأنّا نحرق الدُور ونخرب القبّة، ونترك عليكم في سَبْينا المُبَه، ونقلع الصخرة، ونوجد كم عليها الحسرة. ونقتل كل من عندنا من أسرى المسلمين وهم ألوف، وقد عُرف أن كلاً منّا من الذلّ عزوف وللعزّ ألوف، وإمّا الأموال فأنّا نُعطبها ولا نعطيها، وإما الذراري فأنّا نسارع إلى إعدامها ولا نستبطيها. فأية فائدة لكم في هذا الشح؟ وكل خُسْر لكم في هذا الربح، ورُبّ خيبة جاءت من رجاء النُجْح، ولا يُصلح السُوءَ سوى الصلح، ورُبّ مُدلج أضلّه ظلام الليل قبل أسفار الصبح".

فعقد السلطان مَحْضرا للمشُورة، وأحضر كبراء عساكره المنصوره، وشاورهم في الأمر، وحاورهم في السرّ والجهر، واستطلع خبايا ضمائرهم، واستكشف خفايا سرائرهم، واستورى زندهم، واستعلم ما عندهم، وراوضهم على المصلحة المترجحه، وفاوضهم في المصلحة المُربحه، وقال: "إن الفرصة قد أمكنت فنحرص في انتهازها، وإن الحصّة قد حصلت ونستخير الله في إحرازها، وإن فاتت لا تُستدرك، وإن أفلتت لا تُملك" فقالوا: "قد خصّك الله بالسعادة، وأخلصك لهذه العباده، ورأيك راشد، وعزمك لضالّة النصر ناشد، وأمرك لأشتات المنائح وأسباب المناجح حاشد، وكلّنا لك في اغتنام فتح هذا الموضع الشريف مناشد". واستقرّ بعد مراودات ومعاودات، ومفاوضات وتفويضات، وضراعات من القوم وشفاعات: على قطيعة تكمل بها الغِبْطه، وتحصل منها الحَوْطه، اشتروا بها منّا أنفسهم وأموالهم، وخلّصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم. على أنه من عجز بعد أربعين يوماً عمّا لزمه، أو امتنع منه وما سلّمه، ضُرب عليه الرقّ، وثبت في تملّكه لنا الحقّ، وهو عن كل رجل عشرة دنانير وكل امرأة خمسة وكل صغير أو صغيرة ديناران. ودخل ابن بارزان والبطرك ومقدّما الداوية والإسبتار في الضمان، وبذل ابن بارزان ثلثين ألف دينار عن الفقراء، وقام بالأداء ولم ينكل عن الوفاء. فمن سلّم خرج من بيته آمنا، ولم يعد إليه ساكنا.

وسلموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب (2 تشرين أول/اكتوبر) على هذه القطيعة، ورتّوه بالرغم ردّ الغضب لا الوديعة. وكان فيه أكثر من مائة ألف إنسان، من رجال ونساء وصبيان، فأغلقت دونهم الأبواب، ورُتِّب لعرضهم واستخراج ما يلزمهم النوّاب، ووكّل بكل باب أمير، ومقدّم كبير، يحصر الخارجين، ويحصي الوالجين، فمن استخرج منه خرج، ومن لم يقم بما عليه قعد في الحبس وعدم الفرج، ولو حُفظ هذا المال حقّ حفظه، لفاز منه بيت المال بأوفر حظّه لكنّما تمّ التفريط، وعمّ التخليط، فكلّ من رشا مشى، وتنكّب الأمناء نهج الرشد بالرّشا، فمنهم من أُدلي من السور بالحبال، ومنهم من حُمل مخفيًا في الرحال، ومنهم من غُيّرت لبسته فخرج بريء الجسد، ومنهم من وقعت فيه شفاعة مطاعة لم تقابل بالرد.

وكانت في القدس ملكة روميّة مترهّبة، في عبادة الصليب متصلّبة، وعلى مُصابها به متلهّبة، وفي التمسّك بملّتها متصعّبة متعصّبة، أنفاسها متصاعدة للحُزن، وعبراتها متحدّرة تحدّر القطرات من المُزن. ولها حال ومال وأشياء وأشباع، ومتاع وأتباع، فمنّ عليها السلطان وعلى كل من معها بالإفراج، وأذن في إخراج كل مالها في الأكياس والأخراج. فراحت فرْحى. وإن كانت من شجنها قرحى.

وكانت زوجة الملك المأسور ابنةُ الملك أماري[1]، مقيمة في جوار القدس مع مالها من الخدم والخوَل والجواري، فخلصت هي بمن معها ومن تبعها، ومن ادّعى أنه ممن صحبها وشيّعها. وكذلك الإبرنساسة ابنة فيليب أمّ هنفري[2] أُعفيت من الوزْن، وتوفّر مالها عليها في الخُزن. واستطلق صاحب البيْرة زُهاء خمسمائة أرمنيّ ذكر أنهم من بلده، وإنّ الواصل منهم إلى القدس لأجل متعبّده، وطلب مظفّر الدين بن علي كُوجك زهاء ألف أرمني ادّعى أنهم من الرُّها، فأجراه السلطان من إطلاقهم له على ما اشتهى. وكان السلطان قد رتّب عدّة دواوين، في كل ديوان منها عدّة من النوّاب المصريّين ومنهم من الشاميّين، فمن أخذ من أحد

---

(1) الملكة Sibilla ابنة الملك Amauri

(2) Stefania ابنة Filippo di Milly وأرملة Renaud de Chatillon وأم Henfroi de Thoron

الدواوين خطًّا بالأداء انطلق مع الطُّلقاء، بعد عرض خطّه على من بالباب من الأمناء والوكلاء. فذكر لي من لا أشكّ في مقاله، أنه كان يحضر في الديوان ويطّلع على حاله. فربّما كتبوا خطًّا لمن نقده في كيسهم، ويلبس أمرَ تلبيسهم، فكانوا شركاء بيت المال لا أمناءه، وخانوه على ما حصل لكل من الغنى والنفع وما أضرّ غناه، ومع ذلك حصل لبيت المال ما يقارب مائة ألف دينار، وبقي من بقي تحت رقّ وإسار، يُنتظر به انقضاء المدّة المضروبه، والعجز عن الوفاء بالقطيعة المطلوبه.

ذكر يوم الفتح وهو سابع عشري رجب

واتّفق فتح البيت المقدّس في يوم كان في مثل ليلته منه المعراج، وتمّ بما وضح من منهاج النصر الابتهاج، وزاد من الألسنة بالدعاء والابتهال الالتهاج. وجلس السلطان للهناء، للقاء الأكابر والأمراء والمتصوّفة والعلماء، وهو جالس على هيأة التواضع وهيبة الوقار، بين الفقهاء وأهل العلم جلسائه الأبرار، ووجهه بنور البشر سافر، وأمله بعزّ النجح ظافر. وبابه مفتوح، ورفده ممنوح، وحجابه مرفوع، وخطابه مسموع، ونشاطه مُقبل، وبساطه متسّل، ومُحيّاه يلوح، وريّاه يفوح، ومحبّته تروق ومهابته تروع، وآفاقه وأخلاقه تضوع، ويده لفيض أمواه السخاء، وفضّ أفواه العطاء، ظاهرها قِبْلة القُبَل[1]، وباطنها كعبة الأمل، قد حلّت له حالة الظفر، وكانّ دستُه به هالة القمر، والقرّاء جلوس يقرأون ويُرشِدون، والشعراء وقوف يُنشِدون ويَنشُدون، والأعلام تبرز لتُنشَر، والأقلام تزبر لتُبشِّر، والعيون من فرط المسرّة تدمع، والقلوب للفرح بالنصر تخشع، والألسنة بالإبتهال الى الله تضرّع. والكاتب ينشي ويوشّي ويوشّع. والبليغ يسهب ويوجز ويضيق ويوسع، فما شنّفت قلمي إلا بشائر أزري البشائر،[2] ولاوجهت كلمي إلا لطائف وحي اللطائف، وما أرسلت يراعي إلا ليراعي الرسائل، ويشيّع الفضائل، ويُشيع الفواضل، ويشبع

---

(1) أي هدفاً ووجهة كما اسلفنا

(2) يبدأ الكاتب هنا بمدح نفسه، على أنه ذو القلم الفاضل والكاتب السلطاني الأمين في التعبير عن الإرادة السلطانية.

القول، ويسبغ الطَّوْل، ويطول بالحجّة وإن كان في حجمه قِصَر، ويصول باللّهجة وإنكان في هجْمه حصَر، ويمضي الملك به وهو نحيف، ويثقل الجيش به وهو خفيف، ويبدي بياض الغُرّة من سواد الدُهمه، ويجلو بهجة الضياء من محجّة الظلمه، ويجري بالآجال والأرزاق، والمنع والاطلاق، والخلف والوفاق، والإرفاق والإعتاق، والعِدة والإنجاز، والجدّة والإعواز، والفتق والرتق، والرقع والخرق. وهو الذي يجمع الجيوش، ويرفع العروش، ويوحش المستأنس ويؤنس المستوحش، وينعش العاثر ويُعثر المنتعش. يجري بالأعداء، وبالإيلاء للأولياء. فبشّرت بأقلامي أقاليم البشر، وعبّرت بإعاجيبي عن عجائب العبر، وملأت البروج[1] بالدراري والدُّروجَ بالدُرر، وزُيِّنت تلك البشرى حتى أطابت ريّا الريِّ وسمر سَمَرقند[2]، وأطربت وحلت حتى فاقت القنْديد والقند، وعُلِّقت بفتح القدس بلاد الإسلام وزُيِّنت، وشُرحت فضيلتها وبُيّنت، وأُدِّيت فريضة زيارتها وتعيّنت.

ذكر ما جرت عليه حال الفرنج في خروجهم من القدس

وشرع الإفرنج في بيع الأمتعه، واستخراج ذخائرهم المودعه، وباعوها بالمجّان في سوق الهوان، وتقاعد الناس بهم فابتاعوها بأرخص الأثمان، وباعوا بأقلّ من دينار كل ما يساوي أكثر من عشره، وجدّوا في ضمّ ما وجدوا من أمور لهم منتشره، وكنسوا كنائسهم[3]، وأخذوا منها نفائسهم، ونقلوا منها الذهبيّات والفضّيّات، من الأواني والقناديل، والحريريّات والمذهبات، من الستور والمناديل. ونفضوا من الكنائس الكنائن، واستخرجوا من الخزائن الدفائن. وجمع البطرك الكبير كل ما كان على القبر، من صفائح التبْر، ومصوغات العسجد ومصنوعات اللُّجين، وجمع ما كان في قمامة من الجنسين والنسْجين. فقلت للسلطان: "هذه أموال وافره، وأحوال ظاهره، تبلغ مائتي ألف دينار، والأمان على أموالهم لا أموال

(1) تلاعب بلفظة البروج بين معنيي برج القلعة وبرج الفلك

(2) تلاعب بالألفاظ ويحيها مرة اخرى للتعبير عن انتشار الخبر السعيد حتى في انحاء بلاد فارس وآسيا الوسطى الاسلامية

(3) ذكر هذا حيا في الجناس او انه يشير الى صناديق الصدقات وماشابهها

الكنائس والأديار، فلا نتركها في أيدي هؤلاء الفجّار". فقال: "إذا تأوّلنا عليهم نسبونا إلى الغدر، وهم جاهلون بسرّ هذا الأمر، فنحن نجريهم على ظاهر الأمان، ولا نتركهم يرمون أهل الإيمان بنكث الأيمان، بل يتحدّثون بما أفضناه من الإحسان". فتركوا ما ثقل وحملوا ما عزّ وخفّ، ونفضوا من تراب تُراثهم، وقُمامة قُمامتهم[1] الكفّ. وانتقل معظمهم إلى صور، وكثّفوا بالدّيْجُور الدّيْجُور وبقي منهم زهاء خمسة عشر ألفا امتنعوا من مشررع الحقّ، فاختصّوا بمشروط الرقّ. فأمّا الرجال وكانوا في تقدير سبعة آلاف، فإنهم ألفوا ذلاً لم يكونوا له بالآف، فاقتسمتْهم أيدي السبي أيدي سبا، وتفرّق الغانمون بجمعهم في الوهاد والرُبا. وأحصيت النساء والصبيان ثمانية آلاف نسمه، عادت بيننا مقتسمه، وأصبحت ببكائها وجوه الدولة مبتسمة. فكم محجوبة هُتكت، ومالكة مُلكت، وعزباء نُكحت، وعزيزة مُنحت، وبخيلة تسمّحت، وخبيّة نُوفحت، ومُجدّة مُزحت، ومصونة ابتُذلت، وفارغة شُغلت، وعقيلة امتُهنت، وجميلة امتُحنت، وعذراء افتُرعت، وشمّاء فُرعت، ولمياء رُشفت، وظمياء فُرشت، وريّضة أصحبت، ورضيّة أُصبحت. فكم تسرّى منهنّ بريّ، وتجرّأ عليهنّ جريّ، وقضى وطره عزّب، ونفى نهمه سغب، وفثأ سَوْرته شَجب. وكم غانية استُخلصت، وغالية استُرخصت، ووالية اعتزلت، وعالية استُنزلت، ووحشيّة صيدت، وعرشيّة قيدت. ولمّا نقّص القدس من رجس الفرنج أهل الرِجْز، وخلع لباس الذلّ ولبس خلع العزّ، أبى النصارى بعد أداء القطيعة إن يخرجوا، وتضرّعوا في أن يسكنوا ولا يزعجوا، وبذلوا خِدما وخدموا ببذول، وقابلوا كل ما أُلزموا به بالتزام وقبول، [وأعطوا الجزية عن يَدٍ وهُم صَاغِرُونَ].[2] وشَخت أفواههم بما شجاهم فزاد شجاهم وهم فاغرون، ودخلوا في الذمّه، وخرجوا إلى العصمه، وشُغلوا بالخدمه، واستُعملوا في المهنه، وغدّوا المِنْحة في تلك المِحنه.

---

(1) اي الى كنيسة القبر المقدس كما في هامش سابق

(2) قرآن (كريم) الآية 29 من السورة 9 (التوبة) نقلها غابريلي بالايطالية عن ترجمة حديثة بقلم F. Rosenthal

ذكر ما أظهره السلطان في القدس
من الحسنات ومحاه من السيئات

ولمّا تسلّم السلطان القدس أمر بإظهار المحراب[1]، وحتّم به أمر الإيجاب. وكان الداويّة قد بنوا في وجهه جدارا وتركوه للغلّة هُرْيًا، وقيل كانوا اتخذوه مُستراحا عدوانا وبغيا. وكانوا قد بنوا من غربيّ القبلة دارا وسيعه، وكنيسة رفيعه. فأوعز برفع ذلك الحجاب. وكشف النقاب عن عروس المحراب، وهدم ما قدّامه من الأبنيه، وتنظيف ما حوله من الأفنيه، بحيث يجتمع الناس في الجمعه، في العرصة المتّسعه. ونُصب المنبر، وأُظهر المحراب المطهر. ونُقض ما أحدثوه بين السواري وفرشوا تلك البسيطة بالبسط الرفيعة عوض الحُصر والبواري، وعلقت القناديل، وتلي التنزيل، وحقّ الحقّ وبطلت الأباطيل، وتولّى الفرقان وعُزل الإنجيل، وصُفّت السجّادات، وصفت العبادات، وأقيمت الصلوات، وأديمت الدعوات، وتجلّت البركات، وانجلت الكُرُبات، وانجابت الغيابات، وانتابت الهدايات، وتليت الآيات، وأعليت الرايات. ونطق الأذان[2] وخرس الناقوس، وحضر المؤذّنون وغاب القسوس، وزال العبوس والبوس، وطابت الأنفاس والنفوس، وأقبلت السعود وأدبرت النحوس. وعاد الإيمان الغريب منه إلى موطنه، وطُلب الفضل من معدنه، وورد القرّاء وقرىء الأوراد، واجتمع الزهّاد والعبّاد والأبدال والأوتاد[3] وعُبد الواحد ووحّد العابد، وتوافد الراكع والساجد، والخاشع والواجد، والزاهي والزاهد، والحاكم والشاهد، والجاهد والمجاهد، والقائم والقاعد، والمتهجّد الساهد، والزائر والوافد. وصدع المُذكّر، وانبعث المعشر، وذكر البعث والمحشر، وأملى الحفّاظ، وأسلى الوعّاظ، وتذكر العلماء، وتناظر الفقهاء، وتحدّث

---

(1) محراب الصلاة في قبلة المسجد الأقصى الذي يدور عنه الحديث في هذا المقطع، قارن هذا مع رواية ابن الأثير السابقة.

(2) يفسر غابرييلي معنى الأذان ثم يكرر معنى ألواح الخشب التي كان مسيحيو الشرق يستعملونها بدل الناقوس

(3) أوتاد الخيام والأوتاد من درجات الصوفية أيضاً، وترجمنا "الأبدال" بعبارة كبار القديسين، وهم أيضاً من درجاتهم.

الرواة وروى المحدّثون، وتحنّف الهداة وهدى المتحنّفون، وأخلص الداعون ودعا المخلصون، وأخذ بالعزيمة المترخّصون، ولخّص المفسّرون وفسّر الملخّصون، وانتدب الفضلاء، وانتدب الخطباء، وكثر المترشّحون للخطابة، المتوشّحون بالإصابه، المعروفون بالفصاحه، الموصوفون بالحصافه، فما فيهم إلاّ من خطب الرتبه، ورتّب الخطبه، وانشأ معنى شائقا، ووشّى لفظا رائقا، وسوّى كلاما بالموضع لائقا، وروى مبتكرا من البلاغة فائقا. وفيهم من عرض عليّ خطبته[1]، وطلب منّي نصبته، وتمنّى أن ترجح فضيلته، وتنجح وسيلته، وتسبق منيّته فيها أمنيّته، وكلّهم طال إلى الإلتهاب بها عنقه، وسال من الإلتهاب عليها عرقه، وما منهم إلاّ من يتأهّب ويترقّب ويتوسّل ويتقرّب، وفيهم من يتعرّض ويتضرّع، ويتشوّف ويتشفّع. وكل قد لبس وقاره ووقّر لباسه، وضرب في أخماسه أسداسه، ورفع لهذه الرياسة رأسه. والسلطان لا يعيّن، ولا يبيّن، ولا يخصّ، ولا ينصّ ومنهم من يقول "ليتني خطبت في الجمعة الأولى، وفزت باليد الطّولى، وإذا ظفرت بطالع سعدي، فما أبالي بمن يخطب بعدي". فلمّا دخل يومُ الجمعة رابع شعبان، أصبح الناس يسألون في تعيين الخطيب السلطان، وإمتلأ الجامع، وإحتفلت المجامع، وتوجّست الأبصار والمسامع، وفاضت لرقّة القلوب المدامع، وراعت لحنة تلك الحالة وبهاء تلك البهجة الروائع، وشاعت من سرّ السرور بلبس حبَر الحبور الشوائع. وغصّت بالسابقين إليها المواضع، وتوسّمت العيون، وتقسّمت الظنون، وقال الناس "هذا يوم كريم وفضل عميم، وموسم عظيم. هذا يوم تجاب فيه الدعوات، وتصبّ البركات، وتسال العبَرات، وتقال العثرات، ويتيقّظ الغافلون، ويتّعظ العاملون، وطوبى لمن عاش، حتى حضر هذا اليوم الذي فيه انتعش الإسلام وارتاش. وما أفضل هذه الطائفة الحاضرة، والعصبة الطاهرة، والأمّة الظاهرة، وما اكرم هذه النصرة الناصريّه، والأسرة الإماميّه، والدعوة العباسيه[2]،

---

(1) أي طالبا لتوسّط كاتب السلطان، ورغم المحسنات البديعية التي نمّق بها كاتبنا روايته عن هذه المسابقة، فإن جمال السعي نحو نيل المنصب يبدو بوضوح.

(2) حافظ صلاح الدين السني على صلته النظرية بالخلافة العباسية بينما قضى على الخلافة الفاطمية المنشقة في مصر.

والمملكة الأيوبيّه، والدولة الصلاحيّه، وهل في بلاد الإسلام أشرف من هذه الجماعه، التي شرّفها الله تعالى بالتوفيق لهذه الطاعة". وتكلّموا فيمن يخطب، ولمن يكون المنصب، وتفاوضوا في التفويض، وتحدثوا بالتصريح والتعريض. والأعلام تُعلى، والمنبر يكسى ويجلى، والأصوات ترتفع، والجماعات تجتمع، والأفواج تزدحم، والأمواج تلتطم، وللعارفين من الضجيج، ما في عرفات[1] للحجيج، حتى حان الزوال، وزال الإعتدال، وجَعَل الداعي، وأعجل الساعي. فنصب السلطان الخطيب بنصّه، وأبان عن اختياره بعد فحصه. وأوعز إلى القاضي محيي الدين أبي المعالي محمد بن زكيّ الدين علي القُرَشيّ بأن يرقى ذلك المرقى، وترك جباة الباقين بتقديمه عَرَقى. فأعرته من عندي أهْبة سوداء من تشريف الخلافه، حتى تكمّل له شرف الإفاضة والإضافه، فرقي العود، ولقي السعود، واهتزّت اعطاف المنبر، واعتزّت أطراف المعشر، وخطب وأنصتوا، ونطق وسكتوا، وأفصح وأعرب، وأبدع واغرب، واعجز واعجب، واوجز وأسهب. ووعظ في خطبتيه، وخطب بموعظتيه: وأبان عن فضل البيت المقدّس وتقديسه، والمسجد الأقصى من أوّل تأسيسه، وتطهيره بعد تنجيسه، وإخراس ناقوسه وإخراج قسّيسه، ودعا للخليفة والسلطان، وختم بقوله تعالى [إنّ الله يأمُرُ بالعدل والإحسان]، ونزل وصلى في المحراب، وافتتح بسم الله من أمّ الكتاب[2]، فائتمّ بتلك الأُمّه، وتمّ نزول الرحمه، وكمل وصول النعمه. ولمّا قضيت الصلاة انتشر الناس، واشتهر الإيناس، وانعقد الإجماع واطّرد القياس[3]. وكان قد نُصب للوعظ تجاه القبلة سرير، ليفرغه كبير، فجلس عليه زين الدين أبو الحسن علي بن نجا، فذكّر من خاف ومن رجا، ومن سعد ومن شقي ومن هلك ومن نجا، وخوّف بالحجّة ذوي الحجا، وجلا بنور عظاته من ظلمات الشُّبُهات ما دَجا، وأتى بكلّ عِظه، للراقدين موقظه، وللظالمين مُحفظه، ولأولياء الله مرقّقة ولأعداء الله مغلّظه.

---

(1) عرفات قرب مكة من مواقع الحج الاسلامي حيث يحيي الحجاج بالتعبد والصلاة الليل في القيام (كذا)

(2) ام الكتاب أي السورة الاولى او الفاتحة والتي تبدأ بالبسملة

(3) الإجماع والقياس من مبادئ الفقه الإسلامي

وضجّ المتباكون، وعجّ المتشاركون، ورقّت القلوب، وخفّت الكروب، وتصاعدت النغرات، وتحدّرت العَبَرات، وتاب المذنبون، أناب المتحوّبون، وصاح التوّابون، وناح الأوّابون. وجرت جالات جلت، وجلوات حلت، ودعوات علت، وضراعات قبلت، وفُرَص من الولاية الإلهيّة انتُهزت، وحصص من العناية الربّانية أُحرزت، وصلّى السلطان في قبّة الصخرة والصفوف على سعة الصحن بها متّصلة، والأمّة إلى الله بدوام نصره مبتهلة، والوجوه الموجّهة إلى القبلة عليه مُقبلة، والأيدي إلى الله مرفوعة، والدعوات له مسموعة. ثم رتّب في المسجد الأقصى خطيبا استمرّت خطبته، واستقرّت نصبته.

وصف الصخرة المعظّمة عمّرها الله

وأمّا الصخرة فقد كان الفرنج قد بنوا عليها كنيسة ومذبحا، ولم يتركوا فيها للأيدي المتبرّكة[1] ولا للعيون المدركة ملمسا ولا مطمحا، وقد زيّنوها بالصُّوَر والتماثيل، وعيّنوا بها مواضع الرهبان ومحطّ الإنجيل، وكمّلوا بها أسباب التعظيم والتبجيل. وأفردوا فيها لموضع القدم قبّة صغيرة مذهّبه، بأعمدة الرّخام منصّبه، وقالوا محلّ قدم المسيح، وهو مقام التقديس والتسبيح، وكانت فيها صور الأنعام، مثبّتة في الرخام. ورأيتُ في تلك التصاوير، أشباه الخنازير[2]، والصخرة المقصودة المزُوره، بما عليها من الأبنية مستوره، وبتلك الكنيسة المعمورة مغموره. فأمر السلطان بكشف نقابها، ورفع حجابها، وحسر لثامها، وقشر رخامها، وكسر رجامها، ونقض بنائها، وفضّ غطائها، وإبرازها للزائرين، وإظهارها للناظرين، ونزع لَبُوسها، وزفاف عروسها، وإخراج درّها من الصدف، وإطلاع بدرها من السُّدف، وهدم سجنها، وفكّ رهنها، وإراءة حسنها، وإضاءة يُمنها، وإبداء وجهها الصبيح، وجلاء شرفها الصريح، وردّها إلى الحالة الحاليه، والقيمة الغاليه، والرتبة العاليه. وهي التي حلْيُها عطَلٌ وعطلها حلْي، وعُرْيُها كُسوة وكسوتها عُرْي، فعادت كما

---

(1) انتقال البركات من الاشخاص والاشياء المقدسة

(2) تصاوير حيوانية من الفن الروماني (تيجان اعمدة ونقوش بارزة) أما عن الخنازير فهناك شك بان المقصود هو الحيوان بالذات ام انها كناية عن ذكر المسيحيين.

كانت في الزمن القديم، وشهدت حين شوهدت بخصبها الكريم وسِيْمَ بهاء صنتها الوسيم. وما كان يظهر منها قبل الفتح إلاّ قطعة من تحتها، قد أساء أهل الكفر في نحتها، وظهرت الآن أحسن ظهور، وسفرت ايمن سفور، وأشرقت القناديل من فوقها نورا على نور، وعُملت عليها حظيرة من شبابيك حديد، والإعتناء بها إلى الآن كل يوم في مزيد. ورتّب السلطان في قبّة الصخرة إماما من أحسن القرّاء تلاوة، وأزينهم طلاوة، وأنداهم صوتا، وأسماهم في الديانة صيتا، وأعرفهم بالقرآات السبع بل العشر[1]، وأطيبهم في العرف والنشر، وأغناه وأقناه، وأولاه لمّا ولاّه، ووقف عليه دارا وأرضا وبستانا، وأسدى إليه معروفا دارّا وإحسانا. وحمل إليها وإلى محراب المسجد الأقصى مصاحف وختمات، وربعات معظّمات، لا تزال بين أيدي الزائرين على كراسيّها مرفوعة، وعلى أسرّتها موضوعة. ورتّب لهذه القبّة خاصّة وللبيت المقدّس عامّة، قومة لشمل مصالحها ضامة، فما ترتّب إلاّ العارفون العاكفون، القائمون بالعبادة الواقفون. فما أبهج ليلة وقد حضرت الجموع، وزهرت الشموع، وبان الخشوع، ودان الخضوع، ودرّت من المتّقين الدموع، واستغرت من العارفين الضلوع. فهناك كل وليّ يعبد ربّه ويأمل برّه، وكل أشعث أغبر لا يُؤبَهُ له لو أقسم على الله لأبرّه. وهناك من يحيي الليل ويقومه، ويسموا بالحق ويسومه، وهناك كل من يختم القرآن ويرتّله، ويطرد الشيطان ويبطله، ومن عرفه لمعرفته الأسحار، ومن ألفتْه لتهجّده الأوراد والأذكار.

وما أسعد نهارها حين تستقبل الملائكة زوّارها، وتلحف الشمسُ ابنوارها أنوارها، وتحمل القلوب إليها أسرارها، وتضع الجُناة عندها أوزارها، وتستهدي صبيحةُ كل يوم منها إسفارها. وما أظهرَ من تولّى إظهارها، وأطهرَ من باشر إظهارها، وأطهرَ من باشر إظهارها.

وكان الفرنج قد قطعوا من الصخرة قِطعا وحملوا منها إلى قُسطنطينيّه، ونقلوا منها إلى صقليّه، وقيل باعوها بوزنها ذهبا، واتّخذوا ذلك مكسبا، ولما ظهرت ظهرت مواضعها، وقُطّعت القلوب لمّا بانت مقاطعها، فهي الآن مُبْرز للعيون بحزّها، باقية على الأيّام بعزّها، مصونة للإسلام في خِدرها وحِرزها. وهذا كله ثمّ

(1) القراءات السبع ومازاد هي قراءات بفوارق بسيطة للكتاب المقدس (القرآن الكريم)

بعد انفصال السلطان، والشروع في العُمران. وأمر بترميم محراب الأقصى، وإن يُبالَغ فيه ويُستقصى[1]، وتنافس ملوك بني أيّوب فيما يؤثر بها من الآثار الحسنة، وفيما يجمع لهم ودّ القلوب وشكر الألسنة، فما منهم من أجمل وأحسن، وفعل ما أمكن، وجلّى وبيّن، وحلّى وزيّن، وأشفق وأنفق، وأغنى، وأقنى، واعتنى، وابتنى، ووفّى وأوفى، وأصفى وأضفى. وأتى الملك العادل سيف الدين أبو بكر[2]، موجب لكل شكر، وكل فعل جميل، ورفد جزيل، ومنّ جليّ ومنح جليل، ومكرمة حميدة، ومَحْمدة كريمة، وفضيلة بها ترجّح، ووسيلة بها تحج. وأتى الملك المظفّر تقيّ الدين عمر[3]، بكل ما عمّ به العُرْفُ وغمر، ونهى وأمر، وبنى وعمر. ومن جملة أفعاله المشكورة، ومكرماته المشهورة، أنه حضر يوما في قبّة الصخرة، مع جماعة من السَراة الأُمرة، ومعه من ماء الورد أحمال، ولأجل الصدقة والرفد مال، فانتهز فرصة هذه الفضيلة التي ابتكرها بالافتراص، وتولّى بيده كنس تلك الساحات والعِراص، ثم غسلها بالماء مرارا حتى تطّهرت، ثم أتبع الماء بماء الورد صبّا حتى تعطّرت، وكذلك طهّر حيطانها، وغسل جدرانها؛ ثم أتى بمجامر الطيب فتبخّرت، وتضوّعت وتعرّفت، وقُغمت مناشق أهل الهدى، وأُرغمت آناف العدى، وما زال مع قومه، في تطهير البقعة المباركة طوال يومه، حتى تُيُقّنت طهارتها، وبيّنت عمارتها، وراقت نضارتها، ووقفتْ عليها الاستحسان نظارتها. ثم فرّق ذلك المال فيها على ذوي الاستحقاق، وافتخر بأنّ فاق الكرام بالإنفاق. وجاء الملك الأفضل نور الدين علي[4]، بكل نور جليّ، وكرم مليّ، وإحسان سنيّ، وإنعام هنيّ، وعَرْف زكيّ، وعَرْف ذكيّ، وعطاء مبتدَع، وسخاء مخترَع، وجود مبتكر، ورفد معتبر، وأتى بكل ما خلّد الأثر الحسن، وأنطق بحمده الألسُن، وبسط بها الصنيعة، وفرش فيها البُسُط الرفيعة، وهدى وأهدى، وأعاد بعد ما أبدى، وأنار وأسدى، وأفاض الندى، وفضّ الجَدا، ونفض الأكياس، حتى جلّنا به الإنفاض والإفلاس. وسيأتي ذكر ما اعتمده من بناء أسوار القدس وحفر خنادقه، وأعجز

---

(1) النقش التذكاري الذي مازال يخلد اسم السلطان.

(2) أخو صلاح الدين صفاء الدين وقد اصبح سلطانا على سورية ومصر حتى عام 1218

(3) ابن اخ صلاح الدين وامير حماة (1178-1191)

(4) ابن صلاح الدين وخليفته على سورية (1186-1196)

بما أعجب من سوابق معروفه ولواحقه، ما لم يشُقّ أحد فيه غباره، ولا ملك سابق فيه مضماره. وأمّا الملك العزيز عثمان[1]، فإنه أتى بالإحسان الذي استظهر به الإيمان، وذلك أنه لمّا عاد إلى مصر، وقد شاهد الفتح والنصر، ترك خزانة سلاحه بالقدس كلّها، ولم ير بعد حصولها به نقلها. وكانت أحمالا بأموال، وأثقالا كجبال، وذخائر وافيه، وعُددا واقيه، ودروعا سوابغ، ونصولا دوافع وخُوذاً وترائك، ورماحا وتبازك، وقنا وقنابل[2]، وصواقل وذوابل وجُروخا وقسيا، ويمانيا وهنديّاً ويزنيا، وزُذيبيا ومشرفيا[3]، وجفاتي وجنويّات، وطوارق وقُنطاريّات، وزانات حديد وزانات، وآلات وزيارات وزرّاقات، ونفّاطات وقطّاعات، وعُدد النقوب، وجميع أدوات الحروب، فاستيظرت[4] بها المدينة، وتوثّقت بها عُراها المتينة. وكان من جملة ما شرط على الفرنج أن يتركوا لنا خيلهم وعُدّتهم، ويخرجوا قبل أن يستوفي الباقون في أداء القطيعة مدّتهم، فتوفرت بذلك عُدد البلد، واستغنى بذلك عمّا يصل من المدد.

ذكر محراب داود عليه السلام وغيره من المشاهد الكرام وتبطيل الكنائس وانشاء المدارس

وأمّا محراب داود (عم) خارج المسجد الأقصى فإنه في حصن عند باب المدينة منيع، وموضع عالٍ رفيع، وهو الحصن الذي يقيم به الوالي، فاعتنى السلطان بأحواله الحوالي، ورتّب له إماما، ومؤذنين وقُوّاما، وهو مثاب الصالحين، ومزار الغادين والرائحين، فأحياه وجدّده، ونهج لقاصده جدده. وأمر بعمارة جميع المساجد، وصون المشاهد، وإنجاح المقاصد، وإصفاء الموارد للقاصد والوارد. وكان موضع هذه القلعة دار داود وسليمان عليهما السلام، وكان ينتابهما فيها

---

(1) ابن أخ لصلاح الدين وخليفته على مصر (1193-1198)

(2) نعني اليوم القنابل المعروفة ولاندري ان كانت تعني وقتها الطلقات

(3) السهام اليزنية والزذيبية كانت مميزة لدى قدماء العرب وكذلك السيوف المشرفية في ماوراء سورية

(4) تقوّت (عن غابرييلي)

الأنام. وكان الملك العادل نازلا في كنيسة صَهْيُون، وأجناده على بابها مخيّمون، وفاوض السلطان جلساؤه من العلماء الأبرار، والأتقياء الأخيار، في مدرسة للفقهاء الشافعيه[1]، ورباط لصلحاء الصوفيه. فعيّن للمدرسة الكنيسة المعروفة بصَنْدَ حَنَّة[2] عند باب أسباط، وعيّن دار البطرك وهي بقرب كنيسة قمامة للرباط، ووقف عليهما وُقوفا، وأسدى بذلك إلى الطائفتين معروفا، وارتاد أيضا مدارس للطوائف، ليضيفها إلى ما أولاه من العوارف. وأمر بإغلاق أبواب كنيسة قمامه، وحرّم على النصارى زيارتها ولا الإلمامه. وتفاوض الناس عنده فيها، فمنهم من أشار بهدم مبانيها، وتعفية آثارها، وتعمية نهج مزارها، وإزالة تماثيلها، وإزاحة أباطيلها، وإطفاء قناديلها، وإعفاء أناجيلها، وإذهاب تساويلها، وإكذاب أقاويلها. وقالوا: "إذا هُدمت مبانيها، وألحقت بأسافلها أعاليها، ونُبشت المقبَرة وعُفّيت، وأخمدت نيرانها وأُطفيت، ومُحيت رسومها ونُفيت، وحُرثت أرضها، ودُمّر طولها وعرضها، انقطعت عنها أمداد الزوّار، وانحسمت عن قصدها موادّ أطماع أهل النار. ومهما استمرّت العماره، استمرّت الزياره". وقال أكثر الناس: "لا فائدة في هدمها ولا هدّها، ولا يؤذن بصدّ أبواب الزيارة عن الكفرة، وسدّها، فإن متعبَّدهم موضع الصليب والقبر لا ما يشاهد من البناء، ولا ينقطع عنها قصد أجناس النصرانيّة ولو نُسفت أرضها في السماء، ولمّا فتح أمير المؤمنين عمر (رضه) القدس في صدر الإسلام أقرّهم على هذا المكان، ولم يأمرهم بهدم البنيان".

---

(1) المدرسة هي معهد عالي لعلوم الدين والفقه الاسلامي. وقد تم الالتفات أولاً إلى المدرسة الشافعية لأنها كانت سائدة آنذاك في مصر وسوري. لكن السلطان دبر أيضا لغيرها (الحنفية والمالكية والحنبلية) وهذا واضح بعد سطور قليلة في الحديث عن "مدارس للطوائف".

(2) San Giovanni

- 3 -

كانت صورة كونراد (ريدا فرانس) الذي أنقذ صور وحرّك من الناحية الفعلية الحملة الصليبية الثالثة، إلى جانب صورة ريتشارد ملك انكلترا من أكثر الصور التي ترسخت في اذهان المؤرخين المسلمين في ذلك الوقت. يروي ابن الأثير فيما يلي وقائع مغامرة ذهابه إلى صور ويعيب على صلاح الدين - وهو في هذا محق - أنه لم يعمل على حصارها بما يكفي من الاستعداد والجهد: خاصة وأن إنقاذ صور كان أساساً ومقدمة لحصار المسيحيين لعكا ثم أخذهم لها حرباً.

ذِكْرُ خُرُوجِ الْمَرْكِيسِ إِلَى صُورَ

(ابن الأثير، 11/358-359، 366-368)

لَمَّا انْهَزَمَ الْقُمُّصُ صَاحِبُ طَرَابُلُسَ مِنْ حِطِّينَ إِلَى مَدِينَةِ صُورَ أَقَامَ بِهَا وَهِيَ أَعْظَمُ بِلَادِ السَّاحِلِ حَصَانَةً، وَأَشَدُّهَا امْتِنَاعًا عَلَى مَنْ رَامَهَا، فَلَمَّا رَأَى السُّلْطَانَ قَدْ مَلَكَ تِبْنِينَ وَصَيْدَا وَبَيْرُوتَ، خَافَ أَنْ يَقْصِدَ صَلَاحُ الدِّينِ صُورَ وَهِيَ فَارِغَةٌ مِمَّنْ يُقَاتِلُ فِيهَا وَيَحْمِيهَا وَيَمْنَعُهَا فَلَا يَقْوَى عَلَى حِفْظِهَا، وَتَرَكَهَا وَسَارَ إِلَى مَدِينَةِ طَرَابُلُسَ. فَبَقِيَتْ صُورُ شَاغِرَةً لَا مَانِعَ لَهَا وَلَا عَاصِمَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَوْ بَدَأَ بِهَا صَلَاحُ الدِّينِ قَبْلَ تِبْنِينَ وَغَيْرِهَا لَأَخَذَهَا بِغَيْرِ مَشَقَّةٍ، لَكِنَّهُ اسْتَعْظَمَهَا لِحَصَانَتِهَا فَأَرَادَ أَنْ يَفْرُغَ بَالُهُ مِمَّا يُجَاوِرُهَا مِنْ نَوَاحِيهَا لِيَسْهُلَ أَخْذُهَا، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ حِفْظِهَا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا. وَاتَّفَقَ أَنَّ إِنْسَانًا مِنَ الْفِرِنْجِ الَّذِينَ دَاخِلَ الْبَحْرِ يُقَالُ لَهُ الْمَرْكِيسُ[1]، لَعَنَهُ اللَّهُ، خَرَجَ فِي الْبَحْرِ بِمَالٍ كَثِيرٍ لِلزِّيَارَةِ وَالتِّجَارَةِ، وَلَمْ يَشْعُرْ بِمَا كَانَ مِنَ الْفِرِنْجِ فَأَرْسَى بِعَكَّا، وَقَدْ رَابَهُ مَا رَأَى مِنْ تَرْكِ عَوَائِدِ الْفِرِنْجِ عِنْدَ وُصُولِ

---

(1) في نسخة أخرى (المركيش) (المترجم)

الْمَرَاكِبِ مِنَ الْفِرِنْجِ، وَضَرْبِ الْأَجْرَاسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَمَا رَأَى أَيْضًا مِنْ زِيِّ أَهْلِ الْبَلَدِ، فَوَقَفَ وَلَمْ يَدْرِ مَا الْخَبَرُ ، وَكَانَتِ الرِّيحُ قَدْ رَكَدَتْ. أَرْسَلَ الْمَلِكُ الْأَفْضَلُ إِلَيْهِ بَعْضَ أَصْحَابِهِ فِي سَفِينَةٍ يَنْصُرُ مَنْ هُوَ وَمَا يُرِيدُ، فَأَتَاهُ الْقَاصِدُ فَسَأَلَهُ الْمَرْكِيسُ عَنِ الْأَخْبَارِ لِمَا أَنْكَرَهُ، فَأَخْبَرَهُ بِكَسْرَةِ الْفِرِنْجِ وَأَخْذِ عَكَّا وَغَيْرِهَا، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ صُورَ بِيَدِ الْفِرِنْجِ وَعَسْقَلَانَ وَغَيْرَهَا، وَحَكَى الْأَمْرَ لَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَلَمْ يُمْكِنْهُ الْحَرَكَةُ لِعَدَمِ الرِّيحِ، فَرَدَّ الرَّسُولَ يَطْلُبُ الْأَمَانَ لِيَدْخُلَ الْبَلَدَ بِمَا مَعَهُ مِنْ مَتَاعٍ وَمَالٍ، فَأُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ.

فَرَدَّدَهُ مِرَارًا كُلَّ مَرَّةٍ يَطْلُبُ شَيْئًا لَمْ يَطْلُبْهُ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى، وَهُوَ يَفْعَلُ ذَلِكَ انْتِظَارًا لِهُبُوبِ الْهَوَاءِ لِيَسِيرَ بِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ فِي مُرَاجَعَاتِهِ إِذْ هَبَّتِ الرِّيحُ فَسَارَ نَحْوَ صُورَ ، وَسَيَّرَ الْمَلِكُ الْأَفْضَلُ الشَّوَانِيَ فِي طَلَبِهِ فَلَمْ يُدْرِكُوهُ. فَأَتَى صُورَ وَقَدِ اجْتَمَعَ بِهَا مِنَ الْفِرِنْجِ خَلْقٌ كَثِيرٌ لِأَنَّ صَلَاحَ الدِّينِ كَانَ كُلَّمَا فَتَحَ مَدِينَةً عَكَّا وَبَيْرُوتَ وَغَيْرَهُمَا مِمَّا ذَكَرْنَا أَعْطَى أَهْلَهَا الْأَمَانَ، فَسَارُوا كُلُّهُمْ إِلَى صُورَ، وَكَثُرَ الْجَمْعُ بِهَا إِلَّا أَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ رَأْسٌ يَجْمَعُهُمْ، وَلَا مُقَدَّمٌ يُقَاتِلُ بِهِمْ، وَلَيْسُوا أَهْلَ الْحَرْبِ، وَهُمْ عَازِمُونَ عَلَى مُرَاسَلَةِ صَلَاحِ الدِّينِ، وَطَلَبِ الْأَمَانِ وَتَسْلِيمِ الْبَلَدِ إِلَيْهِ.

فَأَتَاهُمُ الْمَرْكِيسُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْعَزْمِ، فَرَدَّهُمْ عَنْهُ وَقَوَّى نُفُوسَهُمْ وَضَمِنَ لَهُمْ حِفْظَ الْمَدِينَةِ وَبَذْلَ مَا مَعَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ وَشَرَطَ عَلَيْهِمْ أَنْ تَكُونَ الْمَدِينَةُ وَأَعْمَالُهَا لَهُ دُونَ غَيْرِهِ، فَأَجَابُوهُ إِلَى ذَلِكَ فَأَخَذَ أَيْمَانَهُمْ عَلَيْهِ عِنْدَهُمْ وَدَبَّرَ أَحْوَالَهُمْ، وَكَانَ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ حَسَنَ التَّدْبِيرِ وَالْحِفْظِ، وَلَهُ شَجَاعَةٌ عَظِيمَةٌ، وَشَرَعَ فِي تَحْصِينِهَا فَجَدَّدَ حَفْرَ خَنَادِقِهَا وَعَمِلَ أَسْوَارَهَا، وَزَادَ فِي حَصَانَتِهَا وَاتَّفَقَ مَنْ بِهَا عَلَى الْحِفْظِ وَالْقِتَالِ دُونَهَا.

ذِكْرُ رَحِيلِ صَلَاحِ الدِّينِ إِلَى صُورَ وَمُحَاصَرَتِهَا

لَمَّا فَتَحَ صَلَاحُ الدِّينِ الْبَيْتَ الْمُقَدَّسَ أَقَامَ بِظَاهِرِهِ إِلَى الْخَامِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَعْبَانَ يُرَتِّبُ أُمُورَ الْبَلَدِ وَأَحْوَالَهُ، وَتَقَدَّمَ بِعَمَلِ الرُّبُطِ وَالْمَدَارِسِ، فَجَعَلَ دَارَ الْاسْبِتَارِ مَدْرَسَةً لِلشَّافِعِيَّةِ، وَهِيَ فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنَ الْحُسْنِ. فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ أَمْرِ الْبَلَدِ سَارَ إِلَى مَدِينَةِ صُورَ، وَكَانَتْ قَدِ اجْتَمَعَ فِيهَا مِنَ الْفِرِنْجِ عَالَمٌ كَثِيرٌ، وَقَدْ صَارَ

الْمَرْكِيسُ صَاحِبَهَا وَالْحَاكِمَ فِيهَا، وَقَدْ سَاسَهُمْ أَحْسَنَ سِيَاسَةٍ، وَبَالَغَ فِي تَحْصِينِ الْبَلَدِ. وَوَصَلَ صَلَاحُ الدِّينِ إِلَى عَكَّا، وَأَقَامَ بِهَا أَيَّامًا، فَلَمَّا سَمِعَ الْمَرْكِيسُ بِوُصُولِهِ إِلَيْهَا جَدَّ فِي عَمَلِ سُورِ صُورَ وَخَنَادِقِهَا وَتَعْمِيقِهَا، وَوَصَلَهَا مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْبَحْرِ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ، فَصَارَتِ الْمَدِينَةُ كَالْجَزِيرَةِ فِي وَسَطِ الْمَاءِ لَا يُمْكِنُ الْوُصُولُ إِلَيْهَا وَلَا الدُّنُوُّ مِنْهَا.

ثُمَّ رَحَلَ صَلَاحُ الدِّينِ مِنْ عَكَّا، فَوَصَلَ إِلَى صُورَ تَاسِعَ شَهْرِ رَمَضَانَ (13 تشرين ثاني/نوفمبر 1187)، فَنَزَلَ عَلَى نَهْرٍ قَرِيبٍ [مِنَ] الْبَلَدِ بِحَيْثُ يَرَاهُ، حَتَّى اجْتَمَعَ النَّاسُ وَتَلَاحَقُوا، وَسَارَ فِي الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ. فَنَزَلَ عَلَى تَلٍّ يُقَارِبُ سُورَ الْبَلَدِ، بِحَيْثُ يَرَى الْقِتَالَ، وَقَسَّمَ الْقِتَالَ عَلَى الْعَسْكَرِ كُلُّ جَمْعٍ مِنْهُمْ لَهُ وَقْتٌ مَعْلُومٌ يُقَاتِلُونَ فِيهِ، بِحَيْثُ يَتَّصِلُ الْقِتَالُ عَلَى أَهْلِ الْبَلَدِ، عَلَى أَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي يُقَاتِلُونَ فِيهِ قَرِيبُ الْمَسَافَةِ، يَكْفِيهِ الْجَمَاعَةُ الْيَسِيرَةُ مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ لِحِفْظِهِ، وَعَلَيْهِ الْخَنَادِقُ الَّتِي قَدْ وَصَلَتْ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْبَحْرِ، فَلَا يَكَادُ الطَّيْرُ يَطِيرُ عَلَيْهَا، فَإِنَّ الْمَدِينَةَ كَالْكَفِّ فِي الْبَحْرِ، وَالسَّاعِدُ مُتَّصِلٌ بِالْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِنْ جَانِبَيِ السَّاعِدِ، وَالْقِتَالُ إِنَّمَا هُوَ فِي السَّاعِدِ.

فَزَحَفَ الْمُسْلِمُونَ مَرَّةً بِالْمَجَانِيقِ، وَالْعَرَّادَاتِ، وَالْجُرُوخِ، وَالدَّبَّابَاتِ. وَكَانَ أَهْلُ صَلَاحِ الدِّينِ يَتَنَاوَبُونَ الْقِتَالَ مِثْلُ: وَلَدِهِ الْأَفْضَلِ، وَوَلَدِهِ الظَّاهِرِ غَازِي، وَأَخِيهِ الْعَادِلِ بْنِ أَيُّوبَ، وَابْنِ أَخِيهِ تَقِيِّ الدِّينِ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْأُمَرَاءِ. وَكَانَ لِلْفِرِنْجِ شَوَانٍ وَحَرَّاقَاتٌ يَرْكَبُونَ فِيهَا فِي الْبَحْرِ، وَيَقِفُونَ مِنْ جَانِبَيِ الْمَوْضِعِ الَّذِي يُقَاتِلُ الْمُسْلِمُونَ مِنْهُ أَهْلَ الْبَلَدِ، فَيَرْمُونَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ جَانِبِهِمْ بِالْجُرُوخِ، وَيُقَاتِلُونَهُمْ. وَكَانَ ذَلِكَ يَعْظُمُ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّ أَهْلَ الْبَلَدِ يُقَاتِلُونَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ، وَأَصْحَابَ الشَّوَانِي يُقَاتِلُونَهُمْ مِنْ جَانِبَيْهِمْ، فَكَانَتْ سِهَامُهُمْ تَنْفُذُ مِنْ أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ لِضِيقِ الْمَوْضِعِ، فَكَثُرَتِ الْجِرَاحَاتُ فِي الْمُسْلِمِينَ وَالْقَتْلُ. وَلَمْ يَتَمَكَّنُوامِنَ الدُّنُوِّ إِلَى الْبَلَدِ.

فَأَرْسَلَ صَلَاحُ الدِّينِ إِلَى الشَّوَانِي الَّتِي جَاءَتْهُ مِنْ مِصْرَ، وَهِيَ عَشْرُ قِطَعٍ، وَكَانَتْ بِعَكَّا، فَأَحْضَرَهَا بِرِجَالِهَا وَمُقَاتِلَتِهَا وَعِدَّتِهَا، وَكَانَتْ فِي الْبَحْرِ تَمْنَعُ شَوَانِيَ أَهْلِ صُورَ مِنَ الْخُرُوجِ إِلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، فَتَمَكَّنَ الْمُسْلِمُونَ حِينَئِذٍ مِنَ الْقُرْبِ مِنَ

الْبَلَدِ، وَمِنْ قِتَالِهِ، فَقَاتَلُوهُ بَرًّا وَبَحْرًا وَضَايَقُوهُ حَتَّى كَادُوا يَظْفَرُونَ. فَجَاءَتِ الْأَقْدَارُ بِمَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحِسَابِ، وَذَلِكَ أَنَّ خَمْسَ قِطَعٍ مِنْ شَوَانِي الْمُسْلِمِينَ بَاتَتْ، فِي بَعْضِ تِلْكَ اللَّيَالِي، مُقَابِلَ مِينَاءِ صُورَ لِيَمْتَنِعُوا مِنَ الْخُرُوجِ مِنْهُ وَالدُّخُولِ إِلَيْهِ، فَبَاتُوا لَيْلَتَهُمْ يَحْرُسُونَ، وَكَانَ مُقَدَّمُهُمْ عَبْدَ السَّلَامِ الْمَغْرِبِيَّ الْمَوْصُوفَ بِالْحِذْقِ فِي صِنَاعَتِهِ. فَلَمَّا كَانَ وَقْتُ السَّحَرِ أَمِنُوا فَنَامُوا، فَمَا شَعَرُوا إِلَّا بِشَوَانِي الْفِرِنْجِ قَدْ نَازَلَتْهُمْ وَضَايَقَتْهُمْ، فَأَوْقَعَتْ بِهِمْ، فَقَتَلُوا مَنْ أَرَادُوا قَتْلَهُ، وَأَخَذُوا الْبَاقِينَ بِمَرَاكِبِهِمْ، وَأَدْخَلُوا مِينَاءَ صُورَ، وَالْمُسْلِمُونَ فِي الْبَرِّ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ، وَرَمَى جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الشَّوَانِي فِي الْبَحْرِ، فَمِنْهُمْ مَنْ سَبَحَ فَنَجَا، وَمِنْهُمْ مَنْ غَرِقَ، وَتَقَدَّمَ السُّلْطَانُ إِلَى الشَّوَانِي الْبَاقِيَةِ بِالْمَسِيرِ إِلَى بَيْرُوتَ لِعَدَمِ انْتِفَاعِهِ بِهَا لِقِلَّتِهَا، فَسَارَتْ، فَتَبِعَهَا شَوَانِي الْفِرِنْجِ، فَحِينَ رَأَى مَنْ فِي شَوَانِي الْمُسْلِمِينَ الْفِرِنْجَ مُجِدِّينَ فِي طَلَبِهِمْ أَلْقَوْا نُفُوسَهُمْ فِي شَوَانِيهِمْ إِلَى الْبَرِّ فَنَجَوْا وَتَرَكُوهَا، فَأَخَذَهَا صَلَاحُ الدِّينِ، وَنَقَضَهَا وَعَادَ إِلَى مُقَاتَلَةِ صُورَ فِي الْبَرِّ، وَكَانَ ذَلِكَ قَلِيلَ الْجَدْوَى لِضِيقِ الْمَجَالِ.

وَفِي بَعْضِ الْأَيَّامِ خَرَجَ الْفِرِنْجُ فَقَاتَلُوا الْمُسْلِمِينَ مِنْ وَرَاءِ خَنَادِقِهِمْ، فَاشْتَدَّ الْقِتَالُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَدَامَ إِلَى آخِرِ النَّهَارِ، كَانَ خُرُوجُهُمْ قَبْلَ الْعَصْرِ، وَأُسِرَ مِنْهُمْ فَارِسٌ كَبِيرٌ مَشْهُورٌ، بَعْدَ أَنْ كَثُرَ الْقِتَالُ وَالْقَتْلُ عَلَيْهِ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، ثُمَّ سَقَطَ، فَلَمَّا أُسِرَ قُتِلَ، وَبَقُوا كَذَلِكَ عِدَّةَ أَيَّامٍ.

ذِكْرُ الرَّحِيلِ عَنْ صُورَ إِلَى عَكَّا وَتَفْرِيقِ الْعَسَاكِرِ

لَمَّا رَأَى صَلَاحُ الدِّينِ أَنَّ أَمْرَ صُورَ يَطُولُ رَحَلَ عَنْهَا. وَهَذِهِ كَانَتْ عَادَتُهُ، مَتَى ثَبَتَ الْبَلَدُ بَيْنَ يَدَيْهِ ضَجِرَ مِنْهُ وَمِنْ حِصَارِهِ فَرَحَلَ عَنْهُ، وَكَانَ هَذِهِ السَّنَةَ لَمْ يَطُلْ مُقَامُهُ عَلَى مَدِينَةٍ بَلْ فَتَحَ الْجَمِيعَ فِي الْأَيَّامِ الْقَرِيبَةِ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ، بِغَيْرِ تَعَبٍ وَلَا مَشَقَّةٍ. فَلَمَّا رَأَى هُوَ وَأَصْحَابُهُ شِدَّةَ أَمْرِ صُورَ مَلُّوهَا، وَطَلَبُوا الِانْتِقَالَ عَنْهَا، وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ ذَنْبٌ فِي أَمْرِهَا غَيْرَ صَلَاحِ الدِّينِ، فَإِنَّهُ هُوَ جَهَّزَ إِلَيْهَا جُنُودَ الْفِرِنْجِ، وَأَمَدَّهَا بِالرِّجَالِ وَالْأَمْوَالِ مِنْ أَهْلِ عَكَّا وَعَسْقَلَانَ وَالْقُدْسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، كَمَا سَبَقَ ذِكْرُهُ. كَانَ يُعْطِيهِمُ الْأَمَانَ وَيُرْسِلُهُمْ إِلَى صُورَ، فَصَارَ فِيهَا مَنْ سَلِمَ مِنْ فُرْسَانِ

الْفِرِنْجِ بِالسَّاحِلِ، بِأَمْوَالِهِمْ وَأَمْوَالِ التُّجَّارِ وَغَيْرِهِمْ، فَحَفِظُوا الْمَدِينَةَ وَرَاسَلُوا الْفِرِنْجَ دَاخِلَ الْبَحْرِ يَسْتَمِدُّونَهُمْ، فَأَجَابُوهُمْ بِالتَّلْبِيَةِ لِدَعْوَتِهِمْ، وَوَعَدُوهُمْ بِالنُّصْرَةِ، وَأَمَرُوهُمْ بِحِفْظِ صُورَ لِتَكُونَ دَارَ هِجْرَتِهِمْ يَحْتَمُونَ بِهَا وَيَلْجَأُونَ إِلَيْهَا، فَزَادَهُمْ ذَلِكَ حِرْصًا عَلَى حِفْظِهَا وَالذَّبِّ عَنْهَا.

وَسَنَذْكُرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَا صَارَ إِلَيْهِ الْأَمْرُ بَعْدَ ذَلِكَ لِيُعْلَمَ أَنَّ الْمَلِكَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَتْرُكَ الْحَزْمَ، وَإِنْ سَاعَدَتْهُ الْأَقْدَارُ، فَلَأَنْ يَعْجِزَ حَازِمًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَظْفَرَ مُفَرِّطًا مُضَيِّعًا لِلْحَزْمِ، وَأَعْذَرُ لَهُ عِنْدَ النَّاسِ.[1]

وَلَمَّا أَرَادَ الرَّحِيلَ اسْتَشَارَ أُمَرَاءَهُ، فَاخْتَلَفُوا، فَجَمَاعَةٌ يَقُولُونَ: الرَّأْيُ أَنْ نَرْحَلَ، فَقَدْ جُرِحَ الرِّجَالُ، وَقُتِلُوا، وَمَلُّوا، وَفَنِيَتِ النَّفَقَاتُ، وَهَذَا الشِّتَاءُ قَدْ حَضَرَ، وَالشَّوْطُ بَطِينٌ، فَنُرِيحُ وَنَسْتَرِيحُ فِي هَذَا الْبَرْدِ، فَإِذَا جَاءَ الرَّبِيعُ اجْتَمَعْنَا وَعَاوَدْنَاهَا وَغَيْرَهَا. وَكَانَ هَذَا قَوْلَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْهُمْ، وَكَأَنَّهُمْ خَافُوا أَنَّ السُّلْطَانَ يَقْتَرِضُ مِنْهُمْ مَا يُنْفِقُهُ فِي الْعَسْكَرِ إِذَا أَقَامَ لِخُلُوِّ الْخَزَائِنِ وَبُيُوتِ الْأَمْوَالِ مِنَ الدِّرْهَمِ وَالدِّينَارِ، فَإِنَّهُ كَانَ يُخْرِجُ كُلَّ مَا حُمِلَ إِلَيْهِ مِنْهَا. وَقَالَتِ الطَّائِفَةُ الْأُخْرَى: الرَّأْيُ أَنْ نُصَابِرَ الْبَلَدَ وَنُضَايِقَهُ، فَهُوَ الَّذِي يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ مِنْ حُصُونِهِمْ، وَمَتَى أَخَذْنَاهُ مِنْهُمُ انْقَطَعَ طَمَعُ مَنْ دَاخِلَ الْبَحْرِ مِنْ هَذَا الْجَانِبِ وَأَخَذْنَا بَاقِيَ الْبِلَادِ صَفْوًا عَفْوًا. فَبَقِيَ صَلَاحُ الدِّينِ مُتَرَدِّدًا بَيْنَ الرَّحِيلِ وَالْإِقَامَةِ، فَلَمَّا رَأَى مَنْ يَرَى الرَّحِيلَ إِقَامَتَهُ أَخَلَّ بِمَا رُدَّ إِلَيْهِ مِنَ الْمُحَارَبَةِ وَالرَّمْيِ بِالْمَنْجَنِيقِ، وَاعْتَذَرُوا بِجِرَاحِ رِجَالِهِمْ، وَأَنَّهُمْ قَدْ أَرْسَلُوا بَعْضَهُمْ لِيُحْضِرُوا نَفَقَاتِهِمْ وَالْعُلُوفَاتِ لِدَوَابِّهِمْ وَالْأَقْوَاتَ لَهُمْ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْذَارِ، فَصَارُوا مُقِيمِينَ بِغَيْرِ قِتَالٍ، فَاضْطُرَّ إِلَى الرَّحِيلِ، فَرَحَلَ عَنْهَا آخِرَ شَوَّالٍ، كَانَ أَوَّلَ كَانُونَ الْأَوَّلِ (ديسمبر)، إِلَى عَكَّا، فَأَذِنَ لِلْعَسَاكِرِ جَمِيعِهَا بِالْعَوْدِ إِلَى أَوْطَانِهِمْ وَالِاسْتِرَاحَةِ فِي الشِّتَاءِ، وَالْعَوْدِ فِي الرَّبِيعِ، فَعَادَتْ عَسَاكِرُ الشَّرْقِ وَالْمَوْصِلِ وَغَيْرِهَا، وَعَسَاكِرُ الشَّامِ، وَعَسَاكِرُ مِصْرَ، وَبَقِيَ حَلْقَتُهُ الْخَاصُّ مُقِيمًا بِعَكَّا، فَنَزَلَ

---

(1) ليس هذا هو النص الوحيد الذي تلوح فيه عداوة مؤرخ مابين النهرين لصلاح الدين، وكان هذا دائماً بسبب ميله للعائلة الزنكية التي أطاح بها صلاح الدين. لذلك فإننا لا ندري مدى صحة نقده هنا لسلوكه الحربي: لكن المهم هي الروح التي تتجلى، والتي لم تمنع ابن الأثير من الاعتراف ولو على مضض بعظمة هذا البطل المسلم.

بِقَلْعَتِهَا، وَرَدَّ أَمْرَ الْبَلَدِ إِلَى عِزِّ الدِّينِ جُورْدِيكَ، وَهُوَ مِنْ أَكَابِرِ الْمَمَالِيكِ النُّورِيَّةِ، جَمَعَ الدِّيَانَةَ، وَالشَّجَاعَةَ، وَحُسْنَ السِّيرَةِ.

- 4 -

كان ضياع القدس والمقاومة الباسلة التي ابداها المركيز كونراد[1] في صور عاملان رئيسيان في تحريك الحملة الصليبية الثالثة. لكن الفصل الرئيسي في هذا الشأن كان الحصار الطويل لعكا الذي امتد بين 1189 و 1191 والذي بدأ قبل وصول كل من فيليب اوغست وريتشارد انكلترا ليشددا ويجنيا ثمار الحصار الإفرنجي الصارم على ذلك المرفأ الفلسطيني الذي كان قد سقط عام 1187 في يد صلاح الدين. ومن المعروف أن حصاراً مزدوجاً قد حدث وقتها إذ حاصر الإفرنج الساحة في الوقت الذي ضرب فيه صلاح الدين حصاراً حولهم، لكن الصعوبات العملية منعته من التواصل مع أهل عكا المحاصرين ليقف وكأنه مكتوف الأيدي أمام احتضار المدينة البطيء. صاحبت وقائع هذا الحصار محاولات شرسة لفكه مليئة بصور فريدة أخاذة حملتنا على الاستشهاد بكل من بهاء الدين وعماد الدين وابن الأثير، على حد سواء.

ذِكْرُ مَسِيرِ الْفِرِنْجِ إِلَى عَكَّا وَمُحَاصَرَتِهَا

(ابن الأثير، 12/20-26)

لَمَّا كَثُرَ جَمْعُ الْفِرِنْجِ بِصُورَ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَنَّ صَلَاحَ الدِّينِ كَانَ كُلَّمَا فَتَحَ مَدِينَةً أَوْ قَلْعَةً أَعْطَى أَهْلَهَا الْأَمَانَ، وَسَيَّرَهُمْ إِلَيْهَا بِأَمْوَالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، اجْتَمَعَ بِهَا مِنْهُمْ عَالَمٌ كَثِيرٌ لَا يُعَدُّ وَلَا يُحْصَى، وَمِنَ الْأَمْوَالِ مَا لَا يَفْنَى عَلَى كَثْرَةِ الْإِنْفَاقِ فِي السِّنِينَ الْكَثِيرَةِ.

ثُمَّ إِنَّ الرُّهْبَانَ وَالْقُسُوسَ وَخَلْقًا كَثِيرًا مِنْ مَشْهُورِيهِمْ، وَفُرْسَانِهِمْ لَبِسُوا السَّوَادَ، وَأَظْهَرُوا الْحُزْنَ عَلَى خُرُوجِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ مِنْ أَيْدِيهِمْ، وَأَخَذَهُمُ الْبَطْرَكُ الَّذِي كَانَ

(1) Il Marrchese di Monferrato

بِالْقُدْسِ، وَنَخَلَ بِهِمْ بِلَادَ الْفِرِنْجِ يَطُوفُهَا بِهِمْ جَمِيعًا، وَيَسْتَنْجِدُونَ أَهْلَهَا، وَيَسْتَجِيرُونَ بِهِمْ، وَيَحُثُّونَهُمْ عَلَى الْأَخْذِ بِثَأْرِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ. وَصَوَّرُوا الْمَسِيحَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – وَجَعَلُوهُ مَعَ صُورَةِ عَرَبِيٍّ يَضْرِبُهُ، وَقَدْ جَعَلُوا الدِّمَاءَ عَلَى صُورَةِ الْمَسِيحِ – عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَالُوا لَهُمْ: هَذَا الْمَسِيحُ يَضْرِبُهُ مُحَمَّدٌ نَبِيُّ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ جَرَحَهُ وَقَتَلَهُ. فَعَظُمَ ذَلِكَ عَلَى الْفِرِنْجِ فَحَشَرُوا وَحَشَدُوا حَتَّى النِّسَاءَ، فَإِنَّهُمْ كَانَ مَعَهُمْ عَلَى عَكَّا عِدَّةٌ مِنَ النِّسَاءِ يُبَارِزْنَ الْأَقْرَانَ عَلَى مَا نَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعِ الْخُرُوجَ اسْتَأْجَرَ مَنْ يَخْرُجُ عِوَضَهُ أَوْ يُعْطِيهِمْ مَالًا عَلَى قَدْرِ حَالِهِمْ. فَاجْتَمَعَ لَهُمْ مِنَ الرِّجَالِ وَالْأَمْوَالِ مَا لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ الْإِحْصَاءُ.

وَلَقَدْ حَدَّثَنِي بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ الْمُقِيمِينَ بِحِصْنِ الْأَكْرَادِ، وَهُوَ مِنْ أَجْنَادِ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ سَلَّمُوهُ إِلَى الْفِرِنْجِ قَدِيمًا، وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ قَدْ نَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ [مِنْ] مُوَافَقَةِ الْفِرِنْجِ فِي الْغَارَةِ عَلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ، وَالْقِتَالِ مَعَهُمْ، وَالسَّعْيِ مَعَهُمْ، وَكَانَ سَبَبُ اجْتِمَاعِي بِهِ مَا أَذْكُرُهُ سَنَةَ تِسْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. قَالَ لِي هَذَا الرَّجُلُ إِنَّهُ دَخَلَ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ الْفِرِنْجِ مِنْ حِصْنِ الْأَكْرَادِ إِلَى الْبِلَادِ الْبَحْرِيَّةِ الَّتِي لِلْفِرِنْجِ وَالرُّومِ فِي أَرْبَعِ شَوَانٍ، يَسْتَنْجِدُونَ قَالَ: فَانْتَهَى بِنَا التَّطْوَافُ إِلَى رُومِيَّةَ الْكُبْرَى، فَخَرَجْنَا مِنْهَا وَقَدْ مَلَأْنَا الشَّوَانِيَ نُقْرَةً.

وَحَدَّثَنِي بَعْضُ الْأَسْرَى مِنْهُمْ أَنَّهُ لَهُ وَالِدَةٌ لَيْسَ لَهَا وَلَدٌ سِوَاهُ، وَلَا يَمْلِكُونَ مِنَ الدُّنْيَا غَيْرَ بَيْتٍ بَاعَتْهُ وَجَهَّزَتْهُ بِثَمَنِهِ، وَسَيَّرَتْهُ لِاسْتِنْقَاذِ بَيْتِ وَاحِدٍ فَأُخِذَ أَسِيرًا. وَكَانَ عِنْدَ الْفِرِنْجِ مِنَ الْبَاعِثِ الدِّينِيِّ وَالنَّفْسَانِيِّ مَا هَذَا حَدُّهُ، فَخَرَجُوا عَلَى الصَّعْبِ وَالذَّلُولِ، بَرًّا وَبَحْرًا، مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، وَلَوْلَا [أَنَّ] اللَّهَ تَعَالَى لَطَفَ بِالْمُسْلِمِينَ، وَأَهْلَكَ مَلِكَ الْأَلْمَانِ لَمَّا خَرَجَ عَلَى مَا نَذْكُرُهُ عِنْدَ خُرُوجِهِ إِلَى الشَّامِ، وَإِلَّا كَانَ يُقَالُ: إِنَّ الشَّامَ وَمِصْرَ كَانَتَا لِلْمُسْلِمِينَ.

فَهَذَا كَانَ سَبَبَ خُرُوجِهِمْ فَلَمَّا اجْتَمَعُوا بِصُورَ تَمَوَّجَ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، وَمَعَهُمُ الْأَمْوَالُ الْعَظِيمَةُ، وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُمْ بِالْأَقْوَاتِ وَالذَّخَائِرِ، وَالْعُدَدِ وَالرِّجَالِ مِنْ بِلَادِهِمْ. فَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ صُورُ بَاطِنُهَا وَظَاهِرُهَا فَأَرَادُوا قَصْدَ صَيْدَا وَكَانَ مَا ذَكَرْنَاهُ.(1) فَعَادُوا وَاتَّفَقُوا عَلَى قَصْدِ عَكَّا وَمُحَاصَرَتِهَا وَمُصَابَرَتِهَا، فَسَارُوا إِلَيْهَا

---

(1) وكان صلاح الدين قد صدهم خلال معركة سابقة

بِفَارِسِهِمْ وَرَاجِلِهِمْ، وَقَضِّهِمْ وَقَضِيضِهِمْ، وَلَزِمُوا الْبَحْرَ فِي مَسِيرِهِمْ لا يُفَارِقُونَهُ فِي السَّهْلِ وَالْوَعْرِ، وَالضِّيقِ وَالسَّعَةِ، وَمَرَاكِبُهُمْ تَسِيرُ مُقَابِلَهُمْ فِي الْبَحْرِ فِيهَا سِلاحُهُمْ وَذَخَائِرُهُمْ، وَلِتَكُونَ عُدَّةً لَهُمْ، إِنْ جَاءَهُمْ مَا لا قِبَلَ لَهُمْ بِهِ رَكِبُوا فِيهَا وَعَادُوا.

وَكَانَ رَحِيلُهُمْ ثَامِنَ رَجَبٍ (22/585 آب/اوغسطس 1189)، وَنُزُولُهُمْ عَلَى عَكَّا فِي مُنْتَصَفِهِ، وَلَمَّا كَانُوا سَائِرِينَ كَانَ يَزَكُ الْمُسْلِمِينَ يَتَخَطَّفُونَهُمْ، وَيَأْخُذُونَ الْمُنْفَرِدَ مِنْهُمْ.

وَلَمَّا رَحَلُوا جَاءَ الْخَبَرُ إِلَى صَلاحِ الدِّينِ بِرَحِيلِهِمْ، فَسَارَ حَتَّى قَارَبَهُمْ، ثُمَّ جَمَعَ أُمَرَاءَهُ وَاسْتَشَارَهُمْ: هَلْ يَكُونُ الْمَسِيرُ مُحَاذَاةَ الْفِرَنْجِ وَمُقَاتَلَتَهُمْ وَهُمْ سَائِرُونَ أَوْ يَكُونُ فِي غَيْرِ الطَّرِيقِ الَّتِي سَلَكُوهَا؟ فَقَالُوا: "لا حَاجَةَ بِنَا إِلَى احْتِمَالِ الْمَشَقَّةِ فِي مُسَايَرَتِهِمْ، فَإِنَّ الطَّرِيقَ وَعِرٌ وَضَيِّقٌ وَلا يَتَهَيَّأُ لَنَا مَا نُرِيدُهُ مِنْهُمْ، وَالرَّأْيُ أَنَّنَا نَسِيرُ فِي الطَّرِيقِ الْمَهْيَعِ، وَنَجْتَمِعُ عَلَيْهِمْ عِنْدَ عَكَّا، فَنُفَرِّقُهُمْ وَنُمَزِّقُهُمْ." فَعَلِمَ مَيْلَهُمْ إِلَى الرَّاحَةِ الْمُعَجَّلَةِ، فَوَافَقَهُمْ، وَكَانَ رَأْيُهُ مُسَايَرَتَهُمْ وَمُقَاتَلَتَهُمْ وَهُمْ سَائِرُونَ، وَقَالَ: "إِنَّ الْفِرَنْجَ إِذَا نَزَلُوا لَصِقُوا بِالأَرْضِ، فَلا يَتَهَيَّأُ لَنَا إِزْعَاجُهُمْ، وَلا نَيْلُ الْغَرَضِ مِنْهُمْ، وَالرَّأْيُ قِتَالُهُمْ قَبْلَ الْوُصُولِ إِلَى عَكَّا"، فَخَالَفُوهُ فَتَبِعَهُمْ، وَسَارُوا عَلَى طَرِيقِ كَفْرِ كَنَّا فَسَبَقَهُمُ الْفِرَنْجُ. وَكَانَ صَلاحُ الدِّينِ قَدْ جَعَلَ فِي مُقَابِلِ الْفِرَنْجِ جَمَاعَةً مِنَ الأُمَرَاءِ يُسَايِرُونَهُمْ، وَيُنَاوِشُونَهُمُ الْقِتَالَ، وَيَتَخَطَّفُونَهُمْ، وَلَمْ يُقْدِمِ الْفِرَنْجُ عَلَيْهِمْ مَعَ قِلَّتِهِمْ، فَلَوْ أَنَّ الْعَسَاكِرَ اتَّبَعَتْ رَأْيَ صَلاحِ الدِّينِ فِي مُسَايَرَتِهِمْ وَمُقَاتَلَتِهِمْ قَبْلَ نُزُولِهِمْ عَلَى عَكَّا لَكَانَ بَلَغَ غَرَضَهُ وَصَدَّهُمْ عَنْهَا، وَلَكِنْ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا هَيَّأَ أَسْبَابَهُ.

وَلَمَّا وَصَلَ صَلاحُ الدِّينِ إِلَى عَكَّا رَأَى الْفِرَنْجَ قَدْ نَزَلُوا عَلَيْهَا مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْبَحْرِ، مِنَ الْجَانِبِ الآخَرِ، وَلَمْ يَبْقَ لِلْمُسْلِمِينَ إِلَيْهَا طَرِيقٌ، فَنَزَلَ صَلاحُ الدِّينِ عَلَيْهِمْ وَضَرَبَ خَيْمَتَهُ عَلَى تَلِّ كَيْسَانَ، وَامْتَدَّتْ مَيْمَنَتُهُ إِلَى تَلِّ الْعِيَاضِيَّةِ وَمَيْسَرَتُهُ إِلَى النَّهْرِ الْجَارِي، وَنَزَلَتِ الأَثْقَالُ بِصَفُّورِيَّةَ. وَسَيَّرَ الْكُتُبَ إِلَى الأَطْرَافِ بِاسْتِدْعَاءِ الْعَسَاكِرِ، فَأَتَاهُ عَسْكَرُ الْمَوْصِلِ، وَدِيَارِ بَكْرٍ وَسِنْجَارَ وَغَيْرِهَا مِنْ بِلادِ الْجَزِيرَةِ، وَأَتَاهُ تَقِيُّ الدِّينِ ابْنُ أَخِيهِ، وَأَتَاهُ مُظَفَّرُ الدِّينِ بْنُ زَيْنِ الدِّينِ، وَهُوَ صَاحِبُ حَرَّانَ وَالرُّهَا. وَكَانَتِ الأَمْدَادُ تَأْتِي الْمُسْلِمِينَ فِي الْبَرِّ وَتَأْتِي الْفِرَنْجَ فِي الْبَحْرِ، وَكَانَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مُدَّةَ مُقَامِهِمْ عَلَى عَكَّا حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ مَا بَيْنَ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ، مِنْهَا الْيَوْمُ

الْمَشْهُورُ، وَمِنْهَا مَا هُوَ دُونَ ذَلِكَ، وَأَنَا أَذْكُرُ الْأَيَّامَ الْكِبَارَ لِئَلَّا يَطُولَ ذَلِكَ، وَلِأَنَّ مَا عَدَاهَا كَانَ قِتَالًا يَسِيرًا مِنْ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى ذِكْرِهِ.

وَلَمَّا نَزَلَ السُّلْطَانُ عَلَيْهِمْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْوُصُولِ إِلَيْهِمْ، وَلَا إِلَى عَكَّا حَتَّى انْسَلَخَ رَجَبٌ ثُمَّ قَاتَلَهُمْ مُسْتَهَلَّ شَعْبَانَ (منتصف ايلول/سبتمبر) فَلَمْ يَنَلْ مِنْهُمْ مَا يُرِيدُ وَبَاتَ النَّاسُ عَلَى تَعْبِئَةٍ. فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ بَاكَرَهُمُ الْقِتَالَ بِحَدِّهِ وَحَدِيدِهِ، وَاسْتَدَارَ عَلَيْهِمْ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهِمْ مِنْ بُكْرَةٍ إِلَى الظُّهْرِ، وَصَبَرَ الْفَرِيقَانِ صَبْرًا حَارَ لَهُ مَنْ رَآهُ. فَلَمَّا كَانَ وَقْتُ الظُّهْرِ حَمَلَ عَلَيْهِمْ تَقِيُّ الدِّينِ حَمْلَةً مُنْكَرَةً مِنَ الْمَيْمَنَةِ عَلَى مَنْ يَلِيهِ مِنْهُمْ، فَأَزَاحَهُمْ عَنْ مَوَاقِفِهِمْ يَرْكَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لَا يَلْوِي أَخٌ عَلَى أَخٍ، وَالْتَجَأُوا إِلَى مَنْ يَلِيهِمْ مِنْ أَصْحَابِهِمْ، وَاجْتَمَعُوا بِهِمْ، وَاحْتَمَوْا بِهِمْ، وَأَخْلَوْا نِصْفَ الْبَلَدِ، وَمَلَكَ تَقِيُّ الدِّينِ مَكَانَهُمْ، وَالْتَصَقَ بِالْبَلَدِ، وَصَارَ مَا أَخْلَوْهُ بِيَدِهِ وَدَخَلَ الْمُسْلِمُونَ الْبَلَدَ وَخَرَجُوا مِنْهُ وَاتَّصَلَتِ الطُّرُقُ وَزَالَ الْحَصْرُ عَمَّنْ فِيهِ، وَأَدْخَلَ صَلَاحُ الدِّينِ إِلَيْهِ مَنْ أَرَادَ مِنَ الرِّجَالِ، وَمَا أَرَادَ مِنَ الذَّخَائِرِ وَالْأَمْوَالِ وَالسِّلَاحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَلَوْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَزِمُوا قِتَالَهُمْ إِلَى اللَّيْلِ لَبَلَغُوا مَا أَرَادُوهُ، فَإِنَّ لِلصَّدْمَةِ الْأُولَى رَوْعَةً، لَكِنَّهُمْ لَمَّا نَالُوا مِنْهُمْ هَذَا الْقَدْرَ أَخْلَدُوا إِلَى الرَّاحَةِ، وَتَرَكُوا الْقِتَالَ وَقَالُوا: نُبَاكِرُهُمْ غَدًا، وَنَقْطَعُ دَابِرَهُمْ. وَكَانَ فِي جُمْلَةِ مَنْ أَدْخَلَهُ صَلَاحُ الدِّينِ إِلَى عَكَّا مِنْ جُمْلَةِ الْأُمَرَاءِ حُسَامُ الدِّينِ أَبُو الْهَيْجَاءِ السَّمِينُ، وَهُوَ مِنْ أَكَابِرِ أُمَرَاءِ عَسْكَرِهِ، وَهُوَ مِنَ الْأَكْرَادِ الْحُكْمِيَّةِ مِنْ بَلَدِ إِرْبِلَ، وَقُتِلَ مِنَ الْفِرِنْجِ هَذَا الْيَوْمَ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ.

ذِكْرُ وَقْعَةٍ أُخْرَى وَوَقْعَةِ الْعَرَبِ

ثُمَّ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ نَهَضُوا إِلَى الْفِرِنْجِ مِنَ الْغَدِ وَهُوَ سَادِسُ، شَعْبَانَ (١٧ أيلول/سبتمبر) عَازِمِينَ، عَلَى بَذْلِ جُهْدِهِمْ وَاسْتِنْفَادِ وُسْعِهِمْ فِي اسْتِئْصَالِهِمْ. فَتَقَدَّمُوا عَلَى تَعْبِئَتِهِمْ، فَرَأَوُا الْفِرِنْجَ حَذِرِينَ مُحْتَاطِينَ، قَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا فَرَّطُوا فِيهِ بِالْأَمْسِ، وَهُمْ قَدْ حَفِظُوا أَطْرَافَهُمْ وَنَوَاحِيَهُمْ، وَشَرَعُوا فِي حَفْرِ خَنْدَقٍ يَمْنَعُ مِنَ الْوُصُولِ إِلَيْهِمْ فَأَلَحَّ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِمْ فِي الْقِتَالِ فَلَمْ يَتَقَدَّمِ الْفِرِنْجُ إِلَيْهِمْ، وَلَا فَارَقُوا مَرَابِضَهُمْ، فَلَمَّا رَأَى الْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ عَادُوا عَنْهُمْ.

ثُمَّ إِنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْعَرَبِ بَلَغَهُمْ أَنَّ الْفِرِنْجَ تَخْرُجُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى إِلَى الِاحْتِطَابِ وَغَيْرِهِ مِنْ أَشْغَالِهِمْ. فَكَمَنُوا لَهُمْ فِي مَعَاطِفِ النَّهْرِ وَنَوَاحِيهِ سَادِسَ عَشَرَ شَعْبَانَ (29 أيلول/سبتمبر) فَلَمَّا خَرَجَ جَمْعٌ مِنَ الْفِرِنْجِ عَلَى عَادَتِهِمْ حَمَلَتْ عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ، فَقَتَلُوهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ وَغَنِمُوا مَا كَانَ مَعَهُمْ. وَحَمَلُوا الرُّؤُوسَ إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ وَأَعْطَاهُمُ الْخِلَعَ.

ذِكْرُ الْوَقْعَةِ الْكُبْرَى عَلَى عَكَّا

لَمَّا كَانَ بَعْدَ هَذِهِ الْوَقْعَةِ الْمَذْكُورَةِ بَقِيَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْعِشْرِينَ مِنْ شَعْبَانَ (3 تشرين أول/اكتوبر)، كُلَّ يَوْمٍ يُغَادُونَ الْقِتَالَ مَعَ الْفِرِنْجِ وَيُرَاوِحُونَهُ وَالْفِرِنْجُ لَا يَظْهَرُونَ مِنْ مُعَسْكَرِهِمْ وَلَا يُفَارِقُونَهُ، ثُمَّ إِنَّ الْفِرِنْجَ اجْتَمَعُوا لِلْمَشُورَةِ، فَقَالُوا: إِنَّ عَسْكَرَ مِصْرَ لَمْ يَحْضُرْ وَالْحَالُ مَعَ صَلَاحِ الدِّينِ هَكَذَا، فَكَيْفَ يَكُونُ إِذَا حَضَرَ؟ وَالرَّأْيُ أَنَّنَا نَلْقَى الْمُسْلِمِينَ غَدًا لَعَلَّنَا نَظْفَرُ بِهِمْ قَبْلَ اجْتِمَاعِ الْعَسَاكِرِ وَالْأَمْدَادِ إِلَيْهِمْ. وَكَانَ كَثِيرٌ مِنْ عَسْكَرِ صَلَاحِ الدِّينِ غَائِبًا عَنْهُ، بَعْضُهَا مُقَابِلَ أَنْطَاكِيَةَ لِيَرُدُّوا عَادِيَةَ بَيْمُنْدَ صَاحِبِهَا عَنْ أَعْمَالِ حَلَبَ، وَبَعْضُهَا فِي حِمْصَ مُقَابِلَ طَرَابُلُسَ لِتَحْفَظَ ذَلِكَ الثَّغْرَ أَيْضًا، وَعَسْكَرٌ فِي مُقَابِلِ صُورَ لِحِمَايَةِ ذَلِكَ الْبَلَدِ. وَعَسْكَرٌ بِمِصْرَ يَكُونُ بِثَغْرِ دِمْيَاطَ وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمَا، وَالَّذِي بَقِيَ مِنْ عَسْكَرِ مِصْرَ كَانُوا لَمْ يَصِلُوا لِطُولِ بِيكَارِهِمْ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ قَبْلُ، وَكَانَ هَذَا مِمَّا أَطْمَعَ الْفِرِنْجَ فِي الظُّهُورِ إِلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ.

وَأَصْبَحَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى عَادَتِهِمْ مِنْهُمْ مَنْ يَتَقَدَّمُ إِلَى الْقِتَالِ وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي خَيْمَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ تَوَجَّهَ فِي حَاجَتِهِ مِنْ زِيَارَةِ صَدِيقٍ، وَتَحْصِيلِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ وَدَوَابُّهُ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، فَخَرَجَ الْفِرِنْجُ مِنْ مُعَسْكَرِهِمْ كَأَنَّهُمُ الْجَرَادُ الْمُنْتَشِرُ، يَدِبُّونَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ قَدْ مَلَأُوهَا طُولًا وَعَرْضًا، وَطَلَبُوا مَيْمَنَةَ الْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْهَا تَقِيُّ الدِّينِ عُمَرُ ابْنُ أَخِي صَلَاحِ الدِّينِ فَلَمَّا رَأَى الْفِرِنْجَ نَحْوَهُ قَاصِدِينَ حَذِرَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ، فَتَقَدَّمُوا إِلَيْهِ، فَلَمَّا قَرُبُوا مِنْهُ تَأَخَّرَ عَنْهُمْ.

فَلَمَّا رَأَى صَلَاحُ الدِّينِ الْحَالَ وَهُوَ فِي الْقَلْبِ، أَمَدَّ تَقِيَّ الدِّينِ بِرِجَالٍ مِنْ عِنْدِهِ لِيَتَقَوَّى بِهِمْ، وَكَانَ عَسْكَرُ دِيَارِ بَكْرٍ وَبَعْضُ الشَّرْقِيِّينَ فِي جَنَاحِ الْقَلْبِ، فَلَمَّا رَأَى

الفِرِنْجُ قِلَّةَ الرِّجَالِ فِي القَلْبِ، وَأَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ قَدْ سَارَ نَحْوَ الْمَيْمَنَةِ مَدَدًا لَهُمْ عَطَفُوا عَلَى الْقَلْبِ، فَحَمَلُوا حَمْلَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ.

فَانْدَفَعَتِ الْعَسَاكِرُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مُنْهَزِمِينَ، وَثَبَتَ بَعْضُهُمْ، فَاسْتُشْهِدَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ كَالأَمِيرِ مُجَلِّيِّ بْنِ مَرْوَانَ، وَالظَّهِيرِ أَخِي الْفَقِيهِ عِيسَى؛ وَكَانَ وَالِيَ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ قَدْ جَمَعَ بَيْنَ الشَّجَاعَةِ وَالْعِلْمِ وَالدِّينِ، وَكَالْحَاجِبِ خَلِيلٍ الْهَكَّارِيِّ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الشُّجْعَانِ الصَّابِرِينَ فِي مَوَاطِنِ الْحَرْبِ.

وَلَمْ يَبْقَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ فِي الْقَلْبِ مَنْ يَرُدُّهُمْ، فَقَصَدُوا التَّلَّ الَّذِي عَلَيْهِ خَيْمَةُ صَلَاحِ الدِّينِ، فَقَتَلُوا مَنْ مَرُّوا بِهِ، وَنَهَبُوا، وَقَتَلُوا عِنْدَ خَيْمَةِ صَلَاحِ الدِّينِ جَمَاعَةً، مِنْهُمْ شَيْخُنَا جَمَالُ الدِّينِ أَبُو عَلِيِّ بْنِ رَوَاحَةَ الْحَمَوِيُّ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَلَهُ شِعْرٌ حَسَنٌ، وَمَا وَرِثَ الشَّهَادَةَ مِنْ بَعِيدٍ، فَإِنَّ جَدَّهُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ، صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَتَلَهُ الرُّومُ يَوْمَ مُؤْتَةَ[1]، وَهَذَا قَتَلَهُ الْفِرِنْجُ يَوْمَ عَكَّا، وَقَتَلُوا غَيْرَهُ. وَانْحَدَرُوا إِلَى الْجَانِبِ الآخَرِ مِنَ التَّلِّ، فَوَضَعُوا السَّيْفَ فِيمَنْ لَقُوهُ، وَكَانَ مِنْ لُطْفِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْمُسْلِمِينَ أَنَّ الْفِرِنْجَ لَمْ يُلْقُوا خَيْمَةَ صَلَاحِ الدِّينِ، وَلَوْ لَقُوهَا لَعَلِمَ النَّاسُ وُصُولَهُمْ إِلَيْهَا، وَانْهِزَامَ الْعَسَاكِرِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، فَكَانُوا انْهَزَمُوا أَجْمَعِينَ.

ثُمَّ إِنَّ الْفِرِنْجَ نَظَرُوا وَرَاءَهُمْ، فَرَأَوْا أَمْدَادَهُمْ قَدِ انْقَطَعَتْ عَنْهُمْ، فَرَجَعُوا خَوْفًا أَنْ يَنْقَطِعُوا عَنْ أَصْحَابِهِمْ، وَكَانَ سَبَبُ انْقِطَاعِهِمْ أَنَّ الْمَيْمَنَةَ وَقَفَتْ مُقَابِلَتَهُمْ، فَاحْتَاجَ بَعْضُهُمْ [أَنْ] يَقِفَ مُقَابِلَهَا، وَحَمَلَتْ مَيْسَرَةُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْفِرِنْجِ، فَاشْتَغَلَ الْمَدَدُ بِقِتَالِ مَنْ بِهَا عَنِ الاتِّصَالِ بِأَصْحَابِهِمْ، وَعَادُوا إِلَى طَرَفِ خَنَادِقِهِمْ؛ فَحَمَلَتِ الْمَيْسَرَةُ عَلَى الْفِرِنْجِ الْوَاصِلِينَ إِلَى خَيْمَةِ صَلَاحِ الدِّينِ، فَصَادَفُوهُمْ وَهُمْ رَاجِعُونَ، فَقَاتَلُوهُمْ، وَثَارَ بِهِمْ غِلْمَانُ الْعَسْكَرِ. وَكَانَ صَلَاحُ الدِّينِ لَمَّا انْهَزَمَ الْقَلْبُ قَدْ تَبِعَهُمْ يُنَادِيهِمْ، وَيَأْمُرُهُمْ بِالْكَرَّةِ، وَمُعَاوَدَةِ الْقِتَالِ، فَاجْتَمَعَ مَعَهُ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ صَالِحَةٌ، فَحَمَلَ بِهِمْ عَلَى الْفِرِنْجِ مِنْ وَرَاءِ ظُهُورِهِمْ وَهُمْ مَشْغُولُونَ بِقِتَالِ الْمَيْسَرَةِ، فَأَخَذَتْهُمْ سُيُوفُ اللَّهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَلَمْ يُفْلِتْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، بَلْ قُتِلَ أَكْثَرُهُمْ، وَأُخِذَ الْبَاقُونَ أَسْرَى، وَفِي

---

(1) غزوة مؤتة شرقي الاردن عام 629 عندما هزم البيزنطيون حملة محمد (صلى الله عليه وسلم)

جُمْلَةِ مَنْ أُسِرَ مُقَدَّمُ الدَّاوِيَّةِ الَّذِي كَانَ قَدْ أَسَرَهُ صَلَاحُ الدِّينِ وَأَطْلَقَهُ[1]. فَلَمَّا ظَفِرَ بِهِ الْآنَ قَتَلَهُ.

وَكَانَتْ عِدَّةُ الْقَتْلَى، سِوَى مَنْ كَانَ إِلَى جَانِبِ الْبَحْرِ، فِي عَشَرَةِ آلَافِ قَتِيلٍ، فَأَمَرَ بِهِمْ، فَأُلْقُوا فِي النَّهْرِ الَّذِي يَشْرَبُ الْفِرِنْجُ مِنْهُ وَكَانَ عَامَّةُ الْقَتْلَى مِنْ فُرْسَانِ الْفِرِنْجِ، فَإِنَّ الرَّجَّالَةَ لَمْ يَلْحَقُوهُمْ، وَكَانَ فِي جُمْلَةِ الْأَسْرَى ثَلَاثُ نِسْوَةٍ فِرِنْجِيَّاتٍ كُنَّ يُقَاتِلْنَ عَلَى الْخَيْلِ، فَلَمَّا أُسِرْنَ، وَأُلْقِيَ عَنْهُنَّ السِّلَاحُ عُرِفْنَ أَنَّهُنَّ نِسَاءٌ. وَأَمَّا الْمُنْهَزِمُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَمِنْهُمْ مَنْ رَجَعَ مِنْ طَبَرِيَّةَ وَمِنْهُمْ مَنْ جَازَ الْأُرْدُنَّ وَعَادَ، وَمِنْهُمْ مَنْ بَلَغَ دِمَشْقَ، وَلَوْلَا أَنَّ الْعَسَاكِرَ تَفَرَّقَتْ فِي الْهَزِيمَةِ لَكَانُوا بَلَغُوا مِنَ الْفِرِنْجِ [مِنَ] الِاسْتِئْصَالِ وَالْإِهْلَاكِ مُرَادَهُمْ، عَلَى أَنَّ الْبَاقِينَ بَذَلُوا جُهْدَهُمْ وَجَدُّوا فِي الْقِتَالِ، وَصَمَّمُوا عَلَى الدُّخُولِ مَعَ الْفِرِنْجِ إِلَى مُعَسْكَرِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَفْرَغُونَ مِنْهُمْ، فَجَاءَهُمُ الصَّرِيخُ بِأَنَّ رِحَالَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ قَدْ نُهِبَتْ. وَكَانَ سَبَبُ هَذَا النَّهْبِ أَنَّ النَّاسَ لَمَّا رَأَوْا الْهَزِيمَةَ حَمَلُوا أَثْقَالَهُمْ عَلَى الدَّوَابِّ، فَثَارَ بِهِمْ أَوْبَاشُ الْعَسْكَرِ وَغِلْمَانُهُ فَنَهَبُوهُ وَأَتَوْا عَلَيْهِ. وَكَانَ فِي عَزْمِ صَلَاحِ الدِّينِ أَنْ يُبَاكِرَهُمُ الْقِتَالَ وَالزَّحْفَ، فَرَأَى اشْتِغَالَ النَّاسِ بِمَا ذَهَبَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَهُمْ يَسْعَوْنَ فِي جَمْعِهَا وَتَحْصِيلِهَا. فَأَمَرَ بِالنِّدَاءِ بِإِحْضَارِ مَا أُخِذَ، فَأُحْضِرَ مِنْهُ مَا مَلَأَ الْأَرْضَ مِنَ الْمَفَارِشِ وَالْعِيَبِ الْمَمْلُوءَةِ وَالثِّيَابِ وَالسِّلَاحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَرَدَّ الْجَمِيعَ عَلَى أَصْحَابِهِ، فَفَاتَهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ مَا أَرَادَ، فَسَكَنَ رَوْعُ الْفِرِنْجِ، وَأَصْلَحُوا شَأْنَ الْبَاقِينَ مِنْهُمْ.

ذِكْرُ رَحِيلِ صَلَاحِ الدِّينِ عَنِ الْفِرِنْجِ وَتَمَكُّنِهِمْ مِنْ حَصْرِ عَكَّا

لَمَّا قُتِلَ مِنَ الْفِرِنْجِ ذَلِكَ الْعَدَدُ الْكَثِيرُ، جَافَتِ الْأَرْضُ مِنْ نَتْنِ رِيحِهِمْ، وَفَسَدَ الْهَوَاءُ وَالْجَوُّ، وَحَدَثَ لِلْأَمْزِجَةِ فَسَادٌ، وَانْحَرَفَ مِزَاجُ صَلَاحِ الدِّينِ، وَحَدَثَ لَهُ قُولَنْجُ مُبَرِّحٌ كَانَ يَعْتَادُهُ، فَحَضَرَ عِنْدَهُ الْأُمَرَاءُ وَأَشَارُوا عَلَيْهِ بِالِانْتِقَالِ مِنْ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ وَتَرْكِ مُضَايَقَةِ الْفِرِنْجِ، وَحَسَّنُوهُ لَهُ.

وَقَالُوا: "قَدْ ضَيَّقْنَا عَلَى الْفِرِنْجِ، وَلَوْ أَرَادُوا الِانْفِصَالَ عَنْ مَكَانِهِمْ لَمْ يَقْدِرُوا، وَالرَّأْيُ أَنَّنَا نَبْعُدُ عَنْهُمْ بِحَيْثُ يَتَمَكَّنُونَ مِنَ الرَّحِيلِ وَالْعَوْدِ فَإِنْ رَحَلُوا، وَهُوَ ظَاهِرُ

---

(1) Gerard de Ridefort أسره صلاح الدين في حطين ثم أطلق سراحه.

الأمْرِ ، فَقَدْ كُفِينَا شَرَّهُمْ وَكَفُّوا شَرَّنَا، وَإِنْ أَقَامُوا عَاوَدْنَا الْقِتَالَ وَرَجَعْنَا مَعَهُمْ إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، ثُمَّ إِنَّ مِزَاجَكَ مُنْحَرِفٌ وَالأَلَمَ شَدِيدٌ، وَلَوْ وَقَعَ إِرْجَافٌ لَهَلَكَ النَّاسُ، وَالرَّأْيُ عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ الْبُعْدُ عَنْهُمْ."

وَوَافَقَهُمُ الأَطِبَّاءُ عَلَى ذَلِكَ، فَأَجَابَهُمْ إِلَيْهِ إِلَى مَا يُرِيدُ اللَّهُ يَفْعَلُهُ [وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ][1]، فَرَحَلُوا إِلَى الْخَرُّوبَةِ رَابِعَ شَهْرِ رَمَضَانَ (16 تشرين أول/اكتوبر) وَأَمَرَ مَنْ بِعَكَّا مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِحِفْظِهَا، وَإِغْلاقِ أَبْوَابِهَا، وَالاحْتِيَاطِ، وَأَعْلَمَهُمْ بِسَبَبِ رَحِيلِهِ.

فَلَمَّا رَحَلَ هُوَ وَعَسَاكِرُهُ أَمِنَ الْفِرِنْجُ وَانْبَسَطُوا فِي تِلْكَ الأَرْضِ، وَعَادُوا فَحَصَرُوا عَكَّا، وَأَحَاطُوا بِهَا مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْبَحْرِ وَمَرَاكِبُهُمْ أَيْضًا فِي الْبَحْرِ تَحْصُرُهَا، وَشَرَعُوا فِي حَفْرِ الْخَنْدَقِ، وَعَمَلِ السُّورِ مِنَ التُّرَابِ الَّذِي يُخْرِجُونَهُ مِنَ الْخَنْدَقِ، وَجَاءُوا بِمَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحِسَابِ.

وَكَانَ الْيَزَكُ كُلَّ يَوْمٍ يُوَاقِعُهُمْ، وَهُمْ لا يُقَاتِلُونَ، وَلا يَتَحَرَّكُونَ، إِنَّمَا هُمْ مُهْتَمُّونَ بِعَمَلِ الْخَنْدَقِ وَالسُّورِ عَلَيْهِمْ لِيَتَحَصَّنُوا بِهِ مِنْ صَلاحِ الدِّينِ، إِنْ عَادَ إِلَى قِتَالِهِمْ، فَحِينَئِذٍ ظَهَرَ رَأْيُ الْمُشِيرِينَ بِالرَّحِيلِ. وَكَانَ الْيَزَكُ كُلَّ يَوْمٍ يُخْبِرُونَ صَلاحَ الدِّينِ بِمَا يَصْنَعُ الْفِرِنْجُ، وَيُعَظِّمُونَ الأَمْرَ عَلَيْهِ وَهُوَ مَشْغُولٌ بِالْمَرَضِ، لا يَقْدِرُ عَلَى النُّهُوضِ لِلْحَرْبِ، وَأَشَارَ عَلَيْهِ بَعْضُهُمْ بِأَنْ يُرْسِلَ الْعَسَاكِرَ جَمِيعَهَا إِلَيْهِمْ لِيَمْنَعَهُمْ مِنَ الْخَنْدَقِ وَالسُّورِ ، وَيُقَاتِلُوهُمْ. وَيَتَخَلَّفُ هُوَ عَنْهُمْ، فَقَالَ: "إِذَا لَمْ أَحْضُرْ مَعَهُمْ لا يَفْعَلُونَ شَيْئًا، وَرُبَّمَا كَانَ مِنَ الشَّرِّ أَضْعَافُ مَا نَرْجُوهُ مِنَ الْخَيْرِ"، فَتَأَخَّرَ الأَمْرُ إِلَى أَنْ عُوفِيَ، فَتَمَكَّنَ الْفِرِنْجُ وَعَمِلُوا مَا أَرَادُوا، وَأَحْكَمُوا أُمُورَهُمْ، وَحَصَّنُوا نُفُوسَهُمْ بِمَا وَجَدُوا إِلَيْهِ السَّبِيلَ، وَكَانَ مَنْ بِعَكَّا يَخْرُجُونَ إِلَيْهِمْ كُلَّ يَوْمٍ، وَيُقَاتِلُونَهُمْ، وَيَنَالُونَ مِنْهُمْ بِظَاهِرِ الْبَلَدِ.

ذِكْرُ وُصُولِ عَسْكَرِ مِصْرَ وَالأُسْطُولِ الْمِصْرِيِّ فِي الْبَحْرِ

فِي مُنْتَصَفِ شَوَّالٍ (أواخر تشرين أول/اكتوبر) وَصَلَتِ الْعَسَاكِرُ الْمِصْرِيَّةُ، وَمُقَدَّمُهَا الْمَلِكُ الْعَادِلُ سَيْفُ الدِّينِ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَيُّوبَ، فَلَمَّا وَصَلَ قَوِيَتْ نُفُوسُ

---

(1) قرآن كريم الآية 11 سورة 13 (الرعد) يعود موقف ابن الأثير النقدي من تحركات صلاح الدين العسكرية.

النَّاسِ بِهِ وَبِمَنْ مَعَهُ، وَاشْتَدَّتْ ظُهُورُهُمْ، وَأَحْضَرَ مَعَهُ مِنْ آلاتِ الْحِصَارِ مِنَ الدَّرَقِ وَالطَّارِقِيَّاتِ وَالنُّشَّابِ وَالأَقْوَاسِ، شَيْئًا كَثِيرًا. وَمَعَهُمْ مِنَ الرَّجَّالَةِ الْجَمُّ الْغَفِيرُ، وَجَمَعَ صَلاحُ الدِّينِ مِنَ الْبِلادِ الشَّامِيَّةِ رَاجِلاً كَثِيرًا، وَهُوَ عَلَى عَزْمِ الزَّحْفِ إِلَيْهِمْ بِالْفَارِسِ وَالرَّاجِلِ. وَوَصَلَ بَعْدَهُ الأُسْطُولُ الْمِصْرِيُّ، وَمُقَدَّمُهُ الأَمِيرُ لُؤْلُؤٌ، وَكَانَ شَهْمًا، شُجَاعًا، مِقْدَامًا، خَبِيرًا بِالْبَحْرِ وَالْقِتَالِ فِيهِ، مَيْمُونَ النَّقِيبَةِ، فَوَصَلَ بَغْتَةً فَوَقَعَ عَلَى بَسْطَةٍ كَبِيرَةٍ لِلْفِرِنْجِ فَغَنِمَهَا، وَأَخَذَ مِنْهَا أَمْوَالاً كَثِيرَةً، وَمِيرَةً عَظِيمَةً، فَأَدْخَلَهَا إِلَى عَكَّا، فَسَكَنَتْ نُفُوسُ مَنْ بِهَا بِوُصُولِ الأُسْطُولِ وَقَوِيَ جَنَانُهُمْ.

ذكر المصاف الأعظم على عكا

(بهاء الدين، 140-147)

وذلك أنه لما كان يوم الأربعاء الحادي والعشرون (شعبان/4 تشرين أول/اكتوبر 1189) تحركت عساكر الإفرنج حركة لم تكن لهم بمثلها عادة فارسهم وراجلهم وكبيرهم وصغيرهم، فاصطفوا خارج خيمهم قلباً وميمنة وميسرة، وفي القلب الملك وبين يديه الإنجيل محمولاً مستوراً بثوب أطلس مغطى يمسكه أربعة أنفس بأربعة أطراف وهم يسيرون بين يدي الملك. وامتدت الميمنة في مقابلة الميسرة التي لعسكر الإسلام من أولها إلى آخرها، وكذلك ميسرة العدو في مقابلة ميمنتنا إلى آخرها. وملكوا رؤوس التلال. وكان طرف ميمنتهم إلى النهر وطرف ميسرتهم إلى البحر . وأما العسكر الإسلامي المنصور فإن السلطان أمر الجاويش أن ينادي في الناس "يا للإسلام، وعساكر الموحدين" فركب الناس وقد باعوا أنفسهم بالجنة ووقفوا بين أيدي خيامهم. وامتدت الميمنة إلى البحر والميسرة إلى النهر كذلك أيضاً. وكان رحمه الله قد أنزل الناس في الخيم ميمنة وميسرة وقلباً تعبية الحرب، حتى إذا وقعت صيحة لا يحتاجون إلى تجديد ترتيب، وكان هو في القلب، وفي ميمنة القلب ولده الملك الأفضل، ثم عسكر المواصلة يقدمهم ظهير الدين بن البلنكري، ثم عسكر ديار بكر في خدمة قطب الدين بن نور الدين صاحب الحصن، ثم حسام الدين بن لاجين صاحب نابلس، ثم الطواشي قايماز

النجمي وجموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة، وكان في طرفها الملك المظفر تقي الدين بجحفله وعسكره وهو مطل على البحر، وأما أوائل الميسرة فكان مما يلي القلب سيف الدين علي المشطوب وعلي بن أحمد من كبار ملوك الأكراد ومقدميهم والأمير علي وجماعة المهرانية والهكارية[1] ومجاهد الدين برنقش مقدم عسكر سنجار وجماعة من المماليك ثم مظفر الدين بن زين الدين بجحفله وعسكره، وأواخر الميسرة كبار المماليك الأسدية كسيف الدين يازكج ورسلان بغا وجماعة الأسدية[2] الذين يضرب بهم المثل، ومقدم القلب الفقيه عيسى وجمعه، هذا والسلطان يطوف على الأطلاب بنفسه يحثهم على القتال، ويدعوهم إلى النزال، ويرغبهم في نصر دين الله ولم يزل القوم يتقدمون، والمسلمون يقدمون حتى علا النهار ومضى فيه مقدار أربع ساعات. وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين فأخرج لهم الملك المظفر الجاليش وجرى بينهم قلبات كثيرة وتكاثروا على الملك المظفر وكان في طرف الميمنة على البحر فتراجع عنهم شيئاً إطماعاً لهم لعلهم يبعدون عن أصحابهم فينال منهم غرضاً فلما رأى السلطان ذلك ظن به ضعفاً وأمدّ بأطلاب عدة من القلب حتى قوي جانبه وتراجعت ميسرة العدو واجتمعت على تل مشرف على البحر. ولما رأى الذين في مقابلة القلب ضعف القلب ومن خرج منه من الأطلاب داخلهم الطمع وتحركوا نحو ميمنة القلب، وحملوا حملة الرجل الواحد راجلهم وفارسهم. ولقد رأيت الرجالة تسير سير الخيالة وهم يسبقون حيناً. وجاءت الحملة على الديار البكرية كما شاء الله تعالى، وكان بهم غرة عن الحرب فتحركوا بين العدو وانكسروا كسرة عظيمة وسرى الأمر حتى انكسر معظم الميمنة واتبع العدو المنهزمين إلى العياضية فإنهم استداروا حول التل، وصعد طائفة من العدو إلى خيمة السلطان فقتلوا طشت دار كان هناك، وفي ذلك اليوم استشهد إسماعيل المكبس وابن رواحة رحمهما الله، وأما الميسرة فإنها ثبتت لأن الحملة لم تصادفها وأما السلطان فأخذ يطوف على الأطلاب فينهضهم ويعدهم الوعود الجميلة ويحثهم على الجهاد

---

(1) قبائل كردية

(2) اي الذين يحملون اسم اسد الدين شيركوه عم صلاح الدين

ويناذي فيهم "يا للإسلام" ولم يبق معه إلا خمسة أنفس وهو يطوف على الأطلاب ويخرق الصفوف ويأوي إلى تحت التل الذي كان عليه الخيام، وأما المنهزمون من العسكر فإنهم بلغتهم هزيمتهم إلى الفخوانة قاطع جسر طبرية. وتمّ منهم قوم الى محروسة دمشق، وأما خيل العدو فتبعوهم الى العياضية، فلما راوهم قد صعدوا الجبل رجعوا عنهم، وجاءوا عايدين الى عسكرهم، فلقيهم جماعة من الغلمان والخزيندية والساسة منهزمين على بغال الحمل، فقتلوا منهم جماعة ثم جاءوا على رأس السوق فقتلوا جماعة وقتل منهم جماعة، فإن السوق كان عظيماً ولهم سلاح، وأما الذين صعدوا إلى الخيام السلطانية فإنهم لم يلتمسوا فيها شيئاً أصلاً سوى أنهم قتلوا من ذكرنا وهم ثلاثة نفر رأوا ميسرة الإسلام ثابتة فعلموا أن الكسرة لا تتم، فعادوا منحدرين من التل يطلبون عسكرهم، وأما السلطان فإنه كان واقفاً تحت التل ومعه نفر يسير وهو يجمع الناس ليعودوا إلى المحلة على العدو، فلما رأوا الإفرنج نازلين من التل أرادوا لقاءهم فأمرهم بالصبر إلى أن ولوا ظهورهم واشتدوا يطلبون أصحابهم. فصاح في الناس فحملوا عليهم فطرحوا منهم جماعة، فاشتد الطمع فيهم وتكاثر الناس وراءهم، حتى لقوا أصحابهم والطرد وراءهم، فلما رأوهم منهزمين والمسلمون وراءهم في عدد كثير ظنوا أن من حمل منهم قد قتل وإنهم إنما نجا منهم هذا النفر فقط، وأن الهزيمة قد عادت عليهم فاشتدوا في الهرب والهزيمة، وتحركت الميسرة عليهم. وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة وتجمعت الرجال وتداعت وتراجع الناس من كل جانب. وكذب الله الشيطان ونصر الإيمان. وظل الناس في قتل وطرح وضرب وجرح إلى أن اتصل المنهزمون السالمون إلى عسكرهم، فهجم عليهم في الخيام. فخرج منهم أطلاب كانوا أعدوها خشية من مثل هذا الأمر، فردوا المسلمين وكان التعب قد أخذ من الناس والعرق قد ألجمهم فرجع الناس عنهم بعد صلاة العصر يخوضون في القتلى ودمائهم إلى خيامهم فرحين مسرورين. وعاد السلطان الى مخيمه، وجلس فيه والأمراء بين يديه يتذاكرون من فقد منهم، وكان مقدار من فقد من الغلمان المجهولين مائة وخمسين نفراً ومن المعروفين استشهد ظهير الدين أخو الفقيه عيسى، ولقد رأيته وهو جالس يضحك والناس يعزونه، وهو ينكر عليهم، ويقول

"هذا يوم الهناء لا يوم العزاء". وكان هو قد وقع عن فرسه وركبه فرأيته وقتل عليه جماعة من أقاربه وقتل في ذلك اليوم الأمير مجلي، هذا الذي قتل من المسلمين، وأما من العدو المخذول فحزر قتلاهم سبعة آلاف نفر، ورأيتهم وقد حملوهم إلى شاطئ النهر ليلقوا فيه، فحزرتهم بدون سبعة آلاف.

ولما تم على المسلمين من الهزيمة ما تم، ورأى الغلمان خلو الخيام عمن يعترض عليهم، فإن العسكر انقسم إلى قسمين منهزمين ومقاتلين، فلم يبق في الخيام أحد وراءنا فظنوا أن الكسرة تتم وأن العدو ينهب جميع ما في الخيام، فوضعوا أيديهم في الخيام ونهبوا جميع ما كان فيها. وذهب من الناس أموال عظيمة وكان ذلك أعظم من الكسرة وقعاً. ولما عاد السلطان إلى الخيم ورأى ما قد تم على الناس من نهب الأموال والهزيمة، سارع إلى الكتب والرسل في رد المنهزمين، وتتبع من شذ من العسكر والرسل تتابع في هذا المعنى، حتى بلغت عقبة فيق، وأخذوهم: "يالكرة يالعكرة المسلمين"، فعادوا وأمر بجمع الأقمشة من أكف الغلمان إلى خيمته، حتى جلالات الخيل والمخالي بين يديه في خيمته، وهو جالس ونحن حوله، وهو يتقدم إلى كل من عرف شيئاً، وحلف عليه يسلم إليه، وهو يلقى هذه الأحوال بقلب صلب، وصدر رحب، ووجه منبسط ورأي مستقيم غير مختبط. واحتساب لله تعالى وقوة عزم في نصرة دين الله، وأما العدو المخذول فإنه عاد إلى خيمته وقد قتل شجعانهم وطرحت ابطالهم.

فأمر السلطان أن خرج من عكا عجل يسحبون (تُنْقَلْ) عليه القتلى منهم إلى طرف النهر ليلقوا فيه، ولقد حكى لي بعض من ولي أمر العجل أنه أخذ خيطاً وكان كلما أخذ قتيلاً عقد عقدة فبلغ عدد قتلى الميسرة أربعة آلاف ومائة وكسور، وبقي قتلى الميمنة وقتلى القلب لم يعدهم، فإنه ولي أمرهم غيره. وبقي من العدو بعد ذلك من حمى نفسه وأقاموا في مخيمهم لم يكترثوا بجحافل المسلمين وعساكرهم، وتشتت من عساكر المسلمين خلق كثير بسبب الهزيمة فإنه ما رجع منها إلا رجل معروف يخاف على نفسه والباقون هربوا في حال سبيلهم.

وأخذ السلطان في جمع الأموال المنهوبة وإعادتها إلى أصحابها، ولقد حضرت يوم تفرقت الأقمشة على أربابها، فرأيت سوقاً للعدل قائمة لم ير في الدنيا

أعظم منها، وكان ذلك في يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان (6 تشرين أول/اكتوبر). وعند انقضاء هذه الواقعة وسكون ثائرتها أمر السلطان بالثقل حتى تراجع إلى موضع يقال له الخروبة خشية على العسكر من أرائج القتلى وهو موضع قريب من مكان الوقعة، إلا أنه أبعد عنها من المكان الذي كان نازلاً فيه بقليل، وضربت له خيمة عند الثقل، وأمر اليزك أن يكون مقيماً في المكان الذي كان نازلاً فيه، وذلك في التاسع والعشرين. واستحضر الأمراء وأرباب المشورة في سلخ الشهر ثم أمرهم بالإصغاء إلى كلامه وكنت من جملة الحاضرين ثم قال: بسم الله والحمد لله والصلاة على رسول الله. اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا قد نزل في بلدنا وقد وطء أرض الإسلام، وقد لاحت لوائح النصر عليه وإن شاء الله تعالى وقد بقي في هذا الجمع اليسير ولا بد من الاهتمام بقلعه والله قد أوجب علينا ذلك وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل وهو واصل وهذا العدو إن بقي وطال أمره إلى أن يفتح البحر جاءه مدد عظيم والرأي كل الرأي عندي مناجزتهم فليخبرنا كل منكم ما عنده في ذلك'، وكان ذلك في ثالث عشر تشرين من الشهور الشمسية وامتخضت الاراء وجرى تجاذب في أطراف الكلام وانفصلت آراؤهم على أن المصلحة تأخير العسكر إلى الخروبة، وأن يبقى العسكر أياماً حتى يستجم من حمل السلاح وترجع النفوس إليهم، فقد أخذ التعب منهم واستولى على نفوسهم الضجر وتكليفهم أمراً على خلاف ما تحمله القوي لا تؤمن غائلته والناس لهم خمسون يوماً تحت السلاح وفوق الخيل، والخيل قد ضجرت من عرك اللجم وسئمت نفوسها ذلك. وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها إليها ويصل الملك العادل ويشاركنا في الرأي والعمل، وستعيد من شذ من العساكر، ونجمع الرجالة ليقفوا في مقابلة رجال العدو. وكان السلطان قد التاث التياثاً كثيراً من كثرة ما حمل على قلبه، وما عاناه من ثقل السلاح ومداومة لمسه، فرأى المصلحة فيما قالوا وأشاروا به. وكان انتقال العسكر إلى الثقل ثالث رمضان وانتقل السلطان تلك الليلة وأقام يصلح مزاجه ويجمع العساكر وينتظر أخاه الملك العادل إلى عاشر رمضان (22 تشرين أول/اكتوبر)[1].

---

(1) يتقدم هذا التاريخ بأكثر من شهر على تاريخ ابن الأثير والمصدر الذي أخذ عنه أبي عماد الدين (منتصف شوال)

ذِكْرُ إِحْرَاقِ الأَبْرَاجِ وَوَقْعَةِ الأُسْطُولِ

(ابن الأثير، 12/30-28)

كَانَ الْفِرِنْجُ، فِي مُدَّةِ مُقَامِهِمْ عَلَى عَكَّا، قَدْ عَمِلُوا ثَلَاثَةَ أَبْرَاجٍ مِنَ الْخَشَبِ عَالِيَةٍ جِدًّا، طُولُ كُلِّ بُرْجٍ مِنْهَا فِي السَّمَاءِ سِتُّونَ ذِرَاعًا، وَعَمِلُوا كُلَّ بُرْجٍ مِنْهَا خَمْسَ طَبَقَاتٍ، كُلُّ طَبَقَةٍ مَمْلُوءَةٌ مِنَ الْمُقَاتِلَةِ، وَقَدْ جَمَعُوا أَخْشَابَهَا مِنَ الْجَزَائِرِ فَإِنَّ مِثْلَ هَذِهِ الأَبْرَاجِ الْعَظِيمَةِ لَا يَصْلُحُ لَهَا مِنَ الْخَشَبِ إِلَّا الْقَلِيلُ النَّادِرُ، وَغَشُّوهَا بِالْجُلُودِ وَالْخَلِّ وَالطِّينِ وَالأَدْوِيَةِ الَّتِي تَمْنَعُ النَّارَ مِنْ إِحْرَاقِهَا، وَأَصْلَحُوا الطُّرُقَ لَهَا، وَقَدَّمُوهَا نَحْوَ مَدِينَةِ عَكَّا مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتٍ، وَزَحَفُوا بِهَا فِي الْعِشْرِينَ مِنْ رَبِيعٍ الأَوَّلِ (27/586 نيسان/إبريل 1190)، فَأَشْرَفَتْ عَلَى السُّورِ، وَقَاتَلَ مَنْ بِهَا مَنْ عَلَيْهِ فَانْكَشَفُوا، وَشَرَعُوا فِي طَمِّ خَنْدَقِهَا، فَأَشْرَفَ الْبَلَدُ عَلَى أَنْ يُمْلَكَ عَنْوَةً وَقَهْرًا. فَأَرْسَلَ أَهْلُهُ إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ إِنْسَانًا سَبَحَ فِي الْبَحْرِ، فَأَعْلَمَهُ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضِّيقِ، وَمَا قَدْ أَشْرَفُوا عَلَيْهِ مِنْ أَخْذِهِمْ وَقَتْلِهِمْ، فَرَكِبَ هُوَ وَعَسَاكِرُهُ وَتَقَدَّمُوا إِلَى الْفِرِنْجِ وَقَاتَلُوهُمْ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ قِتَالًا عَظِيمًا دَائِمًا يَشْغَلُهُمْ عَنْ مُكَاثَرَةِ الْبَلَدِ. فَافْتَرَقَ الْفِرِنْجُ فِرْقَتَيْنِ: فِرْقَةٌ تُقَاتِلُ صَلَاحَ الدِّينِ وَفِرْقَةٌ تُقَاتِلُ أَهْلَ عَكَّا، إِلَّا أَنَّ الأَمْرَ قَدْ خَفَّ عَمَّنْ بِالْبَلَدِ، وَدَامَ الْقِتَالُ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَةٍ، آخِرُهَا الثَّامِنُ وَالْعِشْرُونَ مِنَ الشَّهْرِ (5 ايار /مايو)، وَسَئِمَ الْفَرِيقَانِ الْقِتَالَ، وَمَلُّوا مِنْهُ لِمُلَازَمَتِهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَالْمُسْلِمُونَ قَدْ تَيَقَّنُوا اسْتِيلَاءَ الْفِرِنْجِ عَلَى الْبَلَدِ، لِمَا رَأَوْا مِنْ عَجْزِ مَنْ فِيهِ عَنْ دَفْعِ الأَبْرَاجِ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَتْرُكُوا حِيلَةً إِلَّا وَعَمِلُوهَا، فَلَمْ يُفِدْ ذَلِكَ، وَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ شَيْئًا، وَتَابَعُوا رَمْيَ النِّفْطِ الطَّيَّارِ عَلَيْهَا، فَلَمْ يُؤَثِّرْ فِيهَا، فَأَيْقَنُوا بِالْبَوَارِ وَالْهَلَاكِ؛ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ بِنَصْرٍ مِنْ عِنْدِهِ وَإِذْنٍ فِي إِحْرَاقِ الأَبْرَاجِ. وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ، أَنَّ إِنْسَانًا مِنْ أَهْلِ دِمَشْقَ كَانَ مُولَعًا بِجَمْعِ آلَاتِ النَّفَّاطِينَ، وَتَحْصِيلِ عَقَاقِيرَ تُقَوِّي عَمَلَ النَّارِ فَكَانَ مَنْ يَعْرِفُهُ يَلُومُهُ عَلَى ذَلِكَ وَيُنْكِرُهُ عَلَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ: "هَذِهِ حَالَةٌ لَا أُبَاشِرُهَا بِنَفْسِي إِنَّمَا أَشْتَهِي مَعْرِفَتَهَا"، وَكَانَ بِعَكَّا لِأَمْرٍ يُرِيدُهُ اللَّهُ. فَلَمَّا رَأَى الأَبْرَاجَ قَدْ نُصِبَتْ عَلَى عَكَّا شَرَعَ فِي عَمَلِ مَا يَعْرِفُهُ مِنَ الأَدْوِيَةِ الْمُقَوِّيَةِ لِلنَّارِ، بِحَيْثُ لَا يَمْنَعُهَا شَيْءٌ مِنَ الطِّينِ وَالْخَلِّ وَغَيْرِهِمَا، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا حَضَرَ عِنْدَ الأَمِيرِ قَرَاقُوش، وَهُوَ مُتَوَلِّي الأُمُورِ

بغكًا وَالْحَاكِمُ فيهَا، وَقَالَ لَهُ: تَأْمُرُ الْمَنْجَنِيقِيَّ أَنْ يَرْمِيَ فِي الْمَنْجَنِيقِ الْمُحَاذِي لِبُرْجٍ مِنْ هَذِهِ الأَبْرَاجِ مَا أُعْطِيهِ حَتَّى أُحْرِقَهُ. وَكَانَ عِنْدَ قَرَاقُوشَ مِنَ الْغَيْظِ وَالْخَوْفِ عَلَى الْبَلَدِ وَمَا فِيهِ مَا يَكَادُ يَقْتُلُهُ، فَازْدَادَ غَيْظًا بِقَوْلِهِ وَحَرِدَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: "قَدْ بَالَغَ أَهْلُ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ فِي الرَّمْيِ بِالنِّفْطِ وَغَيْرِهِ فَلَمْ يُفْلِحُوا" فَقَالَ لَهُ مَنْ حَضَرَ: "لَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ الْفَرَجَ عَلَى يَدِ هَذَا، وَلا يَضُرُّنَا أَنْ نُوَافِقَهُ عَلَى قَوْلِهِ"، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ، وَأَمَرَ الْمَنْجَنِيقِيَّ بِامْتِثَالِ أَمْرِهِ. فَرَمَى عِدَّةَ قُدُورٍ نِفْطًا وَأَدْوِيَةً لَيْسَ فِيهَا نَارٌ، فَكَانَ الْفِرِنْجُ إِذَا رَأَوُا الْقِدْرَ لا يُحْرِقُ شَيْئًا يَصِيحُونَ، وَيَرْقُصُونَ، وَيَلْعَبُونَ عَلَى سَطْحِ الْبُرْجِ حَتَّى إِذَا عَلِمَ أَنَّ الَّذِي أَلْقَاهُ قَدْ تَمَكَّنَ مِنَ الْبُرْجِ، أَلْقَى قِدْرًا مَمْلُوءَةً وَجَعَلَ فِيهَا النَّارَ فَاشْتَعَلَ الْبُرْجُ، وَأَلْقَى قِدْرًا ثَانِيَةً وَثَالِثَةً، فَاضْطَرَمَتِ النَّارُ فِي نَوَاحِي الْبُرْجِ، وَأَعْجَلَتْ مَنْ فِي طَبَقَاتِهِ الْخَمْسِ عَنِ الْمَهْرَبِ وَالْخَلاصِ، فَاحْتَرَقَ هُوَ وَمَنْ فِيهِ، وَكَانَ فِيهِ مِنَ الزَّرْدِيَّاتِ وَالسِّلاحِ شَيْءٌ كَثِيرٌ. وَكَانَ طَمَعُ الْفِرِنْجِ بِمَا رَأَوْا أَنَّ الْقُدُورَ الأُولَى لا تَعْمَلُ شَيْئًا يَحْمِلُهُمْ عَلَى الطُّمَأْنِينَةِ وَتَرْكِ السَّعْيِ فِي الْخَلاصِ، حَتَّى عَجَّلَ اللَّهُ لَهُمُ النَّارَ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الآخِرَةِ، فَلَمَّا أَحْرَقَ الْبُرْجَ الأَوَّلَ انْتَقَلَ إِلَى الثَّانِي، وَقَدْ هَرَبَ مَنْ فِيهِ لِخَوْفِهِمْ، فَأَحْرَقَهُ، وَكَذَلِكَ الثَّالِثُ. وَكَانَ يَوْمًا مَشْهُودًا لَمْ يَرَ النَّاسُ مِثْلَهُ: وَالْمُسْلِمُونَ يَنْظُرُونَ وَيَفْرَحُونَ، وَقَدْ أَسْفَرَتْ وُجُوهُهُمْ بَعْدَ الْكَآبَةِ فَرْحَةً بِالنَّصْرِ وَخَلاصِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْقَتْلِ لأَنَّهُمْ لَيْسَ فِيهِمْ أَحَدٌ إِلا وَلَهُ فِي الْبَلَدِ إِمَّا نَسِيبٌ وَإِمَّا صَدِيقٌ. وَحُمِلَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى صَلاحِ الدِّينِ فَبَذَلَ لَهُ الأَمْوَالَ الْجَزِيلَةَ وَالإِقْطَاعَ الْكَثِيرَ فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ الْحَبَّةَ الْفَرْدَ، وَقَالَ: "إِنَّمَا عَمِلْتُهُ لِلَّهِ تَعَالَى وَلا أُرِيدُ الْجَزَاءَ إِلا مِنْهُ". وَسُيِّرَتِ الْكُتُبُ إِلَى الْبِلادِ بِالْبَشَائِرِ. وَأَرْسَلَ يَطْلُبُ الْعَسَاكِرَ الشَّرْقِيَّةَ. فَأَوَّلُ مَنْ أَتَاهُ عِمَادُ الدِّينِ زَنْكِيُّ بْنُ مَوْدُودِ بْنِ زَنْكِيٍّ، وَهُوَ صَاحِبُ سِنْجَارَ وَدِيَارِ الْجَزِيرَةِ، ثُمَّ أَتَاهُ عَلاءُ الدِّينِ وَلَدُ عِزِّ الدِّينِ مَسْعُودِ بْنِ مَوْدُودِ بْنِ زَنْكِيٍّ، سَيَّرَهُ أَبُوهُ مُقَدَّمًا عَلَى عَسْكَرِهِ وَهُوَ صَاحِبُ الْمَوْصِلِ. ثُمَّ وَصَلَ زَيْنُ الدِّينِ يُوسُفُ صَاحِبُ إِرْبِلَ وَكَانَ كُلُّ مِنْهُمْ إِذَا وَصَلَ يَتَقَدَّمُ إِلَى الْفِرِنْجِ بِعَسْكَرِهِ وَيَنْضَمُّ إِلَيْهِ غَيْرُهُمْ، وَيُقَاتِلُونَهُمْ، ثُمَّ يَنْزِلُونَ.

ذكر الحيلة وإدخال بطسة بيروت الى البلد

(بهاء الدين، 179-178، 201-203، 211)

وكان الإفرنج خذلهم الله قد أداروا مراكبهم حول عكا حراسة لها من أن يدخلها مراكب المسلمين. وكانت قد اشتدت حاجة من فيها إلى الطعام والميرة فركب في بطسة بيروت جماعة من المسلمين، واودعوها اربع مائة غرارة قمح، ووضعوا فيها من الجبن والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة، وتزيوا بزي الإفرنج، حتى حلقوا لحاهم ووضعوا الخنازير[1] على سطح البطسة، بحيث ترى من بعد، وعلقوا الصلبان، وجاءوا قاصدين البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدو فخرجوا إليهم واعترضوهم في الحراقات والشواني وقالوا لهم "نراكم قاصدين البلد"، واعتقدوا أنهم منهم، فقالوا "أولم تكونوا قد أخذتم البلد" فقالوا "لم نأخذ البلد بعد" فقالوا "نحن نرد القلوع إلى العسكر" وقد أتي بطسة أخرى في هوائنا فأنذروهم حتى يدخلوا البلد. وكان وراءهم بطسة إفرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدة العسكر، فنظروا فرأوها فقصدوها ينذرونها، فاشتدت البطسة الإسلامية في السير واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد، وسلمت ولله الحمد. وكان فرحاً عظيماً فإن الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد وكان ذلك في العشر الأواخر من رجب (586/آب-أيلول/اوغست-سبتمبر 1190).

ذكر قصة العوام عيسى

ومن نوادر هذه الوقعة ومحاسنها أن عواماً مسلماً يقال له عيسى وصل إلى البلد بالكتب والنفقات على وسطه ليلاً على غرة من العدو، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو. وكان ذات ليلة شد على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار، وكتب للعسكر وعام في البحر، فجرى عليه أمر أهلكه وأبطأ خبره عنا. وكانت عادته إذا دخل البلد أطار طيراً عرّفنا بوصوله، فأبطأ الطير فاستشعرنا هلاكه. ولما كان بعد أيام بينا الناس على طرف البحر في البلد، إذا

---

(1) الخنازير نجسة لايأكلها المسلم قط.

هو قد قذف شيئاً غريقاً فتفقدوه فوجدوه عيسى العوام، ووجدوا على وسطه الذهب وشمع الكتب، وكان الذهب نفقة للمجاهدين. فما رؤي من أدى الأمانة في حال حياته وقد ردها في مماته إلا هذا الرجل وكان ذلك في العشر الأواخر من رجب أيضاً.

ذكر وقعة الكمين

وفي الثاني والعشرين من شوال (22/586 تشرين ثاني/نوفمبر 1190) رأى السلطان أن يضع للعدو كميناً وقوي عزمه على ذلك، فأخرج جمعاً من كماة العسكر وشجعانه وأبطاله وفرسانه، وانتخبهم من خلق كثير وأمرهم أن يسيروا في الليل ويكمنوا في سفح تل هو شمالي عكا بعيداً من عسكر العدو، عنده بانت منزلة الملك العادل حين وقعت الوقعة المنسوبة إليه، وأن يظهر منهم للعدو نفر يسير وأن يقصدوه في خيامه ويحركوه، حتى إذا خرج انهزموا بين يديه نحو المسلمين. ففعلوا ذلك وساروا حتى أتوا التل المذكور ليلاً فكمنوا فيه. ولما تجلى نهار الثالث والعشرين خرج منهم يسير على جياد من الخيل وساروا حتى أتوا مخيم العدو ورموهم بالنشاب، وحركوا حميتهم بالضرب المتواتر، فانتخى لهم مقدار مائتي فارس وخرجوا إليهم شاكي السلاح، على خيل جياد بعدة تامة وأسلحة كاملة، وقصدوهم وليس معهم أحد راجل. وداخلهم الطمع فيهم لقلة عدتهم، فانهزموا بين أيديهم وهم يقاتلون ويقتلوا، حتى أتوا الكمين فثارت عند وصولهم الأبطال، وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وهجموا عليهم هجمة الأسود على فرائسها، فثبتوا وصبروا وقاتلوا قتالاً شديداً، ثم ولوا منهزمين، فتمكن أولياء الله منهم وأوقعوا فيهم ضرباً بالسيف، حتى أفنوا منهم جمعاً عظيماً واستسلم الباقون للأسر فأسروهم، وأخذوا خيلهم وعددهم. وجاء البشير إلى العسكر الإسلامي فارتفعت الأصوات بالتهليل. وركب السلطان يتلقى المجاهدين، وسار وكنت في خدمته، حتى أتى تل كيسان فلقينا أوائل القوم. فوقف هناك يتلقى العائدين من المجاهدين والناس يتبركون بهم ويشكرونهم على حسن صنيعهم، وهو يعتبر الأسرى ويتصفح أحوالهم. وكان ممن أسر مقدم عسكر الإفرنسيس

فإنه كان قد أنفذ نجدة قبل وصوله وأسر خازن الملك أيضاً. وعاد السلطان بعد تكامل الجماعة إلى مخيمه فرحاً مسروراً، وأحضر الأسرى عنده وأمر منادياً ينادي من أسر أسيراً فليحضر الناس أسراهم وكنت حاضراً ذلك المجلس. ولقد أكرم المقدمين منهم وخلع عليهم وعلى مقدم عسكر الإفرنسيس فروة خاصة وأمر لكل واحد من الباقين بفروة جرخية، فإن البرد كان شديداً وكان قد أخذ منهم وأحضر لهم طعاماً فأكلوه وأمر لهم بخيمة تضرب قريباً من خيمته وكان يكارمهم في كل وقت ويحضر المقدم على الخوان في بعض الأوقات وأمر بتنفيذهم وحملهم إلى دمشق، حملوا مكرمين وأذن لهم في أن يراسلوا صاحبهم وأن يحضر لهم من عسكرهم ما يحتاجون إليه من الثياب وغيرها ففعلوا ذلك وساروا إلى دمشق.

رقة قلب السلطان وإنسانيته

... فإنه وصل في أثنائه خمسة وأربعون نفراً من الإفرنج كانوا قد أخذوا في بيروت وسيروا إلى السلطان ووصلوا في ذلك اليوم إلى ذلك المكان[1]. ولقد شاهدت منه رقة قلب لم ير أعظم منها. وذلك أنه كان فيهم شيخ كبير طاعن في السن لم يبق في فمه ضرس ولم تبق له قوة إلا مقدار تحرك لا غير. فقال للترجمان قل له "ما الذي حملك على المجيء وأنت في هذا السن وكم من ههنا إلى بلادك" فقال "بلادي بيني وبينها عدة أشهر. وأما مجيئي فإنما كان للحج إلى القمامة"، فرقّ له السلطان ومنّ عليه وأطلقه وأعاده راكباً على فرس إلى عسكر العدو. ولقد طلب أولاده الصغار أن يأذن لهم في قتل أسير، فلم يفعل. فسألته عن سبب المنع وكنت حاجبهم بما طلبوه فقال "لئلا يعتادوا من الصغر على سفك الدماء ويهون عليهم ذلك وهم الآن لا يفرقون بين المسلم والكافر". فانظر إلى رحمة هذا الملك وتحرجه وتحرزه[2]...

---

(1) تل العياضية قرب عكا، في التاسع من ربيع أول 587 (6 نيسان/ابريل 1191)

(2) الحقيقة أن هذا الجواب الكريم يجعل صورة صلاح الدين التاريخية تتطابق مع صورته الأسطورية

نساء لذة ونساء حرب بين الافرنج[1]

(عماد الدين، 230-228)

وصلت في مركب ثلثمائة إمرأة فرنجيّة مستحسنه، متحلّية بشبابها وحسنها متزيّنه. وقد إجتمعن من الجزائر، وانتدبن الجرائر، واغتربن لإسعاف الغُرباء، وتأهّبن لإسعاد الأشقياء، وترافدن على الإرفاق والإرفاد وتلهّبن على السفاح والسفاد. من كل زانية نازيه، زاهية هازية، عاطية متعاطيه، خاطية خاطيه، متغنّية متغنّجه، متبرّزة متبرّجه، نارية متلهّبه، متنقّبة متخضّبه، تائقة شائقه، فائقة رائقه، رائقة فائقه، رافعة خارقه، مارقة رامقه، قاسرة سارقه، فارجة فاجرة، فاتنة فاتره، مشتهاة متشهّيه، مُلهاة متلهّيه، متفتّنة متفتّيه، ناشية متنشّيه، متشوقة متسوّقه، مقترحة محترقه، متحبّبة متعشّقه، حمراء مرحاء، نجلاء كحلاء، عجزاء هيفاء، غنّاء لفّاء، زرقاء ورقاء، متخرّقة خرقاء. تسحب غفارتها، وتسخر بنضارتها، وتتثنّى كأنّها حصن، وتميس كأنّها قضيب، وتزيف وعلى لبّتها صليب، وهي بائعة شكرها بشكرها، باغية كسرها في سكرها. فوصلن وقد سبلن أنفسهنّ، وقدّمن للتبذّل أصونهنّ وأنفسهنّ، وذكرن أنّهنّ قصدن بخروجهنّ، تسبيل فروجهن، وأنّهنّ لا يمتنعن من العُزّبان، ورأين أنّهنّ لا يتقربن بأفضلَ من هذا القُرْبان، وتفرّدن بما ضربنه من الخِيَم والقِباب. وانضمّت إليهنّ أترابُهنّ من الحسان الشواب، وفتحن أبواب الملاذ، وسبّلن ما بين الأفخاذ، وبُحْن بالإباحه، ورُحْن إلى الراحه، وأزحن علّة السماحه، ونفقن سوق الفسوق، ونفقن رتوق الفتوق، وتفجّرن بينابيع الفُجور، وتحجّرن بنزُو الفحول منهنّ على الحُجُور، وعرضن الإمتاع بالمتاع، ودعون الوقاح إلى الوقاع، وركّبن الصُدور على الأعجاز، وسمحن بالسلعة لذوى الإعواز، وذُمن على تقريب خلاخلهنّ من الأقراط، وزُمْن فرشهنّ على بساط النشاط، وتهدّفن للسهام، وتحلّلن للحرام، وتعرّضن للطِعان، وتضرّعن للأخدان، ومددن الرواق، وحللن حين عقدن النطاق، وصرن مضارب

[1] هذه صفحة من الاباحية التقية ذات الطراز الباروكي المزخرف قد تثير اهتمام هواة ادب العجائب والغرائب

للأوتاد، استدعين النصول منهنّ إلى الأغماد، وسوّين أراضيهنّ للغراس، واستنهضن الجراب إلى التراس، واستفرن المحاريث إلى الحرث، ومكّنّ المناقير من البحث، وأذنّ للرؤوس في دخول الدهاليز، وجرين تحت راكبيهنّ على ضرب المهاميز، وقرّبن الأشطان من الزكايا، وفوّقن النبال في أعجاس الحنايا، وقطعن التكك، وطبعن السكك، وضممن الأطيار في أوكار الأوراك، وجمعن قرون كباش النطاح في الشباك، ورفعن الحجْر عن المصون، وترفّعن عن ستر المكنون. ولففن الساق بالساق، وشفين غليل العشّاق، وكثّرن الضباب في الوجار، وأطلعن الأشبار على الأسرار. وطرّقن الأقلام إلى الأدويه، والسيول إلى الأوديه، والجداول إلى الغدْران، والمناصل إلى الأجفان، والسبائك إلى البواتق، والزنانير إلى المناطق، والأحطاب إلى التنانير، وذوي الأجرام إلى المطامير، والصيارف إلى الدنانير، والأعناق إلى البطون، والأقذاء إلى العيون. وتشاجرن على الأشجار، وتساقطن على الثمار. وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قُربه، لا سيّما فيمن اجتمعت عنده غربة وعُزبه. وسقين الخمر، وطلّبن بعين الوزر الأجر[1]. وتسامع أهل عسكرنا بهذه القضيّه، وعجبوا كيف تعبّدوا بترك النخوة والحميّه. وأبق من المماليك الأغبياء، والمدابير الجهلاء، جماعة جدّ بهم الهوى، واتّبعوا من غوى. فمنهم من رضي للذّة بالذلّه، ومنهم من ندم على الزلّة فتحيّل في النقله، فإن يد من لا يرتدّ لا تمتدّ، وأمر الهارب إليهم لإتهامه يشتدّ، وباب الهوى عليه يستدّ. وما عند الفرنج على العزباء إذا أمكنت منها الأعزب حرج، وما أزكاها عند القسّس إذا كان للعزبان المضيقين من فرجها فرج.

ووصلت أيضاً في البحر إمرأة كبيرة القدر، وافرة الوفر، وهي في بلدها مالكة الأمر. وفي جملتها خمسمائة فارس بخيولهم وأتباعهم، وغلمانهم وأشياعهم. وهي كافلة بكل ما يحتاجون اليه من المؤونه، زائدة بما تنفقه فيهم على المعونه، وهم يركبون بركباتها، ويحملون بحملاتها، ويثبون لوثباتها، وتثبت ثباتها لثباتها.

---

(1) هذه هي الاشارة الوحيدة لطبيعة تلك المرتزقات اللاتي تم تصويرهن كأنهن يمثلن العقيدة المسيحية، لكن هذه العبارة عن طلب الاجرة بغمزة العين والخطيئة قد تفهم أيضاً بمعنى غير فاسد.

وفي الفرنج نساء فوارس، لهنّ دروع وقوانس، وكُنّ في زيّ الرجال، ويبرُزْن في حومة القتال، ويعملن عمل أرباب الحجا وهنّ ربّات الحجال.

وكل هذا يعتقدنه عباده، ويَخلُن أنهنّ يَعْقِدن به سعاده، ويجعلنه لهنّ عادة، فسبحان الذي أضلّهنّ، وعن نهج النُهى أزلّهن. وفي يوم الواقعة قلعت منهنّ نسوة، لهنّ بالفُرسان أُسوه، وفيهنّ مع لينهنّ قسوه، وليست لهنّ سوى السوابغ كِسْوه. فما عُرِفن حتى سُلِبن وعُرِّين[1]. ومنهنّ عدّة أُستُبين واشتُرين. وأمّا العجائز، فقد امتلأت بهنّ المراكز، وهنّ يشدُدن تارة ويُرخِين، ويحرّضن ويُنخّين. ويقلن إن الصليب لا يرضى إلا بالإباء، وأنه لا بقاء له إلاّ بالفناء، وإن قبر معبودهم تحت استيلاء الأعداء. فانظر إلى الإتّفاق في الضلال بين الرجال منهم والنساء. فهنّ للغيرة على الملّة مُزِلن الغَيْرة، وللنجاة من الحيرة ناجين الخيرة، ولعدم الجَلَد عن طلب الثأر تجلّدن، ولما ضامهنّ من الأمر تبلّهن وتبلّدن.

---

(1) هذه "كلوريندا" ثانية في الجانب المسيحي، لكن أسامة يطلعنا على أنه كان هناك في الجانب الاسلامي أيضاً نساء تمكن من حمل السلاح.

- 5 -

انتهت حملة فردريك بارباروسا في مياه الأنهار الأرمنية وأوبئة شمال سورية، لكن حملة أخرى أشد نجاحاً تبعتها بقيادة ملكي فرنسا وانكلترا. ورغم كل الجهود التي بذلها صلاح الدين من أجل توحيد القوى الإسلامية في مجابهة الحملة الصليبية (ونسوق هنا نقلاً عن أبي شامة دعوته المؤثرة للجهاد) فإن عكا مالبثت أن سقطت في تموز/يوليه سنة 1191 بعد أن انهارت تلك القوى وانتشر الجوع. يصف بهاء الدين وصفاً حياً أحزان الاستسلام وساعاته العصيبة خاصة تلك التي وسمت النهاية الدموية غير المشرفة التي فرضها قلب الأسد حينما نفذ بقلب بارد مجزرة الأسرى المسلمين.

المركيز كونراد والحملة الثانية

(بهاء الدين، 181)

... المركيس صاحب صور، وكان من أعظمهم حيلة وأشدهم بأساً، وهو الأصل في تهييج الجموع من وراء البحر. وذلك أنه صوّر القدس في ورقة، وصوّر فيه صورة القمامة التي يحجون إليها ويعظمون شأنها وفيه قبة قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه بزعمهم[1]، وذلك القبر هو أصل حجهم، وهو الذي يعتقدون نزول النور عليه في كل سنة في كل عيد من أعيادهم[2]، وصوّر على القبر فرساً عليه فارس مسلم راكب عليه وقد وطئ قبر المسيح وبال الفرس على

---

(1) سبق وان اسلفنا ان فهم المسلمين للمسيحية يستند الى نظريات دوسيتية. (راجع هامش رقم 179).

(2) احتفالات النيران خلال السبت المقدس كان يجري احياؤها في القبر المقدس حتى القرن المنصرم

القبر وأبدى هذه الصورة وراء البحر في الأسواق والمجامع والقسوس يحملونها ورؤوسهم مكشوفة وعليهم المسوح وينادون بالويل والثبور ، وللصور عمل في قلوبهم، فإنها أصل دينهم، فهاج بذلك خلق لا يحصي عددهم إلا الله، وكان من جملتهم ملك الألمان وجنوده.

ذِكْرُ وُصُولِ مَلِكِ الأَلْمَانِ (فيدريك بارباروسّا) إِلَى الشَّامِ وَمَوْتِهِ

(ابن الأثير، 12/30–32)

فِي هَذِهِ السَّنَةِ (1190/586) خَرَجَ مَلِكُ الأَلْمَانِ مِنْ بِلَادِهِ، وَهُمْ نَوْعٌ مِنَ الْفِرِنْجِ، مِنْ أَكْثَرِهِمْ عَدَدًا، وَأَشَدِّهِمْ بَأْسًا، وَكَانَ قَدْ أَزْعَجَهُ مُلْكُ الإِسْلَامِ الْبَيْتَ الْمُقَدَّسَ فَجَمَعَ عَسَاكِرَهُ، وَأَزَاحَ عِلَّتَهُمْ، وَسَارَ عَنْ بِلَادِهِ وَطَرِيقِهِ عَلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، فَأَرْسَلَ مَلِكُ الرُّومِ بِهَا إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ يُعَرِّفُهُ الْخَبَرَ، وَيَعِدُ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُهُ مِنَ الْعُبُورِ فِي بِلَادِهِ. فَلَمَّا وَصَلَ مَلِكُ الأَلْمَانِ إِلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ عَجَزَ مَلِكُهَا عَنْ مَنْعِهِ مِنَ الْعُبُورِ لِكَثْرَةِ جُمُوعِهِ، لَكِنَّهُ مَنَعَ عَنْهُمُ الْمِيرَةَ، وَلَمْ يُمَكِّنْ أَحَدًا مِنْ رَعِيَّتِهِ مِنْ حَمْلِ مَا يُرِيدُونَهُ إِلَيْهِمْ، فَضَاقَتْ بِهِمُ الأَزْوَادُ وَالأَقْوَاتُ، وَسَارُوا حَتَّى عَبَرُوا خَلِيجَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَصَارُوا عَلَى أَرْضِ بِلَادِ الإِسْلَامِ، وَهِيَ مَمْلَكَةُ الْمَلِكِ قِلْجِ أَرْسَلَانَ بْنِ مَسْعُودِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ قُتُلْمِشَ بْنِ سَلْجُوقَ[1]. فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى أَوَائِلِهَا ثَارَ بِهِمُ التُّرْكُمَانُ الأَوْجُ، فَمَا زَالُوا يُسَايِرُونَهُمْ وَيَقْتُلُونَ مَنِ انْفَرَدَ وَيَسْرِقُونَ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ، وَكَانَ الزَّمَانُ شِتَاءً وَالْبَرْدُ يَكُونُ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ شَدِيدًا وَالثَّلْجُ مُتَرَاكِمًا، فَأَهْلَكَهُمُ الْبَرْدُ وَالْجُوعُ وَالتُّرْكُمَانُ فَقَلَّ عَدَدُهُمْ. فَلَمَّا قَارَبُوا مَدِينَةَ قُونِيَةَ خَرَجَ إِلَيْهِمُ الْمَلِكُ قُطْبُ الدِّينِ مَلِكْشَاهْ بْنُ قِلْجِ أَرْسَلَانَ لِيَمْنَعَهُمْ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُ بِهِمْ قُوَّةٌ، فَعَادَ إِلَى قُونِيَةَ وَبِهَا أَبُوهُ قَدْ حَجَرَ وَلَدُهُ الْمَذْكُورُ عَلَيْهِ، وَتَفَرَّقَ أَوْلَادُهُ فِي بِلَادِهِ، وَتَغَلَّبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى نَاحِيَةٍ مِنْهَا. فَلَمَّا عَادَ عَنْهُمْ قُطْبُ الدِّينِ أَسْرَعُوا السَّيْرَ فِي أَثَرِهِ فَنَازَلُوا قُونِيَةَ، وَأَرْسَلُوا إِلَى قِلْجِ أَرْسَلَانَ هَدِيَّةً وَقَالُوا لَهُ: مَا قَصَدْنَا بِلَادَكَ وَلَا أَرَدْنَاهَا، وَإِنَّمَا قَصَدْنَا

---

(1) سلطان قونية السلجوقي

الْبَيْتَ الْمُقَدَّسَ، وَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَأْذَنَ لِرَعِيَّتِهِ فِي إِخْرَاجِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ قُوتٍ وَغَيْرِهِ، فَأَذِنَ فِي ذَلِكَ، فَأَتَاهُمْ مَا يُرِيدُونَ، فَشَبِعُوا، وَتَزَوَّدُوا، وَسَارُوا. ثُمَّ طَلَبُوا مِنْ قُطْبِ الدِّينِ أَنْ يَأْمُرَ رَعِيَّتَهُ بِالْكَفِّ عَنْهُمْ، وَأَنْ يُسَلِّمَ إِلَيْهِمْ جَمَاعَةً مِنْ أُمَرَائِهِ رَهَائِنَ، وَكَانَ يَخَافُهُمْ، فَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ نَيِّفًا وَعِشْرِينَ أَمِيرًا كَانَ يَكْرَهُهُمْ، فَسَارُوا بِهِمْ مَعَهُمْ وَلَمْ يَمْتَنِعِ اللُّصُوصُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ قَصْدِهِمْ وَالتَّعَرُّضِ إِلَيْهِمْ فَقَبَضَ مَلِكُ الْأَلْمَانِ عَلَى مَنْ مَعَهُ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَقَيَّدَهُمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَلَكَ فِي أَسْرِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَدَى نَفْسَهُ. وَسَارَ مَلِكُ الْأَلْمَانِ حَتَّى أَتَى بِلَادَ الْأَرْمَنِ، وَصَاحِبُهَا لَافُونُ بنِ اصْطِفَانَةَ بنِ لِيُونَ، فَأَمَدَّهُمْ بِالْأَقْوَاتِ وَالْعُلُوفَاتِ، وَحَكَّمَهُمْ فِي بِلَادِهِ، وَأَظْهَرَ الطَّاعَةَ لَهُمْ، ثُمَّ سَارُوا نَحْوَ أَنْطَاكِيَةَ، وَكَانَ فِي طَرِيقِهِمْ نَهْرٌ فَنَزَلُوا عِنْدَهُ، وَدَخَلَ مَلِكُهُمْ إِلَيْهِ لِيَغْتَسِلَ فَغَرِقَ فِي مَكَانٍ مِنْهُ لَا يَبْلُغُ الْمَاءُ وَسَطَ الرَّجُلِ وَكَفَى اللَّهُ شَرَّهُ.

وَكَانَ مَعَهُ وَلَدٌ لَهُ[1]، فَصَارَ مَلِكًا بَعْدَهُ، وَسَارَ إِلَى أَنْطَاكِيَةَ، فَاخْتَلَفَ أَصْحَابُهُ عَلَيْهِ، فَأَحَبَّ بَعْضُهُمُ الْعَوْدَ إِلَى بِلَادِهِ، فَتَخَلَّفَ عَنْهُ، وَبَعْضُهُمْ مَالَ إِلَى تَمْلِيكِ أَخٍ لَهُ، فَعَادَ أَيْضًا، وَسَارَ فِيمَنْ صَحَّتْ نِيَّتُهُ لَهُ، فَعَرَضَهُمْ وَكَانُوا نَيِّفًا وَأَرْبَعِينَ أَلْفًا، وَوَقَعَ فِيهِمُ الْوَبَاءُ وَالْمَوْتُ، فَوَصَلُوا إِلَى أَنْطَاكِيَةَ وَكَأَنَّهُمْ قَدْ نُبِشُوا مِنَ الْقُبُورِ. فَتَبَرَّمَ بِهِمْ صَاحِبُهَا، وَحَسَّنَ لَهُمُ الْمَسِيرَ إِلَى الْفِرِنْجِ الَّذِينَ عَلَى عَكَّا، فَسَارُوا عَلَى جَبَلَةَ وَلَاذِقِيَّةَ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْبِلَادِ الَّتِي مَلَكَهَا الْمُسْلِمُونَ، وَخَرَجَ أَهْلُ حَلَبَ وَغَيْرِهَا إِلَيْهِمْ، وَأَخَذُوا مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا، وَمَاتَ أَكْثَرُ مِمَّنْ أُخِذَ، فَبَلَغُوا طَرَابُلُسَ، وَأَقَامُوا بِهَا أَيَّامًا فَكَثُرَ فِيهِمُ الْمَوْتُ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا نَحْوُ أَلْفِ رَجُلٍ، فَرَكِبُوا فِي الْبَحْرِ إِلَى الْفِرِنْجِ الَّذِينَ عَلَى عَكَّا، وَلَمَّا وَصَلُوا وَرَأَوْا مَا نَالَهُمْ فِي طَرِيقِهِمْ وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الِاخْتِلَافِ عَادُوا إِلَى بِلَادِهِمْ فَغَرِقَتْ بِهِمُ الْمَرَاكِبُ وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ.

وَكَانَ الْمَلِكُ قَلْجِ أَرْسَلَانَ يُكَاتِبُ صَلَاحَ الدِّينِ بِأَخْبَارِهِمْ، وَيَعِدُهُ أَنَّهُ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْعُبُورِ فِي بِلَادِهِ فَلَمَّا عَبَرُوهَا وَخَلَّفُوهَا أَرْسَلَ يَعْتَذِرُ بِالْعَجْزِ عَنْهُمْ، لِأَنَّ أَوْلَادَهُ حَكَمُوا عَلَيْهِ، وَحَجَرُوا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقُوا عَنْهُ، وَخَرَجُوا عَنْ طَاعَتِهِ. وَأَمَّا صَلَاحُ الدِّينِ عِنْدَ وُصُولِ الْخَبَرِ بِعُبُورِ مَلِكِ الْأَلْمَانِ، فَإِنَّهُ اسْتَشَارَ أَصْحَابَهُ، فَأَشَارَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَلَيْهِ بِالْمَسِيرِ إِلَى طَرِيقِهِمْ وَمُحَارَبَتِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَتَّصِلُوا بِمَنْ عَلَى عَكَّا. فَقَالَ: "بَلْ

---

(1) فيديريك وقد مات بعدها بقليل على عكا

نُقِيمُ إلى أنْ يقْرُبُوا مِنَّا، وحِينَئِذٍ نَفْعَلُ ذلِكَ لِئَلَّا يَسْتَسْلِمَ مِنْ بِعَكَّا مِنْ عَساكِرِنا" لَكِنَّهُ سَيَّرَ بَعْضَ مَنْ عِنْدَهُ مِن العَساكِرِ مِنْها عَسْكَرُ حَلَبَ وجَبَلَةَ ولاذِقِيَّة وشَيْزَرَ وغَيْرُ ذلِكَ، إلى أعْمالِ حَلَبَ لِيَكُونُوا في أطْرافِ البِلادِ يَحْفَظُونَها مِنْ عادِيَتِهِمْ. وكانَ حالُ المُسْلِمِينَ. كَما قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: [إذْ جاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أسْفَلَ مِنْكُمْ وإذْ زاغَتِ الأَبْصارُ وبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَناجِرَ وتَظُنُّونَ بِاللّهِ الظُّنُونَ هُنالِكَ ابْتُلِيَ المُؤْمِنُونَ وزُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيدًا][1] فَكَفَى اللهُ شَرَّهُمْ وَرَدَّ كَيْدَهُمْ في نَحْرِهِمْ.

ومِنْ شِدَّةِ خَوْفِهِمْ أنَّ بَعْضَ أُمَراءِ صَلاحِ الدِّينِ كانَ لَهُ بِبَلَدِ المَوْصِلِ قَرْيَةٌ وكانَ أخِي، رَحِمَهُ اللهُ يَتَوَلَّاها، فَحَصَّلَ دَخْلَها مِنْ حِنْطَةٍ وشَعِيرٍ وتِبْنٍ، فأرْسَلَ إلَيْهِ في بَيْعِ الغَلَّةِ، فَوَصَلَ كِتابُهُ يَقُولُ: "لا تَبِعِ الحَبَّةَ الفَرْدَ، واسْتَكْثِرْ لَنا مِنَ التِّبْنِ"، ثُمَّ بَعْدَ ذلِكَ وَصَلَ كِتابُهُ يَقُولُ: "تَبِيعُ الطَّعامَ فَما بِنا حاجَةٌ إلَيْهِ"، ثُمَّ: إنَّ ذلِكَ الأمِيرَ قَدِمَ المَوْصِلَ، فَسَألْتُهُ عَنِ المَنْعِ مِنْ بَيْعِ الغَلَّةِ، ثُمَّ الإذْنِ فِيها بَعْدَ مُدَّةٍ يَسِيرَةٍ، فَقالَ: لَمَّا وَصَلَتِ الأخْبارُ بِوُصُولِ مَلِكِ الألْمانِ أيْقَنَّا أنَّنا لَيْسَ لَنا بِالشّامِ مُقامٌ.

فَكَتَبْتُ بِالمَنْعِ مِنْ بَيْعِ الغَلَّةِ لِتَكُونَ ذَخِيرَةً لَنا إذا جِئْنا إلَيْكُمْ. ولَمّا أهْلَكَهُمُ اللهُ تَعالَى، وأغْنَى عَنْها كَتَبْتُ بِبَيْعِها والانْتِفاعِ بِثَمَنِها.

وصول ملك فرنسا وملك انكلترا

ذكر وصول العساكر الإسلامية والملك افرنسيس

(بهاء الدين، 212-214، 220)

ومن ذلك الوقت (ربيع 1190) انفتح البحر وطاب الزمان وجاء أوان عود العساكر إلى الجهاد من الطائفتين. فكان أول من قدم علم الدين سليمان بن جندر، من أمراء الملك الظاهر، وكان شيخاً كبيراً مذكوراً له وقائع ذا رأي حسن، والسلطان يحترمه ويكرمه وله قدم صحبة. ثم قدم بعده مجد الدين بن عز الدين فخرشاه وهو صاحب بعلبك. وتتابعت بعد ذلك العساكر الإسلامية من كل

---

(1) قرآن (كريم) الآية 11 من السورة 33 (الأحزاب) - تشير الآية الى حصار المدينة من قبل حلفاء المشركين، في السنة الخامسة للهجرة (617).

صوب. وأما عسكر العدو فإنهم كانوا يتواعدون اليزك ومن يقاربهم بقدوم الملك الفرنسيس[1] وكان معظماً عندهم مقدماً محترماً من كبار ملوكهم، تنقاد إليه العساكر بأسرها، بحيث إذا حضر حكم على الجميع ولم يزالوا يتواعدون بقدومه حتى قدم في ست بطس تحمله وميرته وما يحتاج إليه من الخيل وخواص أصحابه. وكان قدومه يوم السبت الثالث والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة (20/587 نيسان/ابريل 1191).

نادرة وبشارة

وكان قد صحبه من بلاده باز عظيم هائل الخلق أبيض اللون نادر الجنس ما رأيت بازياً أحسن منه، وكان يعزه ويحبه حباً عظيماً. فشذ الباز من يده وطار وهو يستجيبه ولا يجيبه حتى سقط على سور عكا، فاصطاده أصحابنا وأنفذوه إلى السلطان. وقد كان لقدومه روعة عظيمة واستبشار عظيم بالظفر به. فتفاءل المسلمون بذلك وبذل الإفرنج فيه ألف دينار فلم يجابوا. وقدم بعد ذلك كندفرند[2] وكان مقدماً عظيماً عندهم مذكوراً، فذكروا أنه حاصر حماة وحارم في عام الرملة.

ذكر ملك الأنكتار

.. وهذا ملك الأنكتار[3] شديد البأس بينهم عظيم الشجاعة قوي الهمة، له وقعات عظيمة وله جسارة على الحرب، وهو دون الفرنسيس عندهم في الملك والمنزلة، لكنه أكثر مالاً منه وأشهر في الحرب والشجاعة. وكان من خبره أنه وصل إلى جزيرة قبرص ولم ير أن يتجاوزها إلا وأن تكون له وفي حكمه، فنازلها وقاتلها فخرج إليه صاحبها، وجمع له خلقاً عظيماً وقاتلهم قتالاً شديداً. فأنفذ الأنكتار إلى عكا يستنجد إليه الملك جفري أخاه ومعه مائة وستون فارساً ليعينوه على مقصوده وبقيت الإفرنج على عكا ينتظرون ما يكون من الطائفتين.

---

(1) Filippo Augusto

(2) فيليب، كونت الفلاندرز.

(3) ريتشارد قلب الأسد

ذكر وصول الأنكتار

ولما كان يوم السبت ثالث عشر الشهر (8 حزيران/يونية 1191) قدم ملك الأنكتار بعد مصالحته لصاحب جزيرة قبرص والاستيلاء عليها، وكان قدومه روعة عظيمة. ووصل في خمس وعشرين شانية مملوءة بالرجال والسلاح والعدد. وأظهر الإفرنج سروراً عظيماً حتى أنهم أوقدوا تلك الليلة نيراناً عظيمة كبيرة، وكان ملوكهم يتواعدوننا به، فكان المستأمنون منهم يخبروننا عنهم أنهم متوقفون فيما يريدون فيما يفعلوه من مضايقة البلد حتى قدومه فإنه ذو رأي في الحرب، مجرب. وأثر قدومه في قلوب المسلمين خشية ورهبة، هذا والسلطان يتلقى ذلك كله بالصبر والاحتساب والتوكل وإخلاص النية لله تعالى في جهادهم.

نداء صلاح الدين لقتال الصليبيين

(ابو شامة، 148/2)

والمرجو من الله سبحانه وتعالى تحريك همم المؤمنين في تسكين ثائرهم وتخريب عامرهم، وما دام البحر يمدّهم والبر لا يصدّهم، فبلاء البلاد بهم دائم ومرض القلوب بأدوائهم ملازم. فأين حمية المسلمين، ونخوة أهل الدين، وغيرة أهل اليقين؟ وما ينقضي عجبنا من تظافر المشركين، وقعود المسلمين، فلا ملبي منهم لمناد، ولا مثقف لمناد، فانظروا إلى الفرنج أي مورد وردوا، وأي حشد حشدوا، وأي ضالة نشدوا، وأية نجدة أنجدوا، وأية أموال غرموها وأنفقوها، وجدات جمعوها وتوزعوها فيما بينهم وفرقوها؟ ولم يبق ملك في بلادهم وجزائرهم، ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم وأكابرهم، إلا جارى جاره في مضمار الإنجاد، وبارى نظيره في الجدّ والاجتهاد. واستقلوا في صون ملتهم بذل المهج والأرواح، وأمدّوا أجناسهم الأجناس بأنواع السلاح مع أكفاء الكفاح. وما فعلوا ما فعلوا ولا بذلوا ما بذلوا إلا لمجرد الحمية لمتعبدهم، والنخوة لمعتقدهم، وليس أحد من الفرنجية يستشعر ان الساحل (السوري) إذا ملك، ورفع فيه حجاب عزهم وهتك، يخرج بلد عن يده، وتمتدّ يد إلى بلده. والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنوا وفشلوا،

وغفلوا وكسلوا، ولزموا الحيرة، وعدموا الغيرة، ولو انثنى، والعياذ بالله للإسلام عنان، أو خبا سنا ونبا سنان، لما وجد في شرق البلاد وغربها، وبعد الآفاق وقربها، من لدين الله يغار ومن لنصرة الحق على الباطل يختار، وهذا أوان رفض التواني، واستدناء أولي الحمية من الأقاصي والأداني، على أنا بحمد الله لنصره راجعون، وله بإخلاص السر سر الإخلاص مناجون، والمشركون بإذن الله هالكون، والمؤمنون آمنون ناجون."

قوة الزحف واستسلام عكا

(بهاء الدين، 239-229)

ولم يزالوا يوالون على الأسوار بالمناجيق المتواصلة والضرب وتنقلوا أحجارها حتى خلخلوا سور البلد وأضعفوا بنيانه، وأنهك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم وكثرة الأعمال، حتى أن جماعة منهم بقوا ليالي لا ينامون أصلاً لا ليلاً ولا نهاراً، والخلق الذين عليهم عدد كثير يتناوبون على قتالهم وهم نفر يسير قد تقسموا على الأسوار والخنادق والمنجنيقات والسفن والشواني.

ولما أحس العدو بذلك وظهر لهم تخلخل السور وتقلقل بنيانه شرعوا في الزحف من كل جانب وانقسموا أقساماً وتناوبوا فرقاً، كلما تعب قسم استراح وقام غيره مقامه وشرعوا في ذلك شروعاً عظيماً، براجلهم وفارسهم سابع الشهر (جمادى الآخر/12 تموز/يوليه 1191)، هذا مع عمارتهم أسوارهم الدائرة على خنادقهم بالرجالة والمقاتلة ليلاً ونهاراً. ولما علم السلطان بذلك بإخبار من يشاهده وإظهار العلامة التي بيننا وبينهم وهي دق الكؤوس، ركب وركب العسكر إليهم وجرى في ذلك اليوم قتال عظيم من الجانبين، وهو كالوالدة الثكلى، يجول بفرسه من طلب إلى طلب، ويحث الناس على الجهاد. ولقد بلغنا أن الملك العادل حمل بنفسه في ذلك اليوم مرتين والسلطان يطوف بين الأطلاب بنفسه وينادي "يا للإسلام"، وعيناه تذرفان بالدموع. وكلما نظر إلى عكا وما حل بها من البلاء وما يجري على ساكنيها من المصاب العظيم، اشتد في الزحف والحث على القتال،

ولم يطعم في ذلك اليوم طعاماً البتة وإنما شرب أقداح مشروب كان يشير بها الطبيب. وتأخرت عن حضور هذا الزحف لإلمام مرض شوش مزاجي لما عراني فكنت في الخيمة في تل العياضية وأنا أشاهد الجميع، ولما هجم الليل عاد رحمه الله إلى الخيم بعد العشاء الآخرة، وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن فنام لا عن غفو. ولما كان سحر تلك الليلة أمر الكؤوس أن دقت[1] وركب العساكر من كل جانب وأصبحوا على ما أمسوا عليه.

وفي ذلك اليوم وصلت مطالعة عن البلد يقولون فيها "أنا قد بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم، ونحن في الغد ثامن الشهر إن لم تعملوا شيئاً نطلب الأمان ونسلم البلد ونشتري مجرد رقابنا"، وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكى في قلوبهم. فإن عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر وجميع البلاد الإسلامية، واحتوت على كبار من أمراء العسكر وشجعان الإسلام كسيف الدين المشطوب وبهاء الدين قراقوش وغيرهما وكان قراقوش ملتزماً بحراستها منذ نزل العدو عليها. وأصاب السلطان ما لم يصبه شيء مثله وخيف على مزاجه التشويش، وهو لا يقطع ذكر الله والرجوع إليه في جميع ذلك صابراً محتسباً ملازماً مجتهداً، [والله لا يضيع أجر المحسنين][2]. فرأى الدخول على القوم ومهاجمتهم. فصاح في العسكر الصائح وركبت الأبطال فاجتمع الراجل والفارس واشتد الزحف. ولم يساعده العسكر في ذلك اليوم على الهجوم على العدو فإن رجالته وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبوركان[3] والنشاب من وراء أسوارهم، وهجم عليهم بعض الناس من بعض أطرافهم فثبتوا وذبوا غاية الذب، ولقد حكى بعض من دخل عليهم أسوارهم أنه كان هناك راجل واحد إفرنجي صعد سور خندقهم واستدبر المسلمين وإلى جانبه جماعة يناولونه الحجارة وهو يرميها على المسلمين الذين يلاصقون سور الخندق وقال إنه وقع فيه زهاء خمسين سهماً وحجراً ولا يمنعه ذلك عما هو

(1) قرع الطبول والرجوع الى المعركة من جديد (عن غابرييلي)

(2) قرآن (كريم) الآية 134 من السورة 3 (آل عمران)

(3) ترجمها غابرييلي (القوس والنشاب).

بصدده من الذب والقتال حتى ضربه زراق مسلم بقارورة فأحرقه. ولقد حكى لي شيخ عاقل جندي أنه كان من جملة من دخل خنادقهم في ذلك اليوم، قال "وكان داخل سورهم امرأة عظيمة عليها ملوطة خضراء فما زالت ترمينا بقوس من خشب حتى خرجت منا جماعة وتكاثرنا عليها وقتلناها وأخذنا قوسها وحملناها إلى السلطان فعجب من ذلك عجباً عظيماً"، ولم يزل الحرب يعمل بين الطائفتين بالقتل والجرح حتى فصل بينهم الليل.

انهيار عكا ودخولها في مفاوضات مع الإفرنج

ذكر ما آل إليه أمر البلد من الضعف

ووقوع المراسلة بين أهل البلد والإفرنج

ولما اشتد زحفهم على البلد وتكاثروا عليها من كل جانب، وتناوب ضعف أهل البلد لما رأوه من عين الهلاك واستشعروا العجز عن الدفع، وتمكن العدو من الخنادق فملكوها، وتمكنوا من سور الباشورة فنقبوه وأشعلوا فيه النار، بعد حشو النقب. ووقعت بدنة من الباشورة ودخل العدو الباشورة وقتل منهم فيها مائة وخمسون نفراً وصاعداً، وكان فيهم ستة من كبارهم فقال لهم واحد "لا تقتلوني حتى أرحل الفرنج عنكم بالكلية"، فبادر رجل من الأكراد فقتله وقتل الخمسة الأخرى، وفي الغد نادى الإفرنج "احفظوا الستة فإنا نطلقكم كلكم بهم" فقالوا "قد قتلناهم" فحزن الإفرنج لذلك حزناً عظيماً وطلبوا الزحف بعد ذلك أياماً ثلاثة.

وبلغنا أن سيف الدين المشطوب خرج بنفسه إلى ملك الفرنسيس بالأمان وقال له "قد أخذنا منكم بلاداً عدة، وكنا نهجم البلد وندخل فيه، ومع هذا إذا سألونا الأمان أعطيناهم وحملناهم إلى مأمنهم وإكرامهم. ونحن نسلم البلد، وتعطينا الأمان على أنفسنا". فأجابه بأن "هؤلاء الذين أخذتموهم منا وأنتم أيضاً مماليكي وعبيدي، فأرى فيكم رأيي". وبلغنا أن المشطوب بعد ذلك أغلظ له في القول وقال أقاويل كثيرة في ذلك المقام منها "أنا لا نسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ولا يقتل منا واحد حتى يقتل خمسون نفساً من كبازكم"، وانصرف عنه. ولما دخل المشطوب

البلد بهذا الخبر خاف جماعة ممن كانوا في البلد، فأخذوا بركوساً[1] وركبوا فيه ليلاً خارجين إلى العسكر الإسلامي. وذلك في التاسع من جمادى الاخرة. وكان منهم من المعروفين عز الدين أرسل وابن الجاولي وسنقر الوشاقي، فأما أرسل وسنقر فإنهما لما وصلا إلى العسكر تغيبا، ولم يعلم لهما مكان خشية من نقمة السلطان. وأما ابن الجاولي فظفر به ورمي في الزريخانة (السجن).

وفي سحر تلك الليلة ركب السلطان بنية كبس القوم ومعه المساحي وآلات طم الخنادق، فما ساعده العسكر على ذلك وتخاذلوا عن ذلك وقالوا له "تخاطر بالإسلام كله[2] ولا مصلحة في ذلك". وفي ذلك اليوم خرج من الأنكتار رسل ثلاثة طلبوا فاكهة وثلجاً وذكروا أن مقدم الأسبتار يخرج في الغد يتحدث في معنى الصلح. غير أن السلطان أكرمهم ودخلوا سوق العسكر وتفرجوا فيه، وعادوا تلك الليلة إلى عسكرهم. وفي ذلك اليوم تقدم السلطان إلى صارم الدين قايماز النجمي، أن يدخل هو وأصحابه إلى أسوارهم، وسار معه جماعة من أمراء الأكراد كالجناح وأصحابه وهو أخو المشطوب، وزحفوا حتى وصلوا أسوار الإفرنج. ونصب قايماز بنفسه علمه على سورهم وقاتل عن العلم قطعة من النهار. ووصل في ذلك اليوم عز الدين جرديك النوري، وسوق الزحف قائم، فترجل هو وجماعته وقاتل قتالاً شديداً. وفي يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة (3 تموز/يوليه) أصبح القوم ساكتين عن الزحف، والعساكر الإسلامية محدقة بهم، وقد باتوا ليلتهم شاكي السلاح راكبي ظهور خيلهم منتظرين، عسى أن تمكنهم مساعدة إخوانهم المقيمين بعكا، ويهجموا على طرف من الإفرنج فيكسروهم، ويخرجوا يحمي بعضهم بعضاً، ويجاوبهم العسكر البراني فيسلم من يسلم ويؤخذ من يؤخذ، فلم يقدروا على الخروج وكان قد ثبت ذلك معهم، فلم يتهيأ لهم في تلك الليلة خروج بسبب أنه كان هرب منهم بعض الغلمان، فأخبر العدو بذلك فاحتاطوا عليهم وحرسوهم حراسة عظيمة. ولما كان يوم الجمعة العاشر خرج منهم رسل ثلاثة واجتمعوا بالملك العادل وتحادثوا معه ساعة زمانية، وعادوا ولم ينفصل الحال

---

(1) ترجمها غابرييلي (مركباً).

(2) أي أن في هذه الخطة مغامرة بالاسلام كله (المترجم).

وانقضى النهار على مقام المسلمين بالمرج في مقابلة العدو وباتوا على مثل ذلك.

ولما كان السبت الحادي عشر لبست الفرنج بأسرها لباس الحرب، وتحركوا حركة عظيمة، بحيث أنهم اعتقدوا ضرب مصاتي مع المسلمين، واصطفوا وخرج من الباب الذي تحته القبة زهاء أربعين نفساً، واستدعوا جماعة من المماليك، وطلبوا منهم العدل الزبداني وذكروا أنه صاحب صيداً طليق السلطان. فحضر العدل وجرى مباذلة أحاديث في معنى إطلاق العسكر الذي بعكا، واشتطوا في ذلك اشتطاطاً عظيماً وتصرم نهار السبت ولم ينفصل حال.

ذكر كتب وصلت من البلد

ولما كان يوم الأحد ثاني عشر وصلت (من المدينة) كتب يقولون فيها "إنا قد تبايعنا على الموت ولا نزال نقاتل حتى نقتل ولا نسلم هذا البلد ونحن أحياء فانظروا أنتم كيف تعملون في شغل العدو عنا ودفعه عن قتالنا فهذه عزائمنا وإياكم أن تخضعوا لهذا العدو وتلينوا لهم فإنا نحن قد فات أمرنا"، وذكر العوّام الواصل بهذه الكتب أنه لما وقع بالليل الصوت ظن الإفرنج أن عسكراً عظيماً عبر إلى عكا وسلم وسار فيها قال "وجاء إنسان إفرنجي فوقف تحت السور وصاح إلى بعض من على السور وقال له "بحق دينك إلا ما أخبرتني كم عدد العسكر الذي دخل إليكم البارحة" يعني ليلة السبت وكان قد وقع بالليل صوت وانزعج الطائفتان ولم يكن له حقيقة"[1] فقال له "ألف فارس" فقال "لا لكنه دون ذلك، أنا رأيتهم لابسين ثياباً خضرا".[2]

ثم تتابعت العساكر الإسلامية واندفع كيد العدو عن القوم في تلك الأيام، بعد أن كان قد أشرف البلد على الأخذ، واشتد ضعف البلد وكثرت ثغور سوره، وجاهد المقيمون فيه وبنوا عوض الثلم سوراً من داخلها، حتى إذا تم بناؤه اقتتلوا عليه. وقدم في يوم الثلاثاء رابع عشر الشهر المذكور، سابق الدين، صاحب شيزر، وفي يوم الأربعاء خامس عشر، وصل بدر الدين دلدرم ومعه تركمان

---

(1) يبدو أنها كانت هزة أرضية

(2) الصفوف السماوية التي غالباً ماتراها المعتقدات الإسلامية تتدخل في المعركة

كثير، كان السلطان قد انفذ اليه ذهباً انفق فيهم. وفي يوم الخميس سادس عشر الشهر المذكور، وصل اسد الدين شيركوه، واشتد ثبات الفرنج على انهم لايصالحون ولا يعطون الذين في البلد أماناً حتى يطلق جميع الأسارى الذين في أيدي المسلمين وتعاد البلاد الساحلية إليهم، وبذل لهم تسليم البلد وما فيه دون من فيه، فلم يفعلوا، وبذل لهم أيضاً مع ذلك صليب الصلبوت فلم يفعلوا، واشتد عتوهم واستفحل أمرهم وضاقت الحيل عنهم [ومكروا والله خير الماكرين][1].

ذكر مصالحة أهل البلد ومصانعتهم على نفوسهم

ولما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة خرج العوام من الثغر ونطقت الكتب عنهم أن أهل البلد ضاق بهم الأمر وكبرت الثغر وعجزوا عن الحفظ والدفع ورأوا عين الهلاك وتيقنوا أنه متى أخذت البلد عنوة ضربت أعناقهم عن آخرهم وأخذ جميع ما فيه من العدد والأسلحة والمراكب وغير ذلك، فصالحهم على أن يسلمون إليهم البلد وجميع ما فيه من الآلات والعدد والمراكب ومائتي ألف دينار وألف وخمسمائة فارس أسير مجاهيل الأحوال ومائة فارس معينين من جانبهم يختارون وصليب الصلبوت ويخرجون بأنفسهم سالمين وما معهم من الأقمشة المختصة بهم وذراريهم ونساؤهم وضمنوا للمركيس عشرة آلاف دينار أنه كان واسطة ولأصحابه أربعة آلاف دينار واستقرت القاعدة على ذلك.

ذكر استيلاء العدو على عكا

ولما وقف السلطان على كتبهم وعلى مضمونها أنكر ذلك إنكاراً عظيماً، وعظم عليه هذا الأمر، وجمع أرباب المشورة وشاورهم فيما يصنع. واضطرب الأمراء وتقسم فكره وتشوش، وعزم على أن يكتب في الليلة مع العوام وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه. وهو في مثل هذه الحال، فما أحس المسلمون إلا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره وناره على أسوار البلد، وذلك في

(1) قران (كريم) الاية 54 من السورة 3 (آل عمران)

ظهر نهار الجمعة سابع عشر جمادى الآخرى سنة سبع وثمانين وخمسمائة (12 تموز/يوليه 1191). وصاح الإفرنج صيحة واحدة وعظمت المصيبة على المسلمين واشتد حزن الموحدين وانحصر كلام العقلاء من الناس في تلاوة [إنّا لله وإنا إليه راجعون]. وغشي الناس بغتة عظيمة وحيرة شديدة ووقع في العسكر الصياح والعويل والبكاء والنحيب، ودخل المركيس البلد ومعه أعلام الملوك فنصب علماً على القلعة وعلماً على مأذنة الجامع في يوم الجمعة وعلماً على برج الداوية، وعلماً على برج القتال عوضاً عن علم الإسلام وحيزوا المسلمون إلى بعض أطراف البلد.

ومثلت في خدمة السلطان وهو في حال الوالدة الثكلى، والمولهة الحراء فسليته بما تيسر لي من التسلية وأذكرته في الفكر فيما يستقبله في معنى البلاد الساحلية والقدس الشريف وكيفية الحال في ذلك وإعمال الفكر في خلاص المسلمين المأسورين في البلد وذلك في ليلة السبت الثامن عشر منه، وانفصل الحال على أن رأى التأخير عن تلك المنازلة مصلحة، فإنه لم يبق في المضايقة معنى. فتقدم بنقل الأثقال ليلاً إلى المنزلة التي كان عليها أولاً بشفرعم وأقام هو جريدة في مكانه لينظر ماذا يكون من أمر العدو، وحال أهل البلد، وأقام هو راضياً راجياً من الله تعالى أنه ربما حملهم غرورهم بالخروج إليه والهجوم عليه، فينال منهم غرضاً ويلقي نفسه عليهم، ويعطي الله النصر لمن شاء. فلم يفعل العدو شيئاً من ذلك، واشتغلوا بالاستيلاء على البلد والتمكن منه، فأقام إلى بكرة التاسع عشر من الشهر وانتقل إلى التل.

ذكر قتل المسلمين الذين كانوا بعكا رحمهم الله

(بهاء الدين، 242-243)

ولما رأى الأنكتار الملعون توقف السلطان ببذل المال والأسرى والصليب، غدر بأسرى المسلمين وكان قد صالحهم وتسلم البلد منهم على أن يكونوا آمنين على نفوسهم على كل حال، وأنه إن دفع السلطان إليهم ما استقر أطلقهم بأموالهم

ونسائهم، وإن امتنع من ذلك ضرب عليهم الرق وأخذهم أسرى. فغدرهم الملعون وأظهر ما كان أبطن، وفعل ما أراد أن يفعله بعد أخذ المال والأسرى، على ما أخبر به عنه أهل ملته فيما بعد. وركب هو وجميع العسكر الافرنجية راجلهم وفارسهم والتراكيل في وقت العصر من يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب (20 آب/اغسطس) وساروا حتى أتوا الآبار التي تحت تل العياضية، وقدموا خيامهم إليها وساروا حتى توسطوا المرج بين تل كيسان وبين العياضية، ثم أحضروا من أسارى المسلمين من كتب الله شهادته في ذلك اليوم، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف في الحبال، وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد، فقتلوهم ضرباً وطعناً بالسيف. واليزك الإسلامي يشاهدون ولا يعلمون ماذا يصنعون لبعدهم عنهم، وكان اليزك قد أنفذ إلى السلطان وأعلموه بركوب القوم ووقوفهم فأنفذ إلى اليزك من قواه، وبعد أن فرغوا منهم حمل المسلمون عليهم وجرت بينهم حرب قتل فيها وجرح من الجانبين ودام القتال إلى أن فصل الليل بين الفريقين، وأصبح المسلمون يكشفون الحال، فوجدوا الشهداء في مصارعهم، وعرفوا من عرفوه منهم، فغشي المسلمين من ذلك حزن عظيم وكآبة شديدة، ولم يبقوا إلا رجلاً معروفاً مقداماً أو قوي يد لعسائرهم، وذكر لقتلهم أسباب منها أنهم قتلوهم في مقابلة من قتل منهم وقيل إن الأنكتار كان قد عزم على السير إلى عسقلان للاستيلاء عليها، فما رأى أن يخلف تلك العدة في البلد وراءه، والله أعلم.

استمرت مفاوضات السلام لأكثر من عام، ويجب أن تسمى هدنة بحسب المفاهيم الإسلامية عن الحرب المقدسة. وقد تشابكت في اللعبة الدبلوماسية الطويلة والمعقدة خطط زواج رومانتيكية رسمها ريتشارد انكلترا الذي تبادل أيضاً بعض مجاملات الفروسية مع صلاح الدين (وأكثرها كان مع أخيه الملك العادل)، وتوسطت تلك اللعبة ايضاً أعمال حربية (عسقلان، يافا، أرسوف) حيث قابل قسوة الإفرنج على أسرى المسلمين في عكا خشونة الأعمال الانتقامية التي نفذها صلاح الدين. في النهاية أتعبت الحرب الجميع فانتهوا إلى اتفاق في أيلول/سبتمبر 1192 شرّع من الناحية العملية الوضع الراهن لكلا الطرفين: لايتلاءم هذا الاتفاق بالطبع مع الانتصارات الأولية الكبرى التي حققها المسلمون عام 1187، لذلك فقد قبل صلاح الدين بها على مضض تحت ضغط جيشه المنهك المتمزق. أما الهدف الذي كان معلناً من قبل والداعي إلى القاء الفرنجة في البحر فقد تأخر تحقيقه قرناً آخر من الزمان. أما مصادرنا عن سير المفاوضات فقد استقيناها من بهاء الدين وعماد الدين.

مشاورات الصلح وعقده

ذكر رسول الملك العادل إلى الأنكتار

(بهاء الدين، 274–275، 277–278، 283–284، 287–291؛ 294–295، 346–348)

ولما كان السادس والعشرون (رمضان 17/587 تشرين اول/اكتوبر 1191) كان الميزك للعادل[1] فطلب الأنكتار رسوله، فأنفذ الصنيعة وهو كاتبه. وكان شاباً

(1) أورد غابرييلي هذا المقطع على النحو التالي: "كان دور الملك العادل على مقدمة الجبهة عندما طلب ملك انكلترا منه أن يبعث له برسول، فبعث له بأمين سره الذي كان من صنيعته وكان شاباً حسناً اسمه ابن النحال، فذهب إلى ريتشارد وهو في مكان اسمه يازور مع جمع من صحبه..." [المترجم]

حسناً، فوصل إليه وهو في بازور قد خرج في جمع كثير من الرجالة وانبثوا في تلك الأرض فاجتمع به وسار معه زمناً طويلاً وحادثه في معنى الصلح، وقال "لا ارجع عن كلام أتحدث به من أخي وصديقي"، يعني العادل، وذكر له كلاماً وعاد وأخبره به، فكتبه الملك العادل في رقعة وأنفذها إلى السلطان وكان يتضمن أنك تسلم عليه وتقول له "إن المسلمين والإفرنج قد هلكوا وخربت البلاد وخرجت من يد الفريقين بالكلية، وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين وقد أخذ هذا الأمر حقه، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد، والقدس متعبدنا ما ننزل عنه ولو لم يبق منا إلاّ واحداً. وأما البلاد فيعاد إلينا ما هو قاطع الأردن. وأما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار له، وهو عندنا عظيم، فيمنّ به السلطان علينا، ونصطلح ونستريح من هذا التعب". ولما وقف السلطان على هذه الرسالة استدعى أرباب المشورة في دولته واستشارهم في الجواب والذي رآه السلطان أن قال "القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم، فإنّه مسرى نبيّنا ومجتمع الملائكة، فلا تتصور أن ننزل عنه ولا نقدر على التفريط بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الأصل واستيلاؤكم عليها كان طارئاً عليها لضعف من كان فيها من المسلمين في ذلك الوقت، وما يقدركم الله على عمارة حجر منها ما دام الحرب قائماً، وما في أيدينا منها نأكل بحمد الله مغله وننتفع به. وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة[1] لا يجوز لنا أن نفرّط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هي أوفى منها"، وسار هذا الجواب إليه مع الواصل من جهته...

ذكر رسالة سيّرني فيها الملك العادل إلى السلطان مع جماعة من الأمراء

وذلك أنه لما كان التاسع والعشرون من رمضان (20 تشرين أول/اكتوبر) استدعاني الملك العادل في صحبته، واحضر جماعة من الأمراء علم الذين

---

(1) يقول غابرييلي إن النص والمعنى غير واضحين ويمكن أن يفهم منهما "إن موت المسيح هو كذبة كبرى" أو "إن في تحطيم الصليب جدارة عظيمة"

سليمان وسابق الدين وعز الدين بن المقدم وحسام الدين بشارة، وشرح لنا ما عاد به رسوله من الأنكتار من الرسالة والكلام، وذلك أنه ذكر أنه قد أراد أن يتزوج الملك العادل بأخت الأنكتار[1] وكان قد استصحبها معه من صقلية، لأنها كانت زوجة صاحبها وقد ماتت، فأخذها أخوها لما اجتاز بصقلية. فاستقرت القاعدة على أن يكون مستقر ملكها بالقدس، وأن أخاها يعطيها بلاد الساحل التي بيده من عكا إلى يافا وعسقلان إلى غير ذلك، ويجعلها ملكة الساحل، ويجعله ملك الساحل، ويكون ذلك مضافاً إلى ما في يده من البلاد والإقطاع، وأنه يسلم إليه صليب الصلبوت، وتكون القرى للداوية والأسبتار والحصون لهما، وأسرانا تفك وكذلك أسراهم، وأن الصلح يستقر على هذه القاعدة، ويرحل الأنكتار طالباً بلاده في البحر وينفصل الأمر.

هكذا ذكر رسول العادل عن الأنكتار. ولما عرف ذلك العادل بنى عليه أن استحضرنا عنده وحملنا هذه الرسالة إلى السلطان، وجعلني المتكلم فيها ولجماعة يسمعون، ونعرض عليه هذا الحديث. فإن استصوبه ورآه مصلحة للمسلمين شهدنا عليه بالإذن في ذلك والرضا به، وإن أباه شهدنا عليه أن الحال في الصلح قد انتهى إلى هذه الغاية، وأنه هو الذي رأى إبطاله. فلما مثلت بالخدمة السلطانية، عرضت عليه الحديث وتلونا عليه الرسالة بمحضر من الجماعة المذكورين، فبادر إلى الرضا بهذه القاعدة، معتقداً أن الأنكتار لا يوافق على ذلك أصلاً، فإن هذه منه مكر وهزل. فكررت عليه الرضا بذلك ثلاث مرات، وهو يقول نعم ويشهد على نفسه به. فلما تحققنا منه ذلك عدنا إلى الملك العادل فعرّفناه بما قال، وعرّفه الجماعة أني كررت عليه الحديث في تقييد الشهادة عليه، وأنه أصرّ على الإذن في ذلك واستقرت القاعدة عليه...

ذكر وصول صاحب صيدا رسولاً من جانب المركيس

... ولما كان ثالث عشر شوال (3 تشرين ثاني/نوفمبر) وصل من أخبر بوصول صاحب صيدا من جانب المركيس صاحب صور، وكان قد جرى بيننا

(1) Giovanna di Sicilia أرملة غوليلم الثاني

وبينه أحاديث مترددة حاصلها أنهم ينقطعون عن الإفرنج ونصرتهم ويصيرون معنا عليهم، بناء على فتنة كانت جرت للمركيس مع الملوك بسبب امرأة تزوجها كانت زوجة لأخي الملك جفري[1] وقبح نكاحها بأمر اقتضاه دينهم، فاضطربت آراؤهم فيه فخاف المركيس على نفسه، فأخذ زوجته وهرب تحت الليل إلى صور، وأخلد إلى السلطان والاعتضاد به، وكان في ذلك مصلحة للمسلمين لانقطاع المركيس عن الإفرنج فإنه كان أشدهم بأساً، وأعظمهم للحرب مراساً، وأثبتهم في التدبير أساساً. وحين اتصل خبر وصول هذا الرسول بالسلطان أمر بإجلاله واحترامه فضربت خيمة وضرب حولها شقة ووضع فيها من الطرح والفرش ما يليق بعظمائهم وملوكهم وأمر بإنزاله في الثقل يستريح، ثم اجتمع به.

لما كان تاسع عشر شوال (9 تشرين ثاني/نوفمبر) جلس السلطان واستحضر صاحب صيدا لسماع رسالته وكلامه، فحضر وحضر معه جماعة وصلوا معه. وكنت حاضر المجلس فأكرمه إكراماً عظيماً، وحادثهم وقدم بين أيديهم أطعمة وافرة، ولما فرغ الطعام خلا بهم، وكان حديثهم في أن يصالح السلطان المركيز صاحب صور، وكان قد انضم اليه جماعة من اكابرالافرنجية، منهم صاحب صيدا وغيره من المعروفين، وقد سبقت قصته، وكان من شرط الصلح معه عداوة الافرنج البحرية، وكان سبب ذلك شدة خوفه منهم وواقعة وقعت له معهم بسبب الزوجة، وبذل لهم السلطان الموافقة على شروط قصد بها الايقاع بينهم، وأن يغل بعضهم بعضاً. فلما سمع السلطان حديثه وعد أن يرد عليه الجواب فيما بعد، وانصرف عنه الى الخيمة التي ضربت له.

لما كان عشية ذلك اليوم، وصل رسول الأنكتار، وهو ابن الهنفري، وهو من أكابر الفرنجية وملوكهم، ووصل في صحبته شيخ كبير ذكروا أن عمره مائة وعشرون سنة فأحضره السلطان عنده وسمع كلامه. وكانت رسالته أن الملك يقول "إني أحب صداقتك ومودتك وأنك ذكرت أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك

---

(1) كان يجب ان يقول: أخت زوجة الملك غويدو وليس غوفريدو كما يكرر بهاء الدين. كانت Isabella d'Angio أخت الملكة Sibilla تزوجت أولاً من Honfroi Thoreno ثم خلعت منه وتزوجت من Corrado di Monferrato.

فأريد أن تكون حكماً بيني وبينه ولا بد أن يكون لنا علقة بالقدس، ومقصودي أن نقسم بحيث لا يكون عليه لوم من المسلمين، ولا علي لوم من الإفرنجية. فأجابه في الحال بوعد جميل ثم أذن له في العود في الحال وتأثر بذلك تأثراً عظيماً وأنفذ وراءهم من سألهم عن حديث الأساري وكان منفصلاً عن حديث الصلح. فقال: "إن كان صلح[1] فعلى الجميع وإن لم يكن صلح فلا يكون من حديث الأسارى شيء"، وكان غرضه رحمه الله أن يفسخ قاعدة الصلح، فإنه التفت إلي في آخر المجلس بعد انفصالهم وقال "متى ما صالحناهم لا تؤمن غائلتهم فإنني لو حدث لي حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر وتقوى الإفرنج فالمصلحة أن لا نزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل أو يأتينا الموت". هذا كان رأيه قدس الله روحه، وإنما غُلب على الصلح.

ذكر مشورة ضربها في التخيير بين الصلح بين الأنكتار والمركيس

ولما كان حادي عشر[2] شوال (11 تشرين ثاني/نوفمبر) جمع السلطان الأمراء والأكابر وأرباب المشورة وذكر لهم القاعدة التي التمسها المركيس واستقر الأمر من جانبه عليها، وهي أخذ صيدا وأن يكون معنا على الإفرنج ويقاتلهم ويجاهرهم بالعدوان، وذكر ما التمسه الملك من تقرير قاعدة الصلح، وهي أن تكون لنا من القرى الساحلية مواضع معينة وتكون لنا الجبليات بأسرها، أو تكون القرى كلها مناصفة، وعلى هذين القسمين يكون لهم قسوس في بيع القدس الشريف وكنائسه. وكان الأنكتار قد خيرنا بين هذين القسمين. فشرح قدس الله روحه الحال في القاعدتين للأمراء واستنبط آراءهم في ترجيح أحد الحالين، فرأى أرباب الرأي أنه إن كان صلح فليكن مع الملك، فإن مصافاة الإفرنج للمسلمين بحيث يخالطوهم بعيدة غير مأمونة الغائلة.

وانفض الناس وبقي الحديث متردداً في الصلح، والرسل تتواتر في تقرير قواعد الصلح. وأصل القاعدة أن الملك قد يبذل أخته للملك العادل بطريق

---

(1) قد يكون المتكلم سفير ملك الانكليز أو أنه صلاح الدين بالذات

(2) يذكر النص 11 شوال مما لايتفق مع التواريخ السابقة

التزويج، وأن تكون البلاد الساحلية الإسلامية والإفرنجية لهما، فأما الإفرنجية فلها من جانب أخيها والإسلامية له من جانب السلطان. وكان آخر الرسائل من الملك في المعنى أن قال: إن معاشر دين النصرانية قد أنكروا علي وضع أختي تحت مسلم بدون مشاورة الباباء، وهو كبير دين النصرانية ومقدمه، وها أنا أسيّر رسولاً يعود في ستة أشهر، فإن أذن فيها ونعمت، وإلا زوجتك ابنة أخي وما أحتاج إلى إذنه في ذلك[1]. هذا كله وسوق الحرب قائم، والقتال عليهم ضربة لازم، وصاحب صيدا يركب مع الملك العادل في الأحيان ويشرف على الإفرنج، وهم كلما رأوه تحركوا لطلب الصلح خوفاً من أن ينضاف المركيس إلى المسلمين، وعند ذلك تنكسر شوكتهم ولم يزل الحال كذلك إلى الخامس والعشرين من شوال.

ذكر انفصال رسول المركيس

وكان قد وصل يوسف غلام صاحب صيدا رسولاً من جانب المركيس يلتمس الصلح مع المسلمين. فاشترط -رحمة الله عليه- شروطاً منها: أن يقاتل جنسه ويباينهم، ومنها أن ما يأخذه من البلاد الإفرنجية بعد الصلح بانفراده يكون له، وما نأخذه نحن بانفرادنا يكون لنا، وما نتفق نحن وهو على أخذه تكون لنا نفس البلد ويكون لنا ما فيه من أسرى المسلمين وغير ذلك من الأموال، ومنها أن يطلق لنا كل أسير مسلم في مملكته، ومنها أن فوض الأنكتار إليه أمر البلاد لأمر يجري بينهم، كان الصلح بيننا وبينه على ما استقر بيننا وبين الأنكتار ما عدا عسقلان وما بعدها فلا يدخل في الصلح، وتكون الساحليات له وما في أيدينا لنا وما في الوسط مناصفة، وسار رسوله على هذه القاعدة[2].

---

(1) كما قال بهاء الدين كانت أخت ريتشارد أرملة أما العذراء فلاحاجة بها إلى موافقة البابا. والواقع أن كل مشاريع الزواج هذه لم تشهد النور بسبب المعارضة المسيحية على تزويج امرأة مسيحية من كافر.

(2) حطم خنجر الحشاشين بعدها بقليل كل حياكات كوراد هذه وهو نفسه لم يشهد انعقاد السلم.

ذكر تمام الصلح

ولما وصل (شعبان 588/أوائل أيلول/سبتمبر 1192) العدل[1] إلى هناك (يافا) أنزل خارج البلد في خيمة حتى أعلم الملك به، فلما علم به استحضره عنده مع بقية الجماعة، وعرض العدل عليه النسخة وهو مريض الجسم، فقال: "لا طاقة لي بالوقوف عليها، وأنا قد صالحت وهذه يدي". فاجتمعوا بالكندهري وابن بارزان[2] والجماعة، وأوقفوهم على النسخة ورضوا بلدّ والرملة مناصفة، وبجميع ما في النسخة، واستقرت القاعدة أنهم يحلفون بكرة يوم الأربعاء بأنهم كانوا قد أكلوا شيئاً وليس من عادتهم الحلف بعد الأكل وأنفذ العدل إلى السلطان من عرفه ذلك.

ولما كان يوم الأربعاء الثاني والعشرون من شعبان (2 أيلول/سبتمبر) حضر الجماعة عند الملك وأخذوا يده وعاهدوه، واعتذر أن الملوك لا يحلفون، وقنع السلطان بذلك ثم حلف الجماعة والمستحلف الكندهري ابن أخته المستخلف عنه في الساحل وباليان بن بارزان صاحب طبرية، ورضي الأسبتار والداوية وسائر مقدمي الإفرنجية بذلك وساروا بقية يومهم عائدين إلى المخيم السلطاني فوصلوا العشاء الآخرة وكان الواصلون من جانبهم ابن الهنفري وابن بارزان وجماعة من مقدميهم فاحترموا وأكرموا وضربت لهم خيمة تليق بهم، وحضر العدل وحكى ما جرى. ولما كانت صبيحة ثالث وعشرين شعبان حضر الرسول في خدمة السلطان وأخذ بيده الكريمة وعاهده على الصلح على القاعدة المستقرة، واقترحوا حلف الملك العادل والملك الأفضل والملك الظاهر وعلي بن احمد المشطوب وبدر الدين دلدرم والملك المنصور ومن كان مجاوراً لبلادهم كابن المقدم وصاحب شيزر وغيرهم، فوعدهم السلطان أن يسير معهم رسلاً إلى الجماعة المجاورين ليحلفوهم لهم، وحلف لصاحب أنطاكية وطرابلس، وعلّق اليمين بشرط حلفهم للمسلمين فإن لم يحلفوا له فلا يدخلوا في الصلح.

---

(1) السفير المسلم المفوض.

(2) Enrico di Champagne الملك المقبل، و Balian II di Ibelin.

ثم أمر المنادي أن ينادي في الوطاقات والأسواق، أن الصلح قد انتظم في سائر بلادهم فمن شاء من بلادهم أن يدخل إلى بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا أن يدخل إلى بلادهم فليفعل، وأشاع -رحمة الله عليه - أن طريق الحج قد فتح من الشام ووقع له عزم على الحج في ذلك المجلس، وكنت حاضراً ذلك جميعه، وأمر السلطان أن تسير مائة نقاب لتخريب سور عسقلان[1] معهم أمير كبير لإخراج الإفرنج منها ويكون معهم جماعة من الإفرنج إلى حين وقوع الخراب في السور خشية استبقائه عامراً. وكان يوماً مشهوداً غشي الناس من الطائفتين فيه من الفرح والسرور ما لا يعلمه إلاّ الله تعالى. وقد عُلم أن الصلح لم يكن من إيثاره، فإنه قال لي في بعض محاوراته "أخاف أن أصالح[2] وما أدري أيّ شيء يكون مني، فيقوى هذا العدو وقد بقيت لهم هذه البلاد، فيخرجوا لاسترداد بقية بلا دهم وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس قلعته يعني حصنه وقال لا أنزل فيهلك المسلمون".

هذا كلامه وكان كما قال. لكنه رأى المصلحة في الصلح لسآمة العسكر ومظاهرتهم بالمخالفة، وكان مصلحة في علم الله تعالى، فإنه اتفقت وفاته بعيد الصلح، فلو كان اتفق ذلك في أثناء وقعاته لكان الإسلام على خطر، فما كان الصلح إلاّ توفيقاً وسعادة له.

(عماد الدين، 436-434)

لمّا عرف ملك الإنكتير أن العسكر قد اجتمع، والخَرْق عليه قد اتّسع، وأن القدس قد امتنع، وأن العذاب به وقع. خضع وخشع، وقصّر الطمع، وعلم أنه لا قِبَل له بمن أقبل، ولا ثبات مع الجحفل وقد حفل. فأظهر أنه إن لم يُهادَن أقام واستقتل، وللشرّ استقبل، وأنه عازم على العودة إلى بلاده، لأمور مَرَدُّها يعود إلى مُراده، "والبحر قد آن أن يمنع راكبه، ويُبسِّم بالأمواج غواربه، فإن هادنتم وطاوعتم، تبعث هواي، وإن حاربتم وعصيتم ألقيتُ ههنا عصاي واستقرّتْ نواي.

---

(1) كان تهديم المسلمين لسور عسقلان من شروط المعاهدة.

(2) يتكرر هنا حدس صلاح الدين بموته، وكذلك في الفقرات التالية.

وقد كَلَّ الفريقان، وملّ الرفيقان[1]، وقد نزلتُ عن القدس وأنزل عن عسقلان. ولا تغترّوا بهذه العساكر المجتمعة من الجهات، فإنّ جمعها في الشتاء إلى الشتات. ونحن إذا أقمنا على الشقاق والشقاء، رمينا أنفسنا على البلاء، فأجيبوا رغبتي، وأصيبوا محبّتي، وأوْدِعوني العهدَ وَدَعُوني، وودِّعوني ووَدِّعوني."

فأحضر السلطان أمراءه المُشاورين وشاورهم في الأمر، وأظهرهم على السرّ، واستطلع ما عندهم من الرأي، وسرد لهم الحديث من المبادئ إلى الغاي. وقال لهم: "نحن بحمد الله في قوّة، وفي ترقّب نصرة مرجوّة، فأنصارنا[2] المهاجرون إلينا ذوو دين وكرم ومروّة، وقد ألفنا الجهاد، وألفينا به المراد، والفطام عن المألوف صعب، وما تصدّع إلى اليوم بتأييد الله لنا شعب، وما لنا شغل ولا مغزى إلا الغزو، وما نحن ممّن يشوقه اللعب ويسوقه اللهو، وإذا تركنا هذا العمل فما العمل؟ وإذا صرفنا عنهم الأمل ففيم الأمل؟ وأخشى أن يأتيني في حالة بطالتي الأجل، ومن ألف الحليّة كيف يألفه العطل. ورأيي أن أخلّف رأي الهدنة ورائي، وأقدّم بتقديم الجهاد اعتزازي، وإليه اعتزائي، وما أنا بطالب البطالة، فأرغب عن استحالة هذه الحالة. وقد رُزقتُ من هذا الشيء فأنا ألزمه، ولي بتأييد الله من الأمر أجزمه وأحزمه. فقالوا له: "الأمر على ما تذكره، والتدبير ما تراه والرأي ما تدبّره[3]، ولا يستمرّ إلا ما تُمرّه من الأمر ولا يستقرّ إلا ما تقرّره، وإن التوفيق معك في كل ما تعقده وتحلّه وتورده وتصدره. غير أنّك نظرت في حقّ نفسك من عادة السعادة، وإرادة العبادة، واقتناء الفضيلة الراجحة، والاعتناء بالوسيلة الناجحة، والأنف من العُطلة، والعزوف للعُزلة، وأنك تجد من نفسك القوّة والاستمساك، ويقينك يعزّفك بالأماني الادراك. فانظر إلى أحوال البلاد فإنها خربت وتشعّثت، والرعايا فإنها تعكّست وتعثّثت، والأجناد فإنها نصبت ووَصبت، والجياد فإنها غطلت وعطبت، وقد أعوزت العُلوفات، وعزّت الأقوات، وبعدت عنّا العمارات،

---

(1) أي الخصمان

(2) تلاعب الفاظ بالاشارة الى اصحاب النبي (صلى الله وعليه وسلم) من جماعتي المهاجرين المكيين والانصار

(3) فليلاحظ الاسلوب الشرقي بالافصاح اولا عن الموافقة عندما يكون الهدف الانتقال الى رأي معارض.

وغلت الغلّات. ولا جُلْب إلاّ من الديار المصريّه، مع ركوب الأخطار المهلكة في البريّه. وهذا الإجتماع مظِنّة التفريق، ولا يدوم هذا الاتّساع مع هذا الضيق، فإن المواد منقطعه، والجوادّ ممتنعه، والمُترب قد تَرِب، والمُعدِم قد عَطِب، والتِبْن أعزّ من التِبْر، والشعير لديه وُجِد وإن كان غالي السعر. وهؤلاء الفرنج إذا يئسوا من الهدنه، بذلوا وُسْعهم في استفراغ المُكْنة واستنفاد المُنّه، وصبروا على المنيّه. والصواب إن نقبل من الله الآية التي أنزلها، وهي قوله [وإنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها][1]. وحينئذ تعود إلى البلاد سكّانها وعُمّارها، وتكثر في مدّة الهدنة غلاّتها وأثمارها، وتستجدّ الأجناد عُدَدَها، وتستريح زمان السلم ومدّتها، فإذا عادت أيام الحرب عُدنا، وقد استظهرنا وزدنا، ووجدنا القوت والعلف، وعدمنا المشاقّ والكُلَف. ففي أيّام السلم نستعدّ للحرب، ونستجدّ أدوات الطعن والضرب، وليس ذلك تركا للعياده، وإنّما هو للاستجداء والاستجداد والاستجاده. على أنّ الفرنج لا يَفُون، وعلى عهدهم لا يقفون، فأعْقِد الهدنة لجماعتهم لينحلّوا ويتفرّقوا، وقد نفّقوا بما لَقُوا وما يقيم لهم بالساحل من يقدر على المقاومه، ويستقلّ بالملازمه.

وما زال الجماعة بالسلطان حتى رضي، وأجاب إلى ما اقتُضي، وكانت قد بقيت بين العسكرين منزلة واحده، والعجاجات على الطلائع متعاقده. فلو رحلنا رحّلناهم، وعلى الهُلْك أحللناهم. لكن مراد الله غلب، وأجيب ملك الإنكتير من الصلح إلى ما طلب. فحضرتُ لإنشاء عقد الهدنة وكتبتُ نسختها، وعيّنتُ مدّتها وبيّنتُ قضيتها، وذلك في يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين الموافق لأوّل أيلول/سبتمبر (1192) لمدّة ثلاث سنين وثمانية أشهر. وحسبوا أن وقت الانقضاء يوافق وصولهم من البحر، وتتّصل إمدادهم على الحشد والحشر. وعُقِدتْ هدنة عامّة في البر والبحر، والسهل والوعر والبدْو والحضر، وجُعل لهم من يافا إلى قيساريّة إلى عكّا إلى صور. وأبدوا بما تركوه من البلاد التي كانت معهم الغبطة والسرور. وأدخلوا في الصلح طرابلس وأنطاكيه، والأعمال الدانية والنائيه.

---

(1) قرآن (كريم) الآية 61 من السورة الثامنة (الأنفال)

– 7 –

لم يعش مركيز مونفيرات[1] الشجاع حتى يتمكن من رؤية ذلك السلام، ولامن تقلد التاج الملكي المأمول. هناك بعض الاختلاف داخل المصادر الاسلامية حول طبيعة اليد التي سلحت الحشاشين[2] الذين طعنوه في صور خلال نيسان/ابريل 1192: فبينما أشار كل من بهاء الدين وعماد الدين بصراحة إلى ريتشارد انكلترا (بعد أن تدخل المركيز كونراد في مفاوضات السلام التي كان هذا يجريها، وتقدم بخطة تستند إلى خطة كونت طرابلس التي أجراها مع صلاح الدين قبيل حطين ليضمن مصالحه الخاصة)، نرى أن ابن الأثير يستخدم إشاعة تحكي عن مبادرة قام بها صلاح الدين بالذات ليغتال ريتشارد وكونراد معاً؛ ولانرى أن هذا كان ممكناً (راجع في هذا الصدد الإشارة المقنعة التي قدمها عماد الدين عن عدم جدوى موت المركيز بالنسبة للمسلمين). غير أن هناك صدى غريباً لذلك الحدث يثير الفضول ويؤيد فرضية مسؤولية صلاح الدين نجده في رواية متأخرة تشوهت كل التشوه وتتحدث عن إغتيال ملك إفرنجي قرب عكا أمر به حارس الجبل[3] أتباعه ليُسعد صديقه السلطان. جاء هذا النص الغريب الذي نورده بعد روايتي عماد الدين وابن الأثير من مصادر اسماعيلية سرنيّة–دعائية تقدم سيرة المعلم الكبير لطائفة الحشاشين أي رشيد الدين سنان؛ لكن واقع الأمر أن الحشاشين كانوا هم من حاول أكثر من مرة اغتيال صلاح الدين لأن تشدده في سُنّيته يتعارض مع بدع مذهبهم.

---

(1) Marchese di Monferrato

(2) يقول غابريلي إنهم الـ Assassini الذين يرى المسلمون السنة أنهم خارجون عن الاسلام.

(3) جاء في موسوعة ويكيبيديا أن شيخ الجبل أو حارس الجبل كان بطل قصة وردت في كتاب "المليون" لماركو بولو. وقد انتشرت هذه القصة آنذاك في أنحاء اوربا.

هلاك المركيس (كونراد) بصور

(عماد الدين، 422-420)

أضافه الأسقف بصور يوم الثلاثاء ثالث عشر ربيع الآخر (588/28 نيسان/ابريل 1192) فاستوفى رزقه لموافاة أجله، ووصل إلى الباب قاطعَ أمله، وقد دعي إلى جهنمه، ومالكٌ على انتظار مقدمه، والجحيم في ترقبه، والدرك الأسفل من النار في تلهّبه، والسعير في تسعّره، ولظى في تلظّيها لتنظُره، وقد قرب أن تكون الهاويةُ له حاويه، والحاميةُ عليه حاميه، والزبانية في إيقاع العذاب به لمنزل الرجْز بانيه. وقد فتحت النار له أبوابها السبعه، وهي جائعة إلى إلتهامه وهو مُلْتَهٍ بالأكل يستوفي الشُبْعه. فأكل وتغدّى، وما درى أنه يتردّى، وأكل وشرب، وشبع وطرب، وخرج وركب، فوثب عليه رجلان، بل ذئبان أمْعطان، وسكّنا حركته بالسكاكين، ودكّاه عند تلك الدكاكين. وهرب أحدهما ودخل الكنيسه، وقد أخرج النفس الخسيسه. وقال المركيس وهو مجروح، وفيه بقيّة روح، احملوني إلى الكنيسة، فحملوه، وظنوا أنهم حاطوه لمّا نقلوه. فلمّا أبصره أحد الجارحَيْن، وثب إليه للحَيْن، وزاده جُرْحا على جُرح، وقرْحا على قرْح. فأخذ الفرنج الرفيقين، فألفوهما من الفدائيّة الإسماعيلية[1] مرتدَّين. فسألوهما مَن وضعكما على تدبير هذا التدمير؟ فقالا: "ملك الانكتير". وذُكر عنهما أنهما تنصّرا منذ ستة أشهر، ودخلا في ترهّب وتطهّر، ولزما البِيَع، والتزما الورع، وخدم أحدُهما ابن بارزان والآخرُ صاحب صيداء لقربهما من المركيس، واستحكما بملازمتهما أسباب التأنيس. ثم عَلِقا بركابه، وفتكا به، فقُتلا شرّ قِتْله، وجُهل عليهما أشدّ جهله، فيا لله من كافرين سفكا دم كافر، وفاجرين فتكا بفاجر.

فلمّا ظلّ المركيس مُركَّسا، وفي جهنمَ منكَّبا منكّسا..، تحكّم ملك الانكتير في صور، وولاّها الكند هنري[2] وعَذَقَ به الأمور، ودخل بالملكة زوجة المركيس

---

(1) يقول غابرييلي إنهم الـ Assassini الذين يرى المسلمون السنة أنهم خارجون عن الاسلام.

(2) Henri di Champagne

في ليلته[1]، وادّعى أنه أحقّ بزوجته، وكانت حاملا فما منع الحملُ من نكاحها، وذلك أفظع من سفاحها، فقلت لبعض رسلهم: "إلى من يُنسب الولد؟"، فقال: "يكون ولد الملكة"، فانظر إلى استباحة هذه الطائفة المشركه.

ولم يعجبنا قتل المركيس في هذه الحاله، وإن كان من طواغيت الضلاله، لأنه كان عدوّ ملك الإنكتير، ومنازعه على الملك والسرير، ومنافسه في القليل والكثير، وهو يراسلنا حتى نساعده عليه، وننزع ما أخذه من يديه. وكلّما سمع ملك الانكتير أن رسول المركيس عند السلطان، مال إلى المراسلة بالاستكانة والاذعان، وأعاد الحديث في قرار الصلح، وطمع في ليل ضلاله بإسفار الصبح. فلمّا قُتل المركيس سكن رَوْعه وروْعه، وذهب ضَوْره وضَوْعه، وطاب قلبه، وآب لُبّه، واستوى أمره، واستشرى شرّه. وكان قد تعصّب لمضادّة المركيس للملك العتيق (غويدو)، فأظهر له ودّ الشفيق الشقيق، وولاّه جزيرة قُبْرُس وأعمالها، وسدّد بسداده اختلالها. فلمّا هلك المركيس عرف أنه قد أخطأ في تقويته، وخشي أنه لا يسلم من عاديته، ولا يأمن من غائلته. فلمّا عدم عدوّه، وجد هدوّه، وآب سكونُه، وثاب جنونه، وغاض غيظه، وحصّه حظّه، وفاض من منبع الشرك فظّه. ومع هذا لم يقطع محادثته، ولم يُحدث مقاطعته، ومرّى رسلَ مراسلته، ورمى سهم مخادعته ومخاتلته،، ولم ينزل عن ادّعاء صداقة الملك العادل وتصديق دعوته. وراسل في طلب المناصفة على البلاد سوى القدس فإنه يبقى لنا بمدينته وقلعته، سوى كنيستهم المعروفة بقمامه، فإنهم يعتقدونها لملّتهم الدعامه، فأبى السلطان أن يقبل هذا القرار، وأبدى لهم الإنكار، وسامهم أن ينزلوا عن يافا وعسقلان، ويأخذوا على ما يبقى في أيديهم الأمان.

ابن الأثير **(51/12)**

فِي هَذِهِ السَّنَةِ، فِي ثَالِثَ عَشَرَ رَبِيعٍ الْآخِرِ (28/588 نيسان/ابريل 1192)، قُتِلَ الْمَرْكِيسُ الْفِرِنْجِيُّ – لَعَنَهُ اللَّهُ – صَاحِبُ صُورَ، وَهُوَ أَكْبَرُ شَيَاطِينِ الْفِرِنْجِ،

---

(1) أي استلامة للحكم في صور وعرسه.

وكان سبب قتله أنّ صلاح الدّين راسل مقدّم الإسماعيليّة [بالشّام] وهو سنان[1]، وبذل له أن يُرسل من يَقتُلُ ملك إنكلتار، وإن قتل المركيس فله عشرة آلاف دينار، فلم يُمكنهم قتل ملك إنكلتار. ولم يره سنانٌ مصلحة لهم، لئلّا يخلو وجه صلاح الدّين من الفرنج ويتفرّغ لهم، وشره في أخذ المال فعدل إلى قتل المركيس، فأرسل، رجلين في زيّ الرّهبان: واتّصلا بصاحب صيدا، وابن بارزان، صاحب الرّملة، وكانا مع المركيس بصور. فأقاما معهما ستّة أشهر يُظهران العبادة، فأنس بهما المركيس، ووثق بهما، فلمّا كان بعد التّاريخ عمل الأسقف بصور دعوة للمركيس فحضرها، وأكل طعامه وشرب مدامه، وخرج من عنده، فوثب عليه الباطنيّان[2] المذكوران، فجرحاه جراحًا وثيقة، وهرب أحدهما ودخل كنيسة يختفي فيها، فاتّفق أنّ المركيس حُمل إليها ليشدّ جراحه، فوثب عليه ذلك الباطنيّ فقتله، وقُتل الباطنيّان بعده. ونسب الفرنج قتله إلى وضع من ملك إنكلتار لينفرد بملك السّاحل الشّاميّ، فلمّا قُتل ولي بعده مدينة صور كند من الفرنج، من داخل البحر يقال له الكند هري، وتزوّج بالملكة في ليلته، ودخل بها وهي حامل، وليس الحمل عندهم ممّا يمنع النّكاح. وهذا الكند هري هو ابن أخت ملك إفرنسيس من أبيه، وابن أخت ملك إنكلتار من أمّه، وملك كند هري هذا بلاد الفرنج بالسّاحل بعد عود ملك إنكلتار، وعاش إلى سنة أربع وتسعين وخمسمائة، فسقط من سطح فمات، وكان عاقلًا، كثير المداراة والاحتمال. ولمّا رحل ملك إنكلتار إلى بلاده أرسل كند هري هذا إلى صلاح الدّين يستعطفه، ويستميله، ويطلب منه خلعة، وقال: أنت تعلم أنّ لبس القباء والشّربوش عندنا عيب، وأنا ألبسهما منك محبّة لك، فأنفذ (صلاح الدين) إليه خلعة سنيّة منها القباء والشّربوش[3]، فلبسهما بعكّا.

---

(1) حارس الجبل أو المعلم الكبير لدى الحشاشين - راجع المقطع الثاني.

(2) الباطنية رديف آخر للاسماعيلية أو الفدائية أو الحشاشين، ويعني حرفيا أتباع مذهب سري يقتصرعلى جماعة معينة.

(3) عمامة وطاقية مما كان يستعمله الشرقيون آنذاك.

(مناقب رشيد الدين، 12/463-466)

وأخبرنا بعض الرفاق الأمناء الفضلاء أن الملك صلاح الدين لما أخذ عكّا، خرج إليه من البحر ملك من ملوك الافرنج بجيش، فهجم عكّة وملكها وقتل من كان فيها من المسلمين. ونصب له دهليز مقابل دهليز صلاح الدين، وصار جيشه بإزاء جيشه. واشتد الحرب بينهما، وبقي صلاح الدين في حيرة من أمره، وكان المولى يومئذ في حصن الكهف[1]، فقال: "منه السلام[2] لصاحبنا الملك صلاح الدين اليوم في ضيق"، ثم طلب رجلين من رجال الجهاد الذين بين يديه، قد علموهما يتحدثان بالافرنجي، فلما حضرا بين يديه، أمر لهما ببدلتين من ملبوس الافرنج وسيفين من سيوف الافرنج، ثم قال لهما: "اذهبا إلى عند الملك صلاح الدين بكتابي هذا، وليكن مبيتكما هذي الليلة في المكان الفلاني" ثم عين لهما المنازل ليلة بعد ليلة، قال: "ويكون وصولكما إلى عكّا في اليوم الفلاني وقت العصر، فإن لم يكن وصولكما في هذا اليوم المعين والوقت الموقت كما قد قلنا، لن تصلا إلى سوداكما ولن تبلغا مقصودكما، فإذا وصلتما في ذلك الوقت إن شاء الله وحضرتما عند الملك صلاح الدين، فسلما عليه من جهتي وبلغاه محبتي، وادفعا إليه كتابي، فإذا قرأه وعرف ما فيه وفهم معناه، فقولا له أني قد أرسلتكما إلى عدوه، وهو ملك الافرنج، لتقتلاه في تلك الليلة، ثم اخرجا من عند الملك إذا غربت الشمس وأبعدا من الجيش، ثم عرّدا إلى جيش الافرنج على شاطئ البحر، إلى أن تختلطا في العيش ثم أقصدا دهليز الملك ليلاً، فوجدتماه سكران نايماً على وجهه، وما عنده أحد، فاحتزّا رأسه وخذا حياصته وسيفه، ومن قال لكما شيا فأجيباه بالافرنجي، فما ينكره أحد عليكما، فإذا وصلتما إلى عند الملك صلاح الدين ووضعتما الرأس والحياصة والسيف بين يديه، فإنه من ساعته يبادر إلى عسكر الافرنج فيكره ويمزقه في كل قطر، إن شاء الله تعالى، ويقتل منهم خلقاً كثيراً ويصبح منتصراً مسروراً، فيولي بكما ويقول لكما تمنيا عليّ مهما شئتما، فلا

---

(1) واحد من حصون الاسماعيليين قرب بانياس شمالي سورية. المولى هو حارس الجبل رشيد الدين سنان المسرودة قصصه في هذا المصدر.

(2) فلنلاحظ الصيغة المستعملة هنا "منه السلام" بدل "عليه السلام" المعتادة لدى المسلمين.

تتمنيا ذهباً ولا فضة ولا غير ذلك، ولكن قولا نحن قوم قد خرجنا عن أنفسنا في طاعة الله تعالى، وتركنا الدنيا وسببها وزهدنا فيها فلا نتمنى شيا منها سوى شيء واحد وهو أننا لما سافرنا من عند أهلنا لم يكن عند صغارنا دقيق، فيتصدق الملك على كل واحد منا 'برحلة دقيق لا غير' فقالا: "سمعاً وطاعة". ثم خرجا من عند المولى راشد الدين منه السلام وتوجها إلى عكة وحافظا على كل ما أمرهما به وعملا بجميع وصاياه. ووصلا إلى عكة في الوقت الذي عينه لهما بعينه، وحضرا عند الملك، ودفعا إليه كتاب المولى، وبلغا سلامه إليه، فقالا له: 'إن سيدنا قد أمرنا لنقتل ملك الافرنج في هذا اليوم، وعين لنا الوقت الذي نقتله فيه، وقال أننا نجده في ذلك الوقت نايماً على وجهه وهو سكران وما عنده أحد أصلاً، قالا: 'وإن لم نرح إليه في ذلك الوقت بعينه لم نسع نقدر عليه ولا نصل إليه'. فلما سمع كلامهما وما أخبراه، سره ذلك سروراً عظيماً وأكرم مثواهما، ولبثا عنده إلى أن أجنحت الشمس إلى الغروب، فعند ذلك لبسا لبس الافرنج، وتحدث كل واحد منهما مع صاحبه بالافرنجي، فأعجب الملك لبسهما وشكلهما وحديثهما، فتبسم ضاحكاً منهما، وقد سره عزمهما. وقد خرجا من عنده وبعدا من الجيشين، وعادا على شاطيء البحر إلى جيش الافرنج، فغاصا في لجته، وقد أرى الليل أذيال دجنته، ولما قربا إلى السلطان وحان الوقت المعين لهما والأوان، هجما على الملك فوجداه نايماً على وجهه، كما قال سيدهما، وهو سكران وما عنده أحد لا أنس ولا جان، فاحتزا رأسه وحطاه في مخلاة، وأخذا سيفه وحياصته وخرجا من جيش الافرنج مسرعين إلى أن دخلا على الملك صلاح الدين، فوضعا رأسه بين يديه وسيفه وحياصته، فقبل كل واحد منهما بين عينيه، ثم أمر الجيش بالركوب فركب وحمل على جيش الافرنج، فاهزمه ومزقه وقتل أكثره، وأصبح الملك صلاح الدين فرحاً محبوراً مويداً منصوراً مستبشراً مسروراً. فطلب الفداوية، فلما حضرا قام قايماً لهما وعظم قدرهما، وقامت وزراؤه وجلساؤه لقيامه لهما، ثم خلع عليهما وأحسن إليهما وأجلسهما إلى جانبه، وقال لهما: "تمنيا عليّ مهما شئتما، واطلبا أي شيء أردتما، فقد وجب عليّ حقكما"، فقالا: "أيّد الله مولانا الملك بالملائك، وألقى عدوه في المهالك، إن الدنيا هي العدم، وسيندم المغتر بها حيث لا ينفعه

الندم، ونحن عنها من الحايدين، وفيها من الزاهدين، ولا نطلب شيا على التحقيق، سوى رحلتين من النفيق، لكل واحد منا رحلة لأجل ما عنده من العايلة".

فرسم السلطان صلاح الدين عند ذلك بأن يكتب للدعوة الهادية في كل معاملة من المعاملات القريبة إلى قلاع الدعوة[1] عشرة ضيع، ويبتني لبيت الدعوة الهادية في كل مدينة من المدن، دار دعوة في مصر ودمشق وحمص وحماة وحلب وغير هذا من المدن، وهي تعرف بالدعوة إلى زماننا هذا، وأنعم على الفداوية وسير للمولى راشد الدين هدية سنية.

(1) يتراوح معنى الدعوة الحرفي بين الرسالة والدعاية. ويقصد بها هنا الدعوة الاسماعيلية، وينطبق معنى الدعاية (أو نشر الدعوة) في السطور التالية لدى الحديث عن فتح مقرات لها في مختلف المدن.

- 8 -

يروي المخلص بهاء الدين وقائع مرض صلاح الدين ووفاته بأدق تفاصيلها، وقد توفي السلطان بعد أن عقد الهدنة مع الإفرنج. من الملاحظ أن كل هذه المصادرالاسلامية تكاد تتميز بأنواع الحذلقة والتكلف وضيق الافق، ومع هذا فإنه يمكن لنا أن نرى في هذه الرواية ادراكاً لاهمية الشخصية الاستثنائية التي كرمها الشرق والغرب، وحباً شديداً لصاحبها وتعلقاً مخلصاً به. لقد ختم صلاح الدين حياته بالتقى، مؤمناً بروح ونصوص العقيدة التي سادت كل وقائع حياته، هذا مما يعني تلاشي الصورة الرائعة التي تخيلها Lessing عنه كسلطان ليبرالي متنور.

مرض صلاح الدين ووفاته

مرضه رحمة الله عليه

(بهاء الدين، 369-361)

ولما كانت ليلة السبت وجد كسلاً عظيماً، فما انتصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية كانت في باطنه أكثر من ظاهره، وأصبح في يوم السبت سادس عشر صفر سنة تسع وثمانين (21/589 شباط/فبراير 1193) متكاسلاً عليه أثر الحمى، ولم يظهر ذلك للناس. لكن حضرت أنا والقاضي الفاضل، ودخل ولده الملك الأفضل، وطال جلوسنا عنده وأخذ يشكو من قلقه في الليل، وطال به الحديث إلى قريب الظهر، ثم انصرفنا والقلوب عنده فتقدم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة الملك الأفضل، ولم يكن القاضي عادته ذلك، فانصرف ودخلت أنا إلى الإيوان القبلي، وقد مد الطعام، والملك الأفضل قد جلس في موضعه،

فانصرفت وما كان لي قوة على الجلوس استيحاشاً، وبكى في ذلك جماعة تفالا بجلوس ولده في موضعه.

ثم أخذ المرض في تزايد من حينئذ، ونحن نلازم التردد طرفي النهار، وندخل إليه أنا والقاضي الفاضل في النهار مراراً، ويعطى الطريق في بعض الأيام التي يجد فيها خفة، وكان مرضه في رأسه، وكان من أمارات انتهاء العمر، غيبة طبيبه الذي كان قد عرف مزاجه سفراً وحضراً. ورأى الأطباء فصده ففصدوه في الرابع، فاشتد مرضه وقلت رطوبات بدنه، وكان يغلب عليه اليبس غلبة عظيمة. ولم يزل المرض يتزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف.

ولقد أجلسناه في سادس مرضه، وأسندنا ظهره إلى مخدة، وأحضر ماء فاتراً ليشرب عقيب شرب دواء لتليين الطبيعة، فشربه فوجده شديد الحرارة، فشكا من شدة حرارته. وعرض عليه ماء ثان فشكا من برده، ولم يغضب ولم يصخب ولم يقل سوى هذه الكلمات: "سبحان الله، لا يمكن أحداً تعديل الماء". فخرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتد بنا البكاء والقاضي الفاضل يقول لي: "أبصر هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها، والله لو أن هذا بعض الناس لضرب بالقدح رأس من أحضره". واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن ولم يزل يتزايد ويغيب ذهنه. ولما كان التاسع حدثت عليه غشية وامتنع من تناول المشروب. فاشتد الخوف في البلد، وخاف الناس ونقلوا الأقمشة من الأسواق[1]، وغشي الناس من الكآبة والحزن ما لا يمكن حكايته.

ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقعد في كل ليلة، إلى أن مضى من الليل ثلثه أو قريب منه، ثم نحضر في باب الدار فإن وجدنا طريقاً دخلنا وشاهدناه وانصرفنا، وإلا يعرفونا أحواله وانصرفنا. وكنا نجد الناس يترقبون خروجنا إلى أن يلاقونا حتى يعرفوا أحواله من صفحات وجوهنا. ولما كان العاشر من مرضه حقن دفعتين، وحصل من الحقن راحة وحصل بعض خفة، وتناول من ماء الشعير مقداراً صالحاً. وفرح الناس فرحاً شديداً، فأقمنا على العادة إلى أن مضى من الليل هزيع، ثم أتينا إلى الدار، فوجدنا جمال الدولة إقبال، فالتمسنا منه

(1) كان موت السلطان على الغالب فرصة سانحة للاضطرابات والنهب.

تعريف الحال المستجد، فدخل، وأنفذ إلينا مع الملك المعظم توارنشاه -جبره الله تعالى - يقول بأن "العرق قد أخذ في ساقيه"، فشكرنا الله تعالى على ذلك، والتمسنا منه أن يمس بقية قدمه ويخبرنا بحاله في العرق، فتفقده ثم خرج إلينا وذكر أن "العرق سابغ"، وانصرفنا طيبة قلوبنا. ثم أصبحنا في الحادي عشر من مرضه، وهو السادس والعشرين من صفر، فحضرنا بالباب وسألنا عن الأحوال، فأخبرنا بأن العرق أفرط حتى نفذ في الفراش ثم في الحصر وتأثرت به الأرض وأن اليبس قد تزايد تزايداً عظيماً وحارت القوم وايست الأطباء.

ذكر تحليف الأفضل

ولما رأى الملك الأفضل ما حل بوالده وتحقق الناس من موته تسرع في تحليف الناس في دار رضوان المعروفة بسكناه[1]، واستحضر القضاة وعمل له نسخة يمين مختصرة محصلة للمقاصد تتضمن الحلف للسلطان[2] مدة حياته، وله بعد وفاته. واعتذر إلى الناس بأن المرض قد اشتد وما يعلم ما يكون، وما يفعل هذا إلا احتياطاً على جاري عادة الملوك. فأول من استحضر للحلف سعد الدين مسعود أخو بدر الدين مودود الشحنة، فبادر إلى اليمين من غير شرط، ثم حضر ناصر الدين صاحب صهيون وزاد أن الحصن الذي في يده له. وسابق الدين صاحب شيزر فحلف ولم يذكر الطلاق،[3] واعتذر بأنه ما حلف به. ثم حضر خشترين حسين الهكاري وحلف. وحضر نوشروان الزرزاري فحلف واشترط أن يكون له خبز يرضيه. وحضر علكان ومنكلان وحلفا، ثم مد الخوان وحضر الجماعة وأكلوا. ولما كان العصر أعيد المجلس للتحليف، وحضر ميمون القصري

---

(1) أمير حلب زمن الحملة الصليبية الأولى.

(2) تظهر التفاصيل التالية هشاشة تلك الدويلات القائمة على اقطاعية عسكرية فوضوية خاصة عندما تسقط شخصية الزعيم القوية مثل صلاح الدين ومن بعده العادل والكامل. ترى أن الاحتياطات التي يتخذها الابن الكبير الفاضل لضمان خلافته على سورية وأحقيته في السيادة على مواقع الايوبيين تصطدم منذ البداية مع أنانيات مختلف الأمراء الذين يسعى كل منهم لأن يضمن لنفسه المنافع والامتيازات. لكن المستقبل خيب آمال ذلك وأولئك حيث نال الأولوية أخو مؤسس الأيوبيين أي الملك العادل.

(3) من الشائع في قسم المسلمين الحلف بطلاق الزوجة إذا نكث الحالف بقسمه.

رحمه الله وشمس الدين سنقر الكبير، وقالا "نحلف بشرط أن لا نسلّ في وجه أحد من أخوتك سيفاً، لكن رأسي دون بلادك". هذا قول ميمون القصري. وأما سنقر فإنه امتنع ساعة ثم قال: "كنت خلفتني على النطرون وأنا عليها"، وحضر سامه وقال "ليس لي خبز فقل لي على أي شيء أحلف". فرجع وحلف وعلق يمينه بشرط أن يعطي خبزاً يرضيه. وحضر سنقر المشطوب وحلف واشترط أن يرضي، وحضر أيبك الأقطس رحمه الله واشترط رضاه، ولم يحلف بالطلاق، وحضر حسام الدين بشارة وحلف، وكان مقدماً على هؤلاء. ولم يحضر أحد من الأمراء المصريين ولم يتعرض لهم[1]، بل حلف هؤلاء للتقرير. وربما شذ منهم غير معروف. ونسخة اليمين المحلوف بها ومضمونها الفصل الاول "أنني من وقتي هذا أصفيت نيتي، وأخلصت طويتي، للملك الناصر مدة حياته، وأنني لا أزال باذلاً جهدي في الذب عن دولته بنفسي ومالي وسيفي ورجالي، متمثلاً أمره، واقفاً عند مراضيه. ثم من بعده لولده الأفضل علي وورثته. ووالله إنني في طاعته، وأذب عن دولته وبلاده بنفسي ومالي وسيفي ورجالي، وأمتثل أمره ونهيه، وباطني وظاهري في ذلك سواء، والله على ما أقول وكيل".

ذكر وفاته رحمه الله وقدس روحه

ولما كانت ليلة الأربعاء الثامن والعشرين من صفر 589 (4 آذار/مارس 1193) وهي الثانية عشرة من مرضه، اشتد مرضه وضعفت قوته، ووقع من الأمر في أوايل الامر من اوله، وحال بيننا وبينه النساء، واستحضرت أنا والقاضي الفاضل تلك الليلة وابن الزكي ولم يكن عادته الحضور في ذلك[2] الوقت، وحضر بيننا الملك الأفضل، وأمر أن نبيت عنده فلم ير القاضي الفاضل ذلك رأياً، فإن الناس كانوا ينتظرون نزولنا من القلعة فخاف إن لم ننزل أن يقع الصوت في البلد، وربما نهب الناس بعضهم بعضاً، فرأى المصلحة في نزولنا،

---

(1) والواقع أن السيادة المباشرة التي سيتمتع بها الأفضل من إرث صلاح الدين إنما هي على سورية، لأن مصر هي لأخيه العزيز.

(2) لاتتطابق كل العبارات مع كتاب غابريلي الذي اختصر بعضها. [المترجم]

واستحضار الشيخ أبي جعفر إمام الكلاسة[1]، وهو رجل صالح، ليبيت بالقلعة حتى إذا استحضر – رحمه الله- بالليل حضر عنده، وحال بينه وبين النساء، وذكره الشهادة، وذكر الله تعالى. ففعل ذلك ونزلنا وكل منا يود فداءه بنفسه، وبات في تلك الليلة على حال المنتقلين إلى الله تعالى، والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ويذكر الله تعالى، وكان ذهنه غائباً من ليلة التاسع لا يكاد يفيق إلا في أحيان. وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى إلى قوله تعالى: [هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة][2]. سمعه وهو يقول رحمة الله عليه: "صحيح". وهذه يقظة في وقت الحاجة وعناية من الله تعالى به، فلله الحمد على ذلك. وكانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسعة وثمانين وخمسمائة (4 آذار/مارس 1193) وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح في وقت وفاته، ووصلت وقد مات، وانتقل إلى رضوان الله ومحل كرمه وجزيل ثوابه، ولقد حكي لي أنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى: [لا إله إلا هو عليه توكلت][3]. تبسم وتهلل وجهه وسلمها إلى ربه،

وكان يوماً لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلا الله تعالى. وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداءه بنفوسهم، وما سمعت هذا الحديث إلا على ضرب من التجوز والترخص إلا في ذلك اليوم فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدي بالنفس. ثم جلس ولده الملك الأفضل للعزاء في الإيوان الشمالي، وحفظ باب القلعة إلا عن الخواص من الأمراء والمعممين. وكان يوماً عظيماً وقد شغل كل إنسان ما عنده من الحزن والأسف والبكاء والاستغاثة من أن ينظر إلى غيره، وحفظ المجلس عن أن ينشد فيه شاعر أو يتكلم فيه فاضل وواعظ.. وكان أولاده يخرجون مستغيثين إلى الناس فتكاد النفوس تزهق لهول منظرهم. ودام الحال على هذا إلى ما بعد صلاة الظهر. ثم اشتغل بتغسيله

---

(1) مزار قرب دمشق

(2) قرآن كريم الآية 22 من سورة (الحشر) 59

(3) قرآن كريم الآية 129 من سورة (التوبة) 9

وتكفينه، فما أمكننا أن ندخل في تجهيزه ما قيمته حبة واحدة إلا بالقرض، حتى في ثمن التبن الذي بلت به الطين.[1] وغسله الدولعي الفقيه، ونهضت إلى الوقوف على غسله، فلم تكن لي قوة تحمل ذلك المنظر. وأخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجى بثوب فوط، وكان ذلك وجميع ما احتاج إليه من الثياب في تكفينه قد أحضره القاضي الفاضل من وجه حلّ عرفه[2] وارتفعت الأصوات عند مشاهدته، وعظم من الضجيج والعويل، ما شغلهم عن الصلاة. فصلى عليه الناس أرسالاً وكان أول من أم بالناس القاضي محيي الدين ابن الزكي ثم أعيد إلى الدار التي في البستان وكان متمرضاً بها ودفن في الصفة الغربية منها. وكان نزوله في حفرته قدس الله روحه ونوّر ضريحه قريباً من صلاة العصر.

---

(1) يعود هذا الحديث عن نزاهة صلاح الدين وتقشفه الواسع. ولم أفهم تماماً نفع التبن والطين في هذا الموضع. (المترجم: يجوز أنهما مما يستعمل في بناء القبر)

(2) من الشائع ان شعائر وعقائد المسلمين تنشغل كثيرا بالاصل الشرعي الحلال لمصادر المدخل والاشياء التي يستعملها المؤمن في حياته وبدن موته.

القسم الثالث

الأيوبيون والهجمات على مصر



- 1 -

ساعد انحراف الحملة الرابعة نحو القسطنطينية عام 1203 على تقديم هدنة زمنية للإسلام طالت خمسة عشرة عاماً تمكن الملك العادل أثناءها من إحكام يديه على ميراث أخيه صلاح الدين، وتنظيم ممتلكات الأيوبيين الممتدة من مابين النهرين إلى مصر وضبطها تحت سيطرته. وقد استهدف الغزو الصليبي الجديد مصر بالذات لكونها مركزاً للمقاومة الاسلامية في وقت كان يتزايد فيه التهديد المنغولي ليهيمن في الشرق بصورة كارثية. وقد انطلق ابن الأثير بما عهدنا فيه من سعة أفق من مختلف الوقائع المحلية لينظر إلى كل مصائر الإسلام وليشير إلى ذلك الخطر المزدوج الذي عبر عنه من خلال سرد كل من وقائع الغزو المنغولي المأساوية واحداث الحملة الصليبية الخامسة، وبهذا جمع في رواية منسقة واحدة حملة السنوات الاربع على مصر 1217 1221. ونجد تكميلاً لرواية ابن الأثير في مقتطفات لابن واصل مؤرخ الايوبيين، ليس من السهل الوصول إليها في نسختها الأصلية خاصة وانها غير معروفة كما يلزم.

تجمع الفرنجة في سورية
وزحفهم على مصر والاستيلاء على دمياط
ثم استعادة المسلمين لها

(ابن الأثير، 12/208-209)

ذِكْرُ مَدِينَةِ دِمْيَاطَ وَعَوْدِهَا إِلَى الْمُسْلِمِينَ

كَانَ مِنْ أَوَّلِ هَذِهِ الْحَادِثَةِ إِلَى آخِرِهَا أَرْبَعُ سِنِينَ غَيْرَ شَهْرٍ، **(614/1217)** وَإِنَّمَا ذَكَرْنَاهَا هَاهُنَا؛ لِأَنَّ ظُهُورَهُمْ كَانَ فِيهَا وَمُلْكُهَا سِيَاقَةً مُتَتَابِعَةً لِيَتْلُوَ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَنَقُولُ: فِي هَذِهِ السَّنَةِ وَصَلَتْ أَمْدَادُ الْفِرِنْجِ فِي الْبَحْرِ مِنْ رُومِيَةِ الْكُبْرَى وَغَيْرِهَا مِنْ بِلَادِ الْفِرِنْجِ فِي الْغَرْبِ وَالشَّمَالِ، إِلَّا أَنَّ الْمُتَوَلِّيَ لَهَا كَانَ صَاحِبَ رُومِيَةَ (البابا)، لِأَنَّهُ يَتَنَزَّلُ عِنْدَ الْفِرِنْجِ بِمَنْزِلَةٍ عَظِيمَةٍ، لَا يَرَوْنَ مُخَالَفَةَ أَمْرِهِ وَلَا الْعُدُولَ عَنْ حُكْمِهِ فِيمَا سَرَّهُمْ وَسَاءَهُمْ، فَجَهَّزَ الْعَسَاكِرَ مِنْ عِنْدِهِ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنْ مُقَدَّمِي الْفِرِنْجِ، وَأَمَرَ غَيْرَهُ مِنْ مُلُوكِ الْفِرِنْجِ إِمَّا أَنْ يَسِيرَ بِنَفْسِهِ، أَوْ يُرْسِلَ جَيْشًا، فَفَعَلُوا مَا أَمَرَهُمْ فَاجْتَمَعُوا بِعَكَّا مِنْ سَاحِلِ الشَّامِ[1].

ذِكْرُ حَصْرِ الْفِرِنْجِ دِمْيَاطَ إِلَى أَنْ مَلَكُوهَا

(ابن الأثير، 12/210-213)

لَمَّا عَادَ الْفِرِنْجُ مِنْ حِصَارِ الطُّورِ[2] أَقَامُوا بِعَكَّا إِلَى أَنْ دَخَلَتْ سَنَةُ خَمْسَ عَشْرَةَ وَسِتِّمِائَةٍ، فَسَارُوا فِي الْبَحْرِ إِلَى دِمْيَاطَ، فَوَصَلُوا فِي صَفَرٍ (أيار/مايو 1218)، فَأَرْسَوْا عَلَى بَرِّ الْجِيزَةِ، بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ دِمْيَاطَ النِّيلُ، فَإِنَّ بَعْضَ النِّيلِ يَصُبُّ

(1) مع الملك Giovanni di Brienne, Andrea II d'Ungheria، وملك قبرص Ugo di Lusignano.

(2) حصن اسلامي قرب عكا

فِي الْبَحْرِ الْمَالِحِ عِنْدَ دِمْيَاطَ، وَقَدْ بُنِيَ فِي النِّيلِ بُرْجٌ كَبِيرٌ مَنِيعٌ، وَجَعَلُوا فِيهِ سَلَاسِلَ مِنْ حَدِيدٍ غِلَاظٍ، وَمَدُّوهَا فِي النِّيلِ إِلَى سُورِ دِمْيَاطَ لِتَمْنَعَ الْمَرَاكِبَ الْوَاصِلَةَ فِي الْبَحْرِ الْمَالِحِ أَنْ تَصْعَدَ فِي النِّيلِ إِلَى دِيَارِ مِصْرَ، وَلَوْلَا هَذَا الْبُرْجُ وَهَذِهِ السَّلَاسِلُ لَكَانَتْ مَرَاكِبُ الْعَدُوِّ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى مَنْعِهَا عن اقصى ديار مصر وادانيها. فلما نزل الفرنج على بر الجيزة، وبينهم وبين دمياط النيل بنوا عليهم سورا وجعلوه خندقا يمنعهم ممن يريدهم. وشرعوا في قتال من بدمياط، وعملوا الات ومرمات وابراجا، يزحفون بها في المراكب الى هذا البرج ليقاتلوه ويملكوه. وكان البرج مشحونا بالرجال، وقد نزل الملك الكامل بن الملك العادل، وهو صاحب دمياط وجميع ديار مصر، بمنزلة تعرف بالعادلية، بالقرب من دمياط، والعساكر متصلة من عنده الى دمياط، لِيَمْنَعَ الْعَدُوَّ مِنَ الْعُبُورِ إِلَى أَرْضِهَا.

وَأَدَامَ الْفِرِنْجُ قِتَالَ الْبُرْجِ وَتَابَعُوهُ، فَلَمْ يَظْفَرُوا مِنْهُ بِشَيْءٍ، وَكُسِرَتْ مَرَمَّاتُهُمْ وَالَاتُهُمْ، وَمَعَ هَذَا فَهُمْ مُلَازِمُونَ لِقِتَالِهِ، فَبَقُوا كَذَلِكَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى أَخْذِهِ؛ فَلَمَّا مَلَكُوهُ قَطَعُوا السَّلَاسِلَ لِتَدْخُلَ مَرَاكِبُهُمْ مِنَ الْبَحْرِ الْمَالِحِ فِي النِّيلِ وَيَتَحَكَّمُوا فِي الْبَرِّ. فَنَصَبَ الْمَلِكُ الْكَامِلُ عِوَضَ السَّلَاسِلِ جِسْرًا عَظِيمًا امْتَنَعُوا بِهِ مِنْ سُلُوكِ النِّيلِ، ثُمَّ إِنَّهُمْ قَاتَلُوا عَلَيْهِ أَيْضًا قِتَالًا شَدِيدًا، كَثِيرًا مُتَتَابِعًا حَتَّى قَطَعُوهُ، فَلَمَّا قُطِعَ أَخَذَ الْمَلِكُ الْكَامِلُ عِدَّةَ مَرَاكِبَ كِبَارٍ وَمَلَأَهَا وَخَرَقَهَا وَغَرَّقَهَا فِي النِّيلِ، فَمَنَعَتِ الْمَرَاكِبَ مِنْ سُلُوكِهِ. فَلَمَّا رَأَى الْفِرِنْجُ ذَلِكَ قَصَدُوا خَلِيجًا هُنَاكَ يُعْرَفُ بِالْأَزْرَقِ، كَانَ النِّيلُ يَجْرِي فِيهِ قَدِيمًا، فَحَفَرُوا ذَلِكَ الْخَلِيجَ وَعَمَّقُوهُ فَوْقَ الْمَرَاكِبِ الَّتِي جُعِلَتْ فِي النِّيلِ، وَأَجْرَوُا الْمَاءَ فِيهِ إِلَى الْبَحْرِ الْمَالِحِ، وَأَصْعَدُوا مَرَاكِبَهُمْ فِيهِ إِلَى مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ بُورَةُ، عَلَى أَرْضِ الْجِيزَةِ أَيْضًا، مُقَابِلَ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَلِكُ الْكَامِلُ لِيُقَاتِلُوهُ مِنْ هُنَاكَ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِلَيْهِ طَرِيقٌ يُقَاتِلُونَهُ فِيهَا، كَانَتْ دِمْيَاطُ تَحْجِزُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، فَلَمَّا صَارُوا فِي بُورَةَ حَاذَوْهُ فَقَاتَلُوهُ فِي الْمَاءِ، وَزَحَفُوا غَيْرَ مَرَّةٍ، فَلَمْ يَظْفَرُوا بِطَائِلٍ. وَلَمْ يَتَغَيَّرْ عَلَى أَهْلِ دِمْيَاطَ شَيْءٌ؛ لِأَنَّ الْمِيرَةَ وَالْأَمْدَادَ مُتَّصِلَةٌ بِهِمْ، وَالنِّيلُ يَحْجِزُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْفِرِنْجِ، فَهُمْ مُمْتَنِعُونَ لَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ أَذًى، وَأَبْوَابُهَا مُفَتَّحَةٌ، وَلَيْسَ عَلَيْهَا مِنَ الْحَصْرِ ضِيقٌ وَلَا ضَرَرٌ.

فاتَّفقَ، كَمَا يُريدُ اللّهُ - عزَّ وَجلَّ - أنَّ المَلِكَ العَادِلَ تُوُفِّيَ فِي جُمَادَى الآخِرَةِ مِنْ سَنَةِ خَمْسَ عَشْرَةَ وَسِتِّمِائَةٍ (آب/اغسطس 1218)- عَلَى مَا نَذْكُرُهُ إنْ شَاءَ اللّهُ – فَضَعُفَتْ نُفُوسُ النَّاسِ لِأَنَّهُ السُّلْطَانُ حَقِيقَةً، وَأَوْلَادُهُ، وَإِنْ كَانُوا مُلُوكًا إلَّا أَنَّهُمْ بِحُكْمِهِ، وَالأَمْرُ إلَيْهِ، وَهُوَ مَلَّكَهُمُ البِلَادَ[1]، فَاتَّفَقَ مَوْتُهُ وَالحَالُ هَكَذَا مِنْ مُقَاتَلَةِ العَدُوِّ. وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ الأُمَرَاءِ بِمِصْرَ أَمِيرٌ يُقَالُ لَهُ عِمَادُ الدِّينِ أَحْمَدُ بنِ عَلِيٍّ، وَيُعْرَفُ بِابْنِ المَشْطُوبِ، وَهُوَ مِنَ الأَكْرَادِ الهَكَّارِيَّةِ، وَهُوَ أَكْبَرُ أَمِيرٍ بِمِصْرَ، وَلَهُ لَفِيفٌ كَثِيرٌ، وَجَمِيعُ الأُمَرَاءِ يَنْقَادُونَ إلَيْهِ وَيُطِيعُونَهُ لَا سِيَّمَا الأَكْرَادُ، فَاتَّفَقَ هَذَا الأَمِيرُ مَعَ غَيْرِهِ مِنَ الأُمَرَاءِ، وَأَرَادُوا أَنْ يَخْلَعُوا المَلِكَ الكَامِلَ مِنَ المُلْكِ، وَيُمَلِّكُوا أَخَاهُ المَلِكَ الفَائِزَ بنِ العَادِلِ لِيَصِيرَ الحُكْمُ إلَيْهِمْ عَلَيْهِ وَعَلَى البِلَادِ، فَبَلَغَ الخَبَرُ إلَى الكَامِلِ، فَفَارَقَ المَنْزِلَةَ لَيْلًا جَرِيدَةً، وَسَارَ إلَى قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا أُشْمُومُ طَنَّاحٍ، فَنَزَلَ عِنْدَهَا، وَأَصْبَحَ العَسْكَرُ وَقَدْ فَقَدُوا سُلْطَانَهُمْ، فَرَكِبَ كُلُّ إنْسَانٍ مِنْهُمْ هَوَاهُ، وَلَمْ يَقِفِ الأَخُ عَلَى أَخِيهِ، وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى أَخْذِ شَيْءٍ مِنْ خِيَامِهِمْ وَذَخَائِرِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَسْلِحَتِهِمْ إلَّا اليَسِيرَ الَّذِي يَخِفُّ حَمْلُهُ، وَتَرَكُوا البَاقِيَ بِحَالِهِ مِنْ مِيرَةٍ، وَسِلَاحٍ، وَدَوَابَّ، وَخِيَامٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَلَحِقُوا بِالكَامِلِ.

وَأَمَّا الفِرِنْجُ فَإِنَّهُمْ أَصْبَحُوا مِنَ الغَدِ، فَلَمْ يَرَوْا مِنَ المُسْلِمِينَ أَحَدًا عَلَى شَاطِئِ النِّيلِ كَجَارِي عَادَتِهِمْ، فَبَقُوا لَا يَدْرُونَ مَا الخَبَرُ، وَإِذْ قَدْ أَتَاهُمْ مَنْ أَخْبَرَهُمُ الخَبَرَ عَلَى حَقِيقَتِهِ، فَعَبَرُوا حِينَئِذٍ النِّيلَ إلَى بَرِّ دِمْيَاطَ آمِنِينَ بِغَيْرِ مُنَازِعٍ وَلَا مُمَانِعٍ. وَكَانَ عُبُورُهُمْ فِي العِشْرِينَ مِنْ ذِي القَعْدَةِ سَنَةَ خَمْسَ عَشْرَةَ وَسِتِّمِائَةٍ (8 شباط/فبراير 1219)، فَغَنِمُوا مَا فِي مُعَسْكَرِ المُسْلِمِينَ، فَكَانَ عَظِيمًا يُعْجِزُ العَادِّينَ. وَكَانَ المَلِكُ الكَامِلُ يُفَارِقُ الدِّيَارَ المِصْرِيَّةَ لِأَنَّهُ لَمْ يَثِقْ بِأَحَدٍ مِنْ عَسْكَرِهِ، وَكَانَ الفِرِنْجُ مَلَكُوا الجَمِيعَ بِغَيْرِ تَعَبٍ وَلَا مَشَقَّةٍ، فَاتَّفَقَ مِنْ لُطْفِ اللَّهِ تَعَالَى بِالمُسْلِمِينَ أَنَّ المَلِكَ المُعَظَّمَ عِيسَى ابْنَ المَلِكِ العَادِلِ وَصَلَ إلَى أَخِيهِ الكَامِلِ بَعْدَ هَذِهِ الحَرَكَةِ بِيَوْمَيْنِ، وَالنَّاسُ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ، فَقَوِيَ بِهِ قَلْبُهُ وَاشْتَدَّ ظَهْرُهُ، وَثَبَتَ جَنَانُهُ، وَأَقَامَ بِمَنْزِلَتِهِ، وَأَخْرَجُوا ابْنَ المَشْطُوبِ إلَى الشَّامِ، فَاتَّصَلَ بِالمَلِكِ الأَشْرَفِ وَصَارَ مِنْ جُنْدِهِ.

---

(1) تمكن العادل من توحيد مختلف البلاد التي كانت تحت سلطة أخيه صلاح الدين وجعلها تحت سيادته.

فَلَمَّا عَبَرَ الْفِرِنْجُ إِلَى أَرْضِ دِمْيَاطَ اجْتَمَعَتِ الْعَرَبُ عَلَى اخْتِلَافِ قَبَائِلِهَا، وَنَهَبُوا الْبِلَادَ الْمُجَاوِرَةَ لِدِمْيَاطَ، وَقَطَعُوا الطَّرِيقَ، وَأَفْسَدُوا، وَبَالَغُوا فِي الْإِفْسَادِ، فَكَانُوا أَشَدَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْفِرِنْجِ، وَكَانَ أَضَرُّ شَيْءٍ عَلَى أَهْلِ دِمْيَاطَ أَنَّهَا لَمْ يَكُنْ بِهَا مِنَ الْعَسْكَرِ أَحَدٌ؛ لِأَنَّ السُّلْطَانَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْعَسَاكِرِ كَانُوا عِنْدَهَا يَمْنَعُونَ الْعَدُوَّ عَنْهَا، فَأَتَتْهُمْ هَذِهِ الْحَرَكَةُ بَغْتَةً، فَلَمْ يَدْخُلْهَا أَحَدٌ مِنَ الْعَسْكَرِ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِ ابْنِ الْمَشْطُوبِ. لَا جَرَمَ لَمْ يُمْهِلْهُ اللَّهُ، وَأَخَذَهُ أَخْذَةً رَابِيَةً، عَلَى مَا نَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَأَحَاطَ الْفِرِنْجُ بِدِمْيَاطَ، وَقَاتَلُوهَا بَرًّا وَبَحْرًا، وَعَمِلُوا عَلَيْهِمْ خَنْدَقًا يَمْنَعُهُمْ مِمَّنْ يُرِيدُهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَهَذِهِ كَانَتْ عَادَتُهُمْ، وَأَدَامُوا الْقِتَالَ، وَاشْتَدَّ الْأَمْرُ عَلَى أَهْلِهَا، وَتَعَذَّرَتْ عَلَيْهِمُ الْأَقْوَاتُ وَغَيْرُهَا، وَسَئِمُوا الْقِتَالَ وَمُلَازَمَتَهُ؛ لِأَنَّ الْفِرِنْجَ كَانُوا يَتَنَاوَبُونَ الْقِتَالَ عَلَيْهِمْ لِكَثْرَتِهِمْ، وَلَيْسَ بِدِمْيَاطَ مِنَ الْكَثْرَةِ مَا يَجْعَلُونَ الْقِتَالَ بَيْنَهُمْ مُنَاوَبَةً، وَمَعَ هَذَا فَقَدْ صَبَرُوا صَبْرًا لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِهِ، وَكَثُرَ الْقَتْلُ فِيهِمْ وَالْجِرَاحُ وَالْمَوْتُ وَالْأَمْرَاضُ. وَدَامَ الْحِصَارُ عَلَيْهِمْ إِلَى السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةَ سِتَّ عَشْرَةَ وَسِتِّمِائَةٍ (8 تشرين ثاني/نوفمبر 1219م)، فَعَجَزَ مَنْ بَقِيَ مِنْ أَهْلِهَا عَنِ الْحِفْظِ لِقِلَّتِهِمْ، وَتَعَذُّرِ الْقُوتِ عِنْدَهُمْ، فَسَلَّمُوا الْبَلَدَ إِلَى الْفِرِنْجِ، فِي هَذَا التَّارِيخِ، بِالْأَمَانِ، فَخَرَجَ مِنْهُمْ قَوْمٌ وَأَقَامَ آخَرُونَ لِعَجْزِهِمْ عَنِ الْحَرَكَةِ، فَتَفَرَّقُوا أَيْدِي سَبَا[1].

ذِكْرُ مُلْكِ الْمُسْلِمِينَ دِمْيَاطَ مِنَ الْفِرِنْجِ

(ابن الأثير، 12/216–213)

لَمَّا مَلَكَ الْفِرِنْجُ دِمْيَاطَ أَقَامُوا بِهَا، وَبَثُّوا سَرَايَاهُمْ فِي كُلِّ مَا جَاوَرَهُمْ مِنَ الْبِلَادِ، يَنْهَبُونَ وَيَقْتُلُونَ، فَجَلَا أَهْلُهَا عَنْهَا، وَشَرَعُوا فِي عِمَارَتِهَا وَتَحْصِينِهَا، وَبَالَغُوا فِي ذَلِكَ حَتَّى إِنَّهَا بَقِيَتْ لَا تُرَامُ.

وَأَمَّا الْمَلِكُ الْكَامِلُ فَإِنَّهُ أَقَامَ بِالْقُرْبِ مِنْهُمْ فِي أَطْرَافِ بِلَادِهِ يَحْمِيهَا مِنْهُمْ. وَلَمَّا سَمِعَ الْفِرِنْجُ فِي بِلَادِهِمْ بِفَتْحِ دِمْيَاطَ عَلَى أَصْحَابِهِمْ أَقْبَلُوا إِلَيْهِمْ يُهْرَعُونَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، وَأَصْبَحَتْ دَارَ هِجْرَتِهِمْ، وَعَادَ الْمَلِكُ الْمُعَظَّمُ صَاحِبُ دِمَشْقَ إِلَى الشَّامِ

(1) ترجمها غابريلي بما معناه (في كل حدب وصوب).

فخرّب البَيْتَ المُقدّس، في ذي القعدة من السنة، وإنّما فعل ذلك لأنّ النّاس كافّة خافُوا الفرنْجَ[1]، وأشْرَفَ الإسْلامُ وجَميعُ أهْلِهِ وبِلادِهِ على خُطّةِ خسَفٍ في شَرْقِ الأرْضِ وغَرْبِها: أقْبَلَ التَتَرُ مِنَ المَشْرِقِ حتّى وَصَلُوا إلى نَواحِي العِرَاقِ وأذْرَبيجَانَ وأرّانَ وغَيْرِها، على ما نَذْكُرُهُ إنْ شاءَ اللّهُ تَعالَى؛ وأقْبَلَ الفِرِنْجُ مِنَ المَغْرِبِ فملَكُوا مِثْلَ دِمْياطَ في الدِّيَارِ المِصْرِيّةِ، مَعَ عَدَمِ الحُصُونِ المَانِعَةِ بِهَا مِنَ الأعْدَاءِ، وأشْرَفَ سَائِرُ البِلادِ بِمِصْرَ والشّامِ علَى أنْ تُمْلَكَ، وَخافَهُمُ النّاسُ كَافّةً، وصَارُوا يَتَوَقّعُونَ البَلاءَ صَبَاحًا وَمَسَاءً. وأرَادَ أهْلُ مِصْرَ الجَلاءَ عَنْ بِلادِهِمْ خَوْفًا مِنَ العَدُوِّ، [ولاتَ حِينَ مَنَاصٍ][2]، والعَدُوُّ قَدْ أحَاطَ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلَوْ مَكّنَهُمُ الكَامِلُ مِنْ ذَلِكَ لتَرَكُوا البِلادَ خاوِيَةً علَى عُرُوشِهَا، وإنّمَا مُنِعُوا مِنْهُ فَثَبَتُوا. وتَابَعَ المَلِكُ الكَامِلُ كُتُبَهُ إلَى أخَوَيْهِ المُعَظّمِ صَاحِبِ دِمَشْقَ، والمَلِكِ الأشْرَفِ مُوسَى بنِ العَادِلِ، صَاحِبِ دِيَارِ الجَزِيرَةِ وأرْمِينِيّةَ وغَيْرِهِمَا، يَسْتَنْجِدُهُمَا، وَيَحُثّهُمَا علَى الحُضُورِ بِأنْفُسِهِمَا، فَإنْ لَمْ يَكُنْ فَيُرْسِلانِ العَسَاكِرَ إلَيْهِ، فَسَارَ صَاحِبُ دِمَشْقَ إلَى الأشْرَفِ بِنَفْسِهِ بِحَرّانَ، فَرَآهُ مَشْغُولًا عَنْ إنْجَادِهِمْ بِمَا دَهَمَهُ مِنِ اخْتِلافِ الكَلِمَةِ عَلَيْهِ، وَزَوَالِ الطّاعَةِ عَنْ كَثِيرٍ مِمّنْ كَانَ يُطِيعُهُ، وَنَحْنُ نَذْكُرُ ذَلِكَ سَنَةَ خَمْسَ عَشْرَةَ وَسِتّمائَةٍ – إنْ شَاءَ اللّهُ – عِنْدَ وَفَاةِ المَلِكِ القَاهِرِ، صَاحِبِ المَوْصِلِ، فَلْيُطْلَبْ مِنْ هُنَاكَ؛ فَعَذَرَهُ، وَعَادَ عَنْهُ، وَبَقِيَ الأمْرُ كَذَلِكَ مَعَ الفِرِنْجِ.

فَأمّا المَلِكُ الأشْرَفُ فَزَالَ الخُلْفُ مِنْ بِلادِهِ، وَرَجَعَ المُلُوكُ الخَارِجُونَ عَنْ طَاعَتِهِ إلَيْهِ، واسْتَقَامَتْ لَهُ الأمُورُ إلَى سَنَةِ ثَمَانِي عَشْرَةَ وَسِتّمائَةٍ، والمَلِكُ الكَامِلُ مُقَابِلُ الفِرِنْجِ.

فَلَمّا دَخَلَتْ سَنَةُ ثَمَانِي عَشْرَةَ وَسِتّمائَةٍ عَلِمَ بِزَوَالِ مَانِعِ المَلِكِ الأشْرَفِ عَنْ إنْجَادِهِ، فَأرْسَلَ يَسْتَنْجِدُهُ وَأخَاهُ، صَاحِبَ دِمَشْقَ، فَسَارَ صَاحِبُ دِمَشْقَ المُعَظّمُ إلَى الأشْرَفِ يَحُثّهُ علَى المَسِيرِ، فَفَعَلَ، وَسَارَ إلَى دِمَشْقَ فِيمَنْ مَعَهُ مِنَ العَسَاكِرِ، وأمَرَ البَاقِينَ بِاللّحَاقِ بِهِ إلَى دِمَشْقَ، وأقَامَ بِهَا يَنْتَظِرُهُمْ، فَأشَارَ عَلَيْهِ بَعْضُ أمَرَائِهِ

---

(1) اراد على الأقل الغاء أهميتها العسكرية، وذلك خيفة من الاضطرار الى إعادة المدينة المقدسة اليهم، كما عُرض عليهم بالفعل.

(2) قرآن (كريم) الآية 3 من السورة 38 (ص)

وَخواصُه بإنْفاذِ العَساكِرِ والعَوْدِ إلى بِلادِهِ خَوْفاً مِن اخْتِلافٍ يَحْدُثُ بَعْدَهُ، فَلَمْ يَقْبَلْ قَوْلَهُمْ، وَقالَ قَدْ خَرَجْتُ لِلْجِهادِ، وَلا بُدَّ مِنْ إتْمامِ ذلِكَ العَزْمِ، فَسارَ إلى مِصْرَ.

وَكانَ الفِرِنْجُ قَدْ سارُوا عَنْ دِمْياطَ في الفارِسِ والرّاجِلِ، وَقَصَدُوا المَلِكَ الكامِلَ، وَنَزَلُوا مُقابِلَهُ، بَيْنَهُما خَليجٌ مِنَ النّيلِ يُسَمّى بَحْرَ أَشْمُومَ، وَهُمْ يَرْمُونَ بِالمَنْجَنيقِ وَالجَرْخِ إلى عَسْكَرِ المُسْلِمينَ، وَقَدْ تَيَقَّنُوا هُمْ وَكُلُّ النّاسِ أَنَّهُمْ يَمْلِكُونَ الدِّيارَ المِصْرِيَّةَ وَأَمّا الأَشْرَفُ فَإِنَّهُ سارَ حَتّى وَصَلَ مِصْرَ، فَلَمّا سَمِعَ أَخُوهُ الكامِلُ بِقُرْبِهِ مِنْهُمْ تَوَجَّهَ إِلَيْهِ، فَلَقِيَهُ، وَاسْتَبْشَرَ هُوَ وَسائِرُ المُسْلِمينَ بِاجْتِماعِهِما، لَعَلَّ اللّهَ يُحْدِثُ بِذلِكَ نَصْراً وَظَفَراً.

وَأَمّا المَلِكُ المُعَظَّمُ، صاحِبُ دِمَشْقَ، فَإِنَّهُ سارَ أَيْضاً إلى دِيارِ مِصْرَ، وَقَصَدَ دِمْياطَ ظَنّاً مِنْهُ أَنَّ أَخَوَيْهِ وَعَسْكَرَيْهِما قَدْ نازَلُوها، وَقيلَ بَلْ أُخْبِرَ في الطَّريقِ أَنَّ الفِرِنْجَ قَدْ تَوَجَّهُوا إلى دِمْياطَ[1]، فَسابَقَهُمْ إِلَيْها لِيَلْقاهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْديهِمْ، وَأَخَواهُ مِنْ خَلْفِهِمْ، وَاللّهُ أَعْلَمُ. وَلَمّا اجْتَمَعَ الأَشْرَفُ بِالكامِلِ اسْتَقَرَّ الأَمْرُ بَيْنَهُما عَلى التَّقَدُّمِ إلى خَليجٍ مِنَ النّيلِ يُعْرَفُ بِبَحْرِ المَحَلَّةِ، فَتَقَدَّمُوا إِلَيْهِ، فَقاتَلُوا الفِرِنْجَ، وَازْدادُوا قُرْباً، وَتَقَدَّمَتْ شَوانِي المُسْلِمينَ مِنَ النّيلِ، وَقاتَلُوا شَوانِي الفِرِنْجِ، فَأَخَذُوا مِنْها ثَلاثَ قِطَعٍ بِمَنْ فيها مِنَ الرِّجالِ، وَما فيها مِنَ الأَمْوالِ وَالسِّلاحِ، فَفَرِحَ المُسْلِمُونَ بِذلِكَ، وَاسْتَبْشَرُوا، وَتَفاءَلُوا، وَقَوِيَتْ نُفُوسُهُمْ، وَاسْتَطالُوا عَلى عَدُوِّهِمْ.

هذا يَجْري وَالرُّسُلُ مُتَرَدِّدَةٌ بَيْنَهُمْ في تَقْريرِ قاعِدَةِ الصُّلْحِ. وَبَذَلَ المُسْلِمُونَ لَهُمْ تَسْليمَ البَيْتِ المُقَدَّسِ، وَعَسْقَلانَ، وَطَبَرِيَّةَ، وَصَيْدا، وَجَبَلَةَ، وَاللّاذِقِيَّةَ، وَجَميعَ ما فَتَحَهُ صَلاحُ الدّينِ مِنَ الفِرِنْجِ بِالسّاحِلِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ما عَدا الكَرَكَ، لِيُسَلِّمُوا دِمْياطَ[2]، فَلَمْ يَرْضَوْا وَطَلَبُوا ثَلاثَمِائَةِ أَلْفِ دينارٍ عِوَضاً عَنْ تَخْريبِ القُدْسِ لِيَعْمُرُوهُ بِها، فَلَمْ يَتِمَّ بَيْنَهُمْ أَمْرٌ وَقالُوا: لا بُدَّ مِنَ الكَرَكِ.

فَبَيْنَما الأَمْرُ في هذا، وَهُمْ يَمْتَنِعُونَ، اضْطُرَّ المُسْلِمُونَ إلى قِتالِهِمْ.

---

(1) في محاولة للإنسحاب من ملكنا الملحقة، كما سيروى لاحقاً.

(2) بناء على هذا العرض يمكننا أن نقيس أهمية دمياط وصحة حسابات الفرنجة في مهاجمتها. والكرك المستثنى من عرض التسليم (وتضم تقريباً كل مكاسب صلاح الدين) هو كرك معاب الذي يشرف على طرق المواصلات بين سورية ومصر.

وَكَانَ الْفِرِنْجُ لِاعْتِدَادِهِمْ بِنُفُوسِهِمْ لَمْ يَسْتَصْحِبُوا مَعَهُمْ مَا يَقُوتُهُمْ عِدَّةَ أَيَّامٍ، ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ الْعَسَاكِرَ الْإِسْلَامِيَّةَ لَا تَقُومُ لَهُمْ، وَأَنَّ الْقُرَى وَالسَّوَادَ جَمِيعَهُ يَبْقَى بِأَيْدِيهِمْ، يَأْخُذُونَ مِنْهُ مَا أَرَادُوا مِنَ الْمِيرَةِ، لِأَمْرٍ يُرِيدُهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِمْ، فَعَبَرَ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي عَلَيْهَا الْفِرِنْجُ، فَفَجَّرُوا النِّيلَ، فَرَكِبَ الْمَاءُ أَكْثَرَ تِلْكَ الْأَرْضِ، وَلَمْ يَبْقَ لِلْفِرِنْجِ جِهَةٌ يَسْلُكُونَ مِنْهَا غَيْرَ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ فِيهَا ضِيقٌ، فَنَصَبَ الْكَامِلُ حِينَئِذٍ الْجُسُورَ عَلَى النِّيلِ، عِنْدَ أُشْمُومٍ، وَعَبَرَتِ الْعَسَاكِرُ عَلَيْهَا، فَمَلَكَ الطَّرِيقَ الَّذِي يَسْلُكُهُ الْفِرِنْجُ إِنْ أَرَادُوا الْعَوْدَ إِلَى دِمْيَاطَ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ خَلَاصٌ. وَاتَّفَقَ فِي تِلْكَ الْحَالِ أَنَّهُ وَصَلَ إِلَيْهِمْ مَرْكَبٌ كَبِيرٌ لِلْفِرِنْجِ مِنْ أَعْظَمِ الْمَرَاكِبِ يُسَمَّى مَرَمَّةً، وَحَوْلَهُ عِدَّةُ حَرَّاقَاتٍ تَحْمِيهِ، وَالْجَمِيعُ مَمْلُوءٌ مِنَ الْمِيرَةِ وَالسِّلَاحِ، وَمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، فَوَقَعَ عَلَيْهَا شَوَانِي الْمُسْلِمِينَ، وَقَاتَلُوهُمْ، فَظَفِرُوا بِالْمَرَمَّةِ وَبِمَا مَعَهَا مِنَ الْحَرَّاقَاتِ، أَخَذُوهَا، فَلَمَّا رَأَى الْفِرِنْجُ ذَلِكَ سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا الصَّوَابَ بِمُفَارَقَةِ دِمْيَاطَ فِي أَرْضٍ يَجْهَلُونَهَا. هَذَا وَعَسَاكِرُ الْمُسْلِمِينَ مُحِيطَةٌ بِهِمْ يَرْمُونَهُمْ بِالنُّشَّابِ، وَيَحْمِلُونَ عَلَى أَطْرَافِهِمْ، فَلَمَّا اشْتَدَّ الْأَمْرُ عَلَى الْفِرِنْجِ أَحْرَقُوا خِيَامَهُمْ، وَمَجَانِيقَهُمْ، وَأَثْقَالَهُمْ، وَأَرَادُوا الزَّحْفَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ وَمُقَاتَلَتَهُمْ، لَعَلَّهُمْ يَقْدِرُونَ عَلَى الْعَوْدِ إِلَى دِمْيَاطَ، فَرَأَوْا مَا أَمَّلُوهُ بَعِيدًا، وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ، لِكَثْرَةِ الْوَحْلِ وَالْمِيَاهِ حَوْلَهُمْ، وَالْوَجْهُ الَّذِي يَقْدِرُونَ عَلَى سُلُوكِهِ قَدْ مَلَكَهُ الْمُسْلِمُونَ.

فَلَمَّا تَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ قَدْ أُحِيطَ بِهِمْ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهِمْ، وَأَنَّ مِيرَتَهُمْ قَدْ تَعَذَّرَ عَلَيْهِمْ وُصُولُهَا، وَأَنَّ الْمَنَايَا قَدْ كَشَّرَتْ لَهُمْ عَنْ أَنْيَابِهَا، ذَلَّتْ نُفُوسُهُمْ، وَتَكَسَّرَتْ صُلْبَانُهُمْ، وَضَلَّ عَنْهُمْ شَيْطَانُهُمْ، فَرَاسَلُوا الْمَلِكَ الْكَامِلَ وَالْأَشْرَفَ يَطْلُبُونَ الْأَمَانَ لِيُسَلِّمُوا دِمْيَاطَ بِغَيْرِ عِوَضٍ، فَبَيْنَمَا الْمُرَاسَلَاتُ مُتَرَدِّدَةٌ إِذْ أَقْبَلَ جَمْعٌ كَبِيرٌ، لَهُمْ رَهَجٌ شَدِيدٌ، وَجَلَبَةٌ عَظِيمَةٌ، مِنْ جِهَةِ دِمْيَاطَ، فَظَنَّهُ الْمُسْلِمُونَ نَجْدَةً أَتَتْ لِلْفِرِنْجِ، فَاسْتَشْعَرُوا، وَإِذَا هُوَ الْمَلِكُ الْمُعَظَّمُ، صَاحِبُ دِمَشْقَ، قَدْ وَصَلَ إِلَيْهِمْ، وَكَانَ قَدْ جَعَلَ طَرِيقَهُ عَلَى دِمْيَاطَ، لِمَا ذَكَرْنَاهُ، فَاشْتَدَّتْ ظُهُورُ الْمُسْلِمِينَ، وَازْدَادَ الْفِرِنْجُ خِذْلَانًا وَوَهْنًا، وَتَمَّمُوا الصُّلْحَ عَلَى تَسْلِيمِ دِمْيَاطَ، وَاسْتَقَرَّتِ الْقَاعِدَةُ وَالْأَيْمَانُ سَابِعَ رَجَبٍ مِنْ سَنَةِ ثَمَانِي عَشْرَةَ وَسِتِّمِائَةٍ (27 آب/أغسطس 1221)، وَانْتَقَلَ مُلُوكُ الْفِرِنْجِ، وَكُنُودُهُمْ، وَقَمَامِصَتُهُمْ إِلَى الْمَلِكِ الْكَامِلِ وَالْأَشْرَفِ رَهَائِنَ عَلَى تَسْلِيمِ دِمْيَاطَ: مَلِكُ عَكَّا،

وَنَائِبُ بَابَا صَاحِبِ رُومِيَّةَ، وَكُنْدُ رِيش، وَغَيْرُهُمْ، وَعِدَّتُهُمْ عِشْرُونَ مَلِكًا، وَرَاسَلُوا قُسُوسَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ إِلَى دِمْيَاطَ فِي التَّسْلِيمِ، فَلَمْ يَمْتَنِعْ مَنْ بِهَا، وَسَلَّمُوهَا إِلَى الْمُسْلِمِينَ تَاسِعَ رَجَبٍ الْمَذْكُورِ، وَكَانَ يَوْمًا مَشْهُودًا. وَمِنَ الْعَجَبِ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا تَسَلَّمُوهَا وَصَلَتْ لِلْفِرَنْجِ نَجْدَةٌ فِي الْبَحْرِ، فَلَوْ سَبَقُوا الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهَا لَامْتَنَعُوا مِنْ تَسْلِيمِهَا، وَلَكِنْ سَبَقَهُمُ الْمُسْلِمُونَ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا، وَلَمْ يَبْقَ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا إِلَّا آحَادٌ، وَتَفَرَّقُوا أَيْدِي سَبَا، بَعْضُهُمْ سَارَ عَنْهَا بِاخْتِيَارِهِ، وَبَعْضُهُمْ مَاتَ، وَبَعْضُهُمْ أَخَذَهُ الْفِرَنْجُ. وَلَمَّا دَخَلَهَا الْمُسْلِمُونَ رَأَوْهَا وَقَدْ حَصَّنَهَا الْفِرَنْجُ تَحْصِينًا عَظِيمًا بِحَيْثُ بَقِيَتْ لَا تُرَامُ، وَلَا يُوصَلُ إِلَيْهَا، وَأَعَادَ اللَّهُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الْحَقَّ إِلَى نِصَابِهِ، وَرَدَّهُ إِلَى أَرْبَابِهِ، وَأَعْطَى الْمُسْلِمِينَ ظَفَرًا لَمْ يَكُنْ فِي حِسَابِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانَتْ غَايَةُ أَمَانِيهِمْ أَنْ يُسَلِّمُوا الْبِلَادَ الَّتِي أُخِذَتْ مِنْهُمْ بِالشَّامِ لِيُعِيدُوا دِمْيَاطَ، فَرَزَقَهُمُ اللَّهُ إِعَادَةَ دِمْيَاطَ، وَبَقِيَتِ الْبِلَادُ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى حَالِهَا، فَاللَّهُ الْمَحْمُودُ الْمَشْكُورُ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ كَفِّ عَادِيَةِ هَذَا الْعَدُوِّ، وَكَفَاهُمْ شَرَّ التَّتَرِ، عَلَى مَا نَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

تفاصيل أخرى عن هزيمة الفرنج

(ابن واصل، 209r-210r)

... (راسل الفرنج)... السلطان الملك الكامل وأخويه السلطان الملك الأشرف والملك المعظم يطلبون منهم الأمان لأنفسهم، ليسلمون لهم دمياط من غير عوض. قال: فاستشار السلطان الملك الكامل ملوك أهل بيته في ذلك: فأشار بعضهم بأن لا يؤمنهم ويأخذهم أخذ باليد، فإنهم قد صاروا في قبضته، وهم جمهور أهل الشرب، وأنه إذا فعل ذلك أخذ منهم دمياط وجميع ما تبقى لهم من البلاد الساحليه. فلم يرى السلطان الملك الكامل ذلك مصلحه، وقال: "إن هاولاى (هؤلاء) ليس هم جميع الفرنج، وإذا أبدناهم[1] لم نقدر على أخذ دمياط إلا بالمطاولة وحروب كثيره مدة، وتسمع ملوك ما وراء البحر من الفرنج مانالهم وما

(1) يقول غابرييلي إن هناك رواية أخرى تقول (أسرناهم)

جرى عليهم، فيقدم إلينا أضعاف هؤلاء، وتعود الحرب خدعة". وقد ضجرت العساكر من الحروب وكلّت[1]، وكانت مدة مقام الفرنج بالديار المصرية ثلاث سنين وشهور. فأتفق رأي الكل على بذل الأمان لهم، وبأخذ دمياط منهم. فأجيبوا الفرنج إلى ما طلبوا من الأمان، على أن يأخذ السلطان الملك ملوكهم رهاين، إلى أن يسلموا دمياط. وطلبوا هم أيضا أن يأخذوا ولد السلطان الملك الكامل وجماعة من خواصه رهاين، إلى أن ترجع ملوكهم إليهم فتقررت القاعدة على ذلك والإيمان، سابع رجب من هذه السنه، أعني سنة ثمان عشر وستماية. وكانت رهاين الفرنج ملك عكا، واللكاف نايب البابا صاحب رومية الكبرى، والملك كندروس (لودوفيك) وغير هؤلاء من الملوك تتمة عشرين ملكا. وكانت رهاين السلطان الملك الكامل، ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب[2] وجماعة من خواصه، وكان عمر الملك الصالح يومئذ خمسة عشر سنه، لأن مولده سنة ثلاث وستماية. ولما قدم هؤلاء الملوك إلى السلطان الملك الكامل، جلس مجلسا عظيما، ووقف بين يديه الملوك واخوته وأهل بيته جميعا، فرأوا الفرنج من عظمة ملكه وناموسه ماهالهم[3]...

...(سلمت دمياط).. وبعد ذلك رجعت رهاين الفرنج إليهم، ورهاين المسلمين إليهم. وولاها الأمير شجاع الدين جلدك المظفري النوري، وكان رجلا خيرا شهما. وكان للفرنج، لما وقع الصلح، صواري عظام جدا، فأرادوا أخذها وحملها معهم إلى بلادهم، فمنعهم من ذلك شجاع الدين. فبعثوا إلى السلطان الملك الكامل يشكونه ويقولون إن "هذه الصواري لنا، وإن مقتضى الصلح أن ترد إلينا". فكتب الملك العادل إلى شجاع الدين يأمره أن ترد الصواري إليهم، فأصر على الامتناع،

(1) يمكن أن تكون العبارة جانباً مما سبق من قول السلطان.

(2) وقد حكم مصر بعدها بين 1240 و 1249

(3) في هذه الحملة وقبل هذا بقليل ظهر ليعظ "في حضرة السلطان الجليلة" القديس فرانشيسكو أسّيسي S.Francesco d'Assisi، وقد اعتقدنا بالعثور على أثرة من اشارة في المصادر الشرقية تتحدث عن مستشار مسلم للملك العادل "حول قصة الراهب". (المترجم: هناك كثير من الأدبيات بل والرسوم حول لقاء جرى بين هذا الراهب المشهور وبين الملك العادل. أما عبارة "في حضرة السلطان الجليلة" فهو بيت شعر لدانتي اليغييري في الكوميديا الالهية.

وقال أن الفرنج أخذوا منبر جامع دمياط وكسروه، وأهدوا كل قطعة منه إلى ملك من ملوكهم، فيأمرهم السلطان أن يردوا إلينا المنبر لنرد إليهم الصواري". فكتب السلطان إليهم في ذلك، وذكر لهم ما ذكر شجاع الدين، فعجزوا عن ذلك وأعرضوا عن ذكر الصواري...

- 2 -

كان للحملة الصليبية السلمية التي شنها فريدريك الثاني على صورة مناوشات دبلوماسية تداخلت بين منافسات امراء الايوبيين من ورثة العادل أن تركت كثيرا من الذكريات المهمة لدى المؤرخين المسلمين في تلك الآونة. مصادرنا الرئيسية هنا هم سبط ابن الجوزي الذي كان شاهدا ومشاركاً هو نفسه في ردة الفعل الاسلامية على عملية التنازل عن القدس للإمبراطور السوابي، ثم ابن واصل الذي لم يعرف شخص فيديريك لكنه أصبح فيما بعد سفيراً لدى مانفريدي في منطقة بوليا الايطالية فترك لنا كثيراً من التفاصيل المباشرة والحية والدقيقة عن السوابيين ومناصرتهم للمسلمين. تكشف هذه التفاصيل عن تلك الانطباعات التي كونها شخص استطاع الاقتراب من الإمبراطور خلال زيارته للقدس ووجده شخصاً متشككاً وساخراً من الناحية الدينية؛ ويناصر الإسلام من الناحية السياسية. لابد ان البابوية كانت سترحب أيما ترحيب بمثل هذه الانطباعات لأنها كانت ستعزز من موقفها المعادي لفريديريك. هناك أيضا وثيقة مازالت حتى اليوم فريدة من نوعها وجدت بين رسائل فيديريك الثاني الدبلوماسية وهي عبارة عن رسالتين ارسلهما بالعربية بعيد عودته الى ايطاليا الى أمير من أصدقائه في القصر الايوبي، وقد تم الاحتفاظ بهما ضمن تاريخ شرقي مجهول. لابد أن أحد معاوني الامبراطور غير الجديرين كتب الرسالتين بخطابة ركيكة ومع هذا فهما يفصحان عن وقائع تاريخية محددة وعن الوعي بالكرامة الامبراطورية وحدّة الخصومة البابوية التي عرفت في كل الوثائق الفيديريكية.

قدوم الإمبراطور فردريك – ملك الإفرنج– إلى عكا

(ابن واصل، 252r+119r)[1]

وفي هذه السنة (1228/625) قدم الإمبراطور ملك الفرنج إلى عكا في جمع كثير من الألمانية وغيرهم من الفرنج. وقد ذكرنا مسير الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ إلى الملك الإمبراطور من جهة السلطان الملك الكامل، وكان ذلك في أيام الملك المعظم[2]. وإنما قصد الملك الكامل بالاتفاق مع الإمبراطور ملك الفرنج واستدعائه لإشغال سر الملك المعظم، ولئن لا يتمكن من مساعدة السلطان جلال الدين بن علاى الدين خوارزم شاه ومظفر الدين، صاحب أربل، عليه وعلى الملك الأشرف. فتجهز الإمبراطور ووصل في عساكره إلى الساحل، ونزل بعكا في هذه السنه، وكان قد تقدمه جمع كثير من الفرنج، لكنهم لم يتمكنوا من الحركه، خوفا من الملك المعظم، ولانتظارهم لملكهم الإمبراطور ، ومعنى هذا الاسم بالفرنجية 'ملك الأمراء'. ومملكته جزيرة صقلية، ومن البر الطويل (ايطاليا) بلاد أبولية والامبردية[3]. قال صاحب الكتاب جمال الدين بن واصل قد رأيت تلك الممالك لما توجهت رسولا من جهة السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، رحمه الله تعالى، إلى ولد الامبراطور المسمى منفريدا، وكان الإمبراطور من ملوك الإفرنج متميزا عالما محبا للحكمة والمنطق والطب مايلا إلى المسلمين، لأن مقامه في 'الأصل ومرباه بلاد صقلية؛ وهو وأبوه وجده، كانوا ملوكها'، وأهل الجزيرة غالبهم مسلمين.

ولما وصل الامبراطور إلى عكا (عجب) الملك الكامل به، لأن أخاه الملك المعظم الذي كان السبب في استدعائه توفي، واستغنى عنه، ولم يمكنه دفعه

---

(1) هذه ارقام اوراق لكن ترتيبها تغير في مخطوطة باريس

(2) صاحب دمشق واخو الكامل الذي رأينا كيف سارع الى مناصرته ضد الفرنجة في دمياط. لكن علاقتهما تدهورت بعدها وساد التوتر بعدما تقرب من سلطان خوارزم جلال الدين والى امير اربيل، مما دفع الكامل للتقرب من فيدريك.

(3) قد يوجد هنا بعض الخلط بين اسمي منطقتي لومباردبا ولامبارديا وذلك بسبب التسميات الجغرافية العربية السائدة انذاك. وقد ورد كلا الاسمين في رسالة فيدريك بالعربية التي سنوردها لاحقا.

ومحاربته لما تقدم بينهما من الاتفاق ولأنه كان يؤدي ذلك إلى فوات أغراضه التي كان في ذلك الوقت بصددها. فراسله ولاطفه، وجرى بعد ذلك ما سنذكره إن شاء الله تعالى... ولم يزل الامبراطور بعكا، والرسل مترددة بينه وبين الملك الكامل، إلى أن خرجت هذه السنه.

تسليم القدس إلى الفرنج

(ابن واصل 253R.V– 120R– 121R)

ولم تزل الرسل تتردد بين السلطان الملك الكامل والإمبراطور ملك الإفرنج. وأطماع الإمبراطور ملك الإفرنج متعلقة بما كان تقرر بينه وبين الملك الكامل أولا قبل موت الملك المعظم. وأبى ملك الإفرنج أن يرجع إلى بلاده إلا بما وقع الشرط عليه من تسليم القدس إليه وبعض الفتوح الصلاحي (فتوح صلاح الدين)[1]. وأبى الملك الكامل أن يسلم إليه كل ذلك. وآخر الأمر أنه قد تقرر بينهما أن يسلم إليه القدس على شريطة أن يبقى خرابا ولا يجدد سوره، وأن لا يكون للفرنج شيء من ظاهره البتة، بل يكون جميع قراياه للمسلمين، وللمسلمين واليا عليها يكون مقامه بالبيره من عمل القدس، وأن الحرم الشريف بما حواه من الصخره المقدسة والمسجد الأقصى يكون بأيدي المسلمين، ولا يدخله الفرنج إلا للزيارة فقط، ويتولاه قوام المسلمين، ويكون شعار الاسلاميه قائما على عادته. واستثنى الفرنج قرايا معدوده في طريق عكا إلى القدس، تكون بأيديهم دون ماعداها من قرايا القدس.

ورأى السلطان الملك الكامل أنه إن شاقق الملك الإمبراطور ولم يقف له بالكلية، ان ينفتح باب محاربة مع الفرنج ويتسع الخرق، ويفوت عليه كل ما خرج بسببه. فرأى أن يرضي الفرنج بمدينة القدس خرابا، ويهادنهم مدة، ثم هو قادر على انتزاع ذلك منهم متى شاء. وكان المتردد بين الملك الإمبراطور في الرسائل

---

(1) يشير فيدريك الى عروض تسليم الساحل التي قدمها الكامل للصليبيين في 1220 تحت دمياط (راجع الصفحات السابقة)، بل إن الامبراطور يسخر من مبعوثه Pelagio حين يقول "إنه مبعوثي أي آخر خدمي، وعليكم أن تقدموا لي الآن مالايقل عما كنتم مستعدين لتقديمه له." (تاريخ منصوري 32 مقريزي 228–229).

الأمير فخر الدين بن الشيخ، وكانت تجرى بينهما محاورات في أشياء شتى.
وسير ملك الإفرنج الإمبراطور في أثناء ذلك إلى السلطان الملك الكامل مسائل حكميه هندسيه ورياضيه مشكلة، ليمتحن بها من عنده من الفضلاء، فعرض السلطان ما أورده من المسائل الرياضية على الشيخ علم الدين قيصر، امام هذه الصناعة. وعرض الباقي على جماعة من الأفاضل، فأجابوا عن الجميع. ثم حلف السلطان على ما وقع عليه الاتفاق، وحلف الإمبراطور ملك الإفرنج، وعقدوا عقد الهدنه مدة معلومة[1]. وانتظم بينهم الأمر، وأمن كل من الفريقين صاحبه.
وبلغني أن الإمبراطور قال للأمير فخر الدين بن الشيخ "لولا أني أخاف انكسار جاهي عند الفرنج، لما كلفت السلطان ذلك، ومالي غرض في القدس ولا غيره، وانما قصدت حفظ ناموسي عندهم. ولما وقعت الهدنه، بعث السلطان من نادى في القدس بخروج المسلمين منه وتسليمه إلى الفرنج. فخرج المسلمون، ووقع فيهم الضجيج والبكا والعويل، وعظم ذلك على المسلمين وحزنوا على خروج القدس من أيديهم، وأنكروا على الملك الكامل هذا الفعل واستشنعوه منه إذ كان هذا البلد الشريف (واستعادته) من الكفار من أعظم مآثر عمه السلطان الملك الناصر صلاح الدين، قدس الله روحه. لكن علم السلطان الملك الكامل، رحمه الله، أن الفرنج لا يمكنهم الامتناع بالقدس مع خراب أسواره، وأنه إذا قضى غرضه واستتبت الأمور له، كان متمكنا من تطهيره من الفرنج واخراجهم منه. وقال "إنا لم نسمح لهم إلا بكنايس ودار خراب، والحرم وما فيه من الصخرة المعظمة وساير المزارات، والذي هو المقصود، بأيدي المسلمين على حاله، وشعار المسلمين والاسلام قايما على ما كان عليه، ووالي المسلمين متحكم في أعماله ورساتيقه[2]".
ولما تم ذلك، استأذن الملك الإمبراطور في زيارة القدس، فأذن له. وتقدم السلطان إلى القاضي شمس الدين، قاضي نابلس، رحمه الله، وكان جليلا في

---

(1) عشر سنوات وخمسة اشهر واربعون يوما بدءاً من أول 24/626 شباط/فبراير 1229 (مقريزي 230).
(2) ارياقه

الدوله متقدما عند ملوك بني أيوب، أن يلازم خدمة الإمبراطور ملك الفرنج إلى أن يزور القدس ويرجع إلى عكا. قال القاضي جمال الدين بن واصل: صاحب التاريخ حكي لي القاضي شمس الدين، رحمه الله، قال "لما قدم الإمبراطور ملك الفرنج إلى القدس، لازمته كما أمرني السلطان الملك الكامل، ودخلت معه إلى الحرم الشريف وما فيه من المزارات، ثم دخلت معه إلى المسجد الأقصى، فأعجبه عمارته وعماره قبة الصخره المقدسة. ولما وصل إلى المحراب أعجبه حسنه وحسن المنبر، وصعد في درجه إلى أعلاه، ثم نزل وأخذ بيدي، وخرجنا إلى الأقصى، فوجد رجلا قسيسا وبيده الإنجيل يريد دخول الأقصى، فصاح عليه الملك الامبراطور صيحة منكره، وقال له: "مالذي أتى بك إلى هاهنا؟ والله لئن عاد واحد منكم يدخل هاهنا بغير إذن، لأخذن ما في عيناه. نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده، وعندما تصدق علي وعليكم لهذه الكنايس على سبيل الأنعام منه، ولا يتعدى أحد منكم على طوره."[1]. فمضى القسيس وهو يرتعد خيفة منه. ومضى الإمبراطور ملك الفرنج إلى الدار التي عين له نزوله فيها، فنزل بها. قال القاضي شمس الدين فأوصيت المؤذنين أنهم لا يؤذنون تلك الليلة احتراما للملك. فلما أصبحنا ودخلت عليه، قال: "يا قاضي لم لم تؤذن المؤذنون على المنابر على جاري عادتهم؟" فقلت لهم (له): "أن المملوك منعهم من تلك إعظاما للملك واحتراما له" فقال: "أخطأت فيما فعلت، والله أنه كان اكبر غرضي في المبيت في القدس أن أسمع أذان المؤذنين وتسبيحهم بالليل". ثم رحل بعد ذلك إلى عكا.

ولما ورد الخبر إلى دمشق بتسليم القدس إلى الفرنج، أخذ الملك الناصر في التشنيع على عمه الملك الكامل لينفر الرعية منه. وتقدم إلى الشيخ شمس الدين يوسف سبط الشيخ جمال الدين بن الجوزي الواعظ، وكان له قبول عظيم عند الناس في باب الوعاظ، أن يجلس في جامع دمشق للوعظ ويذكر فضايل القدس وما ورد فيه من الأخبار والآثار، وأن يحزن الناس عليه، ويذكر ما في تسليمه إلى الكفار من الصغار للمسلمين والذل، وقصد بذلك الملك الناصرداود تنفير

---

(1) ترجمها غابرييلي (يخرج عن حدوده).

الناس عن عمه الملك الكامل ليناصحوه في قتل له[1]. فجلس شمس الدين للوعظ ما أمره، وحضر الناس لإستماع وعظه[2]، وكان يوما مشهودا، فعلى يومئذ ضجيج الناس وبكاؤهم وعويلهم. وحضرت أنا هذا المجلس، ومما سمعته، يورد ذلك قصيده عملها نائبه، ضمنها بيتا من شعر دعبل الخزاعي الشاعر[3]. ومما علق منها بحفظي:

على قبة المعراج والصخرة التي تفاخر ما في الأرض من صخرات

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات

قال "فلم يرى في ذلك اليوم إلا باك وباكية". ولما تقررت قواعد الهدنه بين السلطان والملك الكامل والملك الإمبراطور، أقلع الإمبراطور إلى بلاده راجعا[4].

أسف المسلمين في دمشق

فيديريك في القدس

(سبط ابن الجوزي، 432- 434)

ووصلت الأخبار بتسليم القدس إلى الفرنج، فقامت القيامة في جميع بلاد الإسلام، واشتدت العظايم بحيث أنه أقيمت المآتم. وأشار الملك الناصر داود بأن أجلس بجامع دمشق وأذكر ما جرى على بيت المقدس، فما أمكنني مخالفته، ورأيت من جملة الديانة الحمية للإسلام موافقه. فجلست بجامع دمشق وحضر الناصر داود على باب مشهد علي، وكان يوماً مشهوداً، لم يتخلف من أهل دمشق أحد. وكان من جملة الكلام "انقطعت من البيت المقدس وفود الزائرين، يا

---

(1) رأينا الصدام بين الكامل والمعظم صاحب دمشق مما فسح المجال امام التقارب مع فيديريك، ونرى هنا ان الناصر الذي خلف ابيه على دمشق يحاول ان يستغل الانطباع بتسليم القدس. من اجل تدعيم ملكه المهتز.

(2) يحدثنا بهذا ابن الجوزي في صفحات من تاريخه قدمناها بعد قليل.

(3) شاعر من زمن هرون الرشيد (القرن الثامن-التاسع)، وقد قام الواعظ باستبدال بعض كلمات القصيدة ليطبقها على وضع القدس التي لم تعد مسلمة.

(4) يحدد مقريزي هذا في اواخر جمادى الثاني (ايار/مايو 1229)

وحشة المجاورين، كم كان لهم في تلك الأماكن من ركعة، كم جرت لهم على تلك المساكن من دمعة، تالله لو صارت عيونهم عيونا لما وفت، ولو تقطعت قلوبهم أسفا لما شفت. أحسن الله عز المؤمنين، يا خجلة ملوك المسلمين، لمثل هذه الحادثة تسكب العبرات، لمثلها تتقطع القلوب من الزفرات، لمثلها تنظم الحسرات...' وذكر كلام طويل، وأكثر الشعراء في حديث القدس...

... ودخل الأبرور (الإمبراطور) إلى القدس والحصار على دمشق[1]. وجرى له عجايب، منها أنه لما دخل الصخرة رأى قسيس قاعدا عند القوم يأخذ من الفرنج القراطيس[2]، فجاء إليه كأنه يطلب منه الدعاء، ولكمه فرماه إلى الأرض وقال يا خنزير، السلطان قد تصدق علينا بزيارة هذا المكان، تفعلون فيه هذه الأفاعيل! لأن عاد واحد منكم، دخل على هذا الوجه لأقتلنه. وحكى صورة الحال قُوامُ الصخرة، قالوا: 'ونظر إلى الكتابة التي في القبّة "وقد طهر هذا البيت المقدس صلاح الدين من المشركين'، فقال: 'ومن هم المشركين (من هم هؤلاء المشركون)؟"، وقال للقوام: "هذه الشباك التي على أبواب الصخرة، من أجل ليش؟' قالوا: 'لئلا تدخلها العصافير'، فقال: 'قد أتى الله إليكم بالجبارين[3]'، قالوا: 'ولما دخل وقت الظهر وأذن المؤذن قام جميع من كان معه من الفراشين والغلمان، ومعلمه، وكان من صقلية يقرأ عليه المنطق فصولا، فصلّوا وكانوا مسلمين. قالوا: 'وكان الإمبراطور أسقر، معط[4]، في عينيه ضعف، لو كان عبدا ما ساوى مابتي درهم'. قالوا: "والظاهر من كلامه، أنه كان هديا (ماديا)، وإنما كان يتلاعب بالنصرانية". قالوا: 'وكان الكامل قد تقدم إلى القاضي شمس الدين

---

(1) من قبل الكامل والأشرف ضد ابن أخيهما الناصر

(2) لايتسنى هنا معرفة ماهية تلك القراطيس التي كان بحسب هذه الرواية يأخذها ذلك الخوري الافرنجي. (ولايمكننا الظن بأنها كانت دراهم ورقية). وقد رأينا أن رواية ابن واصل تقول إن الخوري هو الذي كان يحمل الانجيل. أما (المستشرق) ميكيلي أماري فيظن أن بعض العبارات سقطت من النص.

(3) يفسر غابرييلي معاني "الجبار" بالعربية ويقول إن أماري يظن أن الامبراطور قال "خنازير" وذلك على سبيل النكتة وفي سجع مع "عصافير"، ويبدو أنه قالها بالعربية مما يشهد بمعرفته بها حتى باعتراف المصادر الشرقية.

(4) يقول غابرييلي "أحمر الوبر وأصلع".

قاضي نابلس، أن يأمر المؤذنين "ما دام الإمبراطور في القدس لا تصعدوا المنابر ولا تؤذنوا في الحرم". فأنسي القاضي أن يعلم المؤذنين، وصعد عبد الكريم المؤذن في تلك الليلة في وقت السحر، والإمبراطور نازل في دار القاضي، فجعل يقرأ الآيات التي تختص بالنصارى مثل قوله تعالى: [ما اتخذ الله من ولد][1]، ذلك عيسى بن مريم، ونحو هذا. فلما طلع الفجر استدعى القاضي عبد الكريم وقال له: "إيش عملت؟ السلطان رسم كذا"، وقال: "فما عرفتني، والتوبة". فلما كانت الليلة الثانية ما صعد عبد الكريم المأذنه، فلما طلع الفجر استدعى الإمبراطور القاضي وكان قد دخل القدس في خدمته، وهو الذي سلم إليه القدس، فقال له: "يا قاضي أين ذاك الرجل الذي طلع البارحة المنارة وذكر ذاك الكلام؟" فعرفه أن السلطان أوصاه، فقال الإمبراطور: "لا أخطأتم يا قاضي، تغيرون أنتم شعاركم وشرعكم ودينكم لأجلي. فلو كنتم عندي في بلادي، هل كنت أبطل ضرب النواقيس لأجلكم؟ الله الله لا تفعلوا، هذا أول ما تتقضون عندنا." ثم فرق في القوام والمؤذنين والمجاورين جملة أعطى كل واحد عشرة دنانير، ولم يقم بالقدس سوى ليلتين، وعاد إلى يافا، وخاف من الدونة[2] فإنهم طلبوا قتله.

العلاقات الأيوبية – السوابيّة وأواخر السوابيين[3]

(ابن واصل 121R - 123R)

واستمر (الإمبراطور) مصافيا للملك الكامل موادا له، والمراسله بينهما متصله إلى أن توفي الملك الكامل –رحمه الله– وولي بعده ولده الملك العادل سيف الدين أبو بكر[4]. فصافا الإمبراطور الملك العادل ووادده وراسله، ولما قبض

(1) قرآن (كريم) الآية 91 من السورة 13 (المؤمنون)

(2) تقرأ "الداوية" أو "الدونة" بحسب المخطوطة، اشارة إلى المؤامرات المسيحية ضد فيدريك، راجع أماري في "تاريخ المسلمين في صقلية" الطبعة الثانية الجزء 3 ص 660

(3) نسبة الى (بمختلف اللغات اللاتينية): Svevia-– Swabia- Schwaben- Souabe -Suebia [المترجم]

(4) بين 1238 و 1240

(مات) على الملك العادل، وملك السلطان أخوه الصالح نجم الدين أيوب[1]، استمر معه الأمر كذلك. وأرسل إليه الملك الصالح الشيخ العلامه سراج الدين الأرموي الذي هو قاضي بلاد الروم اليوم، فأقام الشيخ سراج الدين عند الإمبراطور ملك الروم مكرما مده، وصنف له كتابا في المنطق. وأحسن الإمبراطور إليه إحسانا كثيرا. وعاد سراج الدين إلى الملك الصالح مكرما. ولما قصد ريدافرنس (ملك فرنسا) الإفرنجي، وهو من أكبر ملوك الإفرنج، الديار المصرية سنة سبع وأربعين وستماية (1249) بعث إليه الامبراطور ينهاه عن ذلك ويخوفه ويحذره عاقبة ذلك، فلم يقبل منه. قال فحكى سر بر[2] وهو مهمندار منفريد بن الإمبراطور، قال أرسلني الملك الإمبراطور في السر إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب لأعرفه على عزم ريدافرنس على قصد الديار المصرية، وأحذره منه وأشير عليه بالاستعداد له. فاستعد له الملك الصالح، ورجعت إلى الإمبراطور، وكان ذهابي إلى مصر ورجوعي في زي تاجر. ولم يشعر أحد باجتماعي بالسلطان، خوفا من الفرنج أن يعلموا ممالاة الملك الإمبراطور للمسلمين. ولما مات الملك الصالح وجرى لريدافرنس ما جرى من هلاك عسكره واستئصالهم قتلا وأسرا، وأسر الملك المعظم توران شاه له، ثم خلاصه من الأسر بعد قتل الملك المعظم ورجوعه إلى بلاده[3]، بعث الملك الإمبراطور إليه يذكره نصحته إليه وما جرى عليه لحاجه ومخالفته، ويعنفه على ذلك تعنيفا شديدا. وتوفي الملك الإمبراطور سنه ثمان وأربعين وستمايه (1250) بعد موت الملك الصالح أيوب بسنة. وولي بعده ولده، كذا ثم مات كذا، وولي أخوه منفريدا، وهؤلاء كلهم كانوا ممقوتين عند البابا، خليفة الفرنج، لميلهم إلى المسلمين. وجرى بين منفريد وبين البابا، خليفه الفرنج، حربا انتصر فيها الإمبراطور على البابا.

---

(1) بين 1240 و1249.

(2) المهمندار هو مدير المراسم المختص بالعلاقة مع السفراء وكبار الضيوف في قصر مانفريد. أما عن اسمه فلم يصلنا إلا سر بر، فافترضت مجموعة المطبعة أنه كان Sir Berto.

(3) حملة سان لويس على مصر وسيأتي ذكرها.

قال القاضي جمال الدين قاضي قضاه حماه المحروسه، صاحب هذا التاريخ، توجهت رسولا إلى منفريدا من السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، رحمه الله، في شهر رمضان سنه تسع وخمسين وستمايه (آب/اوغست – 1261) فأقمت عنده مكرما بمدينة من مدائن ابوليه في البر الطويل (ايطاليا) المتصل ببر الأندلس[1] يقال لها برلت، واجتمعت به مرارا فوجدته متميزا محبا للعلوم العقليه، يحفظ عشر مقالات من كتاب اقليدس في الهندسة. وبالقرب من البلد التي كنت نازلا مدينه تسمى لوجاده[2]، أهلها كلهم مسلمون من أهالي جزيرة صقليه، وتقام الجمعة فيها وتعلن فيها بشعائر الإسلام، وهي على هذه الصفة من عهد أبيه الإمبراطور. وكان قد شرع في بناء دار علم بها ليشتغل فيها بجميع أنواع العلوم النظرية[3]، وأكثر أصحابه الذين يتولون أمور الخاصه مسلمون، ويعلن في معسكره بالأذان والصلاة. ولما رجعنا من تلك البلاد جاءت الأخبار بأنه اتفق على قصده البابا، صاحب رومية الكبرى، وبينها وبين البلد الذي كنا فيه خمسة أيام، واخو ريدافرنس، الذي تقدم ذكره[4]. وذلك أن البابا كان قد حرم منفريدا لميله إلى المسلمين وخرقه ناموس شرعهم، وكذلك أن كذا أخوه وأبوهما الإمبراطور محرمين من جهة البابا برومية. والبابا بروميه يقولون أنه خليفة المسيح عليه السلام، عندهم والقايم بمقامه، إليه التحريم والتحليل والقطع والفصل وهو الذي يلبس الملوك تاج الملك ويقيمهم، ولا يتم لهم أمرا في شريعتهم إلا به، ويكون راهبا، وإذا مات قام مقامه من هو أيضا متصف بصفه الرهبانية.

ولقد حكي لي وأنا ببلادهم حكاية عجيبة، أن مرتبة الإمبراطورية كانت قبل الإمبراطور فردريك، الذي تقدم ذكره، لأبيه قبله، وانه لما مات، كان ابنه فردريك

---

(1) من ينظر في خريطة الادريسي فلن يدهش من قرب ايطاليا من اسبانيا بحسب المعارف الجغرافية لدى الشرقيين آنذاك.

(2) Lucera بحسب غابرييلي

(3) هذه معلومة ثمينة حول الحياة الثقافية لمجموعة المسلمين في مدينة لوجادة (لوشيرا) ولم يكن هذا معروفاً. ويبدو واضحاً أن مؤسس "دار العلم" المؤسسة العلمية المذكورة لاحقاً إنما هو مانفريدي، كما أن "كان قد شرع" هي اشارة للأب.

(4) 'Carlo d'Anglo' أخو الملك لويس التاسع

شابا في أول ترعرعه، وأنه طمع في هذه المرتبة جماعة من ملوك الفرنج، وكل منهم رجا أن يفوضها إليه بابا رومية. وكان فردريك ماكرا خبيثا، وهو من الألمانيه، جنيَ من أجنان الفرنج، فاجتمع بكل واحد من الملوك الذين طمعوا في مرتبة الإمبراطورية على انفراد وقال له: "أني لا أريد هذه المرتبة فإني لا أصلح لها، فإذا اجتمعنا عند الملك فقل له أنت أني قد قلدت فردريك هذا الأمر، ورضيت بما يرضى به قائد ابن الإمبراطور الماضي، فأنا لا أختار من كل أحد إلا أنت، وقصدي الانتمان بك والاعتضاد بك". قال فردريك هذا القول لكل واحد منهم على انفراد، فكل منهم وثق إليه واعتقد صدقه فيما قال. فلما اجتمعوا عند البابا بمدينته رومية الكبرى، ومعهم فردريك، وكان قد تقدم إلى جمع كثير من الالمانية الشجعان بأن يكونوا راكبين خيولهم قريبا من الكنيسة العظمى التي برومية، التي فيها المجمع المذكور. فلما اجتمع الملوك قال البابا "ما ترون في أمر هذه المرتبة، ومن هو الأحق بها؟" ووضع تاج الملك بين أيديهم، فكل منهم قال "حكمت فردريك في ذلك، وما يشير به فهو الذي اقبله وأشير به، فإنه ولد الملك الإمبراطور وأحق الجماعة أن يسمع قوله في ذلك"، فقام فردريك، وقال: "أنا ابن الإمبراطور وأنا أحق بمرتبته وتاجه، والجماعة كلهم قد رضوا بي واختاروني"، والبابا لا يختار إلا ما تختار الجماعة ويتفقون عليه، ووضع التاج على رأسه، فابلسوا كلهم، وخرج مسرعا والتاج على رأسه، وركب، وركبت الجماعة معه الألمانية الذين تقدم إليهم بأن يقفوا قرب الكنيسة، وسار بهم على حمية إلى بلادهم. ثم بعد ذلك صدرت منه أمور توجب عندهم تحريمه، فحرموه.

قال وبلغني أنه كان الإمبراطور بعكا، قال للأمير فخر الدين بن الشيخ، رحمه الله، "أخبرني عن هذا الخليفة الذي لكم". فقال فخر الدين: "هو ابن عم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم[1]، أخذ الخلافة عن أبيه، وأخذها أبوه عن أبيه، فالخلافة مستمرة في بيت النبوة لا تخرج عنهم"، فقال الإمبراطور "ما أحسن هذا لكن هؤلاء القليلون العقول – يعني الفرنج – يأخذون رجلا من المزبلة ليس بينه

(1) إشارة إلى خلفاء العباسيين من سلالة عباس عم محمد (صلى الله عليه وسلم).

وبين المسيح نسب ولا سبب، جاهلا (عادما)، يجعلونه خليفة عليهم قائما مقام المسيح فيهم، وهو لا يستحق هذه المرتبة، وأنتم خليفتكم ابن عم نبيكم، فهو أحق الناس بمرتبته"[1].

ولما قصد الباب واخو ريدافرنس بن الإمبراطور منفريد ابن الإمبراطور، قاتلاه وهزما عسكره وقبضا عليه، فتقدم البابا بذبحه فذبح، وملك أخوه البلاد[2] التي كانت بيد الإمبراطور واستولى عليها، وكان هذا سنة ثلاث وستين وستمايه (1265)، في غالب ظني.

رسالتا فردريك العربيتان

(تاريخ المنصوري 24-37)

سنة 627 (1229)... وفيها وصل بحران[3] رسول الإمبراطور إلى الكامل، وعلى يده كتب إلى فخر الدين بن شيخ الشيوخ[4] بما نسخه: بسم الله الرحمن الرحيم، عنوانه ترجمته

" قيصر المعظم، إمبراطور رومية فردريك بن الإمبراطور هريك بن الإمبراطور فردريك المنصور بالله، المقتدر بقدرته المستعلي بعزته، مالك ألمانية ولمبردية وتسقانه وايطاليا وأنكبردة وقلورية وصقلية ومملكة الشام القدسية، معز إمام رومية[5]، الناصر للملة المسيحية.

بسم الله الرحمن الرحيم

(شعر)

---

(1) يتضح من هذه المقاطع وغيرها انه كانت تسرد آراء تقارن بين الخليفة والبابا، ذلك رغم الاختلاف العميق الواضح بين هذين المنصبين من النواحي الدينية والقانونية.

(2) "وملك أخوه البلاد" سهو في "النص والصحيح: وملك أخو ملك فرنسا البلاد، أي Carlo d'Angio" وهذا مايوضحه حتى ابو الفدا الذي نسخ عن ابن واصل.

(3) حران في مابين النهرين كانت تابعة لسيادة الايوبيين

(4) وقد رأينا انه مفوض الكامل ودليل/مستشار الامبراطور في الاراضي المقدسة

(5) من مهازل البروتوكول

رحلنــا وخلفنـــا القلـــوب مقيمـــة   تخلـت عـن الأجسـام والجـنس والنـوع

وأنــت علـــى ألا يخـــلّ بـــودكم   ملاذ الدهر وانسلت تنكب عن طوعي[1]

لو ذهبنا إلى وصف بما نجد من عظم الشوق، ونكابده من اليم الاستيحاش والتوق، إلى المجلس السامي الفخري (فخر الدين)، لازم الله أيامه، ومدد أعوامه، وثبت في الرياسة أقدامه، وحرس مودته وأكرمه، وأجرى على سبيل المجاج (النجاح؟) مرامه، وسدد عهده وكلامه، وأجزل من النعم أقسامه وجدد مع الجديدين سلامه، الزمنا في الخطاب شططا، وحدنا عن الصواب غلطا. إذا منينا بروعة استيحاش بعد سكون وايناس، ولوعة فراق في أثر غبطة واشتياق، فرأينا السلو ممتنعا، وحبل التجلد منقطعا، ومأمول التماثل قد عاد جرعا، وشمل الاصطبار منصدعا، إذا رحلت[2].

وقد كنت لو خيرت بين فراقكم وبين حمامي، فليت يدركني نجي

وثماً له، أكرمه الله ملك، واعتاض بغيرنا واختار فراقنا، وتناسا ودادنا،

فعزينا أنفسنا بقول أبي الطيب[3]:

إذا ترحلـت عـن قـوم وقـد قـدروا   إن لا تفـــارقهم فـــالراحلون هـــم

وبعد، فعلمنا أنه محب لسماع السار من أنبائنا وأخبارنا، والحميد من آثارنا، فنشعر: حسب ما شرحناه (؟) بصيداء، أن البابا باء بالغدر والخديعه (؟)، أخذ إحدى قلاعنا المنيعة، تسمى منت قسين[4]، أسلمها له أباطها اللعين، وعد للأزام المزيد، فلم يمكنه لانتظار أهل طاعتنا لرجوعنا السعيد، فاضطر إلى أن زعم أننا متنا، وحلف القرندالية على ذلك وعلى أن رجوعنا مستحيل، وراوضوا خداع العامه

---

(1) تتعاقب في هذا القسم الاول ابيات الشعر والنثر المسجوع وتعبر، باسلوب الغمز التصويري المعروف في البلاغة العربية، عن الاسى على بعد الصديق. لكن النص غير موثوق على الاطلاق.

(2) طبع آماري السطور التالية على انها نثر، لكننا نرى صيغة شعرية في هذا النص المتالف وخاصة في سطره الاول.

(3) المتنبي الشاعر العظيم من القرن العاشر

(4) Montecassino

بمثل هذه الأباطيل، وأنه ليس أحد بعدنا يحسن حواية بلادنا وحفظها برسم ولدنا مثل البابا، فلايمان هؤلاء الذين هم أيمة الدين وخلفاء الواريين، انخدعت جماعة من الطغم والمفسدين، فعند وصولنا إلى ميناء متدريس المصونة، ألفينا الملك جوان واللمبرديين، في الدخول في ملكنا معاندين[1] (ولما) وقع خبر ورودنا متشككين، لما قرره القرندالية عندهم باليمن، وكتبنا ورسلنا بوصولنا سالمين، واهتل أعداءنا الجزع وحل بهم الروع والنزع، ونكصوا إلى ورائهم خاسرين مسافة يوم (يومين)، وارتد أهل طاعتنا طائين(طائعين) وذلك اللمبرديين، الذين كانوا معظم عسكرهم لم يرضوا لأنفسهم أن يوجدوا على سيدهم مخالفين منافقين، وانصرفوا على أدبارهم أجمعين.

وأما الملك المذكور وأصحابه، فأحاط بهم الحياء والخوف، واجتمعوا إلى موضع ضيق يخافون التصرف عنه والخروج منه، بل لا يقدرون على ذلك، لأن البلاد بأسرها قد عادت إلى طاعتنا، ونحن في خلال ذلك قد جمعنا عسكرا مديدا من الألمانيه، الذين كانوا معنا في الشام والذين انصرفوا قبلهم ورمتهم الريح إلى بلادنا، وغيرهم من أمنائنا ورؤساء دولتنا. واستقللنا نجد السير إلى بلاد أعدائنا. وبعد، فمما نوثر من المجلس، مواصلة كتبه، متضمنة شرح سعيد أحواله ومهماته وحاجاته، وأن يقرئ سلامنا على جميع أكابر العسكر وغلمانه ومملوكيه ودخلته، والسلام عليه ورحمة الله وبركته. كتب ببرلت المصونه بتاريخ الثالث والعشرين من شهر أوسو للاندقس (الاندقتس) الثاني (22 آب/اغسطس 1229).

وهذا نسخة الكتاب الثاني، الترجمة كالأول، فيه من الأخبار بما نشعر به...

أنا قد جمعنا عسكرا كثيرا، وأنا نجد بالسير إلى قتال من هم بانتظارنا ولم يهرب أمام وجهتنا، والآن قد حدث من الأمر حسب حدسنا، وذلك أنهم قد

---

(1) . يتحدث عن جيش البابا جورج التاسع او الكتائب المسلحة من حملة شارة المفاتيح البابوية التي غزت سنة 1226 بقيادة ملك القدس السابق Giovanni di Brienne مملكة بوليا وصقلية واقتحمتها خلال تغيب فيديريك الثاني عنها لوجوده في الحملة الصليبية. وقد هزم الامبراطور هذا الجيش وألزم البابا بالاستسلام عام 1230. (المترجم عن موسوعة تريكاني Treccani).

حاصروا قلعة من قلاعنا[1]، ونصبوا عليها المنجنيقات وما شابهها من الدبابات والآلات فلما أحسوا بإقبالنا مع بعد المسافة بينهم، لم يتمهلوا إلى (..) بل أحرقوا ما عملوه من سائر آلاتهم، وانهزموا هاربين أمامنا، ونحن نجد السير في طلبهم وتفريق شملهم وتبديد جمعهم، وطلب البابا حشر (حشرا؟) ورده خاشيا(خاسيا؟) على قفاه، نادما على ما نواه. وما نجده من الأخبار، فنحن نكاتب المجلس إن شاء الله.

الغرض من اثبات هذه الكتب، تحقيق ممالك عمها الملك الإمبراطور، وقدرته. فما ملك من النصرانية مثله، من زمن الاسكندر وإلى الآن. لا سيما قدرته وإنهاله لخليفتهم البابا، وقصده له واطراحه إياه.

(1) يبدو أنها Caiazzo، وحدث عسكري جرى في ايلول/سبتمبر 1229.

- 3 -

كانت آخر الحملات الصليبية الحملة المصرية التي قادها لويس التاسع الذي عاد ليقارع بالسلاح تلك الأمكنة التي استعصت قبل ثلاثين سنة على المبعوث البابوي بيلاجو وجون دي بريين. أهم مؤرخي هذه الحملة المصرية الثانية من العرب كانا ابن واصل ومقرزي، فالأول عاصر الحملة وكان شاهد عيان على الوقائع المروية، أما الثاني فكان متأخراً وقام كالعادة بالتصنيف عن مصادر سابقة، وقد تابع عن قرب رواية ابن واصل ثم أغناها ونوّعها بتفاصيل مختلفة استقاها من مصدر مختلف أو من مصدر مشترك مجهول. نستقي هنا الأحداث المأساوية التي صاحبت الحملة الصليبية من ابن واصل، بينما نقدم عن مقرزي بعض الوثائق والتعليقات الإسلامية على مغامرة ملك فرنسا ثم نختتم بإشارة إلى حملته التونسية التي قادها بعد عشرين سنة وفارق خلالها الحياة.

حملة سان لويس

وصول الفرنج إلى الديار المصرية

وتملكهم ثغر دمياط

(ابن واصل 356R – 357R)

... ولما كانت ثاني ساعة من نهار يوم الخميس لتسع بقين (عشرين) صفر من هذه السنة، وهي سنة سبع وأربعين وستماية (5 حزيران/يونية 1249) وصلت مراكب الفرنج، وفيها جموعهم العظيمة، وقد انضمت إليهم افرنج الساحل جميعها، فأرسلوا في البحر إبّان المسلمين. وفي هذا اليوم وهو يوم السبت شرعوا في النزول إلى البحر الذي فيه المسلمون، وضربت خيمة الملك أريدافرنس وكانت

حمرا. وناوشوهم بعض المسلمين بعض المناوشة فاستشهد في ذلك اليوم الأمير نجم الدين بن شيخ الإسلام، رحمه الله، وقد قدمنا ذكره، وأنه كان هو وأخوه شهاب الدين يوانسان - يونسان - الملك الصالح وهو بالكرك، بأمر الملك الناصر داود لهما بذلك، وكان رجلاً صالحاً. واستشهد أيضاً من أمراء مصر أمير يقال له الوزيري، فلما أمس المسلمون رحل بهم الأمير. فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ[1]، وقطع بهم الجسر إلى الجانب الشرقي الذي فيه دمياط، وخلا البر الغربي للفرنج، ولما عدًا فخر الدين يوسف بن الشيخ، وحصل عند العسكر طمع بسبب مرض السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب؛ فلم يكن لهم من يردهم ولا يردعهم، فرحل فخر الدين يوسف بن الشيخ، إلى جهة أشمون طناح، والعسكر إلى البر الشرقي. وخلا البر الشرقي من عساكر المسلمين.

وخاف أهل دمياط على أنفسهم أن يحصروا. وكان فيها جماعة من الكنانية شجعان، فألقى الله سبحانه وتعالى الرعب في قلوبهم؛ فخرجوا هم وأهل دمياط على وجوههم طول الليل، ولم يبق بدمياط أحد بل تركوها صفرا من الرجال والنساء والصبيان. ورحلوا في الليل مع العسكر هاربين إلى أشمون صناح، وكان هذا فعلا قبيحا منهم ومن فخر الدين والعساكر. فإن فخر الدين يوسف، لو منع العسكر من التهرب وأقام لا متنعت دمياط. فإن دمياط في الكرة الأولى لما نازلها الفرنج أيام الملك الكامل، كانت أقل دخاير وعدد، ولم يقدر الفرنج عليها إلا بعد سنة، فلما نوزلت سنة خمسة عشر وستماية (1218) وأخذت سنة ستة عشر وستماية (1219) ولم يتمكن العدو منها إلا بعد أن فنى أهلها بالوباء والجوع. والكنانية وأهل دمياط، لو غلقوا أبوابها وتحصنوا بها بعد رجوع العسكر إلى أشمون طناح، لما قدر الفرنج عليهم، وكانت العساكر ردت إليهم ومنعت عنهم، والأقوات والآلات والعدد كانت عندهم في غاية الكثر. فكانوا قدروا على حفظها سنتين أو أكثر من ذلك، ولكن إذا أراد الله أمراً فلا مرد له. ولكن أهل دمياط كانوا معذورين لأنهم لما رأوا هرب العساكر وعلموا مرض السلطان، خافوا أن يستمر

(1) هو نفسه الذي رأيناه قبل عشرين سنة يسير المفاوضات مع فيدريك وقد وضعه الآن الايوبي الملك الصالح المريض في قيادة الدفاع المصري.

عليهم الحصار مدة طويلة فيهلكوا جوعاً، كما هلك أهل دمياط في المرة الأولى.

قال: ولما أصبح الصباح يوم الأحد لسبع بقين (23) من صفر جاء الفرنج إلى دمياط فوجدوها صفواً من الناس، وأبوابها مفتحة، فملكوا صفواً وعضواً، واحتووا على ما كان فيها من العدد والأسلحة والذخاير والأقوات والمناجيق... وكانت هذه مصيبة عظيمة لم يجر مثلها. قال صاحب التاريخ: ووردت يوم الأحد إلى الأمير حسام الدين محمد بن أبي علي الهذباني، وأنا عنده، بطاقة بذلك، فاشتد الجوع والخوف، ووقع اليأس بالديار المصرية بالكلية، لا سيما والسلطان مريض، وقد ضعفت قواه عن الحركة، وليس قد بقا له قدرة على ضبط جنده، وقد اشتد طمعهم فيه. ولما وصلت العساكر وأهل دمياط إلى السلطان، حنق على الكنانيين حنقاً شديداً، وأمر بشنقهم، فشنقوا جميعاً، وتألم مما فعله فخر الدين والعسكر، لكن الوقت كان لا يحتمل إلا الصبر والإعفا عما فعلوه.

رحيل السلطان الملك الصالح إلى المنصورة ونزولهم بها

(ابن واصل ٧-٣ 357)

ولما جرى ما ذكرناه، رحل السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بالعساكر إلى المنصورة فنزل بها، وهي المنزلة التي كان أبوه الملك الكامل نزلها نوبة دمياط الأولة، وهي شرقي النيل في قبالة جرجر، وبينها وبين الجزيرة التي هي برّ دمياط[1] بحر أشمون طناح، وكنا ذكرنا أن الملك الصالح نجم الدين أيوب كان أمر ببناء الأبنية فيها وجعل بينها وبين البحر سوراً ولأبيه الملك الكامل فيها قصراً عالي على بحر النيل، فنزله الملك الصالح وضرب دبليزه إلى جانبه.

وكان استقرار السلطان بالمنصورة يوم الثلاثاء خمس بقين (25) من صفر، وشرعت العساكر في تجديد الأبنية وقامت بها الأسواق وأصلح السور الذي على

(1) هي قطعة برية طويلة بين النيل وبحيرة منزلة على طرف دمياط.

البحر وستر بالستاير، وجاءت الشواني والحراريق وفيها العدد الكاملة والمقاتلة، فأرسلوا قدام السور. وجاء إلى المنصور من الرجالة والحرافشة والغزاة المطوعة من ساير النواحي خلق كثير لا يقع عليهم الإحصاء، وورد من العربان أمم كثيرة وشرعوا في الإغارة على الفرنج ومناوشتهم، وحصّن الفرنج أسوار دمياط وشحنوها بالمقاتلة. وفي يوم الاثنين سلخ (آخر) ربيع الأول ورد إلى القاهرة من أساري الفرنج الذين قطفتهم العربان وغيرهم ستة وأربعون أسيرا منهم فارسان. وفي يوم السبت لخمس مضين(خمسة) من ربيع الآخر وصل أيضاً منهم تسع وثلثون أسيراً أسرتهم العرب والخوارزمية، ثم دخل منهم إلى القاهرة أيضاً اثنان وعشرون أسيراً أخذوا من غزة، وكان دخولهم لسبع مضين (سبعة) من ربيع الآخر وفي يوم الأربعاء لأربع عشر ليلة بقيت من ربيع الأول (15) وصل أيضاً منهم خمسة وثلثون أسيراً، منهم ثلثه من الخيالة. وورد يوم الجمعة لخمس بقين (24) من ربيع الآخر، بأن عسكر السلطان الملك الصالح بدمشق خرجوا إلى صيدا وتسلموها من الفرنج، ثم كان بعد كل قليل يصل من الفرنج أسارى، جمع بعد جمع، ووصل منهم لاثني عشر ليلة بقيت من جمادى الأول (30 آب) خمسين أسيراً، وهذا يجري والسلطان الملك الصالح يتزايد مرضه وقواه يضعف ويتلاشى، والاطباء ملازمون له ليلاً ونهاراً، وقد وقع ياسهم من عافيته، ونفسه مع ذلك وعزيمته في غاية القوة، وتعاضد عليه مرضان عظيمان الخراجة في مخاصته والسّل.

تقدم الفرنج ونزولهم قبالة عسكر المسلمين

(ابن واصل 364r – 365r)

ولما تحقق الفرنج موت السلطان (15 شعبان 24/647 تشرين الثاني – نوفمبر 1249) الملك الصالح نجم الدين أيوب، رحلوا من دمياط بفارسهم وراجلهم، وشوانيهم في البحر تحاذيهم، فنزلوا على فارسكور، ثم تقدموا منها مرحلة، وذلك يوم الخميس لخمس بقين من شعبان (24) من هذه السنة، وفي عند هذا اليوم،

وهو يوم الجمعة ورد من الأمير فخر الدين يوسف كتاب يهدد الناس ويأمرهم بالجهاد، وفيه علامة تشبه علامة الملك الصالح[1] نجم الدين أيوب، ليظن الناس أنه كتابه، أوله: [انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون][2]. وهو كتاب بليغ، أظنه بإنشا بهاء الدين زهير[3]، وفيه مواعظ جميلة، تحريض على قتال الكفار، وأن الفرنج قد قصدوا الديار المصرية والبلاد الإسلامية بحدهم وحديدهم، وقد أطمعتهم أنفسهم بملك البلاد، وقد وجب على المسلمين كافة، النفر إليهم ودفعهم عن البلاد. فقرئ هذا الكتاب على الناس بالمنبر بالجامع بالصلاة بالقاهرة، فبكى الناس بكاء كثيراً، وانزعج الناس لذلك. وخرج من القاهرة ومصر وساير النواحي خلق عظيم. وعظم الخوف لموت السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب. وتمكن الفرنج بملك دمياط وكرهم، وتحققوا أنه إن انفع العسكر الذي بالمنصورة إلى ورايهم مرحلة واحدة، ملكت ديار مصر أجمعها في أسرع الأوقات.

ولما كان يوم الثلثا مستهل شهر رمضان (8 كانون أول/ديسمبر 1249) وقعت بين الفرنج والمسلمين وقعة عظيمة، استشهد فيها أمير مجلس المعروف بالعلائي وجماعة من الأجناد. ونزلت الفرنج بسرمساح (شرم شاه). وفي يوم الاثنين لسبع مضين من رمضان (7)، نزلت الفرنج البرمون، وكثر الاضطراب بسبب دنوا ملك الإفرنج من عساكر المسلمين. وفي يوم الأحد لثلث عشرة ليلة مضت من رمضان (13)، وصلت الفرنج إلى طرف جزيرة دمياط، وصاروا في مقابلة المسلمين ومعظم عسكر المسلمين في المنصورة، وهي في البر الشرقي، وجماعة من العسكر وأولاد الملك الناصر داود بن الملك المعظم[4]، وهم الملك

---

(1) حاولوا اذن اخفاء خبر وفاة السلطان ريثما يصل ابنه الملك المعظم ويتقلد العرش. وعلامة الملك هي توقيعه (او ختمه) على وثائق الدولة.

(2) قرآن (كريم) الاية 41 من السورة 9 (التوبة)

(3) شاعر ايوبي وكاتب (لدى السلطان)

(4) المعظم الذي عرفناه وهو اخو الكامل وابو الناصر داود (صاحب دمشق ثم الكرك) ويجب ان يعرف بانه ليس المعظم توارنشاه ابن الصالح الذي يخلف هنا اباه وهو اخر ايوبيي مصر. خاصة وأن ألقاب الأمراء الأيوبيين تختلط بسبب تشابه الأسماء.

الأمجد والملك الظاهر والملك المعظم والملك الأوحد، والأكابر فيهم في البر الغربي، وكانوا أولاد الملك الناصر الأكابر والأصاغر الذين قدموا القاهرة اثنتي عشر ولداً ذكراً، وكان بالبر أيضاً أخو الملك الناصر داود الملك القاهر، والملك المغيث. ولما نزلت الإفرنج بجموعهم في طرف الجزيرة التي فيها دمياط، وصاروا في مقابلة المسلمين، خندقوا عليهم خندقاً، وأداروا عليهم سوراً ستروه بالستاير، ونصبوا المناجيق يرمون بها المسلمين. ونزلت شوانيهم في بحر النيل، وشواني المسلمين بإزاء المنصورة، ونشب القتال بين الفريقين براً وبحراً.

مباغتة المسلمين في المنصورة، ومقتل الأمير فخر الدين يوسف ثم انتصار المسلمين بعد ذلك على الفرنج

(ابن واصل365v، 366v)

قد ذكرنا استقرار الفرنج في قبالة المسلمين، واتصال القتال بين الفريقين، وبينهما بحر أشمون، وهو بحر صغير وفيه مخابض رقاق. فدل بعض المسلمين الفرنج على مخاضة يسلمون. فركبت الفرنج وقصدوا المخاضة أبكرة الثلثا لخمس مضن من ذي القعدة (10 شباط/فبراير 1250). فلم يشعر المسلمون بهم إلا وقد خالطوا معسكرهم. وكان الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ يغتسل في الحمام، فأتاه الصريخ بأن الفرنج قد دهموا المعسكر، فركب دهشاً غير مستعد ولا متحفظ، فصادفوه جماعة من الفرنج[1] فقتلوه رحمه الله، وكان أميراً فاضلاً عالماً متأدباً جواداً سمحاً عالي الهمة كبير النفس، وما كان في أخوته مثله بلي ولا في غير أخوته، نال من الدنيا سعداً عظيماً ومكانة عالية، وانتهى إلى قريب رتبة الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكانت همته ترقا إلى الملك؛ وختم الله له بالشهادة[2]، رحمه الله ورضي عنه.

---

(1) تفصل رواية مقريزي اكثر وتقول انهم كانوا فرقة من الداوية (فرسان الهيكل)

(2) كان في الواقع الوصي على عرش مصر في الفترة بين موت الصالح وتتويج ابنه المعظم قبل ان يصل من سفره من مابين النهرين.

ودخل ملك الإفرنج ريدا فرنس المنصورة، ووصل إلى القصر الذي للسلطان، وتفرق الفرنج في أزقة المنصورة، وهرب كل من فيها من الجند والعامة والسوقة يميناً وشمالاً، وكادت ثقافة الإسلام تستأصل، وأيقن الفرنج بالظفر. وكان من سعادة المسلمين تفرق الفرنج في الأزقة: واشتد الأمر وأعضل الخطب، فأنحت الطايفة التركية، مماليك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب من البحرية والجمدارية[1]، أسود الحرب وفرسان الهيجاء، وحملوا على الفرنج حملة واحدة، فزعزعوا بها أركانهم وهدّوا بنيانهم، وأخذت الفرنج السيوف والدبابيس من كل جانب. فأثخنوا البحرية فيهم القتل والجراح وطرحوهم في أزقة المنصورة. فكانت عدة ما قتل من الفرنج ألف وخمسماية فارس من فرسانهم وصناديدهم وشجعانهم، وأما رجالة الفرنج فكانوا قد جاءوا على الجسر المنصوب على بحر أشمون ليعدوا منه، ولو تراخى الأمر وعدّت الرجالة إلى المسلمين وتكاملوا فيه لأعضل الداء، فإن الرجالة كانوا جمعاً عظيماً وكانوا حملوا فارسهم (لكن هذا لم يكن)، ولولا ضيق مجال القتال، فإن الحرب كان بين الأزقة والدروب، لكانوا استأصلوا - استوصلوا - الفرنج عن آخرهم. لكن سلم الباقون منهم ومضوا إلى جديلة، فاجتمعوا بها، ودخل الليل ففرق بينهم.

وضربوا على جديلة سوراً، وخندقوا خندقاً عليهم، وأقامت طائفة منهم في البر الشرقي، ومعظمهم في طرف الجزيرة المتصلة بدمياط، وعلى الطائفتين الخندق والسور. وكانت هذه الواقعة أول النصر ومفتاح الظفر. ووردت البطاقة إلى القاهرة، فأحضرت إلى حسام الدين محمد بن أبي علي[2] بعد الظهر من يوم الوقعة، ومضمونها أنه: سُرّح الطاير، وقد هجم العدو المنصورة والحرب قايمة، والقتال بين المسلمين والفرنج شديد، وليس في البطاقة غير ما هذا معناه، فانزعجا وانزعج المسلمون كافة، وغلب على الظنون بوار الإسلام. وورد المسلمون آخر

---

(1) أي مآل اشتد الحطب حتى هجمت الطائفة التركي... الخ (عن غابرييلي). والبحرية خرجت من بينهم أول مجموعة مماليك وسموا كذلك لأنهم كانوا يعسكرون في بحر النيل في القاهرة. أما الجمدرية فكانوا نوعا من الخدم بين المماليك.

(2) متصرف القاهرة ثم وزير يعمل لديه كاتبنا ابن واصل

النهار، وبقا باب النصر[1] مفتوحاً طوال ليلته، وهي ليلة الأربعاء، والجند والعامة والكتاب والمتصرفون يدخلون منه منهزمين، ولا علم لهم بما تجدد بعد دخول الفرنج المنصورة. وممن دخل تلك الليلة وجاء إلى الأمير حسام الدين القاضي تاج الدين المعروف بابن بنت الأعز، وكان متولي النظر بديوان الصحبة. وبقيت القلوب منزعجة إلى أن طلعت الشمس من يوم الأربعاء، فوردت البشرى بالنصر، وزين البلد وضربت البشاير وعظم السرور والفرح بالانتصار على الفرنج، وكانت هذه أول واقعة انتصر فيها أسود الترك على كلاب الشرك، ووردت البشرى على الملك المعظم بذلك وهو في الطريق، فجدَّ في السير إلى الديار المصرية.

وقوع أسطول المسلمين على مراكب الفرنج وضعف الفرنج

(ابن واصل، 368r.v)

ولما استقر الفرنج بمنزلتهم، كانت تأتيهم الميرة من دمياط في بحر النيل. فعمد المسلمون إلى مراكب شحنوها بالمقاتله، وحملوا على الجمال إلى بحر المحله[2]، وألقوها فيه، وفيه ما من زيادة النيل واقفة، لكنه متصل بالنيل. فلما حاورت مراكب الفرنج، وهي مقلعه من دمياط في بحر المحله، وتلك المراكب التي للمسلمين مكمنه، خرجت عليها تلك المكمنه في بحر المحلة ووقع القتال بين الفريقين. وجاءت أساطيل المسلمين من جهة المنصورة متحدرة إليهم، والتقى الأسطول والمراكب التي كانت مكمنه، فأحاطوا بالفرنج فأخذوهم ومراكبهم أخذ باليد. وكانت عدة المراكب المأخوذة للفرنج اثنتين وخمسين مركبا، وأسر من كان فيها نحو ألف رجل، وأخذ جميع ما فيها من الميره، ثم حملت الأسرى على الجمال وقدم بهم إلى المعسكر. وانقطعت الميره بسبب ذلك عن الفرنج، ووهنوا وهنا عظيما واشتد عندهم الغلاء، وبقوا محبوسين لا يستطيعون المقام ولا الذهاب. و(استطرى) عليهم المسلمين، وطمعوا فيهم.

---

(1) احد ابواب القاهرة ومازال قائماً

(2) ذراع ميت من النيل ذكر في احداث الحملة الخامسة

وفي مستهل ذي الحجه (7 آذار – مارس 1250)، أخذ الفرنج من مراكب المسلمين التي هي في بحر المحلة سبع حراريق، وهرب من فيها من المسلمين. وفي ثاني ذي الحجة، تقدم الملك المعظم إلى الأمير حسام الدين في الدخول إلى القاهرة، وفي المقام بدار الوزارة، ليجري على عادته في نيابة السلطنه. قال صاحب التاريخ القاضي جمال الدين بن واصل: "وخلع علي وعلى جماعة من الفقهاء الذين وردوا إلى خدمته، ووصل إحسان الملك المعظم إلى كل من قصد بابه". قال: ودخلت القاهرة مع الأمير حسام الدين وفي يوم الاثنين لتسع مضين من ذي الحجة (9)، وهو يوم عرفه[1]، خرجت شواني المسلمين على مراكب وصلت للفرنج تحمل الميرة، فالتقوا عند مسجد النصر، وأخذت شواني المسلمين من مراكب الفرنج اثنين وثلثين مركباً، منها سبع شواني، فازداد عند ذلك ضعف الفرنج ووهنهم، وقوي الغلا عندهم. وعند ذلك شرعت الفرنج في مراسلة المسلمين وطلب المهادنة منهم. ووصلت رسلهم، فاجتمع بهم الأمير زين الدين، أمير جندار، وقاضي القضاة بدر الدين، فرغب الفرنج أن يسلموا دمياط إلى المسلمين على أن يأخذوا بذلك بيت المقدس وبعض الساحل. فلم تقع الإجابة على ذلك. وفي يوم الجمعة لثلث بقين من ذي الحجة (26) أحرقت الفرنج أخشابهم كلها وأبقوا مراكبهم وعزموا على الهروب إلى دمياط. وخرجت هذه السنة (647) وهم مقيمون بمنزلتهم في مقابلة المسلمين.

هزيمة الفرنج واستئصالهم والقبض على ملكهم ريدافرنس

(ابن واصل 369r، 370r)

ولما كانت ليلة الأربعاء لثلث مضين من المحرم من سنة ثمان وأربعين وستماية (7 نيسان/ابريل 1250)، وهي الليلة الغرا المسفرة عن النصر الأعظم والفتح الأكبر، رحل الفرنج بفارسهم وراجلهم متوجهين إلى دمياط ليستعصموا بها، وأخذت مراكبهم في الانحدار في البحر قبالتهم. وعلم المسلمون بذلك فتبعوهم وركبوا أعناقهم بعد أن

---

(1) يوم عظيم في الحج الاسلامي.

عدّوا إلى برهم، فاتبعوهم. وطلع الصباح من يوم الأربعاء المذكور، وقد أحاط المسلمون، وبذلوا فيهم سيوفهم وأحاطوا عليهم قتلاً وأسراً، فلم يسلم منهم أحد. فذكر أن عدة القتلى بلغت ثلثين ألف. وكان لمماليك السلطان، الملك الصالح نجم الدين أيوب، البحرية في هذه الوقعة، المهمة العالية والتقدم العظيم. فأذاقوا الفرنج البلاء، وكان لهم الخط الأول، كانوا قاتلوا قتالاً شديداً، وهم الذين قدموا على أتباع الفرنج، وهم كانوا داوية الإسلام[1]. قال: وانحاز الملك ريدافرنس الملعون والأكابر من ملوك الفرنج إلى تل مونة (المنيا) مستسلمين طالبين الأمان. فأمنهم الطواشي جمال الدين محسن الصالحي، فنزلوا على أمانه وأحيط عليهم كلهم، ومضوا بالملك اريدافرنس ومن معه من ملوك الفرنج إلى المنصورة. فضربوا في رجل الملك الكبير ريدافرنس القيد، وكذلك جميع من معه من الملوك، واعتقل في الدوار التي كان نازلاً بها كاتب الإنشا فخر الدين بن لقمان، ووكل به الطوشي صبيح المعظمي، وهو أحد خدام الملك المعظم توران شاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب، وهو من قدم في صحبته من حصن كيفا، فقدمه وأعلا شأنه وعظمه.

وفي هذه الكسرة، وفي اعتقال ملك الإفرنج ريدافرنس في دار فخر الدين بن لقمان وتوكيل الطواشي صبيح به، قال جمال الدين يحيى بن مطروح رحمه الله تعالى:

قل لفرنسيس، إذا جئته، مقال حق عن قوول نصيح:
أجزاك الله على ما جرى من قتل عبّاد يسوع المسيح!
أتيت مصراً، تبتغي أخذها، تحسب ان الزمر بالطبل ريح.
فساقك إلى موضع، ضاق له عن ناظريك الفسيح.
وكل أصحابك أوردتهم، بحسن تدبيرك، بطن الضريح.
خمسون ألف، لا يرى منهم إلا قتيل أو أسير جريح.
وفقك الله لأمثالها، لعل عيسى منكم يستريح[2]!

---

(1) وهذا أعظم مديح بمدح عدوٌ به القيمة القتالية لجماعة الداوية.

(2) يعتبر المسلمون يسوع المسيح نبياً عبداً لله أتى بالمعجزات ولهذا فإنه يعتبر هو بالذات كفراً عبادة المسيحيين له.

إن كان باباكم بدا راضياً، فربّ غش قد أتى من نصيح!

وقل لهم إن أضمروا عودة لأخذ ثار أو لهد صحيح:

"دار بن لقمان على حالها، والقيد باق، والطواشي صبيح".

قال: ولما جرى ذلك رحل الملك المعظم والعساكر من المنصورة إلى جهة دمياط، فنزلوا بفارس كور، وهي من أعمال دمياط، وضرب بها دهليز السلطنة، ونصب إلى جانبه برج خشب كان الملك المعظم يصعد إليه بعض الأوقات، متراخياً من ثغر دمياط. ولو أسرع على النزول عليها والدخول إليها، وطلب تسليمها من الملك ريدافرنس، وهو في قبضته لحصل له ذلك في اقرب الأوقات. لكن أبعده عن ذلك سوء التدبير، الذي اقتضاه بما سبق له من التقدير.

مقتل الملك المعظم غياث الدين طوران شاه

(ابن واصل 371r.v)

ولما جرى ما ذكرناه من تغير قلوب العسكر منه، خصوصاً مماليك أبيه البحرية، اتفق جماعته من مماليك أبيه[1] على قتله، فلما كان بكرة الاثنين لليلة بقيت من المحرم من هذه السنة، أعني سنة ثمان وأربعين وستماية (2 أيار/مايو 1250) مدّ الملك المعظم السماط في دهليزه، وجلس على طراحته، واكل الناس بين يديه، وأكل معهم على ما جرت عادته، ثم فرغت الناس من الأكل وتفرقت الأمرا إلى وطاقاتهم، وقام من مجلسه فطلب الدخول إلى خيمة له صغيرة، فدخل عليه ركن الدين بيبرس، وكان أحد جمدارية أبيه، وكان يعرف بالبندقداري، وهو الذي ملك مصر بعد ذلك ولقب الملك الظاهر، وهو الذي كسر التتر مع الملك المظفر قطز على عين جالوت، ولما ملك، فتح بلاد الإفرنج مثل صفد والشقيف وأنطاكية وغيرهم من البلاد، وفتح بلاد الاسماعيلية وكسر التتر مرات.[2]..

---

(1) بعد أن ميّز عناصر أخرى جلبها معه من مابين النهرين مثل ذلك الطواشي صبيح الذي قرأنا للتو عنه.

(2) يفسر هذا التقديم التبجيلي لبيبرس أن كاتبه –ابن واصل– كان عاملاً بإمرته ومتمعاً بهباته، فضلاً عن أن التقديم مطابق للحقيقة التاريخية، ومع هذا فإنه لايعلج في تجميل المنظر التالي (وقد أورد آخرون تفاصيل أخرى رهيبة مروعة) الذي شكل اساس انطلاقة ملك سلطان مصر المقبل.

فضرب الملك المعظم بسيفه، فجرحه في كتفه، ورمى ركن الدين السيف من يده، ورجع الملك المعظم بن الملك الصالح إلى مجلسه واجتمع حوله الناس وأصحابه وبعض مماليك أبيه، فقالوا له: "أي شيء جرى؟"، فقال: "جرحني أحد البحرية"، وكان ركن الدين بيبرس البندقداري واقفاً، فقال: "ربما فعل هذا بعض الإسماعيلية"[1] فقال: "ما فعل بي هذا إلا البحرية"، فخافت البحرية حينئذ وأسعروا منه. ثم قام وصعد إلى البرج وأحضر الجرايحي ليداوي يده. فاجتمع مماليك أبيه، فخافوا لما سمعوه ينسبهم إلى أنهم قصدوا قتله، فانضم هذا إلى ما كان في نفوسهم من إطراحه لهم، فأحاطوا بالبرج، ففتح طاقاته واستغاث بالناس فلم يجبه أحد ولا عانه أحد، ولم تأتي إليه أحد من الأمراء المصرية، لأن الجميع كانت قلوبهم نافرة منهم. وأحضرت نار ليحرق بها البرج، فنزل من البرج، فحمل عليه البندقداري الذي كان جرحه، فهرب على جهة البحر، فكانت فيه حراريق له، فأراد أن يسبق لها ويعتصم بها، فأدركه فارس الدين أقطايا وضربه بالسيف فقتله، رحمة الله عليه، وكان شاباً ما أظنه كان استكمل ثلثين سنة، ولم أحط علماً بتاريخ مولده. وكان مدة ملكه لمصر شهرين (وأياماً)

الاتفاق على تمليك السر العالي، والدة خليل، شجرة الدر وعز الدين التركماني ليكون أتابك العسكر

(ابن واصل 372r.v)

ولما جرى ما جرى من قتل الملك المعظم، اجتمعت الأمراء والبحرية عند الدهليز السلطاني، واتفقت كليتهم على أن تكون شجرة الدر والدة خليل الملك الصالح نجم الدين أيوب[2] هي القائمة بأمر السلطنة والملك، وأن التواقيع السلطانية

---

(1) الطائفة المنشقة التي رأينا أنها متخصصة بالاغتيالات السياسية.

(2) جارية تركية ولدت للملك الصالح ابنه خليل الذي مات طفلاً. وقد رأى ابن واصل أن تسلم هذه المرأة للسلطنة كان حدثاً لاسابق له في تاريخ الاسلام، وقد شكل فترة انتقالية بين حرص الايوبيين على شرعية ملكهم وبين النظام العسكري المملوكي الذي خيم عملياً على مصر ؛ خاصة بعد أن تزوج كبير عسكرهم أيبك من شجرة الدر مبتدأ حكم سلالة المماليك.

تخرج بأمرها واسمها وعليها علامتها. وكانوا عرضوا هذه التقدمة[1] على حسام الدين محمد بن أبي علي، وقالوا: "إنت كان الملك الصالح نجم الدين يعتمد عليك، فأنت أحق بهذا الأمر" فامتنع، وأشار بأن يكون الطواشي شهاب الدين الرشيد هو القائم بهذا الأمر، فعرضوا ذلك عليه، فامتنع. فوقع الاتفاق على الأمير عز الدين أيبك التركماني الصالحي، فحلف الجماعة كلهم على ذلك. وورد إلى القاهرة الأمير عز الدين أيبك الصالحي، وصعد إلى القلعة، وأنهى ذلك إلى والدة خليل بن الملك الصالح نجم الدين أيوب، فصارت الأمور كلها معلقة بها، وصارت تبرز من جهتها علامة ما صورته "والدة خليل". وخطب[2] لها بالسلطنة بالقاهرة ومصر وسائر الديار المصرية، وهذا أمر لا يعرف أنه جرى مثله في بلد من البلاد في أيام الإسلام. وأما الحكم والتصرف فقد جرى مثله، فإن ضيفة خاتون بنت الملك العادل[3]، نظرت في أمر الملك بحلب وبلادها بعد موت ولدها الملك العزيز، إلى أن توفيت، لكن الخطبة بالسلطنة كانت لابن ابنتها الملك الناصر رحمه الله.

قال، ولما قتل الملك المعظم بن الملك الصالح، بقي مطروحا على ساحل البحر، لا يجسر أحد يتقدم إليه، فعدى بعض الملاحين من الجانب الغربي، ودفنه في بر الغرب.

فتح دمياط

(ابن واصل 372v، 373v)

ولما حلف الأمراء والأجناد، واستقرت القاعدة على ما ذكرناه، ووقع الحديث مع ملك الفرنج ريدافرنس في تسليم دمياط للمسلمين، وجعل المتحدث في ذلك

---

(1) يفهم من السطور السابقة أن العرض كان يتعلق بالسلطنة، لكن السطور التالية تظهر أن العرض كان لقيادة الجيش، وسنرى على كل الأحوال أنه سرعان ما اجتمع هذان المنصبان في يد رجل واحد.

(2) خطبة الجمعة من على منبر الجامع حيث يدعى لولي الأمر الحاكم.

(3) زوجة الظاهر سلطان حلب الذي مات في 1216 ومات ابنهما العزيز في 1236 عندما بدأت ولاية الجدة باسم حفيدها.

الأمير حسام الدين محمد بن أبي علي، الاتفاق الجماعة على الاقتداء برأيه ومشورته لما يعلمون من عدله ومعرفته، واعتماد ملكهم الملك الصالح نجم الدين أيوب عليه. فجرت بينه وبين ريدافرنس الملك محاورات ومراجعات، حتى وقع الاتفاق في تسليم دمياط، وأن يذهب بنفسه سالماً. قال القاضي جمال الدين بن واصل صاحب هذا التاريخ: حكى لي الأمير حسام الدين قال: كان ريدافرنس ملك الإفرنج عاقلاً فطناً إلى الغاية. قال: حكمت له في بعض محاوراتي في ما مضاه: "كيف خطر للملك، مع ما أرى فيه من فضله وعقله وصحة ذهنه أن يتقدم على خشب ويركب متن هذا البحر ويأتي إلى هذه البلاد المملوءة خلقاً من المسلمين والعساكر، ويعتقد إنما يحصل له ويملكها؟ وفيما فعل غاية التغرير بنفسه وبأهل مملكته". قال: فضحك، ولم يرّد جواباً، فقلت له: "إن من شريعتنا من ركب هذا البحر مرة بعد أخرى مغرراً بنفسه وماله، لا تقبل شهادته إذا شهد" فقال الملك: "ولم ذلك؟"، قال: فقلت "إنا نستدل بذلك على نقصان عقله، ومن كان ناقص العقل لا ينبغي قبول شهادته"[1] قال: فضحك وقال: "إنه قد صدق هذا القائل وما قصّر فيما حكم به". قال صاحب التاريخ وهذا الذي ذكره حسام الدين من قول منقول عن بعض العلماء، لكنه ليس بقوي، لأنه الغالب في ركوب البحر السلامة. وأما ها هنا وجهان: إذا لم يكن للإنسان وصول إلى مكة إلا بركوب البحر، هل يجب عليه الحج؟ فأحد الوجهين لا يجب، لما في ركوب البحر من الخطر والتغرير بالنفس، والثاني يجب، لأن الغالب إنما هو السلامة.

ولما وقع الاتفاق بين ريدافرنس والمسلمين على تسليم دمياط، أرسل ريدافرنس إلى من بمدينة دمياط يأمرهم بتسليم البلد إلى المسلمين، فأجابوا إلى ذلك بعد امتناع ومراجعات بينه وبينهم. وسلموا دمياط إلى المسلمين، ودخل العلم السلطاني في يوم الجمعة لثلث مضين من صفر من هذه السنة، أعني سنة ثمان وأربعين وستماية (7 أيار/مايو 1250)، ورفع العلم السلطاني على سورها، وأعلن فيها بكلمة الإسلام، وأخرج عن ريدافرنس، وانتقل هو ومن بقي من أصحابه إلى البر الغربي، ثم ركب البحر غداة هذا اليوم وهو يوم السبت، هو ومن معه،

---

(1) جرى ذكر ذلك

وأقلعوا إلى عكا. وأقام بالساحل مدة، ثم رجع إلى بلاده. وطهر الله الديار المصرية منهم، وكانت هذه النصرة أعظم من الأولى[1] بأضعاف مضاعفة، لكثرة من قتل منهم وأسر، وامتلأت الحبوس بالقاهرة من الفرنج. ووردت البشرى بذلك إلى سائر الأقطار وأعلن فيها بالفرج والسرور. ولما رحل ريدافرنس رحلت العساكر متوجهة إلى القاهرة فدخلوها وقد ضربت البشاير بها أياماً متوالية لنصرة المسلمين على الفرنج واسترجاع ثغر دمياط، وهي عقيلة الإسلام وثغر الديار المصرية. وكانت هذه ثانية لأخذ الكفار لها واسترجاعها منهم وانصرافهم مكسورين مغلولين.

مقدمة حملة سان لويس وخاتمتها

(مقريزي، 334 - 335، 356 - 358)

(وبينما كان في طريقه إلى مصر) سير ملك الفرنج إلى السلطان (الملك الصالح) كتاباً، نصه بعد كلمة كفرهم[2]:

"أما بعد فإنه لم يخف عنك أني أمين الأمة العيسوية، كما أني أقول إنك أمين الامة المحمدية. وإنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا، ونحن نسوقهم سوق البقر، ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء، ونستأسر البنات والصبيان، ونخلي منهم الديار. وقد أبديت لك ما فيه الكفاية، وبذلت لك النصح إلى النهاية. فلو حلفت لي بكل الأيمن، ودخلت على القسوس والرهبان، وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان، ما ردني ذلك عن الوصول إليك، وقتالك في أعز البقاع عليك. فإن كانت البلاد لي فيا هدية حصلت في يدي، وإن كانت البلاد لك والغلبة عليّ، فيدك العليا ممتدة إليّ. وقد عرفتك وحذرتك، من عساكر قد حضرت في طاعتي، تملأ السهل والجبل، وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بأسياف القضا."

---

(1) زمن الحملة الخامسة.

(2) أي بعد المدائح المسيحية

فلما وصل الكتاب إلى السلطان وقرأ عليه، إغرورقت عيناه بالدموع واسترجع. فكتب الجواب بخط القاضي بهاء الدين زهير بن محمد، كاتب الإنشاء، ونسخته بعد البسملة وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين:

"أما بعد فإنه وصل كتابك، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك. فنحن أرباب السيوف، وما قتل منا قرن إلا جددناه، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه. فلو رأت عيناك – أيها المغرور! – حد سيوفنا، وعظم حروبنا، وفتحنا منكم الحصون والسواحل، وإخرابنا منكم ديار الأواخر والأوائل، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم، ولا أن تزلّ بك القدم، في يوم أوله لنا وآخره عليك. فهنالك تسيء بك الظنون، [وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون][1]. فإذا قرأت كتابي هذا، فكن فيه على أول سورة النحل: [أَتَى أَمْرُ الله فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ][2]، وكن على آخر سورة ص: [وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ][3]. ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى، وهو أصدق القائلين: [كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ الله وَالله مَعَ الصَّابِرِينَ][4]، و(إلى) قول الحكماء: إن الباغي له مصرع، وبغيك يصرعك، وإلى البلاء يقلبك، والسلام".

(وبعد النصر في المنصورة، السلطان طوران شاه) كتب إلى الأمير جمال الدين بن يغمور نائب دمشق كتابا بخطه نصه:

"(من) ولده تورانشاه. الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، وما النصر إلا من عند الله، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، وأما بنعمة ربك فحدث، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها. نبشر المجلس السامي الجمالي، بل نبشر المسلمين كافة، بما من الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين. فإنه كان قد استفحل أمره واستحكم شره، ويئس العباد من البلاد والأهل والأولاد، فنودوا لا تيأسوا من روح الله. ولما كان يوم الاثنين مستهل السنة المباركة، تمم الله على الإسلام بركتها،

(1) قرآن (كريم) الآية 277 من السورة 26 (الشعراء)
(2) قرآن (كريم) الآية 1 من السورة 16 (النحل)
(3) قرآن (كريم) الآية 88 من السورة 38 (ص)
(4) قرآن (كريم) الآية 149 من السورة 2 (البقرة)

فتحنا الخزائن وبذلنا الأموال وفرّقنا السلاح، وجمعنا العربان والمطوعة وخلقا لا يعلمهم إلا الله، فجاءوا من كل فج عميق ومكان سحيق. فلما كان ليلة الأربعاء تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم، وقصدوا دمياط هاربين. وما زال السيف يعمل في أدبارهم عامة الليل، وقد حلّ بهم الخزي والويل. فلما أصبحنا يوم الأربعاء، قتلنا منهم ثلاثين ألفا، غير من ألقى نفسه في اللجج، وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج. والتجأ الفرنسيس إلى المنية، وطلب الأمان فأمناه وأخذناه وأكرمناه، وتسلمنا دمياط بعون الله وقوته، وجلاله وعظمته".

وذكر كلاما طويلا.

وبعث (المعظم) مع الكتاب غفارة الملك الفرنسيس، فلبسها الأمير جمال الدين بن يغمور، وهي أشكرلاط أحمر بفرو سنجاب، (فيها بكلة ذهب). فقال الشيخ نجم الدين بن اسرائيل:

إن غفـــارة الفرنســـيس التــــي	جــاءت حبــاء لســيد الأمـــراء
كبيـــاض القرطـــاس لونـــا ولكــن	صـــبغتها ســـيوفنا بالـــدماء

وقال (آخر):

أسـيّد أمـــلاك الزمـــان بأســـرهم	تنجـزت مـن نصـر الإلـه وُعـوده
فـلا زال مولانـا يبـيح حمـى العـدى	ويُلـبس أسـلاب الملـوك عبيـده

سان لويس في تونس

(مقرزي، 364 - 365)

واتفق أن الفرنسيس هذا، بعد خلاصه من أيدي المسلمين، عزم على الحركة إلى تونس من بلاد إفريقية[1]، لما كان فيها من المجاعة والموتان. وأرسل يستنفر ملوك النصارى، وبعث إلى البابه خليفة المسيح بزعمهم. فكتب(البابه) إلى ملوك

(1) ضاحية روما الافريقية، أي تونس.

النصارى بالمسير معه، وأطلق يده في أموال الكنائس يأخذ منها ما شاء. فأتاه من الملوك ملك الإنكتار، وملك اسكوسنا، وملك ثورل، وملك برشلونة واسمه ريداركون[1]، وجماعة أخر ملوك النصارى.

فاستعد له السلطان أبو عبد الله محمد المستنصر بالله[2] ابن الأمير أبي زكريا يحيى ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص عمر، ملك تونس، وبعث إليه رسله في طلب الصلح، ومعهم ثمانون ألف دينار. فأخذها (الفرنسيس) ولم يصالحهم، وسار إلى تونس آخر ذي القعدة سنة ثمان وستين وستمائة (21 تموز/يوليه 1270)، ونزل بساحل قُرْطاجَنَّة في ستة آلاف فارس وثلاثين ألف راجل. وأقام (الفرنسيس هناك) ستة أشهر[3]، فقاتله المسلمون – للنصف من محرم سنة تسع وستين (آخر آب/اغسطس) – قتالا شديدا، قتل فيه من الفريقين عالم عظيم. وكاد المسلمون أن يغلبوا، فأتاهم الله بالفرج وأصبح ملك الفرنجة ميتا، فجرت أمور أدت إلى عقد الصلح ومسير النصارى. ومن الغريب أن رجلا من أهل تونس، اسمه أحمد بن إسماعيل الزيات، قال:

يا فرنسيس هذه أخت مصر ... فتأهب لما إليه تصير

لك فيها دار ابن لقمان قبراً ... وطواشيك منكر ونكير[4]

فكان هذا فألا عليه ومات...، وكان ريدافرنس هذا عاقلا داهيا خبيثا مُفكراً.

---

(1) ملوك انكلترا، اسكوتلندا، تولوز، برشلونة (المسمى Re d'Aragon)

(2) ملك تونس بين 1240 و 1277

(3) في 25 اب/اغسطس

(4) اشارة الى سجنه من قبل في مصر. ومنكر ونكير هما الملكان الذي يعتقد المسلمون أنهما أول من يحاسب الميت حسابا عسيرا.

القسم الرابع

المماليك وتصفية الصليبيين



- 1 -

بين الأعوام 1265 و 1291 تمكن ثلاثة سلاطين مماليك هم بيبرس (1260-1277) وقلاوون (1279 1290) والأشرف (1290-1293) تمكنوا من تفكيك كل ماتبقى من أعمال الحملات الصليبية. المصدر الرئيسي عن جميع الثلاثة هو معاصرهم ابن عبد الزاهر، رغم أنه لم يصلنا من روايته إلا بعضها وأن أكثرها مازال غير منشور. هناك عن فتوحات بيبرس سيرة ابن عبد الزاهر الموجودة في المختصر الذي جمعه إبن أخيه شفيع، هذا فضلاً عن وقائع متأخرة كتبها ابن الفرات والمقرزي والعيني. المقاطع التالية مأخوذة من المصادر المذكورة وفيها أيضاً رسالة النصر المشهورة المرسلة إلى بيمند السادس بعد فتح انطاكية.

بيبرس ضد طرابلس وأنطاكية
ورسالته إلى بيمند السادس

(ابن عبد الزاهر الاوراق v105 - v111)

هذا الحصن (طرابلس الشام) كان للإسلام قديماً وآخر من كان به بنو عمار. وحاصره بعض ملوك الفرنج عدة سنين، وبنى أمامه حصناً لطول مدة المحاصرة[1]، فلما أعيا بني عمار ذلك، تركوا فيه واحداً منهم وذهبوا ليستنصروا ويستنجدوا. وكان الذي تركوه منهم بها مختلاً، فقام بأعلاها، ونادى الفرنج أن ادخلوا وتسلموا، فتسلموها. وآخر من ملكها بيمند السادس بن بيمند الابرنس. ولما أفضت نوبة الملك للسلطان الملك الظاهر، صاحب هذه السيرة، وأيد الله به الإسلام، وصار يبلغه عن بيمند هذا، من سوء الجيرة وكثرة التعدي والتعرض إلى

(1) Mont-Pelerin بناه Raymond de Saint-Gilles في 1103

من يقصد أبوابه، حتى أنه ظفر برسل أتو من الكرج، وقد انكسرت مراكبهم، فأخذهم وأخذ ما على يدهم من الكتب الواردة إلى السلطان، وسيّرهم إلى هولاكو ملك التتار، فأتى على نفوسهم ونفوس مرسليهم، إلى غير ذلك من مجاهرة. فاقتضت الغيرة الإسلامية والحمية الإيمانية، أن تهيأ لقصدها، وأسَرّ في التهيئة خلاف فأظهر منها، وأقتحم إليها الجبال والأودية. وفرق العساكر الإسلامية، فأحاطوا بها الهلاك، وأسروا ونهبوا، وأرعدوا وأبرقوا، واستولى على أكثر بلادها، وتركها بما اقتضاه الحزم، وعاد.

قد تقدم ذكر الإغارة على طرابلس وإنهاك قواها، ورحيله عنها، من غير أن يُعرف إلى أين موه السلطان، فضرب عدة دهاليز، جعل باب كل دهليز إلى ناحية لتحيير الأخطار، ثم فرق عساكره قاصداً أنطاكية، وهي في مملكة الإبرنس صاحب طرابلس، فتوجهوا موغلين في القتل والأسر وخراب الديار وتعفية الآثار. وقصد السلطان أنطاكية بنفسه، فنزل بها مستهل رمضان سنة ست وتسعين وستماية (15 آيار – مايو 1268)، وكان أستاذ داره الأمير شمس الدين أقسنقر الفارقاني، قد وجد في توجهه، جماعة من فرسان أنطاكية، فضرب معهم رأساً، فأهلكهم عن آخرهم، وأسر كند اسطبل، نايبها. واجتمعت العساكر على أنطاكية من كل جانب ومكان، وحصل الزحف، وملكت الأسوار، وأخذت البلد، وقتل من بها من الجمع الكبير الكثير. ثم حُصرت القلعة، فأخذت بالأمان، واستقرت في قبضة الإسلام.

وأمر السلطان بالكتابة إلى الإبرنس، عزاء بفتحها، وخسراناً له برجعها، من إنشاء مؤلفها، رحمه الله[1]، ما كان أدراه بمواقع الكتابة، وأظفره بمظانّ الإصابة، وأنكاه بدسايس كتبه ودفاين تفتيشه عن مقاصد ملكه وتطلبه. وعند الفرنج أنه لا يجعل ابرنس إلا صاحب أنطاكية، فخاطبه مؤلفها بالقومص، لخروج أنطاكية عنه[2]. ويتعرض ذلك ما حكاه لي، رحمه الله، قال: كان السلطان قد جهزني

---

(1) المتحدث هو ابن أخ ابن عبد الظاهر منسق أعمال عمه.

(2) مع بيمند الرابع (1233–1277) توحدت امارة انطاكية وكونتية طرابلس تحت السلالة الانطاكية.

رسولاً، صحبة الأمير فارس الدين أتابك إلى طرابلس عند تقرير هدنة طرابلس[1]، وأن السلطان الملك الظاهر دخل معها متنكراً في صورة سلاح دار، ليكشف حال البلدة ويخبر جهاتها ومكان أخذها. وأنه لما أحضره الابرنس للحديث فيما وصلا فيه، واستقر الأمر والسلطان واقف ينظر على رأس الأتابك، ويسمع، أنه أخذ (أخذ) فكتب[2]: "واستقرت الهدنة بين مولانا السلطان، وبين القومص،..." ولم يكتب الابرنس، إن صاحب طرابلس لمجها، واستشاط وقال: "من هو القومص؟" فقلت له: "أنت" قال: "لا، أنا ابرنس"، فقلت له: "الإبرنس السلطان الملك الظاهر، لأن الإبرنسية هي لصاحب القدس وأنطاكية واسكندرونة، وهو مولانا السلطان"، فنظر إلى جيشه الواقف، فارتج المجلس. قال: فغمز السلطان الأتابك برجله، فقال الأتابك: "يا يحيى الدين، صدقت، وإنما مولانا السلطان قد أنعم على هذا بلفظة الابرنس، كما أنعم عليك بتوطينه في مملكته"، فقلت للأتابك: "إذا عملت هذا فلا بأس". وكتب عوض القومص الابرنس. قال مؤلفها: ولما انفصلنا، وحل مولانا السلطان لمخيمه، أخذ مولانا السلطان يحكيها لأمراء دولته ويضحك، ويلتفت إلي ويقول: "هذا كان وقته! بعد الله الابرنس والقومص". انقضت الحكاية، ونعود إلى إثبات نسخة الكتاب وهي:

قد علم، القومص فلان[3]، أكبر الطائفة العيسوية، والمنتقل إلى اللفظة القومصية – ألهمه الله رشده، وقرن بالخير قصده. وجعل النصيحة محفوظة عنده – ما كان من قصدنا طرابلس، وغزونا له في عقر الدار، وما شاهد بعد رحيلنا من إخراب العماير وهدم الأعمار، وكيف كنست تلك الكنايس من له بساط

---

(1) في 1271 بعد أخذ انطاكية بثلاث سنوات.

(2) هو محي الدين ابن عبد الزاهر المؤلف والراوي.

(3) كما في تصنيف ابن عبد الزاهر. لكن مصادر أخرى تظهر الترويسة أكثر احتراماً: (الكونت النبيل الجليل، الأسد الشجاع، فخر الامة المسيحية، زعيم أمة الصليبيين، الذي أصبح لقبه بعد الظفر بانطاكية أميراً بعد أن كان كونت... الخ). رغم اللهجة العدائية الساخرة فقد كانت تلك الألقاب كثيرة فأسقطها المصنف. وقد تم في ترجمتنا هذه تعديل رواية ابن عبد الزاهر حيثما هي ناقصة وفق رواية النويري (في QUATREMERE. Sultans Mamlouks, I, II ص 190 – 91).

الأرض، ودارت الدوائر على كل دار، وكيف جهلت تلك الحساير على جانب البحر من الأجسام كالجزاير، وكيف قتلت الرجال الحرار، وكيف قطفت الأشجار، ولم يترك إلا ما يصلح لأعواد المجانيق[1]، إن شاء الله، والستاير، وكيف نهبت الأموال والحريم والأولاد والمواشي، وكيف استغنى الفقير وتأهل العازب واستُخدم الحذيم، وركب الماشي، هذا وأنت تنظر المخشي عليه من الموت، وإذا سمعت صوتا كنت فزعاً على هذا السوط، وكيف رحلنا عنك، لكن رحيل من يعود، وأخرناك وما تأخيرك إلا لأجل معدود، وكيف فارقنا بلادك وما بقيت فيها ماشية، إلا وهي بين أيدينا ماشية، ولا جارية إلا وهي في ملكها جارية، ولا سارية إلا وهي بين أيدي المغاول سارية، ولا زرع إلا وهو محصود ولا موجود لك إلا وهو منك مفقود، وما منعك تلك المغاير التي هي في رؤوس تلك الجبال الشاهقة، ولا تلك الأودية التي هي في التخوم مخترقة، والعقول حارقة. وكيف سقنا عنك، ولم يسبقنا إلى مدينتك أنطاكية خبر، وكيف وصلنا إليها، وأنت تصدق أننا نبعد عنك، وأنت بعدنا فستعود على الأثر. وها نحن نعلمك بما تم، ونفهمك بالبلاء الذي عم: كان رحيلنا عنك من طرابلس في يوم الأربعاء رابع عشرين شعبان، ونزولنا أنطاكية في مستهل شهر رمضان المعظم، وفي حالة النزول، فرجت عساكرك للمبارزة، فكُسروا، وتناصروا فما نُصروا، وأسر من بينهم كندا اسطبل، فسأل في مراجعة أصحابك، فدخل إلى المدينة، فخرج هو وجماعة من رهبانك وأعيان أعوانك، فتحدثوا معنا، فرأيناهم على رأيك من إتلاف النفوس بالغرض الفاسد، وأنهم رأيهم في الخير مختلف وقولهم في الشر واحد. فلما رأيناهم قد فات فيهم الفوت، وأنهم قد قدر الله عليهم الموت، رددناهم، وقلنا نحن الساعة لكم نحاصر، وهذا هو الأول في الإنذار والآخر، فرجعوا متشبهين بفعلك، ومعتقدين أنك تنجدهم بخيلك ورجلك ففي بعض ساعة (...) شان المرشان،[2] وداخل الرهب الرهبان (...) البلاء القصطلان وجاءهم الموت من كل مكان وفتحناها بالسيف في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان المعظم (18 أيار –

(1) تفهم كتهديد بعودة جيش الاسلام على طرابلس.

(2) تتلوى هنا العاب الالفاظ بشكل (لايفهم) ولايترجم، وهذا مما افتخر به عماد الدين الأصفهاني

مايو)، وقتلنا كل من اخترته لحفظها والمحامات عنها. وما كان احد منهم إلا وعنده شيء من الدنيا. فما بقي أحد منا إلا وعنده شيء منهم ومنا، فلو رأيت خيالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول، وديارك والنهاية فيها تصول والكسابة فيها تجول، وأموالك وهو توزن بالقنطار، ودامانك (نساؤك) في كل أربع منها تباع فتشتري من مالك بدينار، ولو رأيت كنايسك وصلبانها وقد كسرت، وصحفها من الأناجيل المزورة وقد نشرت، وتبور البطارقة وقد بعثرت، ولو رأيت عدول المسلم وقد داس مكان القداس والمذبح، وقد ذبح فيه الراهب والقسيس والشماس والبطارقة وقد دهموا بطارقة، وأبناء المملكة وقد دخلوا في المملكة، ولو شاهدت النيران وهو في تصورك تحترق، والقتلى فكم بدار الدنيا قبل دار الآخرة تحترق، وتصورك وأحوالها قد حالت، وكنيسة بولص وكنيسة القُصيان[1] وقد نزلت كل منها وزالت، لكنت تقول "يا ليتني كنت ترابا، ياليتني لم أوت بهذا الخبر كتابا" ولكانت نفسك ذابت من حزنك، ولكنت تطفي تلك النيران بماء عبرتك، ولو رأيت مغانيك وقد أقفرت من معانيك، ومراكبك وقد أخذت في السويدية بمراكبك، فصارت شوانيك من شوانيك، ولتيقنت أن الإله الذي أنطاك أنطاكية، منك استرجعها، والرب الذي أعطاك قلعتها، منك قلعها، ومن الأرض اقتلعها، ولتعلم أنا قد أخذنا، بحمد الله، منك ما كنت أخذته من حصون الإسلام وهو دركوش وشقيف كفربنين وجميع ما كان لك في بلاد أنطاكية، واستنزلنا أحمالك من الصياصي، وأخذناهم بالنواصي، وفرقناهم في الداني والقاصي. ولم يبق شيء يطلق عليه اسم العصيان إلا النهر، فلو استطاع لما تسمى بالعاصي[2]، وقد أجرى دموعه ندماً، وكان يذرفها عبرة صافية، فها هو أجراها بما سفكناه فيه دماً. وكتابنا هذا يتضمن البشرى لك بما وهبك الله من السلامة وطول العمر، بكونك لم يكن لك في أنطاكية في هذه المدة إقامة، وكونك ما كنت بها، فتكون إما قتيلاً وإما جريحاً وإما كسيراً، وسلامة النفس هي التي يفرح بها الحي، إذا شاهد الميت. ولعل الله ما أخرك إلا لأن تستدرك من الطاعة والخدمة ما فات. ولما لم يسلم أحد يخبرك بما جرى،

---

(1) كاتدرائية القديس بطرس مركز الحياة الدينية والمدنية في أنطاكية المسيحية.

(2) يسمي العرب نهر Oronte بالعاصي نظراً لأنه يجري من الجنوب الى الشمال.

خبرناك. ولما لم يقدر أحد يباشرك بالبشرى بسلامة نفسك وهلاك ما سواها، بشرناك بهذه المفاوضة وباشرناك، لتتحقق الأمر على ما جرى، وبعد هذه المكاتبة، لا ينبغي لك أن تكذب لنا خبراً، كما أن بعد هذه المخاطبة يجب أن لا تسأل غيرها مخبراً.

ولما وصل (هذا الكتاب) انقضى الكتاب بهده ورعده، (ولم يصله خبر أنطاكية إلا بهذه الوسيلة).

الاتفاق مع أوك الثالث، ملك قبرص

(ابن الفرات، 6، 146r - 147r)

لما فتحت الشقيف، أراد الفرنج أهل عكا أن يملكوا عليهم ملكاً يصلح أمورهم. وكان بقبرص (بقبرس) ملك صغير[1] وله بال مقدم على عسكره اسمه أوك بن هنري (أوك بن هري) وعمره دون الثلاثين سنة، وهو ابن عم صاحب طرابلس، وهو ابن أخت صاحب قبرص[2] (السابق)، والد الصبي الذي ذكرناه. فأيقن أن الصبي مات، وهذا البال فروج عند أصحاب أرسوف[3]، ومرجع الملك لهذا الشاب، ولابن خالته[4]، وولد خالته أحق بالملك منه، لأن أمه الكبرى: وهذا في اصطلاح الفرنج أنه مقدم ولد الكبرى. وإنما كان غائباً في بلاد سيس[5]، فاستولى هذا الشاب على قبرص. ثم استدعاه الفرنج إلى عكا، والمملكة المكارية متضافة للملكة القبرصية. فوصل إليها، وحلف له أهل عكا. وورد (في هذا الوقت إلى قيصر بيبرس) كتاب ملك صور يذكر وصول هذا الملك، وأنه رجل عاقل، وأنه لما وصل (عرض عليه) آراه الفرنج في (أن يطمئنوا) ما أحسنوا مجاورة السلطان، وانه قال "ما جرى مني ما يوجب عداوة"، وسأل صاحب صور في أن

(1) Ugo الثاني مات عن 14 سنة في 1267

(2) Isabella الأخت الصغرى لهنري الأول

(3) هوغو الثالث زوجته Isabella d'Ibelin

(4) Ugo di Prienne ابن ماريا اخت هنري الأول الكبرى

(5) في كيليكيا او ارمينيا الصغرى

السلطان يصالحه. ولما عاد السلطان من (حرب) أنطاكية إلى دمشق. كما قدمنا شرحه، وصلت رسله وجماعة من خيالتهم قريب المائة نفس، وأحضروا هدية ومصوغاً وجوارح وغيرها، وحصل الاتفاق بين السلطان الملك الظاهر (بيبرس) وبين هذا الملك على شيء يسير، وهو مدينة عكا وبلادها، وهي أحد وثلاثون ضيعة، وتقرر أن حيفا تكون للفرنج ولها ثلاث ضياع، وبقية بلادها مناصفة، وبلاد الكرمل تكون مناصفة وعسليث تكون (للفرنج؟)، لها ثلاث قرى والباقي مناصفة، والقرين عشر قرايا (للفرنج؟)، والباقي للسلطان وبلاد صيدا الوطأة (السهول) للفرنج والجبليات للسلطان، واتفق الصلح على مملكة قبرص. هذا ما استقر عليه الحال في البلاد كلها، وأن تكون الهدنة لعشر سنين، وإنها لا تنقض برجل غريبة ولا ملك محضرة في البحر. واشترط (السلطان) عليه إطلاق رهاين البلاد.

قال القاضي محي الدين بن عبد الظاهر، مؤلف سيرة الملك الظاهر (بيبرس): وتوجهت رسولاً أنا والأمير كمال الدين ابن شيث، لاستحلاف الملك. وسير السلطان هنا هدية: عشرين نفراً من أسارى أنطاكية قسيسين ورهباناً. فدخلنا إلى عكا في رابع وعشرين شوال (7/666 تموز يوليه 1298) واحتفل بنا احتفالاً كثيراً. وكان السلطان قد وصى بأن لا نتواضع له في جلوس ولا مخاطبة فلما دخلنا إليه، رأيناه على كرسي هو والمقدمين. فلم نجلس إلى أن وضع لنا كرسي قبالته، ومد الوزير يده لنأخذ الكتاب. فلم نعطه حتى مد الملك يده، وأخذه. وتوقف في أشياء منها: أنه رغب في مملكة قبرص، يكون لها صلح بمفردها، وأن الصلح يستقر ما لم تصل رجل غريبة أو أحد من ملوك البحر، وأن الإسماعيلية لا يكون لهم حديث في الهدنة، واستعفى من حديث الرهاين، وفصول أُخر. وعادت رسل السلطان من ملك الفرنج، ولم يحلف وبقيت الأمور ساكنة. وكان هذا الملك بعكا كلما تكلم يقول: "أنا أخاف من الملك جزلا (كارلو) أخي ريدافرنس، ولا أقدر أبت صلحاً خوفاً منه"[1]. والله أعلم.

---

(1) بدأ Carlo d'Angio' هذا تجميع الحقوق في تاج القدس الاسمي (أي مملكة عكا الحقيقية) والتي حصلتها Maria d'Antinochia وأعلنت رسمياً في 1277.

(ابن عبد الزاهر، 117v - 118v)

كانت هذه عكا، حين المهادنة، بلا ملك، فملكت لشخص من فرنج قبرص. فلما وليّها هذا المذكور، كتب إلى السلطان مترامياً إليه، خاطباً مودته، سائلاً استقرار الهدنة على ما هي عليه، وسيّر هدية نفيسة مثمنة. فما كره السلطان منه ذلك، وقبل توّدده وعوّضه بهدية. فسأل الملك المذكور أن تكون المهادنة باسمه، ودخل في الطاعة والقراعة، فأجاب السلطان. فحلف له على المهادنة وسيّر لتحليفه الصاحب محي الدين[1] مؤلفها، وكمال الدين بن شيث. وحكى لي محي الدين المشار إليه، قال: لما استحضرنا هذا الملك، وجدناه على سرير مرتفع، وأراد أن يكون فوق ونحن أسفل، فأبى لنا الإسلام ذلك، فرفعنا إليه، وأخذنا معه في الحديث، فأخذ يُمغلط، ويدخل حديثاً في حديث، فأغلظت عليه، فنظر إلي بعين المغضب، فقال للترجمان: 'قل له ينظر إلى من وراه'، فنظرت، فإذا به قد صفف جنده وحملهم، وقال له: 'قل له، انظر إلى هذه الكثرة'، فنظرت وأطرقت، فقال للترجمان: 'قل له: أيش تقول فيما رأيت؟'، فقلت: 'قل له ولي الأمان؟" فقال له 'نعم' قلت "عرف الملك أن عندنا في خزانة البنود، وهو حبس بمملكة السلطان بمصر، أساري من الفرنج أكثر من هؤلاء؟"، فاغضب وصلّب وجهه وقال: "وحق ديني ما أسمع لهم رسالة في هذا اليوم" فانصرفنا ثم استحضرنا، فحلفناه. واستقرت الهدنة إلى الأيام السلطانية الملكية المنصورية القلاونية[2].

---

(1) الكلام للكاتب

(2) تم توقيع هدنة مع هوجو (اوك) الثالث في 1268 هذا بخلاف ماورد في رواية ابن فرات السابقة مع أنه استشهد بابن عبد الزاهر. لكن الاشارة الى استمرارها حتى زمن قلاوون فانما يتعلق بهدنة Cesarea (أيار/مايو 1272) بين بيبرس وعكا والتي جددت بمعاهدة قلاوون وعكا التي ستذكر لاحقاً.

ذكر بعض أخبار حصن الأكراد وفتحه[1]

(ابن الفرات r189 – v190)

كان هذا الحصن قديماً يسمى حصن السفح. منتخب الدين يحيى بن أبي طي النجار الحلبي[2]، في تاريخه في سبب نسبته إلى الأكراد أن الأمير شبل الدين نصر بن مرداس صاحب حمص أسكن في هذا الحصن قوماً من الأكراد في سنة اثنين وعشرين وأربعماية (1031) فنسب إليهم، فلما أن كانت أيام الأتابك طغتكين بدمشق وقعت الهدنة بينه وبين الفرنج على أن يكون حصن الأكراد وحصن مصياف داخلين في الموادعة، ولحمل أهلها مالا معينا في كل سنة إلى الفرنج، فداوموا (فداوموا) على ذلك مدة. وذكر ابن عساكر[3] أن صنجيل (رايموند)، لعنه الله تعالى، منذ (سار) لطرابلس الشام كان لا يقطع الغارات عن هذا الحصن وما قاربه من الحصون. ثم أنه قصده في سنة ست وتسعين وأربعماية (1103) وحاصره وضيق عليه وأشرف على أخذه. واتفق قتل جناح الدولة، صاحب حمص، فطمع في حمص ورحل عن حمص الأكراد، واتفق هلاكه. وتولى ولده بنران (برتراند)[4]، فجرى على عادة أبيه في أذية هذا الحصن وإفساد أعماله، فخاف من كان فيه. وتوجه لحصار بيروت. فخرج طنكلي صاحب انطاكية واستولى على أكثر البلاد، وداراه أهل بلاد الشام، فنزل على هذا الحصن، وأهله في غاية ما يكون من الضعف. فسلمه صاحبه إليه، وكان يرجوا أنه يبقيه فيه لأنه اختاره على صنجيل، فأنزل أهله منه واجبره صحبته، ورتب فيه من يحفظه من الفرنج. انتهى ما ذكره (ابن عساكر).

وقيل أن طنكريك، صاحب أنطاكية، خرج من أنطاكية ونزل على حصن الأكراد، وتسلمه من أهله في بقية سنة ثلاث وخمسماية (1110)، ولم يزل بيد

---

(1) وهو قلعة الأكراد Krak de Chevaliers وكان حصن الداوية الكبير الواقع شمال شرق طرابلس.

(2) مؤرخ شيعي مغمور من القرن الثاني عشر حفظ لنا منه ابن الفرات بعض الاستشهادات

(3) مؤرخ دمشقي من القرن الثاني عشر.

(4) راجع الهامش رقم 48 في القسم الاول من هذا الكتاب

الفرنج إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى. وذكر ابن منقذ في كتاب البلدان[1]، أن الشهيد الملك العادل نور الدين محمود، صاحب الشام، رضي الله عنه كان قد عامل بعض رجاله التركمان المستخدمين في جهة الفرنج أصحاب حصن الأكراد، على أنه إذا قصده الشهيد يثور هو وجماعة من أصحابه في الحصن، ويرفعون علم نور الدين الشهيد على الحصن، وينادون باسمه وكان هذا التركماني له أولاد وأخوة قد وثق لهم الفرنج في هذا الحصن، وكانت العلامة بينه وبين الملك العادل نور الدين الشهيد، أنه يقف على رأس باشورة. فاتفق أن الشهيد لم يطلع أحداً على هذا الأمر، وتقدمت العساكر، فرأوا التركماني فرموه فقتلوه، واشتغل أهله بوفاته وبطلت الحيلة.

ولم يفتح السلطان صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب فيما فتح من بلاد الفرنج، ولم يزل الحصن بيد الفرنج إلى أن أغار الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي على طرابلس في هذه السنة (1271/669) ما قدمنا شرحه. وفي تاسع شهر رجب (2 شباط/فبراير) الفرد من هذه السنة، نازل السلطان الملك حصن الأكراد، وفي العشرين منه (4 آذار/مارس) أخذت ارباض حصن الأكراد، ووصل الملك المنصور، صاحب حماة[2]، بعسكره. فالتقاه السلطان، وترجل لترجله وساق السلطان تحت صناجق صاحب حماة بغير جمدارية ولا سلاح داريه، تأدبا مع صاحب حماة. وسير إليه دهليز أمر بنصبه. ووصل الأمير سيف الدين، صاحب صهيون وصاحب دعوة الإسماعيلية القياجب نجم الدين. وفي آخر شهر رجب، الشهر المذكور، تكمل نصب عدة مجانيق. وفي سابع شعبان (22 آذار/مارس) من هذه السنة، أخذت الباشورة بالسيف، وجعل للسلطان مكان يرى منه النشاب، وصار يعطي المال والخلع. وفي سادس عشر شعبان، الشهر المذكور، (31 آذار/مارس) تشقق برج من أبراج القلعة، وزحف الناس فطلعوا على القلعة وتسلموها، وطلع الفرنج على القلعة، وأحضرت جماعة من

---

(1) عمل مفقود من تأليف اسامة ابن منقذ المشهور الذي كتب ايضاً سيرته الذاتية. وتظهر كل هذه الاستشهادات طريقة التصنيف التي يسلكها ابن الفرات.

(2) عم المؤرخ ابو الفداء.

الفرنج والنصارى، فأطلقهم السلطان صدقة من الملك السعيد[1]. ونقلت المجانيق إلى القلعة ونصبت بها على التلة. وكتب السلطان كتباً على لسان مقدم الفرنج بطرابلس إلى من بالقلعة يأمرهم بالتسليم. ثم طلبوا الأمان، فكتب لهم أمان على أن يتوجهوا إلى بلادهم. وفي يوم الثلاثاء رابع وعشرين شعبان (7 نيسان/ابريل)، الشهر المذكور، خرج الفرنج منها وجهزوا إلى بلادهم، وتسلم السلطان الحصن.

وكتب إلى مقدم بيت الأسبتار، صاحب حصن الأكراد، كتاب بالبشارة، منه هذه المكاتبة "إلى افرير اوك[2]، جعلك الله ممن لا يعترض على القدر، ولا يعاند من سخر لجيشه النصر والظفر، ولا يعتقد أنه ينجي من أمر الله الحذر ولا يحمي منه حجر البناء ولا مبنيّ الحجر. يعلمه مما سهل الله من فتح حصن الأكراد الذي حصنته وبنيته وحليته، وكنت الموفق لو اخليته[3]. واتكلت في حفظه على أخوته، فما نفعوك، وضيعتهم بالإقامة فيه، فضيعوه وضيعوك. وما كانت هذه العساكر تنزل على حصن ويبقى أو تخدم سعيداً ويشقى". ورتب السلطان الأمير صارم الدين الكافري نائبا لحصن الأكراد، وفوض عمارته للأمير عز الدين الأكرم والأمير عز الدين أيبك الشيخ وقبض السلطان وهو يحاصر حصن الأكراد نفرين، كانا سيرا من العليقة[4] إلى صاحب طرابلس، وقد رتب معهم اغتيال السلطان الملك الظاهر. فلما حضر الصاحب نجم الدين، أنكر السلطان عليه ذلك، ثم أطلقهما.

---

(1) الابن الكبير لبيبرس وهو شاب خلفه على عرش مصر لسنتين (1277–1279)

(2) Frere Hugues - Hugues de Revel

(3) التلاعب المعهود بالالفاظ كما سيجري باسم الامير ولي العهد

(4) العليقة من حصون الاسماعيلية الذين غابت قوتهم المخيفة بعد ضربات تلقوها من المغول وهم هنا يتحركون بين الصليبيين وبيبرس ويدفعون أحياناً لكليهما الفدية رغم أنهم مازالوا على عادتهم الجارية في الاغتيالات.

الهجوم الفاشل على قبرص

(العيني 239-242)

وقال ابن كثير[1]: لما فتح الملك السعيد بن الظاهر حصن الأكراد جعل كنيستها جامعا وأقام فيه الجمعة، وولى السلطان فيه نائبا وقاضيا، وأمر بعمارة البلد. ثم أنه بلغ السلطان وهو مخيم على حصن الأكراد أن صاحب جزيرة قبرص قد ركب بجيشه إلى عكا، لينصر أهلها خوفا عليهم من الملك الظاهر، فأراد السلطان أن يغتنم هذه الفرصة، فبعث جيشا كثيفا في سبعة عشر شينيا ليأخذوا جزيرة قبرص في غيبة صاحبها عنها. فسارت المراكب مسرعةً، فلما قاربت الجزيرة جاءتها ريح قاصف، وصادفت بعضها بعضا، فتحطم منها أحد عشر مركبا بإذن الله عز وجل، فغرق خلق وأسر الفرنج من الصناع والرجال قريب من ألف وثمانمائة إنسان، إنا لله وإنا إليه راجعون.

وقال بيبرس[2] في تاريخه: هذه الطامة التي حصلت على المسلمين بعد فتح القرين، فقال: خرج السلطان من دمشق بعد فراغه من الجهات التي ذكرناها في العشر الآخر من شوال، (اوائل حزيران/يونية 1271) وسار إلى القرين[3] ونازله في ثاني ذي القعدة (13 حزيران/يونية)، وأخذت باشورته، وسأل من فيه الأمان، فكتب لهم أمانا، وتقرر خروجهم وتوجههم حيث شاءوا، وأنهم لا يستصحبون مالا ولا سلاحا. وتسلّم السلطان الحصن وأمر بهدم قلعته، ثم سار عنه ونزل اللجون، وتقدمت مراسمه إلى النواب بالديار المصرية وتجهيز الشواني وتسفيرها إلى قبرس، فجهزها النواب، وسفّروها صحبة مقدم البحر ورؤساء الخلافة. فلما وصلت إلى مرسى النمسون تحت قبرس جنها الليل، وتقدّم الشيني الأوّل داخلا على أنه يقصد الميناء، فصادف الشعاب في الظلماء، فانكسر. وتبعه الشواني واحدا فواحدا، ولم تعلم بما أصابه، فانكسروا في دجى الليل جميعا، وأسرهم أهل قبرس.

---

(1) مؤرخ من القرن الرابع عشر، والعيني هو ايضا مصنف عن مصادر سابقة.

(2) امير مملوكي بنفس اسم السلطان الذي عاصره لكنه كان اصغر سنا، وهو مؤلف تاريخ مهم حول احداث زمنه.

(3) مونت فورت، الافرنجي شمال شرق حيفا، تابع للداوية

وكان ابن حسون المقدّم قد أشار برأي، تطيّر الناس منه، وهي أن تطلى الشواني بالقار، ويحمل عليها الصليان لتشبته على الفرنج بشوانيهم، فيتمكن من مواتيهم، فاقتضى تغيير شعارها بما أراد الله من انكسارها. وورد كتاب صاحب قبرس إلى السلطان يخبر بأن شواني مصر وصلت إلى قبرس، وكسرها الريح وأخذتها، وهي أحد عشر شينيا، فأمر السلطان بأن يكتب جوابه، فكتب إليه هذه المكاتبة:

إلى حضرة الملك أوك، جعله الله ممن يوفي الحق لأهله، ولا يفتخر بنصر إلا أتى قبله أو بعده بخير منه أو مثله، نعلمه أن الله إذا أسعد إنساناً دفع عنه الكثير من قضائه باليسير، وأحسن له التدبير فيما جرت به المقادير[1]، وقد كنت عرفتنا أن الهواء كسر عدة من شوانينا وصار بذلك ينجج، وبه يفرح، ونحن الآن نبشره بفتح القرين، وأين البشارة بتملك القرين من البشارة بما كفى الله ماكنا من العين، وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب، الاستيلاء على الحصينة هو العجب، وقد قال وقلنا، وعلم الله إن قولنا هو الصحيح، واتكل واتكلنا، وليس من اتكل على الله وسيفه كمن اتكل على الريح، وما النصر بالهواء مليح، إنما النصر بالسيف هو المليح، ونحن ننشئ في يوم واحد عدة قطائع، ولا ينشأ لكم من حصن قطعة، ونجهز مائة قلع ولا يجهز لكم في مائة سنة قلعة، وكل من أعطى مقذاف قذف، وما كل من أعطى سيف أحسن الضرب به أو عرف، وإن عدمت من بحرية المراكب آحاد فعندنا من بحرية المراكب ألوف، وأين الذين يطعنون بالمقاذيف في صدر البحر من الذين يطعنون بالرماح في صدر الصفوف، وأنتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنا الخيول، وفرق بين من يجريها كالبحار ومن تقف به في الوحول وفرق بين من يتصيد الصقور من الخيل العراب، وبين من إذا افتخر قال: تصيدت بغراب[2]، فلئن كنتم أخذتم لنا قرية مكسورة فكم أخذنا لكم قرية معمورة، وإن استوليتم على سكان فكم أخليت بلادكم من سكان، وقد كسبت وكسبنا، فيرى اينا أغنم، ولو أن في الملك سكوتا كان الواجب عليه أن سكت وما تكلم.

---

(1) تنويع وتقويم للمفهوم الكلاسيكي القديم عن غيرة الالهة (والقائل بأن كثرة الخير على الانسان تستدعي غضب الآلهة – المترجم عن موقع انترنت)

(2) الغراب كان نوعا من الزوارق الخفيفة، ونقرأ هنا كما من قبل وفيما بعد التلاعب المعتاد بالالفاظ والمعاني

- 2 -

لم تكن سلطنة قلاوون أقل قيمة من سلطنة بيبرس، لابل إنها كانت أكثر انسانية. كما أن قلاوون اشتهر بعلاقاته مع مابقي من دويلات مسيحية في سورية، وبتوقيع سلسلة من المعاهدات مع الديوية وعكا ومرغريت صاحبة صور، والتي حفظ نصوصها كلها ابن عبد الزاهر في كتابه عن ذلك السلطان (تشريف الأيام والعصور). لكن قلاوون تابع أيضاً تفتيت الممتلكات اللاتينية في الأراضي المقدسة وتوج عملياته بأخذ طرابلس (1289) وكان المؤرخ أبو الفدا شاهد عيان على ذلك (وهناك رواية أخرى أقدم، نقلها مقريزي). بعد سقوط طرابلس لم يبق للفرنجة إلا منطقة عكا وبعض المدن الساحلية.

اتفاق قلاوون مع ديويّه طرطوس

(ابن عبد الزاهر، تشريف، v 38 – v 44)

وفي هذه السنة (1282/681) استقرت الهدنة بين مولانا الملك السلطان المنصور (قلاوون) وولده السلطان الملك الصالح علاء الدنيا والدين، وبين المقدم افرير كليام ديباجوك مقدم بيت الديوية بعكا والساحل، وبين جميع الأخوة الديوية بانطرطوس[1]، لمدة عشر سنين كوامل متتاليات وعشرة شهور، أول ذلك يوم الأربعاء خامس المحرم سنة إحدى وثمانين وستماية للهجرة النبوية المحمدية، الموافق للخامس عشر من نيسان/ابريل سنة ألف خمس ماية وثلاثة وتسعين للاسكندر بن فيلبس اليوناني[2] (15 نيسان/أبريل 1282)، على بلاء مولانا السلطان والملك المنصور، وبلاء ولده السلطان الملك الصالح علاء الدين

(1) نص الوثيقة مشوه

(2) التقويم السلوقي يبدأ في 311 قبل المسيح

علي[1]، وعلى كل ما هو داخل في مملكتهما من الديار المصرية وأعمالها وثغورها وموانيها، والبلاد الشامية وثغورها وحصونها وقلاعها وسواحلها وموانيها، والمملكة الحمصية وبلادها وأعمالها، وقلاع الدعوة وبلادها وأعمالها، ومملكة صهيون وبلاطُنُس، وجبلة واللاذقية وما أضيف إلى ذلك، والمملكة الحموية وبلادها وأعمالها، والمملكة الحلبية وأعمالها وبلادها والفراتية وبلادها وأعمالها، والفتوحات الساحلية وبلاد حصن الأكراد وبلادها وأعمالها داخل فيها ومنسوب إليها ومحسوب منها حين استقر أن هذه الهدنة، من بلاد وقرى ومزارع ومزاجات وأرض وأبراج وطواحين وغير ذلك، ومملكة صافيتا وبلادها وأعمالها وقراها وأسوارها، وما استقر لها، وأنصاف القرى والبلاد إلى آخر وقت، والميعار وأعمالها، والعُريمة وأعمالها وما هو مستقر لها ومنسوب إليها، وحلبَ وأعمالها، وعرقا وأعمالها، وطيبوا وأعمالها، وقلعة حصن الأكراد وأعمالها وبلادها، والقليعات وأعمالها وبلادها، بكمالها وبلادها وما وقع الاتفاق عليه في مناصفات بلاد المرقب، وكل ما تضمنته الهدنة لهم المستقرة في الأيام المنصورية، وكلما في هذه البلاد القريب منها والبعيد، والمحادر والمجاور وغير ذلك من عامر وداثر : وسهل ووعر، وبر وبحر وموانى وسواحل، وما هو في هذه البلاد من طواحين، وأبراج وبساتين وأنهار ومياه وشجيرات ونخل (آبار)، وكلما سيفتحه الله، على يد مولانا السلطان الملك المنصور، ويد ولده السلطان الملك الصالح، وعلى يد مقدمي جيوشه وعساكره، من حصون ومدن وقلاع وقرى، وما تخلل ذلك من سهل وجبل وعامر وداثر وأنهار وبساتين وموان وسواحل وبروز . وعلى انطرطوس الجارية في بيت الديوية، وعلى بلادها المستقرة إلى آخر وقت، عند استقرار هذه الهدنة المباركة، وما انضاف إلى بلادها من بلاد العريمة وميعار، بمقتضى الهدنة الظاهرية[2] التي حمل الأمر على حكمها، وهي سبعة وثلاثون ناحية، على ما فُصِّل في الهدنة على كل ما تحويه بلاد مولانا السلطان جميعها من المقدام اقرير كليام ديباجوك، مقدم بيت الديوية، ومن ساير الأخوة

---

(1) الوريث الذي عينه قلاوون لكنه مات في 1288 فانتقلت الوراثة الى الاشرف اخيه الاصغر.

(2) لايتوفر لدينا نص هدنة بيبرس المذكور

بانطرطوس، من جميع الخيالة والتركبلية والفرسان وسائر أجناس الفرنجية.

لا تخطي أحد من انطرطوس وبلادها وميناها وسواحلها إلى بلاد مولانا السلطان الملك المنصور وبلاد ولده السلطان الملك الصالح، ولا إلى قلاعهما ولا إلى حصونها ولا إلى بلادهما ولا إلى أراضيهما، ما عين في الهدنة وما لم يعين. وتكون انطرطوس وبلادها المعينة في الهدنة، ومن بها من الأخوة والفرسان والرعايا وغيرهم، القاطنين والمترددين، آمنين مطمئنين من مولانا السلطان الملك المنصور أو من ولده، ومن عساكرهما، ومن هو داخل في حكمهما، لا يتخطى أحد إلى انطرطوس ولا إلى بلادها ولا رعاياها، بمكروه ولا غارة، إلى انقضاء الهدنة. وعلى أن الممنوعات تستمر على قاعدة المنع.

وعلى أنه متى انكسر مركب أو إنعاب من بلاد مولانا السلطان، ومن المترددين إليها، وغيرها من ساير البلاد والأجناس والناس، في ميناء انطرطوس وسواحلها وبروزها الداخلة في هذه الهدنة يكون كل من فيها آمنين على النفوس والأموال والمتاجر والبضائع والرجال. فإن وجد صاحب الذي انكسر أو إنعاب، يسلم إليه مركبه وماله، وإن عدم بموت أو غرق، فيحتفظ بموجوده، ويسلم لنواب مولانا السلطان. ويكون هذا الحكم لما ينكسر في بلاد مولانا السلطان من مراكب انطرطوس.

وعلى أن لا تجدد في بلاد انطرطوس، المعينة في هذه الهدنة، قلعة ولا برج ولا حصن، ولا ما يُتحصّن به من حفر خندق، ولا غير ذلك.

الاتفاق مع عكا

(ابن عبد الزاهر، 69r – 85 v)

وفي هذه السنة (1283/682) أجاب مولانا السلطان مسألة أهل عكا، عندما تكررت رسلهم إلى خدمته في الشام ومصر بسبب الصلح، ومنعهم من الحضور في البر، وأنهم لا يحضرون إلا في البحر إن أرادوا الحضور، فحضروا في البحر وآخر الأمر أنهم نزلوا على حكمه، بعد أن كانوا اشتطوا عند انقضاء الهدنة

الظاهرية[1]. (وفي صفر من هذا العام (آيار/مايو 1283) وصل رسل الإفرنجية وأعيان عكا ووقعوا على الهدنة) وحلف مولانا السلطان عليها بحضور رسل الفرنجية؛ وهم نفران من بيت الديوية أخوة، ونفران من بيت الأسبتار أخوة، ومن المملوكية فارسان هيام: والي الولاة والوزير فهد. وهي (نص الهدنة):

استقرت الهدنة بين مولانا السلطان الملك المنصور وولده السلطان الملك الصالح علاء الدين الدنيا والدين علي، خلد الله سلطانهما، وبين الحكام بمملكة عكا وصيدا وعتليث وبلادها التي انعقدت عليها الهدنة، وهم السنجال أود، كفيل المملكة بعكا[2]، والمقدم افرير كليام دبياجول، مقدم بيت الديوية، والمقدم افرير نيكول للورني، مقدم بيت أسبتار الأمن (الأرمن)، لمدة عشر سنين كوامل وعشرة شهور وعشرة أيام وعشرة ساعات. أولها يوم الخميس خامس شهر ربيع الأولى سنة اثنين وثمانين وستماية للهجرة النبوية، الموافق للثالث من حزيران/يونية سنة ألف وخمسماية أربعة وتسعين للاسكندر بن فيليبس اليوناني (3 حزيران/يونية 1283). على جميع بلاد مولانا السلطان الملك المنصور وولده السلطان الملك الصالح علاء الدنيا والدين، على جميع القلاع والحصون والبلاد والممالك والأعمال والمدن والقرى والمزارع والأراضي، وهي[3] مملكة الديار المصرية وما بها من الثغور والقلاع والحصون الإسلامية، وثغر دمياط وثغر الإسكندرية ونستروه ومنتزية، وما ينسب إلى ذلك من المواني والسواحل والبروز، وثغر فوة وثغر الرشيد والبلاد الحجازية، وثغر غزة المحروس، وما معها من المواني والبلاد والمملكة الكركية والشوبكية وأعمالها، والصلت وأعمالها، وبصرى وأعمالها،

---

(1) لايتوفر لدينا نص هدنة بيبرس المذكور

(2) Carlo d'Angio' قائم مقام Odo Poilechien

(3) نتابع على وتيرة واحدة قائمة طويلة بممتلكات سلطان مماليك مصر مرتبة تقريبا من الجنوب الى الشمال. وتفصح الأمور عن حالها عندما نقارن هذه القائمة مع وصف الاراضي الموجز الذي سنراه لاحقا في قائمة طرف العقد الثاني، والنتيجة هي ان مملكة القدس قد مسخت الى بقعة هزيلة تمتد من شمال عكا الى الكرمل. وهناك خارجها صور وصيدا وبيروت وطرابلس وبعض قلاع الداوية والاسبتارية في سورية وهي كل ماتبقى من اعمال الصليبيين. اما قائمة دويلات قلاوون بدءا من المدينة المقدسة فتضم كل الاراضي التي خسرها أو هاجمها الصليبيون عبثاً خلال قرن من الزمان.

ومملكة الخليل، صلوات الله وسلامه عليه، ومملكة القدس الشريف وأعمالها، والأردن وبيت لحم وأعماله وبلادها وجميع ما هو داخل فيها ومحسوب منها، وبيت جبريل، ومملكة نابلس وأعمالها، ومملكة الأطرون وأعمالها، وعسقلان وأعمالها وموانيها وسواحلها، ومملكة يافا والرملة وميناها وأعمالها، وأرسوف وأعمالها وميناها، وقيسارية وميناها وسواحلها وأعمالها، وقلعة قاقون وأعمالها وبلادها، ولدّ وأعمالها، وأعمال العوجا وما معها من الملاّحة (المملحة)، وبلاد الفتوح العيد وأعمالها ومزارعها وبيان وأعمالها ومزارعها، والطور وأعماله، واللجّون وأعماله، وجنين وأعمالها، وعين جالوت وأعمالها، والقيمون وأعماله وما ينتسب إليه، وطبرية وبحيرتها وأعمالها وما معها، والمملكة الصفدية وما ينتسب إليها، وتبنين وهونين وما معها من البلاد والأعمال، والشقيف، المعروف بشقيف أرنون، وما معه من البلاد والأعمال وما هو منسوب إليه، وبلاد القرن وما معه، خارجاً عما عين في هذه الهدنة، ونصف مدينة اسكندرونة ونصف ضيعة مارون بقراها وكرومها وبساتينهما وحقولهما، وما عدا ذلك يكون جميعه بحدوده وبلاده لمولانا السلطان ولولده، والنصف لمملكة عكا، والبقاع العزيزي[1] وأعماله، ولشقرا وأعمالها، وشقيف قيرون وأعماله، وقلعة الصبيبة وما معها من البحيرات وأعمالها، وكوكب وأعمالها وما معها، وقلعة عجلون وأعمالها، ودمشق والمملكة الدمشقية ومالها من القلاع والبلاد والممالك والأعمال، وقلعة بعلبك وما معها وأعمالها، ومملكة حمص وما لها من الأعمال والحدود، ومملكة حماة ومدينتها وقلعتها وبلادها وحدودها، وبلاطُنُس وأعمالها، وصهيون وأعمالها، وبرْزية وأعمالها، وفتوحات حصن الأكراد وأعماله، وصافيتا وأعمالها، وميعاز وأعمالها، والعُزيمة وأعمالها، مرقية وأعمالها، وحلب وأعمالها، وحصن عكا وأعماله وبلاده، والقُليعة وأعمالها، وقلعة شيزر وأعمالها، وأفامية وأعمالها، وجبلة وأعمالها، وأبو قُبيس وأعماله، والمملكة الحلبية وما هو مضاف إليها من القلاع والمدن والبلاد والحصون، وأنطاكية وأعمالها وما دخل في الفتوحات المباركة[2]، وبغراس

---

(1) نسبة الى الملك العزيز ابن صلاح الدين.

(2) فتوحات بيبرس الجديدة نوعا ما، لكنه غير واضح ماهي الفتوحات السعيدة المذكورة لاحقا.

وأعمالها، والدريساك وأعماله، والراوندان وأعمالها، وحارم وأعمالها، وعينتاب وأعمالها، وتيزين وأعمالها. وسيح الحديد وأعماله، وقلعة نجم وأعمالها، وشقيف دير كوش وأعمالها، والشغر وأعماله، وبكاس وأعماله، والسويدا وأعمالها، والباب وبزاعا وأعمالهما، والبيرة وأعمالها، والبيرة وأعمالها. والرحبة وأعمالها، وسلمية وأعمالها، وشميمس وأعمالها، وتدمر وأعمالها، وما هو منسوب إلى جميع ذلك ما عين وما لم يعين.

(الأمان مكفول في كل هذه البلاد) من الحكام بمملكة عكا، وهم: كفيل المملكة والمقدم افرير كليام دبياجول مقدم بيت الديوية، والمقدم افرير نيكول للورن مقدم بيت الأسبتار، والمرشال افرير كرزات نايب مقدم بيت أسبتار الأمن، ومن جميع الفرنج الأخوة والفرسان الداخلين في طاعتهم وتحويه مملكتهم الساحلية، ومن جميع الفرنج على اختلافهم الذين يستوطنون عكا والبلاد الساحلية الداخلة في الهدنة، من كل واصل إليها في بر وبحر على اختلاف أجناسهم وأنفارهم. لا ينال بلاد مولانا السلطان الملك المنصور، وبلاد ولده السلطان الملك الصالح – ولا حصونها ولا قلاعهما ولا بلادهما ولا ضياعهما ولا عساكرهما ولا عربهما ولا تركمانهما ولا رعاياهما على اختلاف الأجناس، ولا ما تحويه أيديهم من المواشي والأموال والغلال وساير الأشياء ضرر ولا سوء ولا غارة ولا تعرض ولا أذية، وكذلك كلما يستفتحه مولانا الملك السلطان المنصور وولده السلطان الملك الصالح، على يدهما ولا عساكرهما وثوابهما من بلاد وحصون وقلاع وملك وولايات، براً وبحراً، سهلاً وجبلاً.

وكذلك جميع بلاد الفرنج التي استقرت الآن عليها الهدنة من البلاد الساحلية، وهي مدينة عكا وبساتينها وأراضيها وطواحينها وما تحصّن بها من كرومها، وما لها من حقوق حولها، وما تقرر من بلاد في هذه الهدنة، وعدتها بما فيها من مزارع، ثلثه وسبعون ناحية، خاصاً للفرنج، وكذلك حيفا والكروم والبساتين، والعدة بحيفا سبع نواحي، وكذلك مارينا بأرضها، المعروفة بها، تكون للفرنج، وكذلك دير السياج (٢) أو دير مار إلياس يكون للفرنج ويكون لمولانا السلطان من بلاد الكرمل خاصاً عكا والمنصورة، وهي ثلث عشرة ناحية، للفرنج

وعثليث، القلعة والمدينة والبساتين التي قطعت، والكروم وفلاحتها وأراضيها، تكون لها، ويكون لها من البلاد ستة عشر ناحية. وتكون خاصا لمولانا السلطان ما يذكر، وهو قرية الهرأميس بكاملها وحقوقها ومزارعها، وبقية بلاد عثليث تكون مناصفة، خارجا عما للخاص الشريف، وعما لخاص عثليث تكون مناصفة، وهي ثمان نواحي. وفلاحة الأسبتار بعمل قيساريه يكون خاصا للفرنج بما فيها. ونصف مدينة اسكندرونة ونصف قرية مارون بما فيها للفرنج، وما عدا ذلك يكون لمولانا السلطان. ومهما كان في اسكندرونة وقرية مارون من الحقوق والغلة، يكون مناصفة. وصيدا، القلعة والمدينة وضواحيها وجميع ما ينتسب إليها، يكون خاصا للفرنج، ويكون لها من البلاد خاصا خمس عشرة ناحية، وما في الوطأة من أنهار ومياه وعيون وبساتين وطواحين وقني ومياه جارية وسكور (سدود)، لهم بها عادة قديمة تسقي أراضيهم، يكون خاصا لها. وما عدا ذلك من البلاد الجبلية جميعها، تكون لمولانا السلطان ولولده بكاملها. وتكون هذه البلاد العكاوية، وما عين في الهدنة، آمنة من مولانا السلطان ومن ولده ومن عساكره وجيوشه، ما هو خاص وما هو مناصفة آمنة مطمئنة، ومن بها.

وليس للفرنج أن يجددوا في غير عكا وعثليث وصيدا، مما هو خارج عن الأسوار في هذه الجهات الثلاثة، سورا ولا قلعة ولا برجا ولا حصنا قديما ولا مستجدا.

وعلى أن شواني مولانا السلطان وشواني ولده، متى عمرت وخرجت، لا تتعرض لأذية البلاد الساحلية التي انعقدت الهدنة عليها، وإذا قصدت الشواني المذكورة جهة غير هذه الجهات، وكان صاحب تلك الجهة معاهدا للحكام بمملكة عكا، ولا تدخل إلى البلاد التي انعقدت الهدنة عليها، ولا تتزود منها، وإن لم يكن صاحب تلك الجهة التي تقصدها الشواني، معاهدا للحكام بمملكة عكا، فلها أن تدخل إلى بلادها وتتزود منها؛ وإن انكسر شيء من هذه الشواني – والعياذ بالله – في مينا من المواني التي انعقدت الهدنة عليها وسواحلها، فإن كانت قاصدة إلى من له مع مملكة عكا عهدا أو مع مقدميها، فيلزم كفيل المملكة بعكا ومقدمي البيوت حفظها، ويمكن رجالها من الزوادة وانصلاح ما انكسر والعود إلى البلاد

الإسلامية، ويبطل حركة ما انكسر منها أو ترميه في البحر. فإن لم يكن للذي تقصده الشواني معهم عهد وانكسرت، فلها أن تتزود وتعمر رجالها من البلاد المنعقدة عليها الهدنة، وتتوجه إلى الجهة المرسوم بقصدها، ويعهد هذا الفصل بين الجهتين.

وعلى أنه متى تحرك أحد من ملوك البحر الفرنجية، وغيرهم من جوّا البحر، لقصد الحضور لحضرة مولانا السلطان، أو حضرة ولده، في بلادهما المنعقدة عليها الهدنة، فليلتزم نايب المملكة والمقدمون بعكا، تعريف مولانا السلطان بحركتهم، قبل وصولهم إلى البلاد بمدة شهرين، وإن وصلوا بعد انقضاء مدة شهرين فيكون كفيل المملكة بعكا والمقدمون بُرَّاء (بريئين) من عهدة اليمين في هذا الفصل.

وإن تحرك عدد من جهته التتار وغيرهم، فأي من سبق إليه من الجهتين، فيعرف الجهة الأخرى. وعلى أنه إن قصد البلاد الشامية – العياذ بالله – عدد من التتار وغيرهم في البر، انحازت العساكر قدامهم ووصل العدد إلى القريب من البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة، وقصدوها بمضرّة، فلكفيل المملكة بعكا والمقدمين بها أن يداروا عن نفوسهم ورعيتهم وبلادهم بما تصل قدرتهم إليه. فإن حصل جفل – والعياذ بالله – من البلاد الإسلامية إلى البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة، فيلزم كفيل المملكة بعكا والمقدمين حفظهم والدفع عنهم ومنع من تقصدهم بضرر، يكونون آمنين مطمئنين بما معهم. وعلى نايب المملكة بعكا، والمقدمين يوصون في ساير البلاد الساحلية التي وقعت الهدنة عليها، أنهم لا يمكنون حراميّة البحر من الزوادة من عندهم، ولا من حمل ماء، وإن ظفر بأحد منهم يمسكوه، وإن باعوا عندهم بضائع يمسكوا، حتى يحضر صاحبها وتسلم إليه، وكذلك يعتمد مولانا السلطان في أمر الحرامية هذا الاعتماد.

وعلى أن تكون كنيسة الناصرة، وأربع بيوت من أقرب البيوت، لزيارة الحجاج وغيرهم من دين الصليب، كبيرهم وصغيرهم، على اختلاف أجناسهم وأنفارهم من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة. ويصلي بالكنيسة الأقساء والرهبان، وتكون البيوت لزوار كنيسة الناصرة خاصة، ويكونون آمنين

مطمئنين في توجههم وحضورهم إلى حدود البلاد الداخلة في هذه الهدنة. وإذا تُقيت الحجارة التي بالكنيسة، ترمى برا، ولا يحط منها حجر على حجر لأجل بناء، ولا يتعرض إلى الأقساء والرهبان في ذلك على وجه الهبة بغير حق[1].

وتضمنت الهدنة تقرير الشروط الجاري بها العادة. ولما حلف مولانا السلطان على هذه الهدنة، توجه الأمير فخر الدين أياز أمير حاجب، والقاضي بدر الدين بن رزين، لتحليف الفرنج، فحلفوا واستقر ذلك.

صيغة قسم السلطان في هذه الهدنة

(ابن الفرات 7، v 181 – r 182)

والله والله والله، وبالله وبالله وبالله، وتالله وتالله وتالله، والله العظيم الطالب الغالب الضار النافع المدرك المهلك، عالم ما بدا وما خفا، عالم السر والعلانية الرحمن الرحيم، وحق القرآن ومن أنزله ومن انزل عليه، وهو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وما يقال فيه من سورة سوره وآية آيه، وحق شهر رمضان انني أفي بحفظ هذه الهدنة المباركة، التي استقرت بيني وبين ملك عكا والمقدمين بها على عكا وعسليت وصيدا وبلادها، التي تضمنتها هذه الهدنة، التي مدتها عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشرة ساعات، أولها يوم الخميس خامس شهر ربيع الأول، سنة اثنين وثمانين وستماية للهجرة، من أولها إلى آخرها، وأحفظها وألتزم بجميع شروطها المسرودة فيها، وأجري الأمور على أحكامها إلى انقضاء مدتها، ولا أتأول فيها ولا في شيء منها، ولا استفتي فيها طلبا لنقضها[2] ما دام الحاكمون بمدينة عكا وصيدا وعسليت، وهم كافل المملكة بعكا ومقدم بيت الديوية ومقدم بيت الأسبتار ونايب بيت اسبتار الأرمن، الآن ومن يتولى بعدهم في كفالة مملكة أو يقدم بيت بهذه المملكة المذكورة، وافين باليمين التي يحلفون

---

(1) تسمح الشريعة الاسلامية بوجود كنائس مسيحية على اراض اسلامية، لكنها لاتسمح بترميمها او بنائها من جديد، الا ان السلطات المحلية كانت تعصر تبرعات من الكهنة. (تشاد كثير من دور العبادة التابعة لكل الأديان بتبرعات اتباعها– المترجم)

(2) خلال قديم في عادات المسلمين وغيرهم للتحلل من اليمين والعهد.

بها لي ولولدي الملك الصالح ولأولادي على استقرار هذه الهدنة المحررة الآن، عاملين بها وبشروطها المشروحة فيها، إلى انقضاء مدتها، ملتزمين بأحكامها. وإن نكثت في هذا اليمين فيلزمني الحج إلى بيت الله الحرام، بمكة المشرفة، حافياً حاسراً ثلاثين حجة، ويلزمني صوم الدهر كله إلا الأيام المنهي عنها (ويذكر بقية شروط اليمين)، والله على ما نقول وكيل.

صيغة قسم الإفرنج

(ابن الفرات 7، 182 R - 183 R)

والله والله والله، وبالله وبالله وبالله، وتالله وتالله وتالله، وحق المسيح وحق المسيح وحق المسيح وحق الصليب وحق الصليب وحق الصليب وحق الأقانيم الثلاثة من جوهر واحد المكنى بها عن الأب والابن والروح القدس إله واحد، وحق اللاهوت[1] المكرم الحالّ في الناسوت المعظم، وحق الإنجيل المطهر وما فيه، وحق الأناجيل الأربعة التي نقلها متى ومرقس ولوقا ويحنا، وحق صلواتهم وتقديساتهم، وحق التلاميذ الإثني عشر والاثنين وسبعين والثلثماية وثمانية عشر المجتمعين بالبيعة، وحق الصوت الذي نزل من السماء على نهر الأردن فزجره، وحق الله منزل الإنجيل على عيسى بن مريم، روح الله وكلمته، وحق الست ماريا أم النور مارت مريم ويوحنا المعمودين ومرتمان ومرتماني، وحق الصوم الكبير، وحق ديني ومعبودي وما تلقيته من النصرانية، وما تلقيته من الآباء والأقساس المعمودية. أنني ومن وقتي هذا وساعتي هذه أنني قد أخلصت بينتي وأصفيت طويتي في الوفا للسلطان المنصور ولولده الملك الصالح ولأولادهما: بجميع ما تضمنته هذه الهدنة المباركة، التي انعقد الصلح عليها على مملكة عكا وصيدا وعسليث وبلادها الداخلة في هذه الهدنة المسماة فيها التي مدتها عشرة سنين كوامل وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشرة ساعات أولها يوم الخميس ثالث حزيران

---

(1) يقول غابرييلي ان النص اخطأ بذكر الصليب وهذا ما صلحه Quatremere (الهامش غير مفهوم القصد -المترجم)

سنة ألف وخمسماية أربعة وتسعين للاسكندر بن فيلبس اليوناني، والعمل بجميع شروطها، شرطا شرطا، والتزم الوفا بكل فصل في هذه الهدنـة المذكورة إلى انقضـاء مدتها. وإني والله والله وحق المسيح وحق الصليب وحق ديني، لا أتعرض لبلاد السلطان وولده ولا إلى من حوته وتحويه من ساير الناس أجمعين، ولا إلى من يتردد منها إلى البلاد الداخلة في هذه الهدنـة، بأذية ولا ضرر، في نفس ولا في مال. وإني والله وحق ديني ومعبودي، أسلك في المعاهدة والمهادنة والمصـافاة والمصـادقة وحفظ الرعية الاسلامية، والمترددين من البلاد السلطانية والصيادين منها وإليها، طريق المعاهدين المتصـادقين الملتزمين كف الأذية والعدوان، من النفوس والأموال. وألتزم الوفا بجميع شروط هذه الهدنة. على انقضايها، ما دام الملك المنصـور وافيا باليمين التي حلف بها على الهدنة، ولا أنقض هذه اليمين ولا شيئاً منها ولا أستثني فيها ولا شيء منها طلبا لنقضـها. ومتـى خالفتها أو نقضتها أكون بريء من ديني واعتقادي ومعبودي، وأكون مخالف للكنيسـة، ويكون علي الحج إلى القدس الشريف ثلثين حجة حافيا حاسرا، ويكون علي فك ألف أسير مسلمين من أسرى الفرنج وإطلاقهم، وأكون من() من الأهوت (اللاهوت) الحـال فـي الناسوت، واليمين يميني، وأنا فلان والنية فيها بأسرها (مثل) نية السلطان الملك المنصـور وولده الملك الصـالح، ونية مستحلفي لهما بهما على الإنجيل المكرم.

لا نيّة لي غيرها، والله والمسيح على ما نقول وكيل.

فتوح حصن المرقب

(تشريف 149r – r 160)

وهو حصن عظيم منيع، ما زال مولانا السلطان الملك المنصـور، نصره الله، يدأب فـي أمره ويتحيّل في تحصيله للإسلام، ويستنفذ الرأي والتدبير في افتتاحه واجتياب جماحه، لأنـه كان قد أعجز الملوك، ولم يقدر أحد منهم على التقريب منه، فكيف النزول عليه. واجتهد الملك الظاهر (بيبرس) في الإغارة عليه مرارا،

فما قدر الله ذلك ولا سهله، ولا حاج على قسمته ولا عجله. وتوجه إليه مرة من حماة: مصادفته ثلوج وبرد وأمطار، وحجبته عنه، وحجزته المضايق والأوعار، ومرة من غير حماه، ولم يحصل له منه قصد بالحملة الكافية، وخبأه الله لمولانا السلطان، ليكون من فتوحاته المنيرة ولتطرز به أحسن سيرة. وكان بيت الأسبتار الذين به قد زاد بغيهم وعدوانهم، وكثر فسادهم، حتى بقيت أهل القلاع المجاورة لهم كأنهم في حبس، بل في رمس وكان الفرنج يعتقدون أنه لا يدرك بحول ولا حيلة، وأن الحيلة فيه قليلة واستمروا على هذا الطغيان، ولم يقفوا عند الإيمان، وعملوا في نوبة القليعات(1) كل فتح من الغدر والأسر والنهب، ومولانا السلطان المنصور رابض بهم كالأسد الهصور، وهو يهتم بأمر هذا الحصن من غير إظهار، وكلما أوقدوا ناراً لحرب أمدته من الهداية الربانية الأنوار، وجهز المناجيق من دمشق، ولا يعلم أحد إلى أين تسير، ولا إلى أين المصير، والرجال من البلاد مجهزة بأزوادهم ومقدميهم وعددهم، وهي كثيرة لا تحصى كثرة، ومن الناس من يقول أن العزم إلى قلعة الروم(2)، ومنهم من يقول إلى غير ذلك. وكان قد جهز مولانا السلطان زردخاناة عظيمة من مصر، بها أحمال كثيرة من النشاب وغيره، وكذلك فرق على الأمراء والجند نشاب يحملونه معهم، ليحضرونه إذا طلب منهم، وجهزت آلات من الحديد والنفط مما لا يوجد إلا في ذخايره وخزاين سلاحه. كل ذلك سبق تجهيزه قبل سفره، وتوجهه، واستخدمت جماعة كبيرة من الصناع الذين لهم خبرة بالحصارات ودربه بالمنازلات، وجهزت المجانيق التي في القلاع المجاورة، وجرت رجالها من غير رهج ولا إظهار شيء. وحملت المناجيق والآلات على الأعناق والرؤوس، ورحل مولانا السلطان من على منزلة عيون القصب مُجِداً. فنازل حصن المرقب، في يوم الأربعاء العاشر من شهر صفر (17/684 نيسان/أبريل 1285).

وللوقت حملت المجانيق على الأكتاف في تلك الأكناف، وكان البلاء بهذا الحصن من كل مكان، ونفذوا في حصاره بأعظم سلطان، ونصبت المجانيق

---

(1) هي Caliat باللاتينية، قرب عرقة وقد تعرضت قبلها الى غزو الاسبتارية.

(2) قلعة الروم في أعلى الفرات.

الفرنجية والقرابغا، ومن جملة ذلك مجانيق فرنجية كباراً ثلاثة، ومجانيق قرابغا ثلاثة، ومجانيق شيطانية أربعة، بحيث أنها طافت بها من كل مكان، واستمرت ترمي من الحجارة بما يتطاير شرره ويتنوع ضرره، وأخذت النقوب من كل جانب. واتفق أن المجانيق الفرنجية كسرت مجانيق الفرنج، وتقدمت الإسلامية إلى قرب القلعة، فأصلح الفرنج مجانيقهم، ورموا المجانيق الإسلامية، فكسروا بعضها، وقتل تحتها جماعة من المسلمين. ولا خلاف في أن الحرب سجال، وما في كل موطن تسلم في الحرب الرجال. وانتهى النقب السلطاني وحُشي بالأحطاب، وأوقد في يوم الأربعاء سابع عشر شهر ربيع الأول (25 أيار/مايو): فعملت النيران في وسط النقب في البرج الذي في قرنة الباشورة، وزحف المسلمون ليطلعوا الباشورة، واشتد القتال، وقصد المسلمون الصعود فما تمكنوا، فبطل الزحف وانفصل هذا النهار، وسقط البرج، وتوهم الناس عسر التوصل إلى الحصن. وبات الناس في قلق عظيم لأجل ذلك، لأن الحيلة من المجانيق بطلت بسبب ماعرض، والنقوب انتهى الحال فيها، وما بقي تدبير إلا من الله عز وجل. فلما كان يوم الجمعة، أنزل الله تعالى لطفه وأجمل عطفه، وأنجد بملائكته المقربين وجنوده أجمعين، فنزلت لنصرة الإسلام مسرعين: وخيّل الله للفرنج أن النقوب في بقية الأسوار على هذه الصورة، وأن النقوب تخرج إلى الخنادق، ومنها إلى الأبراج، وتتعلق حينئذ في الأسوار. وكانت النقوب قد أخذت من تحت الخنادق في أسربة إلى تحت الأبراج، والفرنج لا يشعرون بذلك، فأطلعوا على ذلك، فسقط في أيديهم، وحل الخذلان في ناديهم، وتحققوا أنهم قتلى بغير شك، وأن أسيرهم لا يفك، وطلبوا الحديث في الأمان، والمعادلة بالعفو والاحسان، وبعد أن كانوا يؤثرون الموت على الحياة، صاروا يؤثرون الحياة على الموت، وتحققوا أنهم إن غفلوا عن أنفسهم، فإن فيهم الفوت. فطلبوا رحمة مولانا السلطان وعفوه، فاقتضى الحال أن مولانا السلطان رأى إختيار الغنيمة بهذا الحصن العظيم أولى من التطويل في حصاره، وأن التأخير له آفات، والأولى الاهتمام بما هو آت، وأن الفرنج الذين بهذا الحصن، إن سلموا من نار السيوف، لا يسلموا من نار الحتوف. فأجابهم إلى العفو والأمان، ووثقوا بأن قول مولانا السلطان هو أعظم من الإيمان. فسيروا أكابرهم

إلى الدهليز المنصور، ولم يسألوا غير الأمان على النفوس لا غير، وأن لا يخرج منهم لا مال ولا سلاح متعلق بالحصن خاصة، ومن لم له مال يتعلق بنفسه ينعم عليه به وشفّع الأمراء فيهم، وقبّلوا الأرض بين يدي مولانا السلطان، ورغبوا في إجابة سؤالهم، فأُطلق لهم مركوب أكابرهم من الخيل والبغال خمسة وعشرون رأساً وملبوساً، وما عينوه من مال لبعضهم، وهو ألفان دينارا صورية، وكتبت لهم أمانات، وصعدوا ومعهم الأمير فخر الدين المقري الحاجب، فحلّف الجسطلين وبقية الفرسان. وسلموا الحصن جميعه في ثامن ساعة من نهار الجمعة ثامن عشر شهر ربيع الأول (25 أيار/مايو)، وصعد الصنجق الشريف السلطاني المنصوري المنصور. وارتفعت ألسنة العالم بالأدعية لمولانا السلطان الذي أرتهم أيامه هذا الفتح الذي طالما تقاصرت عنه الهمم، وشابت دون الإلمام به اللمم.

وطلع المسلمون وأعلن أعلاه بالأذان والتسبيح والشكر لله على إهلاك عبدة المسيح وإخلاء ديارهم منهم، وأنهم لم تغن نيتهم شيئاً عنهم، وكتبت البشائر إلى جميع الأقطار، وسيّرت به البريدية إلى كل جهة. وطلع مولانا السلطان إلى الحصن، يوم السبت، واجتمع الأمراء الأكابر في خدمته، وضرب مشورة بين يديه في هدم القلعة أو إبقائها، فمنهم من أشار بهذا، ومنهم من أشار بهذا، ومنهم من أشار بهذا. ورأي مولانا السلطان يتقد نوره نفاذاً، فرأى إبقاءها لحصانتها ومنعتها، وتحسينها وتزينها. وصمم على ابقائها حسرة في قلوب الكفار، وعضداً للحصون التي لها عليها حق الجوار، ورتب بها ألف راجل أتجيّة (؟) وجرخية ومقاتلة، وأربع ماية من أرباب الصنايع، ورتب بها جماعة من الأمراء أصحاب الطبال خانات، وجماعة من البحرية الصالحية والمنصورية[1]، ماية نفر وخمسون نفراً. ونقل المنجنيقات التي كانت ترمي عليها، فصارت ترمي منها، وكذلك الآلات والأخشاب والأحطاب والنشاب والزردخانات والنفط، ومن كل شيئ كان في الصحبة الشريفة من أصناف الحصن وآلاته. ورتب لها خاصاً من بلاد كفر طاب

---

(1) أصحاب الطبل خانات امراء عندهم اوركسترا عسكرية لتحية الشرف. المماليك البحرية هم كما اسلفنا قاطنو بحر النيل، والصالحية والمنصورية شكلهما كل من الملك الصالح والملك المنصور اي قلاوون نفسه.

ومدينـة انطاكيـة ومدينـة اللاذقيـة والمينـا وبـلاد المرقـب التـي كانـت خاصـا لهـا وماكان مقطعا قبل الفتح، وجملة مايتحصن منه عند عمارته الف الف درهم، ورتب كلف عمارته[1] ونفقات رجالته على البلد الى ان تتعمر وتتراجع اهلها، ولما تمت هذه الامور رحل فنزل بالوطأة على مدينة بلنياس.

فتح مرقيّة

(تشريف r 172 – v 178)

ولما فرغ مولانا السلطان، نصره الله، من مهمات المرقب، ونزل بالوطـأة، على ما ذكرناه، وشرع في أمر حصن مرقيّة، وأعمل الرأي في افتتاحه، وتحقق أنه بين أحشاء تلك الحصون داء دخيل، وأنه لا يحصل راحة ولا أمن بوجوده وبقائه. وصاحبه يعرف ببرتلما (بارتولوميو)، أحد أكابر الفرنج. وكان لم (لما) فتح حصن الأكراد، لم يطق الإقامة بهذه البلاد وضاقت به، فهجّ على رأسه، ودخل إلى التتار مستجيراً ومستميراً ومستنصراً ومستكثراً، وأقام سنين على هذه الحالات. ولما مات الملك الظاهر، رحمه الله، عاد إلى هذه البلاد واغتنم الفرصة وطلب عمارة مرقيّة، فعجزت قدرته وخاف أن تؤخذ منه. فعمر حصناً قبالتها، وحصنه وحسنه، وأعانه الابرنس (الأمير) صاحب طرابلس، عليه. وأمدّه وأعانه آخرون من الفرنج الاسبتارية، أهل المرقب، وغيرهم. وهذا البرج (هو) بين انطرطرس وبين المرقب، في البحر المالح، قبالة مدينة مرقيه، وبينه وبين البحر رميتان للسهم السريع وأكثر. وصفتُه: أنه برج مربع، عرضه قريب من طوله، كل جانب منه خمسة وعشرون ذراعاً ونصف (بالعَمَل) وعرض سوره سبعة أذرع. وهو سبع طباق، وبني على مراكب، غُرّقت في وسط البحر، فيها أحمال كثيرة من الحجارة، تحت كل قطر مفرّق تسع ماية مركب (؟!) فيها حجارة، وبين كل حجرين، في أسوارها، قضيبين من الحديد متصلين وعليهما شبك الرصاص،

---

(1) أفهم من هذا انه من الصعب وضع الكلفة المالية لاعادة الاعمار على المنطقة المعنية نفسها وذلك من خلال مطالبة الجملة العامة في الوحدة الاقتصادية-العسكرية القائمة.

وداخله صهريج عظيم، وفوق الصهريج قبو، وفوق القبو أخشاب، وفوق الأخشاب حصى صغار، وفوق الحصى خيش، وفوق الخيش حبال قنب مشدودة، حتى إذا نصب المنجنيق من البر ورمي به لا يبالي مما يرمى فيه، ويقع الحجر من أعلاه في الماء. وفيه مائة مقاتل. وخلف هذا البرج برج متصل به، وفيه ثلاثة مجانيق منصوبة. لا يؤخذ هذا الحصن بحصار ولا بضايقة. وكان النواب (المسلمون) بحصن الأكراد وتلك الجهات، لما بني هذا الحصن وعجزوا عن منعهم من عمارته، لأن الأصناف والآلات إنما تحضر في البحر، ألجأهم الحال إلى عمارة برج بالقرب منه، بقرية، تسمى ميعار. وجرد خمسون راجلاً بالبدل، فما أفاد ذلك ولا أغنى غناء.

ولما شاهد مولانا السلطان هذا الحصن، على هذه الصورة من الحصانة والمنعة، وأن البرج المبنيّ قبالته ضرّ بانيه وما نفعه، وأن حصاره لا يمكن لكونه في البحر، وما للمسلمين مراكب تقطع عنه الميرة، ولا تمنع الداخل إليه ولا الخارج منه، وأن أمره يطول ومسألته تعول، وأن الأمر الذي منه بدأ إليه يعود، وأن افتتاحه بجنود التدبير لا بالجنود. فسيّر إلى صاحب طرابلس، فقال له أن العساكر قد تفرغت وما بقي لها إلا أنت، وهذا البرج أنت عمرته في الحقيقة، ولولا اعانتك لما بُني، وأنت المؤاخذ به، فإما أن يهدم وإلا أخذنا قبالته من بلادك ما لا ينفعك في الدفع عنه صاحب مرقية، وتندم حيث لا ينفعك الندم، ويكشف الغطاء ويُسترد العطاء. فلما علم الابرنس هذا التصميم العظيم[1]، وتحقق ما يترتب على هذا القول من إخراب بلاده وحصونه وتلاف أحواله، وأن ملك البسيطة وجيوشه العظيمة على أبواب مدينته، وانه بربوعه قد خيّم، وأن القصد له أو هدم هذا الحصن قد تحتم، توصل في تسليمه وهدمه، وأرضى صاحبه بما وصلت قدرته إليه بجملة من المال وتمليك ضياع بعد صعوبة من صاحب مرقيّة. وكان ولد صاحب مرقيّة قد حضر متخفياً إلى أبواب مولانا السلطان، وتدرك تحصيله هذا الحصن وتسليمه لمولانا السلطان، وتوجه إلى عكا مختفياً على البريد، فأمسكه

---

(1) اعيد له هنا لقبه الذي انكر عليه قبلها على انه الصاحب السابق لانطاكية.

أهل عكا، واتصل خبره بأبيه فحضر من طرابلس إلى عكا وتسلّمه وقتله بيده في وسط عكا، وبطل ذلك السعي، وبعد ذلك وافق على تسليمه بوساطة الابرنس وأذعن وأجاب إلى تسليمه للمسلمين. وسيّر الابرنس جماعة من الفرنج للمساعدة في هدمه، فكانوا – كما قال الله تعالى – [يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين][1]. وسيّر صاحب طرابلس شخصاً من أعيان أصحابه، للحضور على هدمه، مقدماً للجماعة المسيرين من الفرنج لذلك، ومزيلاً للاعتذار في استدعاء آلات الهدم من حديد وغيره. وجُرّد الأمير بدر الدين بكتاس النجمي، أمير جاندار، وصحبته ماية حجّار[2]، لهدمه. وكان الأمير الأسفهسلار ركن الدين طقصُو المنصوري، وصحبته جملة من العساكر: المجردين قبالة جبلة. فرسم مولانا السلطان له ولهم بالحضور إلى قبالة البرج، للمساعدة والمعاضدة على هدمه، فهدم حجراً فحجراً، وما أبقى الاجتهاد له عيناً ولا أثراً، وذلك بعد تعب عالت المعاول من شدته، وقست الحجارة من حدتّه، وتضرجت القوى من مدته، ولطف الله في إزالة آثارها وإذالة قرارها، وكفى الله المؤمنين شره، وكف ضُرّه، وأبطل مكره، وبقي مكانه في قلوب الكفار حسرة.

سقوط طرابلس

(أبو الفداء، 162)

.. إن السلطان الملك المنصور قلاوون خرج بالعساكر المصرية في المحرم من هذه السنة (688/شباط/فبراير 1289) وسار إلى الشام، ثم سار بالعساكر المصرية والشامية، ونازل مدينة طرابلس الشام يوم الجمعة مستهل ربيع الأول (25 آذار/مارس). ويحيط البحر بغالب هذه المدينة، وليس عليها قتال في البر إلا من جهة الشرق، وهو مقدار قليل. ولما نازلها السلطان نصب عليها عدة كبيرة من المجانيق الكبار والصغار ولازمها بالحصار واشتد عليها القتال حتى فتحها

(1) قرآن (مريم) الآية 2 السورة 59 (الحشر)

(2) يتراوح المعنى بين قطاعي الاحجار ورماة الاحجار.

يوم الثلاثاء رابع ربيع الآخر من هذه السنة (27 نيسان/ابريل) بالسيف، ودخلها العسكر عنوة، فهرب أهلها إلى الميناء فنجا آقلهم في المركب، وقتل غالب رجالها وسبيت ذراريهم وغنم منها المسلمون غنيمة عظيمة.

ولما فرغ المسلمون من قتل أهل طرابلس ونهبهم، أمر السلطان، فهدمت ودكت إلى الأرض. وكان في البحر قريباً من طرابلس جزيرة وفيها كنيسة تسمى كنيسة سنطمان (سان توماس) وبينها وبين طرابلس الميناء، فلما أخذت طرابلس هرب إلى الجزيرة المذكورة وإلى الكنيسة التي فيها عالم عظيم من الفرنج والنساء، فاقتحم العسكر الإسلامي البحر، وعبروا بخيولهم سباحة إلى الجزيرة المذكورة: فقتلوا جميع من فيها من الرجال وغنموا جميع من فيها من النساء والصغار والمال. وهذه الجزيرة، بعد فراغ الناس من النهب عبرت إليها في مركب فوجدتها ملاء من القتلى وقد جافت بحيث لا يستطيع الإنسان الوقوف فيها من نتن القتلى. ولما فرغ السلطان من فتح طرابلس وهدمها، عاد إلى الديار المصرية... فيكون مدة لبثها (لبث طرابلس) مع الفرنج نحو ماية سنة وخمس وثمانين سنة وشهوراً[1].

(مقرزي، 746 – 487)

في يوم الخميس عاشر المحرم (4 شباط/فبراير 1289) خيّم السلطان بظاهر القاهرة، ورحل في خامس عشره. واستخلف ابنه الملك الأشرف خليلاً بالقلعة[2]، والأمير بيدرا نائباً عنه ووزيراً، وكتب عند الرحيل إلى سائر ممالك الشام بتجهيز العساكر لقتال طرابلس. وسار إلى دمشق فدخلها في ثالث عشر صفر، وخرج منها في العشرين منه إلى طرابلس فنازلها، وقد قدم لنجدة أهلها أربعة شواني من جهة متملك قبرص. فوالى (السلطان) الرمي بالمناجيق عليها والزحف والنقوب في الأسوار، حتى افتتحها عنوة في الساعة السابعة من يوم الثلاثاء رابع ربيع الآخر[3]، بعد ما أقام عليها (1190) أربعة وثلاثين يوماً، ونصب عليها تسعة

---

(1) بحسب التقويم الهجري القمري (502—688) أي 180 سنة شمسية (1109—1280)

(2) قلعة جبل المقطم مقر السلاطين في القاهرة.

(3) في المخطوطة "الأول" تُصلح من نفس السياق وبحسب أبو الفداء.

عشر منجنيقاً، وعمل فيها ألف وخمسمائة نفس من الحجارين والزراقين. وفرّ أهلها إلى جزيرة تجاه طرابلس، فخاض الناس فرساناً ورجالاً وأسروهم وقتلوهم وغنموا ما معهم، وظفر الغلمان والأوشاقية بكثير منهم كانوا قد ركبوا البحر[1] فألقاهم الريح بالساحل، وكثرت الأسرى حتى صار إلى زردخاناه السلطان ألف ومائتا أسير.

واستشهد من المسلمين الأمير عز الدين معن، والأمير ركن الدين منكورس الفارقاني، وخمسة وخمسون من رجال الحلقة، وأمر السلطان بمدينة طرابلس فهدمت، وكان عرضُ سورها يمر عليه ثلاثة فرسان بالخيل، ولأهلها سعادات جليلة منها أربعة آلاف نول قزازة. وأقر (السلطانُ بلدةَ) جبيل مع صاحبها على مال أخذه منه، وأخذ بيروت[2] وجبلة وما حولها من الحصون.

وعاد (السلطان) إلى دمشق في نصف جمادى الأولى، واستقرّ العسكر على عادته بحصن الأكراد مع نائبه الأمير سيف الدين بلبان الطباخي. ونزل اليزك إلى طرابلس من حصن الأكراد وأضيف إلى الطباخي، واستقر معه خمسمائة جندي وعشرة أمراء طبلخاناه، وخمسة عشر أمراء عشرات، وأقطعوا إقطاعات. ثم عمر المسلمون مدينة بجوار النهر فصارت مدينة جليلة، وهي التي تُعرف اليوم بطرابلس.

(1) تذكر المخطوطة 'من الافرنج' وأحسن Quatremere بتصليحها.

(2) الواقع أن سقوط هذه المدينة أقدم بسنتين من سقوط عكا. راجع بعدها.

- 3 -

في عام 1291 اكمل الاشرف بن قلاوون عمل ابيه الذي مات وهو يحضر الحملة على عكا وكذلك عمل كل اسلافه في حربهم على الغزاة المسيحيين. وقد روى ابو الفداء الوقائع الدموية التي تم بواسطتها استعادة عكا بعد مقاومة عازمة. وكان ابو الفداء قد شارك في تلك العملية في تبع السلطان وتتكامل روايته مع "داوي صور" التي شكلت أهم مصدر غربي حول الأحداث التي أدت إلى نهاية السيادة المسيحية على الأراضي المقدسة. أما مذبحة الكفرة التي نفذت بحق المدافعين الابطال بعد استسلامهم فجاءت أخبارها عن أبو المحاسن وهو مؤرخ مصري متأخر وهي ترتبط بمذبحة مماثلة قام بها قبل قرن من الزمان ريتشارد قلب الأسد ضد أسرى مسلمين بعد أن حنث بوعوده لهم. وبتطبيق هذا القانون القديم ينسدل الستار على الفصل الأخير من مأساة الحروب الصليبية.

سقوط عكا

(ابو الفداء، 162-163)

في هذه السنة في جمادى الآخرة (690/1291) فتحت عكا وسبب ذلك أن السلطان الملك الأشرف سار بالعساكر المصرية إلى عكا وأرسل إلى العساكر الشامية وأمرهم بالحضور وأن يحضروا صحبتهم المجانيق فتوجه الملك المظفر صاحب حماة وعمه الملك الأفضل[1] وسائر عسكر حماة صحبته إلى حصن الأكراد. وتسلمنا منه منجنيقاً عظيماً يسمى المنصوري، حمل مائة عجلة ففرقت

(1) هما ابن عم وأب المؤلف الذي سيصبح بدوره صاحب حماة.

في العسكر الحموي. وكان المُسلم إلي منه عجلة واحدة، لأني كنت إذ ذاك أمير عشرة[1]. وكان مسيرنا بالعجل في أواخر فصل الشتاء فاتفق وقوع الأمطار والثلوج علينا بين حصن الأكراد ودمشق فقاسينا من ذلك بسبب جر العجل وضعف البقر وموتها بسبب البرد شدة عظيمة. وسرنا بسبب العجل من حصن الأكراد إلى عكا شهراً. وذلك مسير نحو ثمانية أيام للخيل على العادة. وكذلك أمر السلطان الملك الأشرف بجر المجانيق الكبار والصغار ما لم يجتمع على غيرها. وكان نزول العساكر الإسلامية عليها في أوائل جمادى الأولى من هذه السنة (أوائل أيار/مايو 1291) واشتد عليها القتال ولم يغلق الفرنج غالب أبوابها، بل كانت مفتحة وهم يقاتلون فيها. وكانت منزلة الحمويين برأس الميمنة على عادتهم، فكنا على جانب البحر والبحر عن يميننا إذا واجهنا عكا. وكان يحضر إلينا مراكب مقبية بالخشب الملبس جلود الجواميس وكانوا يرموننا بالنشاب والجروخ، وكان القتال من قدامنا من جهة المدينة ومن جهة يميننا من البحر. وأحضروا بطسة فيها منجنيق يرمي علينا وعلى خيمنا من جهة البحر. فكنا منه في شدة، حتى اتفق في بعض الليالي هبوب رياح قوية فارتفع المركب وانحط بسبب الموج وانكسر المنجنيق الذي فيه بحيث أنه انحطم ولم ينصب بعد ذلك. وخرج الفرنج في أثناء مدة الحصار بالليل وكبسوا العسكر، وهزموا اليزكية، واتصلوا إلى الخيام وتعلقوا بالأطناب، ووقع منهم فارس في جورة مستراح بعض الأمراء فقتل هناك، وتكاثرت عليهم العساكر فولى الفرنج منهزمين إلى البلد. وقتل عسكر حماة عدة منهم. فلما أصبح الصباح علق الملك المظفر صاحب حماة عدة من رؤوس الفرنج في رقاب خيلهم التي كسبها العسكر منهم، وأحضر ذلك إلى السلطان الملك الأشرف. واشتدت مضايقة العسكر لعكا، حتى فتحها الله تعالى لهم في يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة (17 حزيران/يونية 1291) بالسيف. ولما هجمها المسلمون هرب جماعة من أهلها في المراكب. وكان في داخل البلد عدة أبرجة عاصية بمنزلة قلاع دخلها عالم عظيم من الفرنج وتحصنوا بها. وقتل المسلمون وغنموا من عكا شيئاً يفوت الحصر من كثرته. ثم استنزل السلطان جميع من عصى بالأبرجة ولم

(1) درجة من الدرجات الأولى في ترتيب الاقطاعية.

يتأخر منهم أحد، فأمر بهم فضربت أعناقهم عن آخرهم حول عكا[1]. ثم أمر بمدينة عكا فهدمت إلى الأرض ودكت دكاً.

ومن عجائب الاتفاق أن الفرنج استولوا على عكا وأخذوها من صلاح الدين ظهر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة واستولوا على من بها من المسلمين ثم قتلوهم فقدر الله عز وجل في سابق علمه أنها تفتح في هذه السنة في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة على يد السلطان الملك الأشرف صلاح الدين[2].

لما فتحت عكا ألقى الله تعالى الرعب في قلوب الفرنج الذين بساحل الشام، فأخلوا صيدا وبيروت، وتسلمها الشجاعي في أواخر رجب (آخر آب/اغسطس). وكذلك هرب أهل مدينة صور فأرسل السلطان وتسلمها، ثم تسلم عثليث في مستهل شعبان (30 آب/اغسطس)، ثم تسلم أنطرطرس في خامس شعبان. جميع ذلك في هذه السنة أعني سنة تسعين وستمائة.

واتفق لهذا السلطان من السعادة ما لم يتفق لغيره من فتح هذه البلاد العظيمة الحصينة بغير قتال ولا تعب. وأمر بها فخربت عن آخرها. وتكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية الإسلامية، وكان أمراً لا يطمع فيه ولا يرام. وتطهر الشام والسواحل من الفرنج بعد أن كانوا قد أشرفوا على أخذ الديار المصرية وعلى ملك دمشق وغيرها من الشام. فلله الحمد والمنة على ذلك.

(ابو المحاسن 24v 25r)

ولمّا استهلّت سنة تسعين وستّمائة أخذ الملك الأشرف في تجهيزه إلى السفر للبلاد الشامية، (وإتمام ما كان قصده والده من حصار عكّا، وأرسل إلى البلاد الشاميّة)[3]، وجمع العساكر وعمل آلات الحصار، وجمع الصنّاع إلى أن تمّ أمره. خرج بعساكره من الديار المصريّة في ثالث شهر ربيع الأوّل من سنة تسعين المذكورة

---

(1) لايذكر ابو الفدا الامان الذي اعطاه السلطان للمدافعين ثم نكث به وقتلهم. راجع فيما يلي رواية ابي المحاسن حول هذا.

(2) اي انه كان يحمل مثل سلفه الكبير لقب صلاح الدين.

(3) زائد عن غابرييلي

(6 اذار/مارس 1291)، وسار حتّى نازل عكّا في يوم الخميس رابع شهر ربيع الآخر، ويوافقه خامس نيسان (ابريل)، فاجتمع عنده على عكّا من الأمم ما لا يحصى كثرة. وكان المتطوّعة أكثر من الجند ومن في الخدمة. ونصب عليها المجانيق الكبار الفرنجيّة خمسة عشر منجنيقا، منها ما يرمي بقنطار دمشقيّ وأكبر، ومنها دونه. وأمّا المجانيق الشيطانيّة وغيرها فكثير، ونقب عدّة نقوب. وأنجد أهل عكّا صاحب قبرس بنفسه، وفي ليلة قدومه عليهم أشعلوا نيرانا عظيمة لم ير مثلها؛ فرحا به، وأقام عندهم قريب ثلاثة أيام، ثم عاد عند ما شاهد انحلال أمرهم، وعظم ما دهمهم.

ولم يزل الحصار عليها والجدّ في أمر قتالها إلى أن انحلّت عزائم من بها وضعف أمرهم واختلفت كلمتهم. هذا والحصار عمّال في كلّ يوم، واستشهد عليها جماعة من المسلمين.

فلمّا كان سحر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى[1] ركب السلطان والعساكر وزحفوا عليها قبل طلوع الشمس، وضربوا الكوسات فكان لها أصوات مهولة وحسّ عظيم مزعج. فحال ملاصقة العسكر لها وللأسوار؛ هرب الفرنج وملكت المدينة بالسيف. ولم تمض ثلاث ساعات من النهار المذكور إلّا وقد استولى المسلمون عليها ودخلوها؛ وطلب الفرنج البحر فتبعتهم العساكر الإسلاميّة تقتل وتأسر فلم ينج منهم إلّا القليل؛ ونهب ما وجد من الأموال والذخائر والسلاح، وعمل الأسر والقتل في جميع أهلها. وعصى الدّيويّة والإسبتار واسبتار الأرمن في أربعة أبراج شواهق في وسط البلد فحصروا فيها. فلمّا كان يوم السبت ثامن عشر الشهر، وهو ثاني يوم فتح المدينة، قصد جماعة من الجند وغيرهم الدار والبرج الذي فيه الدّيويّة، فطلبوا الأمان فأمّنهم السلطان وسيّر لهم صنجقا، فأخذوه ورفعوه على برجهم وفتحوا الباب. فطلع إليهم جماعة كثيرة من الجند وغيرهم. فلمّا صاروا عندهم تعرّض بعض الجند والعوامّ للنهيب، ومدّوا أيديهم إلى من عندهم من النساء والأصاغر، فغلّق الفرنج الأبواب ووضعوا فيهم السيف، فقتلوا جماعة من المسلمين، ورموا الصّنجق وتمسّكوا بالعصيان، وعاد الحصار عليهم. وفي

---

(1) (جمادى الثاني – لدى غابريلي). يسوق النص هنا وفيما بعد "الأولى" (راجع الهامش 467). نلاحظ أيضاً في التواريخ التالية عدم توافق بين ايام الشهر وايام الاسبوع.

اليوم المذكور نزل من كان ببرج الإسبتار الأرمن بالأمان فأمّنهم السلطان على أنفسهم وحريمهم على يد الأمير زين الدين كتبغا المنصوري. وتمّ القتال على برج الدّيوية ومن عنده إلى يوم الأحد التاسع عشر من جمادى الأولى[1] طلب الدّيويّة ومن بقي في الأبراج الأمان، فأمّنهم السلطان على أنفسهم وحريمهم على أن يتوجّهوا حيث شاءوا. فلما خرجوا قتلوا منهم فوق الألفين وأسروا مثلهم، وساقوا إلى باب الدّهليز النساء والصّبيان، وكان من جملة حنق السلطان عليهم مع ما صدر منهم أن الأمير آقبغا المنصوري أحد أمراء الشام كان طلع إليهم في جملة من طلع فأمسكوه وقتلوه، وعرقبوا ما عندهم من الخيول، وأذهبوا ما أمكنهم إذهابه؛ فتزايد الحنق عليهم. وأخذ الجند وغيرهم من السّبي والمكاسب ما لا يحصى.

ولمّا علم من بقي منهم ما جرى على إخوانهم تمسّكوا بالعصيان، وامتنعوا من قبول الأمان وقاتلوا أشدّ قتال، واختطفوا خمسة نفر من المسلمين ورموهم من أعلى البرج فسلم منهم نفر واحد ومات الأربعة. ثم في يوم الثلاثاء ثامن عشرين[2] جمادى المذكورة أخذ البرج الذي تأخر بعكا، وأنزل من فيه بالأمان، وكان قد علّق من سائر جهاته. فلمّا نزلوا منه، وحوّلوا معظم ما فيه، سقط على جماعة من المسلمين المتفرّجين وممّن قصد النّهب فهلكوا عن آخرهم. ثمّ بعد ذلك عزل السلطان النساء والصّبيان ناحية وضرب رقاب الرجال أجمعين، وكانوا خلائق كثيرة.

والعجب أن الله سبحانه وتعالى قدّر فتح عكّا في مثل اليوم الذي أخذها الفرنج فيه، ومثل الساعة التي أخذوها فيها، فإنّ الفرنج كانوا استولوا على عكّا[3] في يوم الجمعة سابع عشر[4] جمادى الآخرة [سنة سبع وثمانين وخمسمائة] في

---

(1) يسوقها غابرييلي: (الأحد 20 جمادى الثاني)

(2) يسوقها غابرييلي (ثامن عشر)

(3) في 587/1191 بعد الحصار الشهير. راجع ماجاء في هذا الكتاب عن "استيلاء العدو على عكا".

(4) يقول غابرييلي (17 جمادى الثاني). كما يكرر أن فتح عكا تم في شهر جمادى الأولى. لكن ملاحظة التوافق مع الفتح الأول على يد صلاح الدين (17 جمادى الثاني) ترجح كفة رواية أبو الفدا القائلة بـ "جمادى الثاني"، هذا ان لم يكن هو بالذات قد أخل بالتوافق عن قصد. وعلى ماتقبل بواحد من هذين التاريخين فإن مأساة عكا تكون قد حدثت في أيار/مايو أو حزيران/يونية من 1291.

الساعة الثالثة من النهار، وأمّنوا من كان بها من المسلمين ثم قتلوهم غدرا، وقدّر الله تعالى أنّ المسلمين استرجعوها منهم في هذه المرة يوم الجمعة في الساعة الثالثة من النهار، ووافق السابع عشر من جمادى الأولى[1]، وأمّنهم السلطان ثمّ قتلهم كما فعل الفرنج بالمسلمين، فانتقم الله تعالى من عاقبتهم.

وكان السلطان عند منازلته عكّا قد جهّز جماعة من الجند مقدّمهم الأمير علم الدين سنجر الصوابي الجاشنكير[2] إلى صور لحفظ الطّرق وتعرّف الأخبار، وأمره بمضايقة صور. فبينما هو في ذلك لم يشعر إلّا بمراكب المنهزمين من عكّا قد وافت الميناء التي لصور، فحال بينها وبين الميناء؛ فطلب أهل صور الأمان فأمّنهم على أنفسهم وأموالهم ويسلّموا صور فأجيبوا إلى ذلك، فتسلّمها. وصور من أجلّ الأماكن ومن الحصون المنيعة، ولم يفتحها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب فيما فتح من الساحل، بل كان صلاح الدين كلّما فتح مكانا وأمّنهم أوصلهم إلى صور هذه لحصانتها ومنعتها، فألقى الله تعالى في قلوب أهلها الرّعب حتّى سلّموها من غير قتال ولا منازلة، ولا كان الملك الأشرف في نفسه شيء من أمرها البتّة.

وعند ما تسلّمها جهّز إليها من أخربها وهدم أسوارها وأبنيتها، ونقل من رخامها وأنقاضها شيء كثير. ولمّا تيسر أخذ صور على هذه الصورة قوي عزم الملك الأشرف على أخذ غيرها (من أراضي الفرنجة)[3].

---

(1) يسوق غابرييلي: جمادى الثاني.

(2) يقول غابرييلي إن "الذواق" "النجات" هي من تسلسل الألقاب الفينيقية في القصر.

(3) أي بيروت وصيدا والثليث وطرطوس التي أخذت كلها أو أخليت دون حرب في صيف نفس العام ذلك كما رأينا في أبي الفدا. لكن جزيرة أرواد مقابل طرطوس بقيت في يد الداوية حتى عام 1303.

فهرس الأعلام والبلدان

ز

س

ش

غ

ف

ك

ل

م

نماذج المرحلة الأولى

من الكتاب العربي

نماذج من صور طبق الأصل (فوتوكوبي) وميكروفيلم التي شكلت أساس هذا العمل المضني القائم على صور الصفحات الأصلية التي جمعتها من أصولها في مكتبة مؤسسة كايتاني للدراسات الاسلامية Fondazione Cactani Per gli studi musulmani في روما، ثم رتبتها بحسب ماوردت في كتاب غابريلي الإيطالي. قمت بعدها بترجمة كل ماكتبه غابرييلي من مقدمات وهوامش وفهارس وأضفتها إلى هذا العمل. كما أضفت إلى النصوص العربية المقتطفة التواريخ الميلادية التي وضعها غابرييلي إلى جانب التواريخ الهجرية الموجودة في النصوص الأصلية.

نحو صلاة العصر ...

وأحرق أهل القرى التي من الفرنج، فوجد في رماة فارس

وأعطى أرنون [illegible] تشاهيه، وألقى إلى الطاقي في خيمة مرجال، وحمل

إليه المسلمون ما نحدوه، فلم يأخذ منهم، إلا ما لا يناسبه المرأة

الإسلام، ورد عليهم ما خلق وأسره.

ولما حضر الأسرى بين يدي أتابك الزنكي، كان فيهم رجل عظيم

الخلقة مشهور بالقوة والبأس، وكان يعرف فيهم قاتل السلاطين، فلما

حضر بين يدي أتابك قال له الزنكي: أما تستحي بأمرأة مثل

هذا الضعيف وأمثالك مثل هذا الحمد؟ فقال: والله ما أخرجني

[منصور] منه؟ ولا عن مولاي، فلما أخلفني رجل عظيم الخلق مني وأقوى، ثم

وسلمني إلى هذا، وكان هذا ... أقصر ... فرس أخضر ...

(... العرشي ... ص ...)

[illegible]



موجز سيرة المترجم

نبيل رضا المهايني
Nabil R. Mahaini

- من مواليد دمشق 1944.
- أقام في ايطاليا للدراسة ثم العمل بين عامي 1963 و1986.
- تخرج عام 1969 من فرع ديكور المسرح والتلفزيون في أكاديمية الفنون الجميلة في مدينة فلورنسة،
- ثم تخرج عام 1973 باختصاص علوم الرأي العام - إخراج تلفزيون وسينما من جامعة الدراسات الاجتماعية في روما.
- عمل قبلها وبعدها في مجالات التلفزيون والسينما في ايطاليا.
- ومراسلاً لكثير من المجلات الأدبية والعامة العربية، من فلورنسة وروما.
- ترجم وقتها وفيما بعد عدة كتب عن الايطالية. وقد نشر كثير منها في بيروت ودمشق.
- أخرج كثيراً من الأفلام التلفزيونية في مختلف المجالات الوثائقية والإرشاد الزراعي، حاز بعضها على جوائز في مهرجانات دولية وعربية.
- يعمل منذ عام 1983 خبيراً لدى الصندوق الدولي للتنمية الزراعية- إيفاد، في روما بداية ثم في دمشق.
- يعمل الآن كممثل ميداني لإيفاد في سورية.





فتح القدس وحصار عكا وسقوط طرابلس وصدى أحداث سوريا في بغداد: هذه وغيرها وقائع تاريخية تم تسجيلها بأمانة من قبل المؤرخين العرب خلال قرنين من الحروب الصليبية. وقد تمّت ترجمة تلك الروايات عن القتال بين المسلمين والمسيحيّين إلى لغات أوروبية متعددة، ممّا مكّن القارئ الغربي من التعرف إلى «الجانب الآخر» في تلك الحروب المقدسة.

«المؤرّخون العرب للحروب الصليبية»، كتاب «قديم» و«حديث» في آن واحد. إنه كتاب عن الحروب الصليبية بقلم مؤرخي العهد، وقد لبس لباس عصرنا وتحلى بروحه. قام غابرييلي في هذا الكتاب بإعادة صياغة مواضيع عمله صياغة افتراضية، فوازى وقارن ودمج مواد مختلف المؤلفات التي كتبها مسلمون في ذلك العهد عن تاريخ ذلك العهد، واستخلص مقاطع من مؤلفات سبعة عشر مؤرّخاً مسلماً؛ منها ما هو تاريخيّ بحت، ومنها ما هو سجلات مدن ومناطق وسلالات حاكمة، ومنها ما لا يعدو عن كونه سيراً ذاتية أو سيراً لبعض الشخصيات، أو حتّى وصفاً لا يخلو ممّا قد يسمّى اليوم بأنّه «بورنوغرافي» لأحوال نساء تطوّعن وركبن البحار وجئن للترفيه عن الجنود.

تشهد كلّ هذه المقاطع على أنّ المؤرخين العرب تمكنوا من مقارعة أقرانهم الغربيين في تجميع المعلومات المادية والتاريخية وسردها. هذا فضلاً عمّا امتازوا به من صدق التوصيف وإيجاز البيان وألمعيّة الصورة التي يرسمون بها قادة العدو: فهناك دهاء بالدوين الثاني، وبراعة ريتشارد قلب الأسد الحربية، وإقدام المركيز كونراد، ودبلوماسية فريدريك الثاني. هناك أيضاً بطبيعة الحال سخاء الأخبار التي تشيد بأبطال المقاومة الإسلامية، وخاصة صلاح الدين الأيوبي الذي استعلى فوق كلّ الزعماء الآخرين، واحتلّ مكانة بطولية خارقة بينهم.

هذا كتاب عن الحروب الصليبية، يقدّم رؤية عربية ووجهة نظر شاملة ومثيرة عن الحروب الصليبية. وإنّ نشره بالعربية سيساعد القارئ العربي هذه المرة على معرفة شيء عن الرؤية الغربية المعاصرة لمجمل تلك الحقبة من الزمن. إذاً، إنه كتاب عن الحروب الصليبية بقلم مؤرخين عرب لتلك الحقبة، لكنّه منسق ومنظّم بطريقة علمية حديثة، ومن قبل غربيّ يحاول أن يكون موضوعياً في رؤيته وعمله.

يقال إنّ الجنرال غورو عندما دخل دمشق في بداية الغزو الفرنسي لسورية صرخ أمام ضريح صلاح الدين قائلاً: «انهض يا صلاح الدين، فقد عاد الفرنجة». والواقع أن بلادنا العربية تشهد اليوم فترة عصيبة لا تخلو من بعض امتدادات الغزو الإفرنجي الذي اجتاحها إبان الحروب الصليبية. ومن هنا أهمية ظهور مثل هذا الكتاب في هذه الفترة من التاريخ.

ولد **فرانشيسكو غابرييلي** في روما في 27 نيسان / إبريل 1904. وكان من المستشرقين وعلماء العربية. وهو ابن جوزيبه غابرييلي أمين مكتبة «أكاديمية لينشي». تعلّم العربية من أبيه، قبل أن يدرس الأدب العربي الكلاسيكي في جامعة روما ليتخرج منها بأطروحته عن أبي الطيّب المتنبي.

عمل غابرييلي بين 1928–1935 محرراً في الموسوعة الإيطالية، ثم عمل بين عامي 1935 و1938 أستاذاً في جامعة نابولي الشرقية. في عام 1938، أصبح أستاذ اللغة العربية والأدب العربي في جامعة روما، وبقي في هذا العمل حتى تقاعد عام 1979. لكنه بقي مهتماً بالدراسات العربية حتى وفاته عام 1996.



facebook.com/ASPArabic

twitter.com/ASPArabic



ISBN 978-614-01-1392-3



جميع كتبنا متوفرة على ... في مكتبة نيل وفرات ...
www.nwf.com



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

